المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

الوادى السعيد — صمويل چونسون

شبح كانترفيل — أوسكار وايلد

صورة دوريان جراى — أوسكار وايلد



لويس عوض

روايات مترجمة

روايات مترجمة
(الوادى السعيد، شبح كانترفيل، صورة دوريان جراى)

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٢٦٥/٢
- روايات مترجمة:
  (الوادى السعيد، شبح كانترڤيل، صورة دوريان جراى)
- صمويل جونسون، أوسكار وايلد
- لويس عوض
- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة ثلاث روايات:

1- Rasselas, Prince of Abissinia
by Samuel Johnson
2- The Canterville Ghost
by Oscar Wilde
3- The Picture of Dorian Gray
by Oscar Wilde

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت. ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel 27354524-2735426 Fax. 27354554

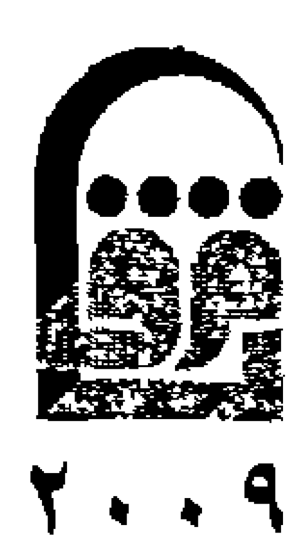
روايات مترجمة

(الوادى السعيد، شبح كانترفيل، صورة دوريان جراى)

تأليـــف: صمويل جونسون

أوسكـــار وايلـــد

ترجمـــة: لويـــس عـــــوض



٢٠٠٩

رقم الإيداع: ١٠٦٢٢ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولى: 1 - 280 - 479 - 977 - 978
طبع بمطابع مصر للطيران

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المقدمة

- ١ -

فى عام ١٩٤٦ اتفقت مع دار الكاتب المصرى ، وكان مستشارها يومئذ الدكتور طه حسين ، على ترجمة روايتين عن الإنجليزية من اختيارى لتصدرا ضمن مطبوعات الدار المذكورة ، وكانت دار الكاتب المصرى قد أصدرت الطبعة الأولى من ترجمتى لرواية أوسكار وايلد الشهيرة « صورة دوريان جراى » التى اختارها للدار الدكتور طه حسين ، وقد ترجمتها برغم احتجاجى على هذا الاختيار ، نزولا على إرادة أستاذنا طه حسين ، وقد أسست هذا الاعتراض على اعتبارين : الاعتبار الأول أن أوسكار وايلد هو زعيم مدرسة « الفن للفن » فى الأدب الإنجليزى ، وبرغم تقديرى لموهبته واعترافى بمكانته فى الأدب الإنجليزى كنت أوثر أن أخصص جهدى ووقتى لترجمة أديب آخر ممن يؤمنون مثلى بالأدب فى سبيل الحياة . أما الاعتبار الثانى فهو أنى ، من حيث المبدأ ، لا أحب أن أتصدى لعمل يمكن لغيرى أن يتقنه ، ولم أكن أرى فى عمل أوسكار وايلد صعوبة خاصة تحتاج إلى علم أستاذ فى الجامعة مختص فى اللغة الإنجليزية وآدابها . وحين عرضت على طه حسين أن أترجم لدار الكاتب المصرى « الفردوس المفقود » للشاعر ميلتون ، ضحك أستاذنا وقال : إنك تريدهم أن يفلسوا ، لا تنس أن الناشرين تجار .

وبعد أن صدرت « صورة دوريان جراى » ، كان لابد أن أختار ما يليها ، وبعد تفكير قررت أن أقوم بدور المعلم بطريقة عملية . لقد كان فن الرواية فى مصر حتى نهاية الحرب العالمية الثانية قائماً على الاجتهاد ، كان هذا الفن قد

اجتـاز مرحلة الخطر ، ما بين « زيـنب » وبدايات نجيب محـفوظ عبـر توفيق الحكيم وطه حسين ، وكـانت « الترجمـة » الفنية فى الفن القـصصى تكاد أن تكون مقصورة على جهود محمد السـباعى فى نقل القصة القصيرة الأوروبية ، وخاصة عن موباسـان وتشيكوف ، إلى اللغة العربية ، أما « التـرجمة » الفنية للرواية فلم تعرفها العربية فى تلك الفترة إلا فى ترجمة الزيات « لآلام فيرتر » وترجمـة أحمد الصاوى محمد لروايتى أناتول فرانس « تاييس » و « الزنـبقة الحمراء » ، ولم يكن أحد يعد ترجمة « البؤساء » لفكتور هيجو ، ولا ترجمة المنفلوطى « لمجدولين » الفونس كـار و « بول وفيرجينى » لبرناردان سـان بيير ترجمة بأى مـعنى حقيقى . كانت « بـؤساء » حافظ إبراهيم عملا رائعـا حقًا ولكنها كانت عمل حـافظ إبراهيم لا عمل فكتور هيجو ، وكان حجـمها نحو واحـد على مائة من النص الأصلى ، أمـا مـترجـمات المنفلوطى فـقد كـانت نصوصًا رائعـة فى النثر العربى ، وكانـت الغذاء اليومى لشباب الـعشرينات ، وربما لشباب الثلاثينات ، ولكنها أيضا كـانت « بقلم » المنفلوطى لا بقلم مؤلفيها الحقيقيين ؛ من أجل هذا كانت هذه الآثار العظيـمة نماذج رائعة فى فن « الاقتباس » لا فى « الترجمة » .

ولا شك أن العربـية خلال العـشرينات والثـلاثينات عرفت عـشرات من النماذج فى ترجمة الرواية من نقولا يوسف إلى عـمر عبد العزيز أمين ، عرفت ترجمـة الرواية بالمعنى المتعـارف عليه ، غيـر أن هذه الترجـمات عن إسكندر دوماس وميشيل زيفاكو وتشارلز ديكنز وكونان دويل والكونتيسة أوركزى . . إلخ كانت إمًا نقلاً تغلب عليه العجلة والركـاكة لبعض روائع الأدب العالمى ، يختفى فـيـه « الأدب » ولا يبـقى إلا السـرد والحـوار والوصف ، وإمـا نقـلا لروايات المغامـرات المثيرة التى يقبل عليـها الناس لإزجاء الفـراغ ولكنها عديمة القيـمة من الناحية الأدبية ، ومع ذلك فقد كانت هذه الروايات المثيرة هى المدرسة الأولى التى

تعلم فيها المصريون « فن الرواية » أكثر مما تعلموه من جهود حافظ إبراهيم والمنفلوطى لأنها برغم قصورها ، حافظت على هيكل الروايات المنقولة ، ومن خلالها تعلم من يريد أن يتعلم كيف يكون السرد ، وكيف يكون الحوار ، وكيف يكون الوصف ، وكيف يكون بناء الشخصية . من خلال هذه الترجمات الساذجة لنصوص بعضها ساذج وبعضها شامخ ، تعلم من يريد أن يتعلم « تكنيك الرواية » كما يمارسونه فى التقاليد الأوروبية التى أخذنا عنها فن الرواية .

ومع هذا فقد بقيت الرواية مظلومة ، فقد بقى أن يظهر لها رعيل من المترجمين الفنيين الذين لا يتصدون إلا للروائع الأدبية من ناحية ، ولا يشاطرون الروائيين تأليف رواياتهم حين يترجمونها من ناحية أخرى ، كما فعل محمد عثمان جلال وحافظ إبراهيم والمنفلوطى . ثلاثة أركان كان ينبغى أن تتوافر : اختيار روائع الرواية فى الأدب العالمى ، وأمانة النقل فى حرص شديد ، وورفعة العبارة العربية أو جودتها على أقل تقدير ، بحيث تدخل الترجمة فى إطار الأدب كما دخل النص فى إطار الأدب فى لغته الأصلية ، بهذا وحده يمكن للروائي العربى الناشئ أن يتعلم شيئًا كثيراً عن فن الرواية دون إحاطة باللغات الأجنبية . بعبارة أخرى : كنا بحاجة إلى تجديد التقاليد الأدبية التى أرساها فى فن الترجمة العربية أحمد حسن الزيات وأحمد الصاوى محمد . إن محمد حسين هيكل وتوفيق الحكيم وطه حسين لم يكونوا بحاجة إلي « نماذج » من الرواية مترجمة إلى العربية لينشئوا ما أنشأوا فى فن الرواية لأن طريقهم إلى الأصول كان طريقًا مفتوحًا نتيجة لإتقانهم اللغات الأجنبية ، أما الأجيال الجديدة من الأدباء الشبان الذين لم يتح لهم علم هيكل وتوفيق الحكيم وطه حسين فقد كانوا بحاجة حقيقية إلى هذه النتائج ، إن لم يكن لحسن الإنشاء فلحسن التذوق على أقل تقدير .

وهذا كان دور دار الكاتب المصرى : فتح هذه المدرسة الجديدة لشباب الأربعينات ، وكان طه حسين خير رائد لهذه المدرسة ، بتوجيهه نشرت دار

الكاتب المصرى نماذج من آثار فولتير وستندال ودوستويفسكى وأوسكار وايلد وأندريه جيد وهـ . ج . ولز والدوس هكسلى وسانت أكز ويبرى وغيرهم . ولو أتيح لهذه الدار أن تستمر أكثر من عامين لفعل بها طه حسين فى الأربعينات من القرن العشرين ما فعله الطهطاوى بمدرسة الألسن فى الأربعينات من القرن التاسع عشر .

وكان أهم درس تلقيته فى تجربة تقديمى لأوسكار وايلد هو أنى بعد أن قدمت لدارسى الأدب عملا نموذجيا يمثل مدرسة الفن للفن ، كان من واجبى أن أقدم لهم أعمالاً نموذجية تمثل بقية مدارس الأدب : الرواية الكلاسيكية ، والرواية الرومانتكية ، والرواية الطبيعية ، والرواية الواقعية ، والرواية القائمة على تيار الوعى . وبدأت بالرواية الكلاسيكية فاخترت نموذجاً لها هذه الرواية التى نسيمها « الوادى السعيد » لصمويل جونسون ، وهى من آثار القرن الثامن عشر فى الأدب الإنجليزى ، واسمها الأصلى : « الرأس إيلاس : أمير الحبشة » وبعد أن انجزت ترجمتها فى باريس فى صيف ١٩٤٦ ، اخترت عملا آخر يمثل نموذجاً من المدرسة الطبيعية ، أو الناتورالية كما يسمونها ، وكان هذا العمل هو رواية ضخمة فى خمسمائة صفحة ، هى رواية « إستر ووترز » Esther Waters لجورج مور George Moore ، من النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وقد فرغت من ترجمتها ، إذا لم تخنى ذاكرتى ، فى ربيع ١٩٤٧ ، أو قبيل ذلك ، وقد بدأت بالنموذج الكلاسيكى ثم بالنموذج الناتورالى ، لأن الرواية الكلاسيكية والرواية الناتورالية كانتا حتى ذلك الوقت مجهولتين تماماً فى العربية ، وأجلت النموذج الرومانتيكى لأن قارئ « آلام فيرتر » The Sorrows of Werther لجوته Goethe كان يستطيع أن يجد فى ترجمة الزيات مثلا حياً منها يعينه على تفهم منهج الرومانسيين فى بناء الرواية ، وبعد أن وقعت عقد « إستر ووترز » مع دار الكاتب المصرى أغلقت الدار أبوابها فى ظروف غير طبيعية ، وصفت مطبوعاتها ، وتنازلت فى صفقة التصفية عن كل مخزونها من الكتب وعن عقودها مع

المترجمين والمؤلفين لمكتبة الخانجى ، وبعد فترة شرعت مكتبة الخانجى فى نشر « إستر ووترز » لجورج مور تحت اسم تجارى هو « المعذبات فى الأرض » ، وبعد أن طبعت نحو ثلثمائة صفحة ضاع منها نحو خمسين صفحة من مخطوط هذا الكتاب فتوقفت عن الطبع ، وكنت يومئذ فى أمريكا فكتب إلىّ نجيب الخانجى يستأذن فى استئجار مترجم يترجم الصفحات الضائعة حتى يتمكن من طبع بقية الرواية ، ولكنى رفضت رفضًا باتًا خشية أن يرزأنى بمترجم جاهل بأسرار اللغة الإنجليزية يدسّ علىّ أخطاء فى الترجمة تسىء إلى سمعتى واستمهلته فى إتمام طبع الكتاب حتى عودتى من أمريكا ، فلما عدت بعد سنة أو نحوها اكتشفنا أن المطبعة قد أضاعت المائتى صفحة الباقية فى المخطوط وهكذا أسدل الستار على ترجمتى « لإستر ووترز » لجورج مور وعلى محاولتى تعريف الناس بالمدرسة الناتورالية فى الآداب الأوروبية ، ولكن لعل هناك بعض العزاء فى أن رسول الناتورالية وسيدها الذى لا ينازع ، ألا وهو إميل زولا Emile Zola ، صاحب « الأرض » La Terre و « جيرمينال » Germinal و « بنت الحان » L.Assomoir (حَرْفيًا : « مفقدة الوعى » ، يقصد الخمر » وبقية دراساته الروائية فى الوراثة المعروفة بسلسلة « روجون ماكار » Rougon Macquart ليس غريبا عن شطئان مصر أو عن قراء العربية .

أما « الوادى السعيد » ، أو على الأصح « الرأس إيلاس : أمير الحبشة » ، فقد نجت من الضياع ؛ لأنى لم أكن قد تعاقدت عليها بعد ، حين صفيت دار الكاتب المصرى ، فألقيت مخطوطها فى أدراجى نحواً من خمس وعشرين سنة ، بين ذاكر وناس ، أحفل بها ولا أحفل لأنى من أولئك القوم الذين لا يلتفتون كثيراً إلى الوراء ، بل يؤثرون دائمًا النظر إلى الغد قبل الأمس ، حتى قيض الله لها دار المعارف لتنشر صحائفها المطوية ، فعسى ألا نكون قد ارتكبنا وزراً عظيماً بنبش هذا الماضى البعيد ، وقد ترجم هذه الرواية الأستاذ الدكتور مجدى وهبة ونشرت ترجمته دار المعرفة منذ نحو عشر سنوات .

وصمويل جونسون Samuel Gohnsou مؤلف « راســيلاس » Rasselas ، أى « الرئيس إيلاس » هـو أعظـم نـاقـد فى تـاريـخ الأدب الإنجليزى بلا منازع ، أما فى باب الأدب الإنشائى فليس له إلا شعر قليل متوسط القيمة ، وهذه الرواية القصيرة ، وهى من ضرب « النوفيلو nouvello » وهى كذلك متوسـطة القيمة برغم أنها تمثل علامة من علامات الطريق فى تاريخ الرواية الإنجليزية .

ولد صمويل جونسون فى بـلدة ليتشفيلد Lichfield بمقاطعة ستافورد شاير Staffordshire بإنجلترا فى ١٨ سبـتمبر ١٧٠٩ وتوفى فى لندن فى ١٣ ديســمبر ١٧٨٤ عن ثلاث وسبعين سنة ، وكان أبوه مايكل جونسون Michael Johnson من مواطنى ليتشـفيلد البارزين ، المرتاحى الحال ، فقد كـان ينتمى إلى الطبقة المتوسطة التى لا تعـرف الثراء الفاحش ولا خصاصـة العيش ، وكان وراقـًا ، أى صاحب مكتبة ، ذكـر عنه ابنه جونسون فيما بعد أن وراقتـه ، أو مكتبته « درت عليه شـيئا ولكن لم تدر عـليه ما يكفى » كـذلك كان الأب مايكل جـونسون مأمورا لبلدة ليتشفيلد وقت ولادة صـمويل ، وكان الأب رجلا متدينا محافظـًا ، ذا ميول سـياسية مـتشيعة للملكيـة المطلقة ، قيل عنه إنه كـان من أشياع الملك المعزول جيمس الثانى James II الذى خلع فى ثورة ١٦٨٨ لأنه أحيا نظرية حق الملوك الإلهى في حكم إنجلترا وجنـح بالكنيسة الإنجليزية إلى شىء قـريب جدًا من الكثلكة ، فاجتمعت كلمـة حـزب « التورى » Tory (المحافظين) وحزب « الهويج » Whig (الأحرار) على خلعه فى الثورة البيضاء عام ١٦٨٨ ، تلك الثـورة التى عـرفت فى تاريخ إنجلتـرا « بالحل الوسط العظيم » أو « التـوفـيق العظيم » Grand Gompromis لأنها قامت على تراضى المحافظين والأحرار على صيغة وسطى هى إقامة حكم البلاد على « الملكية المقيدة » بدلا من إقامته على الملكية المطلقـة أو إقامتـه على النظام الجمهـورى ، وبذلك نزل المحافظون عن تطرفهم ونزل الأحرار عن تطرفهم والتقوا فى منتصف الطريق .

أما أم صمويل جونسون فقد كان اسمها سارة Sarah ، بنت كورنيليوس فورد Cornelius Ford وهو من صغار الملاك في مقاطعة واريكشاير Warwick-shire ، وكانت امرأة تقية تميل إلى الكالفينية في الدين Calvinism وهو مذهب متطرف من مذاهب البروتستانتية أسسه المصلح الديني كالفن Calvin يقوم على الإيمان بالجبر ويرفض أن يكون الإنسان مختاراً في هذه الدنيا ويعلق كل شيء ، حتى الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة ، على ما يسمى « نعمة الله » . والأم هي التي قامت على تنشئة ولدها صمويل من الناحية الدينية .

وكان صمويل جونسون منذ طفولته معتل الصحة كليل البصر ، وكان مصاباً بداء كان يسمى « داء الملك » وهو سل في غدد الرقبة ،وكان من الخرافات الشائعة وقتئذ أن هذا الداء يشفى بلمسة من الملك ، وهكذا حملت مسز جونسون طفلها صمويل ، وكان يومئذ في الثالثة من عمره ، إلى لندن عام ١٧١٢ ، ومثلت في حضرة الملكة آن Queen Anne التي تفضلت على الطفل باللمسة الملكية ، ولكن دون أثر إلا ما بقي في خيال صمويل جونسون من ذكريات غامضة عن طفولته الباكرة عن « سيدة مرصعة بالماس تلبس كبوداً أسود طويلا » ثم التميمة الذهبية التي لفتها الملكة حول عنقه وظل يحملها إلى يوم وفاته .

وفي ١٧١٧ دخل الغلام صمويل جونسون مدرسة ليتشفيلد حيث بدأ تعلمه اللغة اللاتينية ، وأبدى استعداداً للتعلم عظيماً برغم ما أثر عنه من كسل وميل للتسويف في أداء واجبات المدرسة ، فلما انتقل إلى الدراسة الثانوية كان أستاذه في اللاتينية ناظر المدرسة ، توماس هنتر Thomas Hunter ، وكان جهبذاً في مادته ولكنه كان مؤدباً قاسياً يجلد تلاميذه بالسياط « لينقذهم من المشنقة » كما كان يقول . قال صمويل جونسون عنه فيما بعد : « كان أستاذي يجيد جلدي ، ولولا هذا ، ياسيدي ، لما حققت شيئاً » .

وبعد أن أتم جونسون دراسته الثانوية تفرغ لمعاونة أبيه في مكتبته ، ولكنه كان يزاول القراءة فيها أكثر مما كان يزاول البيع والشراء ، وقد [illegible] هذه فترة

تكونه الحقيقية ، وكان يغوص فى كتب القدماء ، لا يجذبه من الكتب إلا كل جاد ورفيع . قال : « لا كتب الرحلات والأسفار ياسيدى ، ولكن كلها أدب فى أدب ، كلها من كتب القدماء ، كلها من أعمال الرجال » ، فلما التحق بجامعة أكسفورد عام ١٧٢٨ ، وهو فى التاسعة عشرة من عمره كان يعرف أكثر من أقرانه .

واللغز فى حياة صمويل جونسون هو : كيف أتيح للكتبى المتواضع مايكل جونسون أن يدخل ابنه جامعة أكسفورد التى كانت ولاتزال معقلا من معاقل الأرستقراطية الإنجليزية وسراة القوم ؟ ومهما يكن من شىء فقد بدأت متاعب صمويل جونسون المالية تتجلى وهو فى أكسفورد وظهرت عليه الخصاصة ، ثم عجز نهائيًا عن استكمال دراسته بسبب سوء حالته المالية فترك الجامعة فى ديسمبر ١٧٢٩ بعد عام وبعض العام من الدراسة ، تركها بغير شهادة جامعية أو أى مؤهل يعينه على الحياة ، وكسدت تجارة أبيه ثم توفى فى ١٨٣١ فلم يرث صمويل جونسون من تركته إلا عشرين جنيهًا نزح بها إلى برمنجهام بعد تجربة مريرة مر بها كمدرس مساعد فى مدرسة أولية ، وفي برمنجهام عاونه صديق من أصدقائه على ترجمة كتاب من الفرنسية إلى الإنجليزية لقاء خمسة جنيهات ، وكان هذا الكتاب هو : « رحلة إلى الحبشة » بقلم الأب جيزوم لوبو Jerome Lobo وفى أثناء مقامه فى برمنجهام تزوج جونسون فى ١٧٣٥ من أرملة اسمها إليزابيث تكبره بعشرين عامًا ، جاءته بدوطة قدرها سبعمائة جنيه ، فأنشأ فى بلدة قريبة من مسقط رأسه مدرسة داخلية يتعلم فيها أبناء الأشراف اليونانية واللاتينية ، وكان بين تلاميذه الممثل العظيم دافيد جاريك David Garrick ، ولكنه أغلق مدرسته بعد عامين لقلة التلاميذ .

وقرر جونسون أن ينزح إلى لندن طلباً للعيش والمجد ، فنزح إليها عام ١٧٣٧ مع تلميذه دافيد جاريك الذى سطع اسمه فى عالم المسرح كما سطع اسم جونسون فى عالم الأدب ، وفى لندن بدأ جونسون جهاده الأدبى فساهم فى

تحرير مجلة جديدة يومئذ اسمها « جنتلمانز ماجازين » Gentlemans Magazine أى « مجلة الجنتلمـان » أسسها عـام ١٧٣١ رجل يدعى إدوارد كيف Edward Cave وفى أوائل ١٧٣٧ عاد إلى ليـتشفيلد حيث أتم تراجـيديا باسم « إيرين » Irene كان قد بدأها أيام مدرسـتـه ورجع بزوجته إلى لندن ، و « إيرين » مأساة استقاهـا جـونسون من « تاريخ الترك » لرتشارد نولز Richard Knowles حول قصة السلطان محمد الثانى (الفاتح) مع عذراء يونانية اسمها إيرين .

وهكذا اشتغل جونســون الصحافة فى صدر حيـاته وفى ١٧٣٨ نشر غفلا من التوقيع قصيدته المعروفة : " لندن " ، وهى هجاء للفساد السياسى فى عصره على غرار هجائيـات الشاعر اللاتينى الكبيـر جوفينتال Juvenal فنجحت نجاحاً عظيماً ، وامتدحها پوب Alexander Pope سيد شعراء العصر ، وصدرت منها ثلاث طبعات ، ولكنها لم تعد على جـونسون إلا بعشرة جنيهات ، ولم تكن حياة الصحفى فى ذلك العـصر تنقذ صاحبها من الفاقـة ، فحاول جونسون أن يعود إلى التدريس والمحاماة ، ولكنه فشـل لفقدانه المؤهل الجامعى اللازم لهذه أو ذاك ، وكان يعاون « مجلة الجنتلمان » فى تدوين خـلاصة لمحاضر جلسات مجلس العمـوم ومجلس اللوردات فكان « يفبرك » هذه المحاضـر فى لغة أدبية رائعة وينسب إلى رجال السياسة أقوالا وخطبًا من تصوره وكان شديد الاحتقار للأسرة المالكة - أسرة أورانج Orange ثم أسرة هانوفر Hanover (الهولندية ثم الألمانية) الأجنبية التى آل إليها ملك إنجلترا بعد طرد ورثته الشرعيين من آل ستورات Stuart أى بعد خلع جيمس الثانى James عام ١٦٦٨ ، كذلك كان جونسون يمقت حكم الوزير الشهير روبرت والبول Robert Walpol رئيس وزراء إنجلترا الذى أثر عنه قـوله المعروف بالإشارة إلى أعضاء البـرلمان البريطانى : « لكل ثمنه » وكانت آراء جونسون السياسـية تسبب لمجلة « جنتلمانز ماجازين » بعض الحرج .

وفى السنوات العشر الأولى من إقامة جونسون فى لندن ، نشأت بينه وبين الشاعر ريتشارد سافدج Richard Savage صداقة عميقة ، وكان سافدج شاعراً وممثلاً وشريكًا لجونسون فى كثير من آرائه السياسية وأخًا فى الفقر والمسغبة ، وما أكثر ما كانا يتجولان الليالى الطويلة حول الميادين المحيطة بوستمنستر Westminster مقر البرلمان البريطانى لا يملكان أجر سرير فى بلدروم ، فلما مات سافدج سنة ١٧٤٤ جاشت عاطفة جونسون فى دراسته الشهيرة « سيرة ريتشارد سافدج » The life of Richard Savage التى نشرها غفلا من التوقيع فى ١٧٤٤ ، وكانت فيما بعد نواة لكتابه الأشهر « سيرة الشعراء الإنجليز » Lives of the English Poets وهذه السيرة من أروع ما خط بيان كاتب فى باب السير فى جميع اللغات وفى كل العصور . وقد وصفها الروائى العظيم هنرى فيلدنج Henry Fielding بأنها أروع رسالة فى اللغة الإنجليزية عن فضائل الإنسان ورذائله ، كذلك ظهر اهتمامه بالمسرح ، وكان تلميذه الممثل جارى قد شق طريقه فى عالم الأضواء بسرعة سريعة ، فلمع فى ١٧٤١ ، وما حل عام ١٧٤٧ حتى كان جاريك صاحب امتياز مسرح « دورى لين » Drury Lane ، أشهر مسارح لندن فى ذلك العهد وفى ١٧٤٥ نشر جونسون دراسته الشهيرة « ملاحظات على تراجيديا ماكبث » وهى الدراسة التى ذهبت مثلا بين النقاد على موقف النقد الكلاسيكى من الدراما الشكسبيرية ، وساعد جاريك أستاذه جونسون على عرض مسرحيته وهى مأساة « إيرين » عام ١٧٤٩ ، وقد استمر عرضها تسع ليال ، ولم يتجاوب معها الجمهور لأنها من مسرحيات الخاصة .

وفى ١٧٤٦ كان جونسون قد اكتسب هيبة بين أهل العلم والتعليم ، برغم ضآلة موارده المالية ، فاتفقت جماعة من الناشرين على اختياره لإعداد « قاموس اللغة الإنجليزية » يشتركون جميعًا فى تمويله ووقعوا مع جونسون عقد هذا القاموس عام ١٧٤٦ ، وفى العام التالى نشر جونسون « خطة القاموس » وفى ١٧٤٩ أيضًا أصدر جونسون قصيدته الثانية المعروفة « عبث أمانى الإنسان »

The Vanity of Human Wishes وصور فيها أن كل مسعى إنسانى فى الحرب والسياسة والعلم والفلسفة هو باطل الأباطيل وقبض الريح ، كما كان يقول سليمان الحكيم . . ولم يكف عقد القاموس ولا المجد الأدبى الذى أصابه فى تحسين حالته المادية ، فأصدر فى ١٧٥٠ ولمدة عامين مجلة دورية باسم « ذا رامبلر » The Rambler ، أى « الجوال » أو « الجواب » ، وكانت هذه المجلة عبارة عن فرخ واحد من الورق يصدر مرتين كل أسبوع ، ويحتوى على مقال واحد بقلم جونسون غفل من التوقيع ، وكانت المجلة تباع ببنسين ، ولم يكن هذا شيئًا مستحدثاً فى تاريخ الأدب ، لأن كل من درس تاريخ الصحافة يعرف أن الكاتبين الإنجليزيين الكبيرين أديسون Addison وستيل steele قد سبقاه إلى ذلك بسنوات حين أصدرا مجلتهما الشهيرة « ذا سبكتاتور » The Spectator على هذا الغرار ، أى بالمقال الإنشائى عماداً للصحيفة أو المجلة ولا شيء آخر غير ذلك ، فوضعا بروعة الإنشاء أساس ما يسمى « بأدب المقال » وهكذا حذا جونسون حذوهما ومضى ينشر العدد بعد العدد من مجلة « ذا رامبلر » حتى انطوى عامان ، وكان يكتب فى موضعات الأخلاق والاجتماع والسياسة والأدب ، فيطالب آنًا بإلغاء عقوبة الشنق على اللصوصية، أو يصف بؤس حياة البغايا أو يصور أحداث الحياة الأدبية . . إلخ ، وتوقفت « الرامبلر » ، وساءت صحة جونسون وأصيب بنوبة من الكآبة عندما ماتت زوجته إليزابيث ، ولا أحد يعرف كيف كانت حياته الزوجية مع هذه المرأة التى كانت تكبره بعشرين عامًا ، ولكن يظن أن هذا الزواج غير المألوف كان يقوم على الحب الهادئ والإعجاب المتبادل ، ويظن أن زوجته إليزابيث عندما تقدمت بها السن أدمنت الشراب وبعض المخدرات ، ولا شك أن هذا كله كان مصدر انزعاج شديد لجونسون ، وبعد أن توفيت زوجته بثلاثين عاماً وضع جونسون على قبرها شاهداً من رخام يقول باللاتينية : « Formosa, Gulta, Ingenuosa, Pia أى « جميلة ، مهذبة ، ماهرة ، وتقية » فلما سئل فى ذلك أجاب : « فى النقش على شاهد القبر لا يؤدى المرء يمين الشهادة » .

أما وضع « قاموس اللغة الإنجليزية Dictionary of the enghlish Language » فقد استغرق ثمانى سنوات ونصف سنة ، وفرغ منه جونسون عام ١٧٥٥ بمعاونة عدد من السكرتيرين ، والقاموس لا يشتمل إلا على ٤٠,٠٠٠ مادة ، ولكنه فى إتقانه وضبط معانيه وخصوبة شواهده وذكاء شروحه وتعليقاته كان درة القرن الثامن عشر . و« قاموس » جونسون لا يذكر اليوم إلا للتندر بما ورد فيه من طرائف تقوم مقام الشروح مثل قوله فى تعريف القرطم : « نوع من الحبوب يقدم عادة للخيل فى إنجلترا ، وتأكله عامة الناس فى اسكتلندا » ، وحين صدرت الطبعة الأولى من القاموس كانت جامعة أوكسفورد قد منحت جونسون درجة الماجستير فى الآداب تقديراً له على مقالاته فى مجلة « الرامبلر » فتوج هذا المحروم من المؤهل الجامعى صفحة الغلاف من قاموسه بهذا اللقب الأكاديمى يزدان به اسمه ، وكان اللورد تشسترفيلد Lord Chesterfield وهو من صفوة النبلاء الأدباء أصحاب التأملات والأساليب فى القرن الثامن عشر ومن رعاة الأدباء فى عصر التنوير ، قد أبدى اهتمامًا برعاية « قاموس » اللغة الإنجليزية فى بداية وضعه ، ولكنه لم يلبث أن أهمله تمامًا ، ولم يعن صاحبه بشىء ، فلما صدر الجزء الثانى (والأخير) من « القاموس » حيّاه اللورد تشسترفيلد بمقالين فى مجلة « ذا ورلد The Woird » أى (العالم) تحية سخية ، ووصف جونسون بأنه « الدكتاتور الأعظم للغة الإنجليزية » بمعنى أنه سيدها الذى لا ترد له كلمة ولا يخالف له رأى ، فبعث إليه جونسون برسالة شهيرة تفيض بالمرارة والتهكم يقول فيها لسيدى اللورد : « إن الاهتمام الذى تفضلتم وأسبغتموه على جهودى ، لو أنه تجلى مبكراً لكان عطفًا ، ولكنه تأخر حتى فقدت اكتراثى به ، ولم أعد أغتبط له ، تأخر حتى بت وحيداً فلا أجد من أحدثه عنه ، حتى غدوت مشهوراً فلا حاجة بى إليه » .

وهكذا غدا جونسون علمًا من أعلام العلم والأدب فى إنجلترا ، وبرغم هذا لم تنقذه شهرته من حياة الضنك التى كان يحياها . وفى مارس ١٧٥٦ قبض عليه

فى دين قيمته خمسة جنيهات وثمانية عشر شلنًا ، ولم ينقذه من السجن إلا الروائى صمويل ريشاردسون Samuel Richardson ، صاحب « باميلا : أو جزاء الفضيلة » Pamela, or Virtue Rewarded ، وأحد أقطاب الفن القصصى في إنجلترا فى القرن الثامن عشر ، فقد أرسل إليه ريتشاردسون ستة جنيهات ، فلم يجد جونسون مناصًا من العودة إلى مزاولة الصحافة ، وأخذ يكتب المقدمات لكتب عديمة القيمة لقاء المال ، ومضى لسنوات يكتب المقالات فى السياسة والأدب والأخلاق والإصلاح الاجتماعى ، بعضها لمجلة « ذا ليترارى ماجازين » The Literary Magazine لمجلة « ذا يونيفرسال كرونيكل » The Universal Chronicle (شىء قريب من « أخبار العالم ») تحت عنوان جامع هو « ذا ايدلر » The Idler (أى المتسكع) ، وكانت بعض آرائه السياسية ثاقبة ومتمردة على روح عصره ، فقد كان كثير التنديد بالاستعمار الإنجليزى والاستعمار الفرنسى ولاسيما فى أمريكا ، وكان يصف خلاف إنجلترا وفرنسا حول المستعمرات الأمريكية بأنها « شجار بين لصين على سلب المارة » . ولم ير فرقًا بين المستوطنين فى سلام والمستعمرين بقوة السلاح ، ولخص الفرق بينهما بأنه الفرق بين « نشال يخرب بيتك فى صمت ونهاب يغتصب بالقوة » ولم يخف أن يعلن أن الاستعمار الفرنسى كان أقدر من الاستعمار الإنجليزى على اختيار الحكام الصالحين للمستعمرات .

وفيما كان جونسون مشغولا بمقالات « المتسكع » (الأيدلر) جاءه النبأ بأن أمه مريضة مرض الموت ، وبرغم رقة حاله بعث لها باثنى عشر جنيهًا فى ١٣ يناير ١٧٥٩ ، ولكنه كان يعلم علم اليقين بأنه سوف يحتاج عاجلا إلى مزيد من المال لمواجهة نفقات جنازة أمه ، فأرسل إلى الناشر ستراهان Strahan يستعطفه أن يزوده بثلاثين جنيها ثمنًا لرواية يكتبها اسمها « اختيار الحياة أو سيرة أمير الحبشة » ، وكانت هذه رواية « راسيلاس : أمير الحبشة » Rasselas, Prince of Abyssinia

أو الرأس إيلاس » ، هذه التى يجدها القارئ بين يديه تحت عنوان « الوادى السعيد » ، وهكذا أكب جونسون كل مساء أسبوعًا كاملا على كتابة رواية « الرأس إيلاس » ، وليس فى ذهنه إلا شيء واحد : إيجاد نفقات جنازة أمه .

ومنذ ١٧٥٦ أعلن جونسون عن مشروعه الأكاديمى الثانى ، ألا وهو إصداره لطبعة جديدة من شكسبير من تحقيقه وتعليقه ، وجمع لذلك الاشتراكات اللازمة لإصدار الطبعة ، ولكن يبدو أن ما جمعه كان غير كاف ، لأنه استمر فى ضنكه المالى ، وقد استغرق إعداد هذه الطبعة الجونسونية نحو تسع سنوات ، وصدرت أخيراً فى ١٧٦٥ فى ثمانية مجلدات ، ولم يكن جونسون أول محقق لشكسبير فقد سبقه إلى ذلك كثيرون كان أهمهم بنتلى Benltgey فى القرن السابع عشر ، وبوب Pope وواربرتون Warburton فى القرن الثانى عشر ، وقد ساهم كما ساهموا فى تصحيح نصوص شكسبير المغلوطة ، وجلوا بعض ما فى مفرداته من غموض فى المعنى . وقد منحته كلية ترينتى ، بدبلن درجة الدكاتوراه فى القانون عام صدور طبعته من شكسبير ، وجاء تقدير جامعة أكسفورد متأخراً ، فلم تمنحه جامعته الدكتوراه إلا بعد عشر سنوات .

ولكن متاعب جونسون المالية انتهت تماماً قبل صدور طبعته من شكسبير بثلاث سنوات ، ففى ١٧٦٢ أبلغ جونسون أن الملك جورج الثالث يرغب فى منحه معاشاً قدره ٣٠٠ جنيه سنويًا فأسقط فى يده . إن قبول هذا المعاش كان بداية عهد استقرار حقيقى فى حياته ، ولكن جونسون هو القائل فى قاموسه الشهير فى تعريف مادة « معاش » Pension « المعاش مبلغ يعطى لأجير من أجراء الدولة مكافأة له على خيانة وطنه » ، وبالطبع لم يكن هذا هو التعريف الحقيقى للمعاش ، فقد درجت الدولة فى إنجلترا فى زمن جونسون وقبل زمن جونسون على منح معاشات سنوية للنابهين من أبناء إنجلترا تقديراً لما قاموا به من جهود فى خدمة الوطن أو الخدمة العامة أو خدمة الفنون والآداب والعلوم ، ولكن تعريف جونسون للمعاش فى قاموسه كان تعليقًا سياسيًا ساخراً على فساد الحكم فى زمنه

وتوسع «والبول» فى إغلاق المعاشات على غير المستحقين من أنصاره أو من المتملقين ، وكان لجونسون أصدقاء من أصحاب الحظوة فى البلاط مثل اللورد بيوت Lord Bute والفنان العظيم سير جوشوا رينولدز Sir Joshua Reynolds فاستشارهما فى الأمر فأكدا له أن المعاش المعروض عليه منحة من الملك على ما أدى فى الماضى من خدمات للعلم والأدب وليس ثمنًا لشىء يمكن أن يطلب منه فى المستقبل ، فاستراح ضميره وقَبِلَ المعاش .

وفى ١٧٦٣ تعرف جونسون بأهم رجل دخل محيط حياته ، ألا وهو جيمس بوزويل James Boswell كاتب « سيرة صمويل جونسون » The Life of Samuel Johnson الشهيرة التى أصبحت أشهر سيرة كتبت لأديب فى تاريخ الأدب الإنجليزى ، وربما فى تاريخ كل الآداب . تعرف جونسون على بوزويل مصادفة فى دكان كتبى فى كوفنت جاردن Govent Garden ، وكان بوزويل الشاب ابن قاض من نبلاء استكلندا يدعى اللورد أوكنليك Lord Auchinleck ، وكان قد أتم دراسته فى جامعة ادنبره ثم فى جامعة جلاسجو ، ثم نزح إلى لندن ليستمتع بمباهج العاصمة وبفنونها ، وكان حلم حياته أن يقابل كبار الأدباء وأن يكتب شيئا يبقى ذكره . وكان مفتونًا بكتابات جونسون متحرقًا للقائه ، وفى هذا اللقاء الأول كان جونسون ملك الحديث اللاذع جافًا فى حديثه معه وبرغم ذلك لم ييأس الشاب بوزويل ، بل زاره فى داره بعد أسبوع واستقبله جونسون متهكمًا بقوله « إنى مدين لأى أنسان يزورنى » . وجلس بوزويل بين يدى جونسون يستمع إلى تعليقاته وخواطره كالمسحور فقد كان جونسون سيد المحدثين فى عصره ، وما لبث جونسون أن فتح قلبه لبوزويل ، فقد كان يحب صحبة الشباب ، ونشأ بين الرجلين ود صادق فتلازما ، وكانا يخرجان معًا للعشاء فى « حانة المايتر Mitre Tavern » ويتنزهان معًا على نهر التيمس . وبناء على نصيحة جونسون بدأ بوزويل يدون يومياته ، وكانت هذه اليوميات فيما بعد هى ذلك الكتاب العظيم الذى دون

بوزويل فيه أقوال جونسون بحذافيرها وداخل إطارها عبر نحو عشرين سنة ، ورسم له صورة لا تقل خلوداً عن لوحة سير جوشوا رينولدز له ، فخرج منه جونسون عملاقاً سقط ظله الجسيم على الحياة الأدبية فى إنجلترا فبدا كل من حوله كالأقزام .

الصالونات الأدبية وفن الحديث - هذه كانت سمة الحياة الأدبية فى إنجلترا فى القرن الثامن عشر عصر الأرستقراطية ، وحين كان جونسون طالبًا فى أكسفورد لمع بذكاء حديثه وذكاء عبارته ، ولكن فقره كان أقوى من ذكاءه ، فانسحب من الجامعة قبل أن يستوفى علومه ، وفى لندن لم يكن جونسون من السراة حتى يفتح بيته صالونًا للأدباء ، فجعل عام ١٧٥٠ من حانة إيفى لين ناديا أدبيا عرف باسم Ivy Lane club فكان يجلس فى مقعده فى الحانة ومن حوله أصدقاؤه ينصتون لأحاديثه فى الأدب والمجتمع والأخلاق ، وفى ١٧٦٤ اشترك جونسون مع سير جوشوا رينولدز ، فى إنشاء أشهر ناد فى لندن باسم « النادى The Club » وكان من بين أعضائه الأوائل المفكر الكبير أدموند بيرك Edmund Burke والأديب الكبير أوليفر جولد سميث Oliver Goldsmith وغيرهما من أعمدة المجتمع المثقف ، وقد كانت أعظم لحظة فى حياة بوزويل هى يوم قبوله عضواً فى ذلك النادى بعد مرور تسع سنوات بإصرار من جونسون ، كذلك تعرف جونسون فى هذه الفترة على هنرى ثريل Henry Thrale وزوجته مسز ثريل Mrs. Thrale ، واسمها بالميلاد Hester Lynch وعرفت بعد ذلك باسم مسز بيوتزى Mrs Piozzi لأن هستر بعد أن ترملت فى هنرى ثريل تزوجت من موسيقى إيطالى اسمه « جابرييل بيوتزى » وكان هنرى ثريل، من سراة البورجوازية الإنجليزية يملك مصنعاً للبيرة ، وكان عضواً في مجلس العموم عن دائرة سذك Southwark ، وكانت زوجته مسز ثريل من ألمع سيدات المجتمع اللندنى ، وكان صالونها ملتقي لأذكى العقول وأرقى السلوك ، وأصبح جونسون ضيفًا دائمًا على آل ثريل ، وخصصوا له غرفة دائمة

فى دارهما فى ستريتهام Streatham وأخرى فى دارهما فى سذك ، وكانت مسز ثريل ذات أطماع أدبية تكتب يوميـات عاشت فى تاريخ الأدب الإنجليزى وتعرف باسم « ثريليانا »Thraliana وهى ككتاب بوزويل أحد مصادرنا الهامة عن الدكتور جونسون وعصره ، وحين مات هنرى ثريل باعت زوجته هستر مصنع البيرة بمبلغ ١٣٥,٠٠٠ جنيه ثم باعت دار سـترتهام فى ١٧٨٢ وانتـقلت إلى دار فى أرجيل ستريت ، وفى هذه الدار خـصصت هستر أيضاً غـرفة دائمة لجونسون أقام فـيها حتى تزوجت هســتر زواجها الثـانى من بيوتزى الموسيـقى فى ١٧٨٤ ، وهو عام وفاة جونسون . صـحبة جميلة دامت عشرين عامـاً بين جونسون وآل ثريل عرف فيها مـعنى الراحة والرعاية والحب والحنان ، والأطباق الشهـية تخرج من مطابخ السراة الرهيبة إلى موائدهم العامرة .

ولم يكن جونسون كثير الأسفار خارج رحلاته المتقطعة إلى بلدته ليتشفيلد وإلى أكسفورد وبيرمنجهـام ، فلما بلغ الرابعة والستين (فى ١٧٧٣) أقنعه بوزويل أن يقوم معه برحلة يزور فيها اسكتلنـدا وجزرها الغربية ، وقد كان ثمرة هذه الرحلة كتـابان كتاب لجـونسون اسمــه « رحلة إلى الجزر الغـربية » Journey to The Western صدر فى ١٧٧٥ ، وكـتاب لبوزويل اسـمه « يوميـات رحلة إلى جزر الهبريديز » Jornal of a Tour The Hebrides Islands صدر فى ١٧٨٥ بعد وفاة الدكتـور جونسون وكأنما كـانت هذه فترة الرحـلات فى حياة جونســون فقد خرج أيضا مع آل ثريل فى رحلتين طويلتين احـداهما فى ١٧٧٤ إلى شمال ويلز ، أما الثانية فكانت إلى فرنسا وكان جونسون يعرف الفرنسية ، ومع ذلك فقد آثر أن تكون لغـة التفـاهم بينه وبين أسـاتذة السوربون هى الـلغة اللاتينيـة ، وقد كـان جونسون من أعلم العـارفين بها فى أوروبا قاطبة ومن أهم مـلاحظاته على الحياة الفرنسية سـعة الفجوة بين الأغنياء والفقـراء وخلو فرنسا من طبقة متـوسطة كبيرة تملأ هذا الفراغ .

وقرب نهاية عمره أصدر جونسون أهم كتاب فى حياته وهو « سير الشعراء الإنجليـــز » Lives of the English Poets مـــا بين ١٧٧٧ و ١٧٨١ . هذا الكتاب هو عمدة النقـد الأدبى فى القرن الثامن عشر ومنه تستمد أكـثر معايير المذهب الكلاسيكى الحديث فى الأدب وفنونه ، و هو عبارة عن أبحاث متفرقة عن شعـراء إنجلترا : مـلتون Milton ودرايدن Dryden وبوب Pope وكاولى Cowley وجراى Gray وجميس تـومسون James Thomson ووليم كولنز William Collins وسويفت Swift وكونجـريف Gongreve وجون جـاى John Gay إلى جانب أربعين شاعراً آخرين من عـصر جونسون وما قبله أقل حظاً من الشـهرة الأدبية مـثل والر Waller وأكنسايد Akenside وشنستون Shenstok وداير Dyer وماليت Mallet وتيكل Tickell وبارنيل Parnell . . إلخ كـان ثلاثة من الناشرين يـتلقفـون هذه الدراسات ليـطبعـوها كمـقدمـات لدواوين الشعـراء الإنجليز ، ثم جـمعت هذه أخيـراً فى كتـاب واحد لا يربط أجزاءه إلا وحدة موضوعه .

هذه نبذة عن سيرة الدكتور صمـويل جونسون مؤلف « الرأس إيلاس : أمير الحـبشـة » الذى كان فى زمـانه أعظم النقـاد الإنجليز ، والحـاكم المطلق فى دولة الأدب ، يرفع الشعـراء بكلمة ويسـحقهـم بكلمة ، ويصغى النـاس لما يقول فى احتشـاد شديد ، ولم تعرف لندن قبل أوسكار وايلد غـير الدكتور جـونسون ملأ نواديها وصـالوناتها وحاناتهـا بالأحاديث الرائعة والسـخريات البارعة والتـأملات العميقة فى الأدب والأخلاق والاجتماع والسياسة .

لويس عوض

القاهرة ١٩٧١

الفصل الأول

وصف قصر فى واد

إلى من يستمعون إلى نجوى الخيال فيومنون بها إيمانهم بصوت الحقيقة ، وإلى من يطاردون أطياف الأمل فى لهفة وحماسة فيحسبون أن الشيخوخة تؤتى ثمار الشباب ، وأن الغد يعوض عن حاجات اليوم ، إلى هؤلاء جميعاً أسوق قصة الرأس إيلاس أمير الحبشة .

كان الرأس إيلاس الابن الرابع للإمبراطور الذى ينبع من دولته النيل ، أبو الأنهار ، النيل الذى يجرى بالخصب والنماء دفاقاً سخيًا فيملأ العالمين بثمار مصر .

وتبعًا لتقاليد الملوك التى أخذها الخلف عن السلف فى بلاد الشمس المحرقة كان على الرأس إيلاس أن يلزم قصراً خاصًا يقيم فيه مع سائر أبناء الملك وبناته ، حتى يدعى إلى ارتقاء العرش بحكم نظام الوراثة .

وكان ذلك القصر الذى فرضته حكمة القدماء أو حرصهم على أمراء الحبشة واديًا فسيحًا فى مملكة أمهرا أحطات به الجبال الشم من كل جانب ، وكانت قمم تلك الجبال تتلاقى فى المنتصف فيكون منها سقف منيف ، ولم يكن للقصر مدخل سوى غار مجوف تحت صخرة ، ولقد اختلفت الناس فى شأنه ، فمنهم من زعم أنه من عمل الطبيعة ، ومنهم من زعم أنه قد بيد الإنسان وقد أخفت باب الغار غابة كثيفة ، أما فتحته التى تفضى إلى الوادى فقد سدها باب حديدى عظيم صاغه صناع السنين الغابرة ، وقد بلغ من ضخامته أن فتحه وإغلاقه ما كانا ليتأتيا إلا باستخدام آلات خاصة .

وانسابت من جوانب الجبال نهيرات نشرت الخصب والنبت فى الوادى واجتمعت فى بطنه فكانت منها بحيرة سكنتها الأسماك من كل لون وضرب وأمتها طيور الماء ، وكلما فاضت البحيرة بمائها انصرف الماء الفائض فى جدول يجرى فى أخدود مظلم بالجبال الشمالية وأخذ ينحدر هادراً يصم الأسماع من هوة إلى هوة حتى يتلاشى صوته نهائيا .

وسفوح الجبال كانت تكسوها الأشجار ، وضفاف الجداول كانت تنمقها الأزهار ، وكلما هبت من الريح نفحة سقط البخور من الصخور ، وفى كل شهر آتت الأغصان أكلها وهوت منها الفاكهة على الأرض ، وفى هذه الدائرة الواسعة عاشت صنوف الحيوان آكلة الحشائش والشجيرات أليفها ووحشها فى حمى بالجبال من صنوف الحيوان المفترسة ، ففى جانب من الوادى كانت قطعان الغنم والبهم ترعى الأعشاب ، وفى الجانب الآخر كانت أفراد الحيوان التى يطلبها الصياد تقفز وتمرح على الأرض المبسوطة الخضراء ، وبين الصخور كانت تثب الجديان وفوق الأشجار كانت تتسلق القردة ، أما الأفيال الوقورة فقد كانت تستجم فى الأفياء واجتمعت النقائض فى صعيد واحد ، ولكن ما كان بينها إلا خيرات الطبيعة ، أما ضرباتها فقد استبعدت من الوادى استبعاداً .

وأمد الوادى المثمر الرحيب أهله بضرورات الحياة ، أما ترف الحياة وبهرجها فكانا يفدان إليهم بمقدم الإمبراطور فى زيارته السنوية لبنيه ، وفى تلك الزيارة كان الباب الحديدى يفتح على أنغام الموسيقا ، وكان كل ساكن من سكان الوادى يسأل فى الأيام الثمانية التى تستغرقها الزيارة أن يقترح ما يشاء لتهوين العزلة فى ذلك الوادى ، ودفع الملل الذى يأتى به الزمن بملء كل فراغ فى أسباب التسلية والترفيه ، وما من أمنية أزجيت إلا وتحققت لصاحبها وكان رجال اللهو وبناته يدعون من أقاصى المملكة ليشيعوا البهجة فى ذلك العيد ، فالعازفون يبثون شجى الألحان ، والراقصات يعرضن جميل الإيقاع أمام الأمراء لعل ذلك يحبب إليهم الأسر السعيد ، ولم يكن يدخل الوادى من أهل الفن

إلا المهرة الحـاذقون ، وهكذا بدت البهـجة كاملـة والاطمئنان أكيـداً لكل قادم جديد ، حتى لقد تمنى القادمون الجدد دوام هذه الحال السعيدة ، ولكن لما كان الداخلون لا يؤذن لهم بالخـروج لم يدر أحـد شـيئًا عن السـأم القـاتل الذى يتملك أهل الوادى ويتبارى المتبارون لدخول ذلك المنفى .

وكان القصر قائمًا على رابيـة تعلو نحو ثلاثين خطوة فوة سطح البحيرة ، وكان القصر مقسما إلى أفنية أو مربعات كثيرة تتفاوت فخامة ورونقـًا تبعًا لمكانة ساكنيها فى المجتمع ، وكانت سطوحها تسـتدير فى هيئة أقباء من حجر جسيم ، والتصق فيها الحجر بالحجر بالأسمنت الذى يزداد متانة على مر الأيام ، ومرت بالقصر الأعصر الطوال ، فإذا به ماثل يتـحدى أمطار المدار وأعاصير الاعتدالين دون حاجة إلى الترميم .

وقد بلغ من اتساعه أن المعرفة الكاملة لجمـيع أجنحته لم تتيسر لأحد خلا عدداً من الضباط القدامـى الذين ورثوا أسرار القصر خلفـًا عن سلف ، بل إن تصميمه كان من التعقيد بحيث يوحى بأن واضـعه قد تعمد التعقيد ، فقد كان لكل حجرة ممران أحدهما سرى والآخر مـعروف ، وكان كل فناء متصل بغيره من الأفنية إما عن طريق الطوابق العليـا وإما عن طريق يجرى تحت الأرض بين الأجنحة السـفلى ، كذلك كان بين الأعمـدة عدد عظيم فيه فـجوات لا يعلم أحد بوجودها ، فجوات أخفى فيـها الملوك كنوزهم واحداً بعد الآخر ، ثم سدوا تلك الفجوات بقطع من رخام لـم ترفع إلا فى أقصى حالات الطوارئ ، ولقد دونوا تفصيل ما جـمعوا من كنوز فى سجل أخفوه ببـرج لا يدخله كائن سوى الإمبراطور وفى معيته الأمير وارث العرش .

الفصل الثانى

ضيق الرأس إيلاس بالوادى السعيد

وفى الوادى عاش أبناء الحبشة وبناتها لا يعرفون عن الحياة شيئاً إلا اللذة بعد الراحة والراحة بعد اللذة ، واجتمع من حولهم كل نابغ فى الفن ليحقق لهم المتعة ، وكذلك نعموا بكل ما تنعم به الحواس ، فكانوا يتنزهون فى الحدائق الفيحاء ، وينامون فى قلاع الأمان ، وتفنن أهل العلم فى تزيين حالتهم لهم فلم يحدثهم الحكماء الذين يتولون تأديبهم إلا عن بأساء الحياة العامة ، ووصفوا لهم ما وراء الجبال بأنه أرض النكبات حيث النزاع أس الحياة وحيث يفترس الإنسان آخاه الإنسان .

ولكيما يتأكد فى روع الأمراء أن عيشهم رضى كان أهل الفن ينشدون أمامهم كل يوم أغانى موضوعها الوادى السعيد ، ويستثيرون شهواتهم بمختلف الطرق ، فيقصفون ويعربدون فى كل ساعة من مطلع الفجر إلى مجىء المساء .

وكانت هذه الطرق مثمرة بوجه عام ، فما بدا لأحد من الأمراء أن يوسع أركان دولته هذه إلا الأقلون ، وظلت كثرتهم المطلقة راضية بحالها مقتنعة بأنها تملك كل ما عند الطبيعة وعند الفن من مسرات ، وترثى لحال المساكين الذين حرمتهم الأقدار هذا المعتزل الهادئ ، وتخال أنهم فرائس فى يد القدر وضحايا فى يد الزمان .

وهكذا أصبحوا وأمسوا كلهم فى غبطة متصلة ، إلا الرأس إيلاس الذى أخذ يتجنب لهوهم وينسحب من حفلاتهم ما إن بلغ السادسة والعشرين

من عمره ، ووجد فى نزهاته الخلوية وتأملاته الهادئة متـعة وأى متعة ، وكثيراً ما كان يجلس إلى موائدهم التى تحمل أطايب الحياة فينسى أن يتناول منها شيئاً ، وكثـيراً مـا كان ينهض والأغـانى دائرة ثم يسرع إلـى حيث لا يدركـه صوت الموسـيقا ورأى أتبـاعه انصـرافه عن اللذات فـحاولوا أن يجـددوا فيـه الكلف باللذات ، ولكنه كان يتجـاهل خدماتهم ويشمئـز من دعواتهم ، وراح يقضى اليوم بعد اليوم عند ضفاف النهيرات تظله الأشجار ، وهناك يصغى إلى الأطيار فى الفنن تغرد ، أو يتـأمل الأسماك تلـعب فى مجرى الماء ، أو يلقى ببـصره على المراعى والجبال التـى انتشرت فيهـا البهم ، فمنها ما كـان يأكل الأعشاب ومنها ما كان ينام فى الفىء بين الشجيرات .

ولفت هذا المسلك الشاذ إليـه الأنظار ، وكان بين حكماء الوادى السـعيد حكيم تعوَّد منه الأمير حُسن الحديث واستراح إلى صحبته ، فتبع الحكيم الأمير خلسـة راجياً أن يظفـر بسر ضـيقـه بالوادى وسكانه ، ولم يكن الرأس إيلاس يعلم بأن هناك من يراقـبه ، فـذهب يتأمل أفـراد الماعز التى كـانت ترعى بين الصخور وأنشأ يـوازن بين حاله وحالها ، وقال : ما الفرق بـين الإنسان وبقية ضروب الحيوان ؟ إن كل ما أرى من أفراد الحيوان لها من ضرورات الجسد مثل مالى ، فهى تجوع وتأكل الحشيش وهى تظمأ وترتوى من الجدول ، وتقر نفسه بما أكل وما شرب فينام ثم يستقيظ ثانية جوعان يطلب الغذاء ثم الراحة ، وأنا كالحيـوان أجوع وأظمأ ، ولكن الشـبع والرى لا يأتيان بالراحة كمـا يأتيانه ، أنا كالحيوان يوجعنى الجوع ولكن الامتلاء لا يرضينى كما يرضيه ، وما بين الأكلة والأكلة يقتلنى السأم والضيق وأتطلع إلى الجـوع تطلعًا لعل الجوع يلهب حواسى . إن الطيور تنقر الأعناب أو تلتقط الحب ثم تطيـر إلى أدواحها ، وعلى أدواحها تقضى أيامـها فى سعـادة بادية مغردة ألحـانها الرتيبـة التى لا تتغيـر ، كذلك أستطيع أنا أن أدعـو عازف العود والمغنى ولكن الألحان التى أشـجتنى بالأمس تقتلنى اليوم مللا ، وأنا لا أجد فى نفسى حـاسة واحدة لا ترتوى بما تظمأ إليه ، ومـع كل ذلـك لا أجدنى سـعيداً . فلا شك إذاً أن فى الإنسان حاسة خبيئة

لا تجـد ما يشبعهـا فى هـذا المـكان ، أو لعـل به رغبات لا تتصل بالحواس ، ولا سعادة له إلا بإرضاء هذه الرغبات .

وبعد أن فـرغ من نجواه رفع رأسـه ورأى القمر يشـرق فرجع إلى القـصر قافلا ، وفيما هو يجتاز الحقول ويشاهد الحيوان من حوله قال : « أنتم السعداء يا أفراد الحيـوان ، ولا حاجة بكم أن تحسدوا هذا السـائر بينكم ، هذا الشجى الذى ينوء بحمل نفسه الثقيلة ، وأنا لا أحـسدكم على ما أنتم فيه من سعادة ، فما سعادتكم من سعادة بنى الإنسان . إن بنفسى أوجاعا لا تفهمون لها معنى ، فـأنا أخاف الألم وإن كنت لا أشكوه ، وإن بدنـى ليقـشعـر لذكرى الشـرور الماضيات كـما يقشعر لتـوقع الشرور الآتيات ، فلا شك أن العدالة الإلهـية قد وهبتنا من ألوان السعادة ما يكافئ ألوان الشقاء » .

ومضى الأمير يسـرّى عن نفسه بهذه التأملات فى أثناء عـودته ، ويزجيها بصـوت شاك حقـاً ، ولكن نظرته كانت نظرة المرتاح إلـى رجاحة عـقله ، المتعزى عن بأساء الدنيا بخواطره وبإحـساسه بدقة تلك الخواطر وبما أصاب من توفيق فى التعبير عنها ، واختلط باسم الثغر بأصحاب المهرجان فى ذلك المساء وأخذ من لهوهم بنصـيب كبير وسر الجميع لرؤيتـه على تلك الحال من الغبطة والهناءة .

الفصل الثالث

حاجات المستغنى

وسعى مؤدِّبه القـديم إلى لقائه راجيا أن يشفيـه بالنصائح والعظات بعد أن وقف على علة ضجره بالحـياة فى الوادى السعيد ، ولكن الأمـير كان يرى أن ذكاء هذا الحكيم قد خـبا منذ زمن طويل ، فلم يجد بنفسـه ميلا إلى الإذن له بالمثول بين يـديه ، وقال : « ترى لم يريد هذا الرجل إزعـاجى فى وحدتى ؟ ألن يتاح لى قط أن أنسى محاضراته التى لم أتذوقها إلا لجدتها ولن تعود إليها جدتها إلا إذا نسيتها ؟ » ثم دخل الغـابة وفى الغابة أطمأنت نفسه إلى خواطره المألوفة ، وقـبل أن ينتهى إلى رأي ما أبصر بمطارده يقف إلى جـواره وضاق به صدره ، فأوشك أن ينصـرف عنه مسرعًا ولكنه لم يشـأ أن يغضب هذا الرجل الذى كان يجله فى الماضـى ، ولا يزال يكن له الحب فدعاه إلى الجلوس مـعه على شط النهر .

وتشجع الحكيم الشيخ فأنشأ ينعى ما أصـاب الأمير فى الفترة الأخيرة من تحول وإعراض عـن ولائم القصر والتمـاس للخلوات الهادئة ، فأجاب الأمـير قائلا : « أنا إن أعرضت عن لذات القصر فما ذلك إلا لأن اللذات لم تعد تلذ لى ، وأنا ألتمس الوحدة لأنـى شقى ، ولست أحب أن أفسد بشقـائى سعادة الآخرين » . فأجاب الحكيم قائلا : « أنت يـاسيدى أول من أحس بالشقاء فى هذا الوادى السعيد ، وأرجو أن أوفق إلى إقـناعك بأن شقاءك هذا لا مصدر له ، فأنت هنا تنال كل ما يملك إمبراطور الحـبشة أن يسبغه على الناس ، وأنت هنا

بمأمن من كل خطر ، وأنت هنا لا تعرف عن العمل وبأسائه شيئًا ، ومع ذلك فكل ما حولك من عمل العـاملين وكل ما انتزع من فم الأخطار طوع بنان .ك فتلفت حولك تجد كل ما تشـتهيه نفسك ، وإذا كانت جميع حاجـاتك مقضية ففيم إذًا شكواك ؟ »

فقال الأمير :

« ولكن هذا بالذات مصـدر شقائى ، فـأنا شقى لأنى أجد كل حـاجاتى مقـضية ، وأنا شـقى لأنى لا أعلم حقيـقة ما تريده نفـسى ، ولو أنى علمت بحقيقة ما تريده نفسى لرغبت فـيه ، والرغبة تدعو إلى السعى ، ولو قد كنت أسعى لتحـقيق شيء أرغب فيه لتـبدلت حالى ، وصرت لا أتحـرك إلى مغيب الشمس وراء الجبال الغربية ولا أرتجف لمطلع الصباح الذى يفضح سريرة نفسى ، وحين أرى الماعز والخـراف يطارد بعضها بعـضـًا تحن نفسى إلى شيء تطارده ، أمـا الآن فلست أجـد فرقـًا بين ساعـة وساعــة أو بين يـوم ويـوم ، وما ذلك إلا لأنى أملك كل ما أشتهيه ، أجل لست أجـد بينها فرقـًا إلا أن اليوم أشد إملالا من الأمس وأن هذه الساعة أثقل على نفسى من سابقتـها ، فلتعلمنى باختبارك كيف أقضى نهـارى كما كنت أقضـيه أيام الطفولة خلىّ البال لا أشـعر بفوات الوقت ، فقـد كانت الطبيـعة يومئـذ ترفل أمام عينى كل صـباح فى ثوب زاه جـديـد ، وكل لحظــة تعلمنى عن الحيـاة ما لم أكن أعلمـه لقد نعمت نفسى بما لم تنعم به نفس فهات لى من عندك شيئـًا أنشده ولا أجده » .

وعجب الحكيم الشيخ لهـذا الداء الجديد ولم يدر بما يجيب ، ولكنه زهد فى الصمت فقـال : « لو أنك رأيت ما يفتك بالعالم من ألوان الشـقاء لغبطت نفسـك على ما أنت فيـه من نعيم » . فأجـاب الأمير : « لقد أثرت فى نفسى ما تشتهيه ، ولسوف أتطلع إلى رؤية مـا يفتك بالعالم من ألوان الشقاء مادامت رؤيتها شرطـًا من شروط السعادة » .

الفصل الرابع

الأمير يدأب على الشكوى والتأمل

وهنا ارتفع صوت النفير معلنًا حلول موعد العشاء ، فانتهت المناقشة عند هذا الحد وانصرف الحكيم الشيخ ساخطاً لأن منطقه قد أفضى إلى ما كان يرغب فى منعه بالذات . ولكن سخطه وحزنه لم يدوما طويلا فالسخط والحزن لا يدومان فى الشيخوخة طويلاً ، ولعل علة ذلك أننا نستخف بما تعودنا احتماله ويقل اكتراثنا بالناس لأن اكتراث الناس بنا يقل ، أو لعل علته أننا نستهين بالخطوب لأننا نتعلم أن يد الموت سوف تمحوها عما قريب .

أما الأمير فقد امتدت خواطره إلى آفاق أرحب ، فما استطاع تهدئه نفسه المضطربة إلا بمشقة ، ولقد كان من قبل يرتعد كلما ذكر الحياة المديدة التى قد يحياها . . فطول العمر كان عنده شجى يحتمل على مضض ، فإذا هو الآن سعيد بشبابه فقد عاد يرى فى طول العمر مجالا للعمل الكثير .

وكان ذلك أول شعاع من أشعة الأمل نفذ فى خياله فألهب فى خديه دم الشباب وأضاف إلى بريق عينيه بريقاً جديدًا ، وعصفت به الرغبة فى فعل شىء ، ولكنها كانت محض رغبة مبهمة لا تهدف إلى شىء بالذات ، ولا تجد لنفسها سبيلا إلى التحقق .

وزال عنه وجومه وعاد إلى معاشرة الناس ، فقد كان شأنه شأن من عثر على كنز من السعادة لا يعلم عنه أحد شيئا ، وكان يرى أن سعادته بكنزه سوف تدوم ما أخفى عن الآخرين سره ، ولذا تعمد الاهتمام بكل ما يهتمون

به من وسائل الترفيه وسعى إلى تحبيب تلك الملاهى إلى أخدانه وهو الذى ينفر منها أشد النفـور ، ولكن اللذات مهما تعددت لا تشـغل وقت الإنسان تمامًا ، ولهذا وجد الرأس إيلاس فى يومـه متسعـًا للانفراد بنفسـه والتأمل على النحو الذي يشـتهى دون أن يثـير شكـوك أحد ، وخـفف ذلك عنه عبء الحيـاة ، وذهب يرتاد المجتـمعات فى إسـراف عظيم ، فقد كان يـعتقد أن نجـاح خطته متـوقف على شدة إقباله عـلى تلك المجتمعـات ، ومن ثم كان يختلى بنفـسه فرحـًا فقد كان لديه الآن ما يفكر فيه .

وكان يجـد متعـته الكبرى فى تخـيل ذلك العالم المحجـوب عنه ، وكان يتوهم نفسه فى مختلف الظروف ومن حوله شتى الأخطار التى نسجها خياله ، كما كان يبتكر المغامرات المخيفة ابتكاراً ، ولكن طبيعته الخيرة كانت تنقذه دائمًا من براثن الموت ، وتكشف عن باطل المبطلين ، وتنتهى بانهزام الظالمين وانتشار السعادة فى قلوب البائسين .

وهكذا قضى الـرأس إيلاس عشرين شـهراً بين أحلامـه هذه وقد اشـتغل خياله طول الوقت ببناء حياته الجديدة حتى ألهته الحياة الجديدة عن حياة الوحدة التى يحيـاها ، بل لقد ألهـته عن اختـراع الوسائل التى يخـرج بها من الوادى السعيد ليختلط بأبناء المجتمع .

وقـد توهم ذات يوم وهو جـالس عـلى شط جـدول من جـداول الوادى السعيد أنه يرى عذراء يتيمة سلبـها عاشق دنىء مالها القليل ، فمضت تنتحب وتستعطفـه أن يعيد إليهـا ما سلب . وثار الرأس إيلاس لما رآه أيما ثورة وخف لنجدة العذراء فأنشأ يطارد السارق فى لهفـة حقيقية ، ولكن الخوف زود الجانى بقوة ليست من صفاته ، فعجز الرأس إيلاس عن إدراكه برغم ما بذل من جهد عنيف ، ولم يعدل الرأس إيلاس عن الطراد يأسا ، بل عزم على متابعه الجانى حتـى يـدرك الجـانى الإعيـاء ، وأخـيـراً وجـد نفـسـه عنـد سفح الجبل فكف عن عـــدوه .

وهنا هدأت نفسه وابتسم لما أبدى من حماسة لا تجدى شيئًا ثم رفع بصره إلى الجبل قـائلاً : « هذا هو الحائل اللعين الذى يردنى عن نيل السعـادة ونشر الفضيلة معًا . كم مرة طار فيها خيـالى فاجتاز هذه التخوم التى تحد حياتى ، وما حاولت من قبل أن أجتاز هذه التـخوم » وراعه هذا الخاطر فجلس يفكر ، وذكر أن الشمس قد دارت دورتها السنويـة مرتين منذ أن اعتزم الفرار من ذلك المعتـقل أول مرة ، فـملكه حزن لا عـهد له به ، وذهب يندب ضـياع الوقت ويأسى لما فاته من عمل الخـير بسبب قعوده ، ومضى يقـيس ماضاع من وقت ببقيـة العمـر فقـال : « إن الحيـاة لا تـدخـل فى حـسابها فترة الطفولة الجاهلة ولا فترة الشيخوخة المخـرفة ، ونحن نقضى الأعوام الطويلة قبل أن تنضج فينا ملكة التفكير ، كـما أن ملكة التنفيذ تخـبو فينا سريعًا . وإن الحيـاة الإنسانية الفعلية لتقدر بأربعين عامـًا ، أضعت منها الآن جزءاً من أربع وعشرين جزءاً ، وما ضاع منى لا شك محسوب على ، فقد ملكته فعلا ، ولكن أى ضمان لى أنى سأحيا عشـرين شهراً أخرى ؟ » وعذبه الإحساس بحماقتـه تعذيبًا أليما ، ولم تهدأ نفسه إلا بعد لأى ، قال : « إن ما ضـاع من عمرى الأول تقع تبعته على حماقة أسلافى أو إجرامهم ، وعلى تقاليد بلادى وهى سقيمة ، وإنى لأذكرها بالاشمـئزاز ولكنى لا أندم عليهـا . أما ما ضـاع من عمرى بعـد أن استنارت روحى بذلك الضيـاء الجديد ونعمت بتلك السـعادة الوجدانية فـأنا الملوم عليه وحدى ، وما ضاع لا سبيل إلى استـرداده ، فقد رأيت الشمس تشرق وتغرب عشرين شهراً متصلة ، وما فعلت إلا أن حملقت كالأبله فى أنوار السماء . إن أفراخ الطير تركت دفء الشمس ولاذت بالغابة وبأطباق الجوزاء ، وكذلك كف الجدى عن الرضاعة وتعلم شيئًا فشيئًا كيف يتسلق الصخور بحثا عن طعامه . وأنا وحدي القـعيد الذى لا يتقـدم ، وأنا وحدى الجهول قليل الحـيلة . ولقد علمنى البدر طبيـعة الحياة جين اكتمل فى كـبد السماء أكثر من عـشرين مرة ، والجدول الجارى عند قدمى عنفنى على خمولى ، ومازلت متكئا أقطف أعناب

الخيـال ، ولا أتعظ بالأرض المتجددة أمامى ، أو بالكواكب التى لا تعرف إلا الترحال . عشرون شهراً مضت ، فمن ذا يعود بها إلى ؟ »

واستبدت به هذه الخواطر الحزينة ، وضاعت منه أربعة شهور أخرى جمع فيهـا أشتات عزمه واستقر فيهـا رأيه على ألا يضيع من وقته أكثر مما ضيع ، وحدث ذات يوم أن كسرت غادة فنجانـاً فسمعهـا تقول : ما يستحيل جبره لا يستحق أن نحزن عليه . فاتعظ من مقالها واشتدت عزمته .

ووجد الرأس إيلاس أن فلسفتها لا تحتاج إلى تدليل ، فـأنّب نفسه على غبـاوته السابقـة ، فما كـان يعلم أن كثيـراً من الحكم النافعـة تأتينا عن طريق المصادفة ، وما تدبر أن عقل الإنسان فى سعيه الجاد وراء الحقائق العليا لا ينتبه إلى الحقـائق الساذجـة المكشوفـة أمامه ، وهكذا ندم الرأس إيلاس عـلى ندمه ساعـة أو بعضـها ، ثم تحول بكل جارحـة فـيه إلى استنباط وسيلة للهرب من وادى السعادة .

الفصل الخامس

الأمير يتدبر أمر هربه

وكان الرأس إيلاس يحسب أن الهرب من الوادى السعيد سوف يتم بلا عناء ، ولكنه عدل عن رأيه بعد قليل ، فقد تلمس طريقه بين الجبال فوجد أن الطبيعة قد أحاطته بأسوار لا يجد أحد سبيلا إلى اختراقها ، وتلمس طريقه فى الباب الحديدى الذى لم يخرج منه داخل ، فأدرك أنه حبيس إلى أبد الأبدين ، فإذا به يحس إحساس النسر الحبيس ، وإذا هو يتسلق الجبال أسبوعاً تلو أسبوع عله يجد فيها منفذاً تخفيه الشجيرات فما وجد ، ورأى القنن العاليات بواذخ يرتد دونها البصر ، كذلك يئس من فتح الباب الحديدى ؛ لأن مهرة الصناع قد تفننوا فى إيصاده ، ولأن الديدبان كان يتعاقب على حراسته ليل نهار ، ولأنه كان مكشوفاً لعيون الناظرين فى كل ساعة من ساعات اليوم .

ثم درس الغار الذى تتدفق منه مياه البحيرة ، ورأى جوف الغار فى ضوء الشمس فإذا بالصخور المهشمة تملأ جنباته ، وإذا بالصخور توشك أن تكون متلاصقة تأذن بجريان الماء ولا تأذن بنفاذ الأجسام المتكتلة ، فعاد حاسر الرأس حزيناً ولكن اليأس لم يجد إلى فؤاده سبيلا بعد أن تعلم معنى الأمل .

وضاعت من الرأس إيلاس عشرة شهور مضى يبحث فيها بلا ثمرة ، ولكن الملل الذى كان يفتك به قد تبخر ، فلقد كان يصحو مع الصباح بأمل جديد ، ولقد كان يحمد لنفسه مثابرتها فى المساء ، ثم يغلبه النوم فينام هنيئاً

بعد إعياء النهار ، كذلك وجد فى بحثه من المتع ألف متعة صرفته عن متاعبه كما صرفته عن أفكاره ، كشف عن غرائز الحيوان وخواص النبات ورأى العجائب من حوله تترى فاعتزم أن يتعزى بدراسة هذه العجائب إن خاب قصده فى الفرار ، ووجد سعادة عظمى فى أن سعيه وإن لم يؤت ثماره المرجوة قد زوده بأسباب للبحث لا سبيل إلى نفادها .

ولكن فضوله الأول لم يفتر ، فقد استقر رأيه على دراسة أحوال البشر ولزمته هذه الرغبة ولكن أمله تضاءل يوماً بعد يوم ، وكفًّ عن دق جدران سجنه ، وانصرف عن طلب الفجوات ، فقد اثبت فى روعه أن الفجوات لا وجود لها ، ولكنه اعتزم ألا ينسى غرضه الأصيل ، وأن يغتنم أول فرصة تسنح له للخروج من الوادى السعيد .

الفصل السادس

مقال فى فن الطيران

وكان بين رجال الفن الذين اجتذبتهم الحياة فى الوادى السعيد رجل اشتهر بين قومه لدرايتــه الواسعة بعلم الآلات ، وقد أخذ الناس عنه مختـرعات عدة بعضها نافع وبعضها قصد به إلى التسلية وحدها . واشتغل هذا المخترع بتوفير أسبـاب الراحة والسرور لأهل الوادى ، فابتكر عـجلة يديرها التيار فـترفع الماء إلى خزان ، ومن الخزان يجرى توزيعها على سائر أجنحة القصر ، كذلك ضرب مظلة فى الحـديقة ، ومن حـول المظلة كيَّف الهـواء باستحـداث رذاذ صناعى يحـفظ للهـواء رقتـه طول العـام ، كذلك أقـام المراوح فى دغل من الأدغـال مخصص للسيدات ،وكانت النهـيرات التى تجرى فى الدغل تدير المراوح فتتم تهوية الدغل بانتظام ، وأقام بعض آلات الموسيقا على أبعاد مضبوطة فمنها ما عزفت أوتاره بفعل النسيم ، ومنها ما عزفت أوتاره بفعل الجدول السلسبيل .

وكان الرأس إيلاس يزور هذا الصانع من حـين إلى حين ، ويسر بما يتعلم عليه من أشـياء ، وهو فى ذلك يتـوهم أن كل ما يجمـعه من معـارف سوف ينفعه يوم يخـرج إلى الدنيا العريضة ، وقـصد الرأس إيلاس الصانع ذات يوم ليـسرى عن نفسـه كعـادته فـألفاه يصنع عـربة تنزلق على الماء ، ووجـد أن تصميمها يصلح للسطوح المستوية فتملكه الإعجاب الشديد ورجاه أن يتم صنع العربة السابحة ، وسـر الصانع من الأمير هذا التقدير المستـفيض ، واعتزم أن يظفر لديه بحظوة أعـظم فقال : « إن ما رأيت ياسـيدى جزء تافـه مما تستطيع

العلوم الآلية أن تحققه ، ولقد كان رأيى الثابت دائماً أن الإنسان يستطيع اختزال ما ينفعه من وقت طويل فى الانتقال بالسفن والعربات إذا هو استخدم الأجنحة يطير بها ، ورحاب السمـاء مفتوحة للباحثين ، أما الجهـال والكسالى فنصيبهم الزحف على الأرض .

وما إن سمع الأمير هذا الكلام حتى تجددت فيه الرغبة لتخطى الجبال وبعد أن رأى صنع الصانع خيل إليـه أن قريحة هذا المخترع تـستطيع أن تجود بما هو أبدع من ذلك ، ولكنه ذهب يلقى الأسئلة تباعاً خشية أن يضلله الأمل الكاذب ، قال : « يبـدو لى أن خيالك أوسع من درايتك لأنى أراك تقص على رغـباتك ولا تفضى إلىّ بمعارفك . إن لكل مـخلوق مسلكه ومسعاه ، فللطيـر السماء ، والأرض من نصيب الإنسان والحيوان » .

فأجاب الصـانع : « ولكن الماء مملكة الأسماك ، وفى الماء يسـبح الحيوان بالفطرة ويسبـح الإنسان بفنه ، ومن استطاع العـوم كان الطيـران فى متناوله ، فما العوم إلا طيران فى سائل شديد الكـثافة ، وما الطيران إلا العوم فى سائل قليلها ، فما علينـا إلا أن نضبط النسبة بين قوة مقاومـتنا وبين كثافة المادة التى نسبح فيهـا ، ولاشـك أن الهـواء سيحملك لو جـددت القـوة الدافعة بأسرع مما يلين الهواء تحت ضغطك » .

قـال الأميـر : « ولكن التـدريب على العـوم تدريب مـجـهد ، وأقـوى العضلات تضعف به بعد قليل ، وأرى أن الطيران سوف يكون أشد إجهاداً من العوم ذاته ، والأجنحة لا تجدى فتيلا إلا إذا استطاع الإنسان أن يقطع بها أبعاداً لا يقطعها سباحة » .

فأجـاب الصـانـع : « إن المجهـود الأكبــر سـوف يستهلـك فى الارتفاع من الأرض كمـا نـرى فى حـالـة الدجاج والأوز مـثلا ، ولكن بعد أن تتوغل فى السمـاء تخـف جـاذبيـة الأرض ويخـف ثقـل الجسم شيئًا فشيئاً حتى نصل

إلى منطقة يطفو فيها الإنسان دون ميل إلى الهبوط ، وعندئذ لن يحتاج لقوة ينفقها إلا لإحداث الحركة الأمامية ، وهذه تتم بأقل دافع . وأنت ياسيدى الأمير محب للاستطلاع إلى حد عظيم وتستطيع أن تتصور المتعة التى يجدها فيلسوف من الفلاسفة أوتى جناحين فحلق فى السماء ومضى يتأمل كرة الأرض وهى تدور من تحته دوراناً متصلا ، وتعرض عليه بدورتها اليومية جميع الأقطار الواقعة فى خط العرض الذى يثبت داخله . إن هذا المشاهد المحلق سوف يسر سروراً عظيماً بمرأى اليابسة والمحيط والمدائن والصحراوات تنطوى تحت بصره الواحدة بعد الأخرى . نعم ، ولسوف يرى وهو فى أمان الأسواق وميادين القتال والجبال التى يسكنها المتوحشون والبقاع الخصبة التى يسعد أهلوها بثمارها وينعمون بالسلام ، ولو استطعنا التحليق لأمكننا أن نتبع نهر النيل من بدايته إلى نهايته ولطرنا فوق الأمصار النائية واستكشفنا وجه الطبيعة من مشارق الأرض إلى مغاربها .

قال الأمير : « كل هذا تتمناه النفس حقًّا ، ولكنى أعتقد أن التنفس يمتنع على الإنسان فى تلك البقاع ، بقاع التأمل والصفاء ، ولقد انتهى إلى علمى أن التنفس يشق على الناس إذا صعدوا جبلا شاهقاً ، وهذه الأخاديد التى تراها يسهل السقوط منها برغم أن ارتفاعها العظيم ينتهى بخفة فى الهواء لا مثيل لها ، ومن هنا ترى أن خطر السقوط المفاجئ ماثل أينما صعدت فى منطقة التنفس المحتمل » .

فأجاب الصانع : « محال أن نحقق شيئاً ما لم نذلل جميع الصعاب الواحدة بعد الأخرى ، ولو شملتنى برعايتك لجازفت بحياتى فى المحاولة الأولى للطيران ، ولقد درست تركيب الطيور بجميع أنواعها ، وأجد أن أنسب جناح للإنسان هو جناح الخفاش لما فيه من طيات متصلة ، ولسوف أبدأ العمل على هذا التصميم غداً ، وأرجو أن أوفق قبل انتهاء عام إلى الارتفاع فى الجو

حيث لا يدركنى أحد بعيد عن حقد الحاقدين ، ولكنى أشترط على سيدى الأمير أن يكتم السر وألا يسألنى أن أصنع أجنحة لأحد سواه وسواى » .

قال الرأس إيلاس : « ولم تبخل على الغير بهذه المنفعة الجليلة ؟ إن الخبرة الفنية ينبغى أن تكون ثمراتها ملكاً مشاعاً لبنى البشر ، فكل إنسان مدين للآخرين بالكثير ، والواجب يقضى بأن نعطى كما أخذنا » .

فأجاب الصانع : « لو أن الناس كانوا جميعاً صالحين لما ترددت فى تعليمهم الطيران فرداً فرداً ، ولكن أى اطمئنان يجده الأخيار إذا استطاع الأضرار أن يغزوهم من الجو ؟ فلا الأسوار ولا الجبال ولا البحار تكفى لرد جيش سابح بين السحب . إن سرباً من برابرة الشمال قويا فاتكاً قد يفد على متن الريح ثم يحط على حاضرة بلد خصيب وينهبها نهباً ، بل إن هذا الوادى الذى يعتكف فيه الأمراء ، هذا الوادى الذى يفيض بالسعادة ، قد تنتهك حرمته جمهرة من الهمج العرايا الذين ينتشرون فى أرجاء السواحل الجنوبية » .

ووعد الأمير الصانع بكتمان السر ، وانتظر التجربة وفى قلبه بارق من أمل . وكان يتردد من حين لآخر على الصانع ليقف على ماتقدم من خطوات ، فراعه ما رأى من أفانين كثيرة قصد بها إلى تيسير الحركة وإلى الجمع بين الخفة والقوة معاً ، أما الصانع فقد كان يشتد كل يوم إيماناً بأنه سوف يتجاوز النسر فى علاه والعقاب فى جوزائه ، وانتقلت هذه العدوى إلى الأمير فغدا لا يقل عن الصانع تفاؤلاً .

وانتهى العام وإذا بالأجنحة يتم صنعها ، وخرج الصانع فى الصباح المحدد لابساً عدة الطيران ووقف فوق رابية صغيرة ، ورفرف بجناحية قليلا ليستجمع الهواء ثم وثب من مكانه ولكنه سقط لفوره فى البحيرة ، وأغاثه الجناحان فى الماء بعد أن خذلاه فى الهواء ، فطفا بهما حتى جذبه الأمير إلى الشط ، فخرج إلى اليابسة فى شحوب الموتى يفتك به الذعر والغيظ جميعاً .

الفصل السابع

الأمير يلتقى برجل من أهل العلم

لم يطل حزن الأمير لهذه النكبة فقد كان يعقد الآمال على هذه المحاولة الفاشلة لأن وجوه الفرار الأخرى قد امتنعت عليه ، ولم يعدل عن عزمه على مغادرة الوادى السعيد حين تسنح أول فرصة .

وتوقف خياله عن نشاطه ، وتضاءل أمله فى الخروج إلى الدنيا حتى تلاشى ، وذهب يتعزى عن كل ذلك ما وجد إلى العزاء سبيلا ، ولكن السخط بدأ يتملكه شيئا فشيئاً ، وأنشأ يستسلم لخواطره الحزينة مرة أخرى ولكن فصل الأمطار ، وهو موسمى فى تلك الأقطار ، حل وتعذر بحلوله التجوال فى الغابات .

وطال هطول الأمطار واشتدت غزارتها على نحو لم يألفه سكان الوادى السعيد ، فتفجرت الغيوم على الجبال المتاخمة وجرت السيول إلى السهول فى كل جانب من جوانب الجبال ، حتى ضاق الغار بالماء المتراكم وفاضت البحيرة فأغرق شطآنها الماء وامتد الطوفان إلى مستوى الوادى بأكمله ، ولم تعد العين ترى من معالم الوادى إلا القصر والربوة التى ينهض عليها ، وبقعاً متفرقة من أراض عاليات ، وهجرت المراعى قطعانها واعتصمت بالجبال ، وكذلك اعتصم بالجبال وحشى الحيوان .

ولزم جميع الأمراء القصر بسبب الفيضان واكتفوا بأسباب اللهو المنزلية ، واستوقف انتباه الرأس إيلاس قصيدة رواها شاعر يدعى عملاق موضوعها

الحياة الإنسانية وأحوالها المختلفة ، فأمر الأمير الشاعر بأن يمثل بين يديه فى جناحه الخاص ، وسأله أن ينشده قصيدته للمرة الثانية ، ثم تبسط معه فى الحديث ووجد بعض السعادة فى أنه قد عثر على رجل يعرف طبيعة الحياة معرفة تامة ويستطيع أن يصورها هذا التصوير الماهر . وسأل الأمير الشاعر ألف سؤال وسؤالا ، عن أشياء كان ينبغى أن يعرفها لأنها مألوفة وساذجة ، ولكن سجنه فى الوادى السعيد منذ طفولته قد جعل منها أسراراً مغلقة ، ورثا الشاعر لجهله واطمأن إلى فضوله وذهب يسرى عنه يوماً بعد آخر بكل جديد وبكل نافع من ألوان المعرفة ، حتى لقد ضاق الأمير بحاجته إلى النوم ، وصار يترقب مطلع الصباح لتتجدد به مسراته .

وفيما كانا يجلسان معاً أمر الأمير الشاعر عملاقاً أن يسرد عليه قصة حياته ، وأن يحدثه عما دفعه إلى الوادى السعيد أو جذبه إليه لختم حياته بين أسواره . وبدأ عملاق فى سرد قصته ، ولكن الرأس إيلاس جاءته دعوة إلى حفل موسيقى فكظم فضوله حتى الليل .

الفصل الثامن

قصة عملاق

انتصف الليل قبل أن تهدأ الموسيقى وتنسحب الأميرات ، ففى المناطق الاستوائية يكون اللهو والسمر فى الليل وحده ، وبعد انفضاض الحفل استدعى الرأس إيلاس صاحبه وسأله أن يبدأ فى سرد قصة حياته ، فقال عملاق :

« ولدت فى مملكة جوياما بالقرب من الينبوع الذى يخرج منه النيل ، وكان أبى تاجراً ثرياً يجرى تجارته بين موانئ البحر الأحمر وداخلية الأقطار الأفريقية ، وكان أميناً مقتصداً مجداً فى عمله ، ولكنه برغم ذلك كان خسيس الطبع محدود الإدارك لا رغبة له فى الحياة سوى جمع المال ، وكان يخفى ماله عن العيون خشية أن يجور عليه حاكم الإقليم » .

فقال الأمير : « لا شك فى أن أبى يهمل فى أداء وظيفته إذا كان فى بلاده رجل يجور على مال الغير . أو لا يعلم أن الملوك مسئولون عما يحدث فى بلادهم من ظلم وجور ؟ لو أنى كنت إمبراطوراً لحميت أحقر حقير فى دولتى من ظلم الظالمين ، وإن دمى ليغلى حين أسمع بتاجر لا يستطيع أن ينعم بما كسب من ربح مخافة أن يسلبه ماله ذوو السلطان . إلىّ باسم هذا الحاكم حتى أوقف الإمبراطور على جرائمه » .

أجاب عملاق : « إن حميتك ياسيدى الأمير أثر من آثار نفسك الفاضلة التى تثور بوحى من شبابك ، ولسوف يأتى حين تبرئ فيه أباك مما تلومه الآن عليه ، ولعل صدرك يضيق يومئذ بشكايات الشاكين لمثل هذا الحاكم الغاصب .

إن الظلم فى بلاد الحبشة نادر الوجود والظالمين يؤخذون بالشدة أينما وجدوا . والإنسانية لم تهتد بعد إلى نوع من أنواع الحكومة يقضى على قسوة القساة قضاء تامًا . إن الحكم بمدلول الكلمة يفرض القوة فى فريق من الناس والخضوع فى الفريق الآخر ، والإنسان يطغى من حين لآخر كلما ملك القوة ، ويقظة قاضى القضاة قد تنفع فى رفع الكثير من الجور ، ولكنها لن ترفع الجور كله ، فقاضى القضاة لا علم له بكل ما يرتكب من جرائم ، وقاضى القضاة لا يستطيع أن يدين إلا بعض المذنبين » .

قال الأمير « هذا ما لا أفهمه ، ولكنى أوثر أن أستمع إلى بقية قصتك عن أن أجادلك فى أصول الحكم ، فامض فى حديثك » .

فمضى عملاق فى حديثه يقول : « كان أبى يعتزم أن يزودنى بالعلم الذى يؤهلنى لممارسة التجارة وحدها وحين لاحظ فىّ قوة الذاكرة وسرعة الفهم ذهب يمنى نفسه ويُمَنِّينى بمستقبل عظيم فى عالم التجارة ، وتنبأ لى أكثر من مرة أنى سوف أكون أغنى أغنياء الحبشة » .

قال الأمير : « وفيم كان طلب أبيك للمزيد من المال ؟ أما قلت إنه ملك منه أكثر مما يستطيع أن يظهر الناس عليه وأكثر مما يستطيع أن ينعم به ؟ إنى لا أميل إلى التشكك فى صدق ما تقول ،ولكنك تناقض نفسك والحق لا يستقيم مع التناقض » .

أجاب عملاق : « إن الحق لا يستقيم مع التناقض فى الواقع ياسيدى الأمير ، أما فى دنيا الإنسان فالتناقض قد لا يتعارض مع الحق ، ثم إن التباين يختلف عن التناقض ، وأبى يطلب المزيد من المال ليزداد بذلك اطمئنانه فى حياته المستقبلة ، ومهما يكن من شىء فالإنسان بحاجة إلى أمل يدفعه إلى العمل فى الحياة ، ومَنْ توافرت له حاجاته الحقيقية اصطنع أحلامه فى عالم الخيال » .

قال الأمير: « فهمت ما ترمى إليه وأعتذر لك عن هذه المقاطعة » ومضى عملاق فى قصته يقول : « أدخلنى أبى المدرسة وهو يضع فى هذا الرجاء ،

ولكن ما إن تذوقت المعرفة ونهلت من نبعها حتى استصغرت نفسى المال وجامعيه ، ولم أعلن لأحد عن حالى بل اعتزمت سراً أن أخيب رجاء أبى فىّ ، وذهبت أرثى لضيق أفقه ، وهكذا بلغت العشرين من عمرى قبل أن يسألنى أبى أن أرحل وراء التجارة ، وكنت قد تعلمت فى المدرسة آداب بلادى وفنونها جميعاً ، وقضيت أعوام الطلب سعيداً بما أوتيت من علم يتجدد كل يوم ، ولكنى فقدت احترامى لأساتذتى درجة درجة حين شبت واتسعت مداركى ، فقد وجدتهم لا يختلفون فى شئ عن عامة الناس .

« وأخيرا رأى أبى أن يزج بى فى ميدان التجارة ، وإذا به ذات يوم يفتح كنزاً من كنوزه المخبوءة تحت الأرض ويعد عشرة آلاف قطعة من الذهب قائلا : هذا يافتى رأس مالك ، ولقد بدأت حياتى بأقل من خمس هذا المقدار ، وأنت ترى كيف ضاعفته بالجد والادخار ، وهذا المال مالك ، زده إن شئت وبدده إن شئت ، فلو بددته بالطيش أو الإهمال فلن تجد مالا غيره قبل وفاتى ، ولو ضاعفته فى أربعة أعوام أبطلنا تبعيتك لى وغدونا صديقين وشريكين ، فمن حذق جمع المال حذقى له كان ندّاً لى مدى الحياة .

« وهكذا كدسنا أموالنا فى زكائب بين البضائع الرخيصة وحملتها لنا الجمال إلى سواحل البحر الأحمر ، وحين وقع بصرى على رحاب الماء خفق قلبى كأنى أسير يلتمس النجاة ، وامتكلنى فضول هائل واعتزمت أن أغتنم هذه الفرصة لأستطلع أحوال الناس فى الأقطار الأخرى ولأتعلم مالا يعلمه الأحباش .

« وتذكرت أن أبى قد فرض علىّ زيادة مالى لا بعهد استخلصه منى ، ولكن بوعيد كنت فى حل من أن أتغاضى عنه ، ولذا انتهى رأيى إلى إشباع رغبتى الأولى ، فمضيت أنهل من ينابيع المعرفة لأطفئ ظمأ الفضول .

« ويسر لى ذلك أن تجارتى كـانت مستقلة عن تجارة أبى ، فـتعرفت على ربان سفـينة من السفـن ونزحت إلى بلاد غيـر بلادى ، ولم أكن أطلب شيـئاً بالذات من وراء رحلتى هذه ، فقـد كان يكفينى من الأسفار أنـها تعرض على من المدائن مالم أره من قبل ، وهكذا تركت لأبى خطاباً أطلعه فيه على عزمى ، واعتليت ظهر سفينة قاصدة بلاد السورات »

الفصل التاسع

عملاق يستأنف قصته

« وحين توغلت فى البحر واختفت عن عينى الشطئان تلفّتُّ حولى وتنازعنى الرضا والرهبة ، واتسعت روحى بمرأى تلك الآفاق المترامية ، فتوهمت أنى لن أعرف الملل بعد ذلك ، ولكن نفسى ما لبثت أن سئمت ما حولها من تشابه مضجر ، وعندئذ ولجت جوف السفينة وخلت أن متع المستقبل قد تنتهى جميعاً كما انتهت متعة الحاضر ، أعنى بالملل وخيبة الأمل ، ولكنى ذهبت أتعزى بما بين اليابسة والماء من فرق جوهرى ، فما فى المحيط من جملة إلا تعاقب الحركة والسكون ، إن كان هناك تعاقب ، أما الأرض فوديانها وجبالها وصحاريها وحواضرها تشغل البال طراً وفى الأرض نلتقى بأناس عاداتهم مختلفة وآراؤهم متضاربة ، لذلك رجوت أن يعوضنى الناس بتباينهم عما قد أجده فى الطبيعة من تكرار ممجوج .

« وهدأ بالى بهذه الخواطر ، وذهبت أسرى عن نفسى فى أثناء الرحلة آنا بالاستفسار من البحارة عن فن الملاحة ، فقد كنت لا أدرى عنه شيئاً ، وآنا بإعداد نفسى لاستقبال المواقف المختلفة حين أبدأ حياتى الجديدة ، وهى مواقف كلها من عمل الخيال .

« وأوشكت متعتى فى رحلتى أن تنفد ، ولكن سرعان ما رست بنا السفينة فى سورات ، وفى سورات استرددت مالى وابتعت بعض السلع التى تعين المرء على الظهور ، ثم انضممت إلى قافلة كانت تهدف إلى داخلية البلاد .

ولسبب لا أعلمه قدر رفاقى فى السفر أنى من أهل اليسار واستدلوا على جهلى بما كنت ألقيه من أسئلة وبما كنت أقوله من عبارات الإعجاب بكل ما أراه ، فعدونى غراً ينبغى أن يتعلم من تجاريب الحياة شيئاً كثيراً ، وأحلوا للناس خداعى لأن العلم لا يؤخذ بالمجان ، فتركونى لرحمة الخدم والموظفين يستنزفون مالى ما وجدوا إلى استنزافه سبيلا ، ونهبنى الناهبون تحت أبصارهم فلم يحركوا ساكناً لإغاثتى ، وما جنوا من خسارتى شيئاً إلا فرحتهم بما يصيب المغفل من محن ورضاهم بأنهم من المجربين » .

قال الأمير : « تريث برهة ياعملاق ، فما كنت أحسب أن هذا الجنون من صفات الإنسان ، فكيف يؤذى رجل رجلا وهو لا ينتفع بأذاه ؟ وأنا أفهم اغتباط المجرب بتجاربه إذا صادف غراً أحمق ، ولكن جهلك كان وليد المصادفة وحدها فهو ليس بجريمة ولا بحماقة ، وليس فيه ما يدعو إلى اعتزازهم بعلمهم ، ولقد كان يستوى لديهم أن ينقذوك بعلمهم أو أن يبخلوا به عليك ، فلم اختاروا سبيل الضرر ؟ » .

أجاب عملاق : « إن الكبرياء والفظاظة رفيقان متلازمان ، والمستكبر يرضى بأخس منفعة تأتيه ،وسعادة الحساد لا تتم إلا بشقاء الآخرين ، ولقد كان ذلك النفر عدواً لى فقد نفسوا علىّ جاهى ، ولقد وجدوا لذة فى تحطيمى فهم إذن من البغاة الظالمين » .

قال الأمير : « امض فى حديثك ياعملاق ، فلست أرتاب فى صدق مقالك ، ولكنى أعتقد أنك تخطئ فى تقدير الدوافع » .

قال عملاق : « بلغت أجرا ، حاضرة هندوستان ، فى هذا الركب ، وهى المدينة التى يقيم فيها عادة ملك المغول العظيم ، وفى أجرا تعلمت لغة البلاد وبعد شهور قلائل أمكننى أن أتفاهم مع علماء المدينة ، فوجدت بعضهم يميل إلى التحفظ والكآبة ، ووجدت رحابة صدر وإقبالاً على الحديث فى الآخرين . وجدت منهم من ضنوا على الناس بعلمهم الذى أضناهم اكتسابه ، ووجدت منهم من رأوا فى تهذيب الغير غاية المعرفة .

« وكان مؤدبى مؤدب الأمراء الصغار ، وقد التفت لجدى واجتهادى حتى قدمنى إلى الإمبراطور واصفاً إياى أنى رجل قل فى العلم نظيرى . وسألنى الإمبراطور كثيراً عن بلادى وعن أسفارى ، ولقد انصرفت من حضرته عاجباً لحكمته النادرة وطبعه النبيل ، وإن كنت لا أذكر الآن قولا من أقواله ، فذا يعجز عنه الرجال العاديون .

« وعظمت حظوتى حتى لقد لجأ إلى أصحابى التجار ملتمسين أن أوصى بهم سيدات البلاط ، وقد عجبت لثقتهم فىّ ورجائهم فى أن أمد إليهم يد العون فأنبتهم فى رفق على ما بدر منهم فى أثناء الرحلة من خيانة لى وتفريط فى ، فاستمعوا لتأنيبى فى غير اكتراث ولم يبد عليهم مايدل على الأسف أو الخجل .

« ثم ذهبوا يؤيدون مطلبهم بعرض الرشوة ، ولكنى رفضت ماعرضوا فإذا كان العطف لم يكفنى حافزاً فالمال لم يغرنى من باب أولى ، وما أحجمت عن مساعدتهم لأنهم أنزلوا بى أذى ، بل لأحول دون إيذائهم غيرى ، فقد كنت على يقين من أنهم سوف يستغلون منا أنعم به من حظوة فى البلاط فيغشون شراة بضائعهم .

« وبعد أن تعلمت فى أجرا كل ما يستحق التعلم نزحت إلى بلاد العجم ، حيث شاهدت أطلال حضارة فخمة بائدة ووقفت على أسباب الترف وهى كثيرة هنالك .

ووجدت أن الفرس شعب لطيف المعشر يحب الاختلاط ، وقد وجدت كل يوم فى مجتمعاتهم مجالا لدراسة أخلاقهم وأطوارهم كما وجدت مجالا لدراسة الطبيعة الإنسانية فى وجوهها المختلفة .

« ومن بلاد العجم انتقلت إلى بلاد العرب حيث رأيت أمة راعية ومحاربة في آن واحـد ، يعيش أبنـاؤهـا في تـنقل مستمر ولا يملكـون من موارد الثروة إلا أغنامهم وأبقارهم ، ولقد عاشوا في جهاد متصل مع بقية شعوب الأرض ، برغم أنهم لم يغمطوا الناس أشياءهم أو ينفسوا عليهم متاعهم » .

الفصل العاشر

عملاق يستأنف قصته : فى الشعر

« وأينما حللت وجدت أن للشعر المقام الأول بين معارف الإنسان ، ووجدت أن الناس يحملون له من الاحترام ما يحملونه للطبيعة الملائكية ، ومع ذلك فإنى أعجب أشد العجب إذ أرى إجماع الناس على أن قديم الشعر خير من حديثه ، ولست أدرى ما دفعهم إلى كل ذلك ، أهو أن تذوق الشعر يتم لأول وهلة على حين تكتسب بقية معارف الإنسان شيئاً فشيئاً ، أم أن شعر الأولين فى كل أمة قد أدهش أبناءها بما فيه من جدة فقدروه ثم دام له هذا التقدير بالتقليد ،وهو التقدير الذى ما أصابه إلا مصادفة ، أم أن الشعراء القدامى بحكم سبقهم فى سلسلة الحياة قد استأثروا بما يستحق الوصف سواء فى الطبيعة ، أو فى عواطف الإنسان ، أو فى قصص الحياة وهى جميعاً ثابتة لا تتغير بتغير الأزمان ، فلم يتركوا لأخلافهم مجالا لشىء إلا ترديد ما رووه من وقائع وتضمين ما ابتكروه من أخيله . ومهما تكن العلة فالملاحظ أن القدماء قد ملكوا ناصية الطبيعة ، وأن المحدثين قد ملكوا ناصية الفن ، والمعروف أن للأولين السبق فى القوة والابتكار وأن للمتأخرين السبق فى الرقة والأناقة .

« ولقد كنت أود أن أضيف أسمى إلى قائمة الشعراء فدرست الشعر الفارسى كله والشعر العربى كله ، واستظهرت للمجلدات المعلقة فى جامع مكة ، ولكنى سرعان ما أدركت أن الشاعر الفذ لا يعتمد على التقليد ، ودفعتنى رغبتى فى الإجادة إلى الانصراف عن آثار الشعراء والاهتمام بدراسة الطبيعة والحياة ، والتمست فى الطبيعة إلهامى والتمست فى الأحياء جمهورى :

استطعت أن أصف ما لم أره ، وما رجوت أن أحرك مشاعر قوم لم قوم مصالحهم وأفكارهم .

« ولما اعتزمت قرض الشعر اختلفت نظرتى للأشياء واشتد انتباهى واتسعت أمامى الآفاق فبت أكثرت لكل شيء مهما بلغت تفاهته ، وذهبت أرتقى الجبال وأذرع البيد فى طلب الأخيلة والتشابيه وثبتت فى وجدانى كل شجرة فى الغابة وكل زهرة فى الوادى ، وقسمت اهتمامى بالعدل بين ذرا الجبال وأبراج القصور، ومن حين لآخر كنت أتجول بحذاء الجداول وألتفت إلى ما يطرأ على سحاب الصيف من تغير ، فكل مادة تنفع الشاعر فى شعره ، وخيال الشاعر ينبغى أن يستوعب صور الجمال جميعاً ومصادر الهول جميعاً ، وأن يألف العظيم الرهيب والصغير الدقيق على السواء ، وأن يختزن في ذهنه مادة لا ينفد تباينها من أشجار الحديقة وحيوان الغاب ومعادن الأرض وشهب السماوات ، فكل فكرة تفيد الشاعر فى تدعيم الحقائق الدينية أو الحقائق الأخلاقية التى يتحدث عنها الشاعر أو هى تفيده فى تنميق هذه الحقائق . وأوسع الشعراء دراية شاعر يجيد الانتقال من فكرة إلى فكرة ، ومن صورة إلى صورة ، ويحسن إرضاء قرائه بغريب الإشارات وجديد التعاليم .

« لذلك صرفت على دراسة ظواهر الطبيعة ظاهرة ظاهرة ، وما من بلد زرته إلا وكان له أثر فى شعرى » .

فقال الأمير : « لا شك أن كثيراً من دقائق الطبيعة والحياة قد فاتتك فى سعيك هذا للمعرفة الشاملة ، فلقد عشت عامة حياتى فى نطاق هذه الجبال ، ومع ذلك ما من مرة خرجت فيها من القصر إلا رأيت شيئاً لم تقع عينى عليه قبل ، أو لم ألتفت إليه فى الماضى » .

أجاب عملاق : « إن وظيفة الشاعر هى أن يدرس النوع لا الأفراد ، وأن يلاحظ الخواص العامة والمظاهر الواضحة ، فهو لا يعد فى زهرة التوليب

أوراقها أو يصف درجات الخضـرة التى يراها فى الغابة وهو يعرض فى تصويره للطبيعة معالمهـا البارزة الجلية مما يذكر كل ذهن بالأصل الذى نقلت عنه ، وهو يتجاهل الفوارق الدقـيقة التى إن التفت إليها فرد أهملها أفـراد مؤثراً عليها من الخصـائـص مـا يلتفت إليــه كل ذهــن منتبـه ويلحظه كل جنان ليس الإهمال من صفاته .

« ولكن معرفة الطبـيعة بعض وظيفة الشاعر لا كـلها ؛ إذ ينبغى عليه أن يعرف كذلك طرق الحيـاة جميعها ، والشـاعر لا يكون شاعراً إلا إذا أحس بما فى هذه الطرق جميعاً من سعادة أو شقاء ، وإلا إذا أدرك ما للعواطف من قوة فى جميع وجـوهها وتفاعلاتها ، وإلا إذا تتبـع ما يطرأ على ذهن الإنسان منذ طفولته الحـية حتى هرمه اليائس من تغيـر تحت ضغط التقاليد المختلفـة وبتأثير المناخ أو العادات وهو تأثير عرضى ، وعلى الشاعر أن يجرد نفسه من الأحكام الفاسـدة والأحكام الموروثة التى يفرضـها عليه جـيله أو يفرضهـا عليه بلده ، وعليه أن يهتدى إلى الحق والباطل فى صورتهمـا المجردة الثابتة ، كما أن عليه أن يغض النظر عما حوله من قوانين وآراء وأن يسمو إلي الحـقائق الغيبية العامة التى لا تتبـدل مع الأيام ؛ ولذا فإن على الشاعر أن يقنع بما يصـيب من صيت محدود ، وأن يزدرى إعجاب مـعاصريه شاخصاً ببصره إلى الأجـيال التالية ، فهى الحكم العدل . وهو فى قـريضه يترجم عن الطبيعة ويشـترع لبنى الإنسان ويرسم للخلف سبيلهم فى الرأى والحيـاة ، لأنه كائن يرتفع على حدود الزمان وقيود المكان .

« وما هذا إلا بعض واجب الشـاعر ، فإن عليه أن يتعلم الـلغات العديدة والعلوم المختلفة ، كـما أن عليه أن يروض نفسه بالمرانـة المتصلة على كل رقيق من التعبير وكل حلو من التنغيم ، حتى يكون أسلوبه كفواً لأفكاره » .

الفصل الحادى عشر

عملاق يستأنف قصته : كلمة فى الحج

وحين بلغ عملاق هذه المرحلة من حديثه تملكته الحماسة وذهب يعظم من شأن صناعته حتى صاح به الأمير يقول : « كفاك ما قلت عن الشعراء . لقد أثبت لى أن عمل الشاعر ليس فى متناول البشر ، فامض فى قصتك » .

قال عملاق : « نعم ، إن عمل الشاعر أشق ما يكون » .

أجاب الأمير : « إنه لكذلك ، ولهذا فلنؤجل الحديث عنه إلى وقت آخر . قل لى أين ذهبت بعد أن خرجت من بلاد العجم ؟ » .

قال الشاعر : « بعد أن خرجت من بلاد العجم طفت بمدائن سوريا وأقمت بفلسطين ثلاثة أعوام حيث تعرفت على عدد عظيم من أهل شمال أوروبا وغربها الذين يستأثر شعوبهم بأسباب العلم وأسباب القوة فى هذه الأيام ، فجيوشهم الغازية لا سبيل إلى ردها وأساطيلهم تذل أقصى بقاع المعمورة . وحين قارنت بين أولئك الناس وبين أبناء وطنى وما حوله من أقطار خيل إلىّ أن أولئك الأوروبيين قد صنعوا من طينة أخرى ، فبلادهم قد حوت كل شئ تتمناه النفس ، وبها ألف فن لم يسمع به إنسان ، وهم دائبون فى جدهم لتوفير وسائل الراحة والمتعة ، وكل ما حرمهم مناخهم منه زودتهم به تجارتهم » .

قال الأمير : « ولكن من أين للأوروبيين هذا البأس ؟ وإذا كان ميسراً لهم أن يزوروا آسيا وأفريقيا للإتجار أو للغزو فماذا يمنع الآسيويين والأفريقيين

من غزو سواحلهم واستعمار موانيهم ؟ إن الريح التى تعود بهم إلى بلادهم تحمل الآسيويين والأفريقيين كذلك ».

أجاب عملاق : « إنهم أقوى منا يا سيدى الأمير لأنهم أحكم منا ، والعلم يقهر الجهل لا جدال فى ذلك ، ودليل ذلك أن الإنسان يتحكم فى الحيوان ، ولكنى لا أدرى كيف اتفق لهم أن يكونوا أوسع منا علما ، ولا تفسير لذلك عندى إلا أن هذه مشيئة الكائن الأسمى » .

وتنهد الأمير قائلا : « متى يتاح لى أن أزور فلسطين وأتصل بمجمع الأمم هذا ، وإلى أن يتحقق هذا الحلم السعيد دعنى أعلل النفس بما ترويه أنت علىّ من أخبار ، وأنا أعلم الدافع الذى يأتى بأولئك الناس من أقاصى الأرض ليجتمعوا فى تلك البقعة ، ولا شك عندى أنها مركز الحكمة وملتقى الأتقياء ، وخليق بعقلاء الأرض أن يحجوا إليها بلا انقطاع » .

قال عملاق : « إن من البلاد ما لا يبعث إلى فلسطين إلا نفراً قليلا ، فالكثرة المطلقة من المثقفين فى أوروبا قد اتفقت على الزراية بالحج واعتباره خرافة من الخرافات » .

قال الأمير : « أنت تعلم كيف حال سجنى دون وقوفى على الآراء المختلفة ، والوقت لا يتسع لسماع حجج الفريقين كلها ، ولا ريب أنك قد وازنت بينها فإلام انتهيت ؟ ».

أجاب عملاق : « قد يكون الحج خرافة وقد يكون عملا حكما ، شأنه فى ذلك شأن كثير من الشعائر الدينية ، فكل شىء يتوقف على الأساس الذى انبنى عليه ، فطول الترحال طلباً للحقيقة ليس من أوامر الكائن الأسمى ، لأن الحقيقة توجد أينما تلتمس بنية خالصة وتغير المكان لا يضيف إلى تقوى الإنسان شيئا لأنه يفضى حتما إلى تشتيت الذهن ، ولكن الناس يقصدون

إلى الأماكن التى حدثت فيها الحوادث المشهودة لزيارتها ، ثم يعودون منها وقد تمثلوا تلك الحوادث تمثلا قويًا . وهكذا قد يدفعنا مثل هذا الفضول إلى زيارة البلاد التى نشأت فيها دياناتنا ، وإنى لأعتقد أنه ما من إنسان زار تلك المواقع الرهيبة إلا وتأكد فى نفسه اليقين وقيد نفسه بالعهود المقدسة ، أما قولهم بأن الكائن الأسمى يستمع إلى صلوات الناس فى مكان ما دون سواه من الأمكنة فهو خرافة من خرافات المتبطلين ، ولكن اختبارنا المتكرر قد دلنا على أن من الأمكنة ما قد يؤثر فى تفكيرنا تأثيراً غير مألوف ، ومن يعتقد أن رذائله سوف تسهل محاربتها فى فلسطين فقد أخطأ ، ومع ذلك فزيارته للأراضى المقدسة قد لا تكون حماقة من الحماقات ، ومن يحسب أنه سينال الغفران عن خطاياه فى الأراضى المقدسة بأيسر مما يناله فى غيرها من البلاد فقد دنس حرم الفكر وامتهن جوهر الدين » .

قال الأمير : « هذه الفوارق من عمل الأوروبين وسوف أتدبرها فى فرصة أخرى ، أما الآن فحدثنى عن أثر المعرفة كما لمسته . أوجدت أن الأوروبيين أكثر منا سعادة ؟

أجاب الشاعر : « إن فى العالم من الشقاء ما يلهى كل إنسان عن البحث فى الموازنة بين بأسائه وبأساء الآخرين . ولا جدال فى أن المعرفة باب من أبواب السعادة كما يستدل من رغبة كل ذهن فى أن يوسع معارفه ، والجهل جدب وفى الجدب لا ينبت شىء . الجهل فراغ تجلس فيه الروح بلا حراك خاملة لا تجد ما يجذبها ، ونحن نسعد بالمعرفة ونبتئس للنسيان دون أن ندرى لذلك سببًا ، ولهذا أستخلص أن سعادتنا تطرد باطراد علمنا إذا لم يجد ما يفسد هذا الوضع الطبيعى .

« ونحن حين نتحدث عن أسباب الراحة فى الحياة نجد أن الأوروبيين قد سبقونا فى هذا المضمار بمراحل طويلة ، فهم يضمدون الجراح التى تضنينا

ويشفون الأمراض التى تفتك بنا وتعذبنا رداءة الجو أما هم فيتغلبون عليها ، وهم يستخدمون الآلات فى إنجاز أعمالهم الشاقة أما نحن فنستخدم الأيدى ، ووسائل الاتصال بين الجهات البعيدة متوافرة عندهم وهى تقرب بين الناس ، وسياستهم تنحو إلى إزالة المتاعب العامة جميعاً ، فهم يشقون الطرق فى الجبال ويقيمون الجسور فوق الأنهار ، بل إن بيوتهم الخاصة تتوافر فيها الراحة أكثر مما تتوافر فى بيوتنا ، وممتلكاتهم فى حمى من عدوان المعتدين أكثر من ممتلكاتنا » .

فقال الأمير : « لا شك أنهم سعداء بأسباب الراحة هذه ، وإنى لأجد أن أعظم هذه الأسباب نفعاً هى أسباب الاتصال التى تجمع الأصدقاء المفرقين وتيسر تبادل الأفكار » .

قال عملاق : « إن الأوروبيين أقل منا بؤساً ، ولكنهم برغم ذلك لا ينعمون بالسعادة ، فأينما ذهبت وجدت أن الحياة الإنسانية عبء فادح كثير الرزايا قليل النعم » .

الفصل الثاني عشر

عملاق يستأنف قصته

قال الأمير : « أنا لا أسلم حتى الآن بأن السعادة نادرة كل هذه الندرة بين البشر ، وأعتقد اعتقاداً ثابتاً أنى لو كنت أتحكم فى تصريف حياتى لملأت كل يوم من أيامى بأسباب السعادة ، ولتجنبت الإضرار بالغير ولتحرجت من الإساءة إلى الآخرين ، ولأغثت كل ملهوف فأنعم منهم بالشكران . نعم . لو كنت أتحكم فى تصريف حياتى ، لاصطفيت خلانى من عقلاء الناس ولاخترت زوجتى من فضليات النساء ، فأتقى بهذا أو ذاك الغدر وسوء المعاملة ، ولكان أبنائى بفضل رعايتى ذوى علم وصلاح فيجزوننى فى شيخوختى عما كبدتنيه طفولتهم من عناء ، ومن استطاع أن يدعو آلاف الناس الذين غمرهم إحسانه أو عضدهم بقوته فيخفوا إليه منجدين فلا خوف عليه من عدوان المعتدين . وما أخلق الحياة بأن تنساب هادئة بين رعايه الضعفاء وإجلال الناس ، وهذا ما نستطيع أن نصل إليه دون حاجة إلى كماليات الأوروبين ، فظاهر تلك الكماليات يدل على أنها زائفة لا نافعة ، فلننس الأوروبيين الآن ولنعد إلى أسفارك أنت ياعملاق » .

قال عملاق : « خرجت من فلسطين واجتزت الكثير من أقطار آسيا ، ففى المناطق التى تعرف الحضارة كنت التاجر البائع الشارى ، وفى جبال المتبربرين كنت الحاج الزائر ، وأخيراً هزنى الشوق إلى بلادى لأستريح فى أرض طفولتى بعد طول تجوالى لأمتع إخوان الصبا برواية مغامراتى عليهم .

وكثيراً ما انصرف خيالى إلى رفاقى فى فجر الحياة فتوهمتهم جالسين من حولى فى مسائها عاجبين لما أقُصٍّ عليهم من أخبار ، آخذين بما أزجى إليهم من نصائح .

« ولما اختمرت فى رأسى هذه الفكرة بدأت أضيق بفراق الحبشة وأعد كل لحظة تمضى بعيداً عنها مضيعة لحياتى ، وأسرعت إلى مصر ، وفى مصر وجدت ما يستبقينى عشرة أشهر برغم لهفتى إلى وطنى فدرست آثار فخامتها الزائلة وتعرفت على أطلال علمها الغابر ، وفى القاهرة رأيت خليطاً من جميع شعوب الأرض ، فمن الناس من أمها طلباً للعرفان ، ومنهم من أمها طلباً للمال ، ومنها من أمها ليتزوى عن قومه وسط جموعها الزاخرة فيحيا الحياة التى يرضاها ، وهؤلاء كثيرون ، ففى حاضرة تضيق بسكانها كالقاهرة يستطيع المرء أن يجمع بين مزايا الحياة الاجتماعية ومزايا العزلة والانسحاب .

« ثم انتقلت من القاهرة إلى السويس ، وركبت البحر الأحمر بحذاء الساحل كله حتى بلغت الثغر الذى أبحرت منه منذ عشرين عاماً قبلها ، وفى الثغر انضممت إلى قافلة دخلت بى أرض وطنى .

« وكنت أنتظر من أهلى وذوىّ أن يستقبلونى بالترحاب ، ومن أصحابى أن يكرموا وفادتى ، وبقى لى بعض الأمل فى أن أبى قد ينسى كلفه العظيم بالمال ويعتز بولده الذى استطاع أن يشرف أمته ويسعدها ، ولكن سرعان ما أدركت أنى كنت واهماً فيما رجوته ، فقد وجدت أن أبى قد مات بعد رحيلى بخمسة أعوام ، وأن إخوتى قد اقتسموا ماله وانتقلوا إلى مقاطعة أخرى ، وأن الكثرة المطلقة من خلانى قد صرعتهم يد الردى ، أما من بقى منهم ففريقٌ كاد أن ينسانى وفريق اشمأز من مسلكى حاسباً أنى قد تطبعت بطباع أجنبية فاسدة .

« ولم أبتئس لكل ذلك ، فمن تعوّد تقلبات الأزمان والأوطان لا يبتئس . وتناسيت بعد قليل ما صادفت من خيبة أمل ، وتقدمت إلى أشراف المملكة فأفسحوا لى مكاناً فى موائدهم ، واستمعوا لقصتى ثم صرفونى إلى غير رجعة ،

وفتـحت مدرسة ولكن التـعليم حرم عليّ ، ورأيت آخر الأمـر أن أعتكف فى دارى وألتمس الحـياة الهـادئة ، وتقدمت لخطبة فـتاة كانت تـرتاح إلى حديثى ولكنها رفضت الزواج منى لأن أبى كان من طبقة التجار .

« وأعيـانى ما لقيت من إعراض مـتكرر فعزمت آخـر الأمر أن أنزوى من العـالم ، وأن أستغـنى جملة عن آراء الغـير ونزواتهم ، وانتظرت اليـوم الذى يفتح فـيه الوادى السعيـد أبوابه لأودع دنيا المخاوف والآمال ، فلمـا حل اليوم تقدمت بما عندي من فن فحاز الرضا وأسلمت نفسى مغتبطاً للعزلة الدائمة » .

قـال الرأس إيـلاس : « وهل وجدت أخـيراً السعـادة التى تنشد ؟ قـل ولا تتحـفظ فى الكلام . أراضٍ أنت بحالك الآن ، أم تراك تحـن إلى البحث والتجـوال من جديد ؟ إن أهل هذا الوادى راضـون بنصيبـهم جميـعاً ، وهم يستقدمون غيرهم كل عـام فى زيـارة الإمـبراطـور ليشاركوهم مـا هـم فيـه من سعادة » .

أجاب عمـلاق : « إليك بالحق الصراح أيها الأميـر العظيم . ما من أحد بين أتباعك لا يلعن اليـوم الذى دخل فيه هذا المعتكف ، وأنا أقلهـم تعاسة ، لأن رأسى يزخر بالصور والأفكار أستعيدها وأقلبها كيفما شئت ، وحين أحس بالوحشـة أجدد فى نفـسى ما تعلمتـه فى زمانى وكـدت أن أنساه وأستـعرض حوادث حياتى الماضـية ، ولكن يؤسفنى آخر الأمر أن أذكر أن كل مـا تعلمته من عظات قد غدا لا نفع فيه وأن كل ما عرفته من لذات لن يعود ، أما غيرى من أهـل هـذا الوادى فيعيشون فى الحاضر لا سواه تنخر فيهم الشهوات الخبيثة أو يضرب فى نفوسهم الغبية فراغ أبدى » .

قال الأمير « وماذا تكون هذه الشهوات عند قوم لا تنافس بينهم على شىء ؟ إننا نحيا هنا حياة يبطل العجز والحقد . . والملذات فيها ملك للجميع مشاع ، فلا مجال إذن للتحاسد » .

قال عملاق : « قـد يكون متاع المادة ملكاً بيننا مشاعاً ، أمـا التقدير وأما الحب فلا سبيل إلى امـتلاكهما على الشيوع ، فـلابد أن بيننا من يكتسب رضا الآخرين أكـثر من سواه ، ومن يحس بأنه مـحتقر مـزدرى يحسد الغـير على الدوام ، ومما يزيد من حسده ونقمته أن يُلزم بالحياة بين محتقريه ومزدريه طوال عمره ، وإنك لتراهم يعملون على اجتـذاب الغير إلى واديهم برغم إحساسهم بشاعـته ومثل هذا الإغراء لا يصدر إلا من حـاقد يعلم أن بؤسه أبدى . إنهم يضيقـون بأنفسهم وإن كلا منهم ليضـيق بأخيه ، ولذا تراهم يستـريحون كلما أقبـل عليهم فـوج جديد ، فـهم ينفسـون على الأحرار الحـرية التى فقـدوها بطيشـهم وحماقـهم ، وأعذب مناهم أن يروا أهل الأرض طرّاً سـجناء مثلهم يتعذبون .

« أما أنا فبرئ من هذا الذنب ، فمـا من أحد يستطيع أن يزعم أنى أغريته على ولوج هذا المعتقل ، وإنى لأرثى لحال ذلك الحشد البائس الذى يسعى كل عام إلى الأسر مختاراً ، فليت من حقى أن أحذرهم من هذا المصير المشئوم » .

قال الأمير : « عملاق ياصديقى ، سوف أكشف لك عن طويتى بإخلاص تام . لقد فكرت من قـبل طويلا فى الفرار من الوادى السعيـد ، ولقد بحثت فى جباله عن منفذ واحد ، ولكـنى وجدت أن أسواره لا تلين ، فأرشدنى إلى وسيلة أفتح بـها أبواب سجنى ، ولتكن رفيقى فـى فرارى ورائدى فى جولاتى وشريكى فى قسمتى ونصيبى ، والموجه الأوحد لى فى تقرير المصير » .

فأجاب الشاعر : « إن هربك ياسيدى أمر شاق ، ولقد تندم على فضولك بعد حين قليل . أنت تتوهم الدنيا ناعمـة هادئة كمياه الغدير فى هذا الوادى ، ولكنك ستـجدها بحراً عـاصفـاً متـلاطم الأمواج دواماته تـهلك السائحين . ولسوف يـغمـرك آنـاً طوفـان العنـف ، ولسوف ترتطـم آناً بصخـور الغدر ،

ولسوف تذهب نفسك حسرات على هذا المرفأ الهادئ حين ترى ظلم الظالمين وخداع المخادعين وقلق الحيارى وشقاق المتنافسين ، ولسوف تزهد فى الأمل لتأمن من الخوف . »

قال الأمير : « لا تحاول أن تثبط من عزمى ، فلهفتى لرؤية ماقد رأيته عظيمة ، ومادمت أنت تضيق بالوادى فلا جدال أن حياتك الماضية كانت أسعد من حياتك الحاضرة ، ومهما تكن نتيجة هذه التجربة فقد صح عزمى على أن أشهد بنفسى أحوال الناس ثم أتدبر أمرى وأقرر مصيرى » .

قال عملاق : « سوف تجد ياسيدى الأمير أن نصحى لك أقل الحواجز حيلولة دون تحقيق ما تتمنى ، ولكن إذا كنت صادقاً فى عزمك فلا تيأس ، فما يعز على القدرة والمثابرة إلا أمور قليلة » .

الفصل الثالث عشر

الرأس إيلاس يهتدى إلى وسيلة للفرار

ثم صرف الأمير صفيه ليستريح ، ولكن قصص العجائب التى سمعها بلبلت خواطره ، وأدار برأسه تلك القصص وأعد ما لا يحصى من الأسئلة ليطرحها عليه فى الصباح .

وزايله قلقه إلى حد عظيم ، فقد ظفر بصديق يستطيع أن يشركه فى خواطره ، صديق له من التجارب ما يستضىء به الأمير لتحقيق رغبته فى الفرار ، وخفف ذلك كثيراً من لوعته الصامتة ، وبدا له أن الوادى السعيد ذاته يمكن احتماله بمعرفة هذا الصديق ، وكانت أقصى أمانيه أن يتمكن من جوب العالم فى معيته .

وبعد أيام انطلق الماء من الغار المسدود وجفت الأرض ، وخرج الأمير ومعه عملاق يتريضان ويتبادلان الحديث بعيداً عن عيون الآخرين ، وكان الأمير دائم التفكير فى سجنه ، فما إن مراً بالباب الحديدى العظيم حتى خاطبه قائلا مهموماً :

« لم خلقت قوياً ، ولم خلق الإنسان ضعيفاً ؟ »

فأجاب رفيقه : « إن الإنسان لم يخلق ضعيفاً ، بالمعرفة تقهر القوة ، وإن العالم بطبيعة الآلات ليسخر من القوة ، وإنى لأستطيع أن أفتح هذا الباب ، ولكنى أخشى عيون الرقباء ، فلابد من التفكير فى وسيلة أخرى » .

وفيما كانا يمشيان بجوار الجبل لاحظا أن الأرانب التى أخرجها المطر من وجارها قد احتمت بالشجيرات وحفرت لنفسها من خلفها حفراً ترتفع فى خط مائل .

قال عملاق : « كان القدماء يرون أن عقل الإنسان قد استرشد فى كثير من مبتكراته بسلوك الحيوان ، فلا غضاضة فى أن نتعلم عن الأرانب شيئاً ، وقد ننجح فى الهرب إذا اخترقنا الجبل فى نفس الاتجاه ، ولنبدأ حيث تشرف القمة على المنتصف ، ولنحفر طريقنا فى خط مائل إلى أعلى حتى نخرج من وراء القمة » .

وحين سمع الأمير هذا الرأى أضاءت عيناه فرحاً ، فقد كان تحقيقه ميسوراً ونجاحه أكيداً ، وبادرا إلى العمل فخفا مبكرين فى الصباح التالى ليختارا المكان الملائم للتجويف ، وشقا طريقهما بين الصخور والأعشاب بمشقة مضنية ، ولكنهما رجعا دون أن يوفقا إلي بقعة صالحة ، كذلك كانت الحال فى اليوم الثانى وفى اليوم الثالث ، ولكنهما عثرا فى اليوم الرابع على كهف صغير مختبئ وراء دغل صغير فقرر قرارهما على اختياره .

وجاء عملاق بالأدوات الصالحة لكسر الأحجار ونقل التراب ، وفى اليوم الذى يليه بدأا العمل بهمة ونشاط لم يبدياها من قبل ، ولكن سرعان ما أرهقهما المجهود فجلسا على الأعشاب يلهثان ، ولاح اليأس فى وجه الأمير لحظة فقال له رفيقه :

« سوف نعتاد العمل بالمثابرة ياسيدى ، ولو قد رأيت الشوط الذى قطعناه بدت لك النهاية قريبة لا ريب فيها . إن الأعمال العظمى ليست ثمرة القوة ، بل ثمرة للاجتهاد . إن ذلك القصر قد أقيم بأحجار متفرقة ، ومع ذلك فهو شاهق منيف . وإن من يدأب على السير ثلاث ساعات كل يوم يقطع فى سبعة أعوام بعداً يعادل محيط الكرة الأرضية .

وعادا إلـى العمل يومـاً بعد يوم ، وسـرعان مـاوجدا فى الصـخرة شـقّا أمكنهما أن ينفذا فيه مسافة طويلة بغير عناء كبير ، واستبشر الرأس إيلاس خيراً بهذا التـوفيق ، فقال عمـلاق : « لا تستسلم للآمال أو للمـخاوف ، بل الزم حدود العقل فى انتظارك للأمور ، ومن يتيمن بما يصادفه من دلائل اليسر لابد أن يتطير لما يصادفه من عسر بعـد ذلك ، وتحكمت فى حياته الخرافات ، وكل ما يمهد لنا السبل ليس مجرد فأل بل هو سبب من أسباب النجاح ، وهذا الذى وجدنا مـصادفة سـارة تشحـذ العزم القوى . وكـثير من أمـور الحيـاة يصعب تصميمه ولكن تنتفيذه سهل يسير » .

الفصل الرابع عشر

الرأس إيلاس وعملاق يفاجأن بزيارة غير منتظرة

وبلغا فى سعيهما منتصف الطريق فتعزيا عن كدحهما بدنو تحررهما ، وفيما كان الأمير يخرج من النفق لاستنشاق الهواء النقى إذا به يجد أخته نكاية تنتظره عند فم النفق ، فاستفاق لما رأى ثم تبلبلت خواطره وخشى أن يصارحها بحقيقة الأمر ، ولكنه أحس بأن الكتمان لا يجدى شيئاً وبعد لحظات انتهى رأيه إلى أن يثق بوفائها فأفضى إليها بكل شىء دون تحفظ ، راجياً منها أن تصون السر .

قالت الأميرة : « لا تحسب أنى جئت لأتجسس عليك ، فلقد لاحظت منذ أيام عديدة أنك تسير مع عملاق إلى هذا البقعة بالذات كل يوم ، وما ظننت إلا أنكما تلتمسان فيئاً رطيباً أو دغلاً عاطراً لا تجدانه فى مكان آخر ، وما سعيت إليكما إلا للتحدث إليكما ، ولكن ما دمت قد وقفت على سركما مصادفة فأذنا لى أن أنتفع بما وقفت عليه ، وأنا مثلكما قد سئمت الحياة فى هذا السجن المحصور ، وليست رغبتى فى اختبار شئون الدنيا بأفراحها وأتراحها بأقل من رغبتكما ، اسمحا لى أن أهرب معكما من هذا الهدوء الممجوج ، فلسوف يغدو هذا الهدوء أثقل على فؤادى مما هو الآن بعد أن تمضيا عنى . إن فى إمكانكما أن تأبيا علىَّ اصطحابكما ، ولكن ليس فى وسعكما أن تمنعانى من اقتفاء أثركما » .

وكان الأمير يحب نكاية أكثر من حبه لأخواته الأخريات ويميل إلى إجابتها إلى ما تطلب ، ولقد أسف لأنه لم يدعـها مختاراً إلى الاشتراك فى مـجازفته وقر الرأى على أن تخـرج نكاية معهـما من الوادى السعـيد ، وإلى أن يتيـسر لثلاثتهم ذلك اتفقوا على أن تقف الأميرة ديدباناً تراقب القاصدين إلى الجبل .

وأخيراً فرغا من عملهما وشاهدا الضوء من وراء الرابية ، وخرجا إلى قمة الجبل فأبصرا النيل يجرى من تحتهما ضيقاً متعرجاً .

وتلفت الأميـر حوله فرحان جذلا ، واشـتغل خياله بما سـوف يجنيه فى أسفاره من متع ، وطارت خواطره فتجـاوزت ملك أبيه ، أما عملاق فقد كان برغم سروره بالنجـاة أقل من الأمير انـتظاراً لمتع الدنيا ، فقـد عرفهـا من قبل وملتها نفسه .

وكانت سعادة الرأس إيلاس بالآفاق الرحيبة سعادة عظيمة حقًا ، حتى لقد تعب عملاق فى إقناعه بالعودة إلـى الوادى ، وأعلن الأمير للأميرة أن الطريق أمامهم مفتوح ، فلم يبق إلا أن يعدوا العدة للرحيل .

الفصل الخامس عشر

الأميرة والأميرة يخرجان من الوادى ويريان عجائب الدنيا

وحمل الأمير والأميرة من الجواهر ما يأتيهما بالمال الكثير كلما هبطا مكاناً فيه التجار ، وأرشدهما عملاق إلى تخبئة تلك الجواهر بين طيات ثيابهما . وليلة اكتمل البدر الثانى خرج ثلاثتهم من الوادى ، وكان يتبع الأميرة صفية من صفياتها لم تكن تدرى أين المتجه .

وشقوا طريقهم فى الفجوة ثم أنشأوا يهبطون الجانب الآخر من الجبل ، وأجالت الأميرة ووصيفتها البصر فى جميع الأرجاء،فشاهدتا رحاباً ليس لها منتهى ، وخالت كل منهما أنها قد ضلت فى تيه عقيم ، وتوقفتا عن المسير ترتجفان . وقالت الأميرة :

« إنى أكاد أتوجس شراً من رحلة لا أعلم لها نهاية ، وأشفق من التوغل فى هذا السهل العظيم ، فلقد يخرج علينا من جميع الجهات رجال لم أرهم من قبل » .

وكان الأمير يشاركها هذا الشعور ، ولكنه استحيى من إظهاره .

وابتسم عملاق حين رأى جزعهم وذهب يشجعهم على المضى فى السير ، ولكن الأميرة مضت فى سيرها على غير وعى منها حتى توغلت فى السهل توغلا استحالت بعده العودة .

وفى الصباح رأوا نفراً من الرعاة فى الحقل ، وقدم لهم الرعاة شيئًا من اللبن والفاكهة ، وأدهش الأميرة أنها لم تجد فى انتظارها قصراً يستريحون فيه وخواناً فيه طيبات الحياة يمد أمامهم ، ولكنها أقبلت من فرط جوعها وإعيائها على اللبن فشربته وعلى الفاكهة فأكلتها ، وتوهمت أن ما شربت وما أكلت لا مثيل له فى الوادى السعيد .

ولما كانوا جميعًا من المنعمين المرفهين فقد تقدموا فى رحلتهم على مهل مطمئنين إلى أن أهل الوادى قد يفتقدونهم ، ولكنهم لن يستطيعوا أن يتعقبوهم ، وبعد أيام بلغوا بقعة آهلة بالسكان ، وسر عملاق ما رآه من إعجاب رفاقه بما رأوه من عادات وأعمال واختلاف بين مراتب الناس .

وكان ملبسهم بسيطًا لا يوحي بأنهم يخفون شيئًا ، ولكن الأمير الذى تعود من الناس الطاعة كان ينتظر أن يطيعه كل من يلقاه ، وكذلك ارتاعت الأميرة إذ رأت أن من يمثلون أمامها لا يقبلون الأرض بين يديها ، فكان على عملاق أن يراقب سلوكهما فى حرص عظيم ، خشية أن يهتدى الناس إلى مكانتهما الحقيقية بسبب أعمالهما الشاذة ، وعوقهما فى القرية الأولى جملة أسابيع حتى يألفا معاشرة الأفراد العاديين .

وتعلم الأمير والأميرة شيئًا فشيئًا أن ينسيا مقامهما الرفيع ، وألا ينتظرا من الناس أكثر مما يسمح به الأدب والجود ، وأمكن لعملاق أن يعدهما بنصائحه لاحتمال ما فى الموانئ من صخب ولجب وما فطر عليه التجار من خشونة ، وبعد أن نجح فى ذلك هبط بهما ساحل البحر .

وسر الأمير والأميرة بكل ما رأيا ، فقد كان كل شيء عندهما طريفا ، ولذا أقاما بالميناء بضعة شهور دون أن يبدو عليهما ما يدل على الرغبة فى الانتقال إلى مكان آخر ، وارتاح عملاق لبقائهما فقد كان يجد أن من الخطر الخروج بهما إلى بلاد أجنبية وهما على هذه الحال من السذاجة وقلة التجارب .

وأخيراً بدأ يخاف افتضاح أمرهما ، وحدد لهما موعداً للرحيل ، ولم يشأ أيهما أن يبدى فى الأمر رأياً بل أسلما له قيادهما تماماً ، وكان من ذلك أن حجز لهما مكاناً على ظهر سفينة وجهتها السويس ، ولما حان الموعد المضروب عارضت الأميرة فى ركوب السفينة أشد معارضة ولم ينجح عملاق فى إقناعها باتباع خطته إلا بعد جهد عظيم ، وكانت الرحلة سريعة ومنتجة ، ولما بلغ الأربعة السويس انتقلوا إلى القاهرة براً .

الفصل السادس عشر

الجماعة تدخل القاهرة وتجد جميع أهلها سعداء

وحين اقتربت الجماعة من القاهرة أخذت بها وعجبت لها ، فقال عملاق مخاطبًا الأمير : « هنا يلتقى السائحون والتجار من جميع أركان الأرض . هنا تجد أناساً من كل نوع ، وتجد كل صناعة تخطر لعقل إنسان ، والتجار هنا مكرمون ، ولذا فسوف أتخذ هنا صفة التاجر ، أما أنتم فستحيون حياة السائحين الذين لا مأرب لهم إلا استطلاع معالم البلاد ، وسوف يجد الناس بعد قليل أننا من أهل اليسار ، فيطير صيتنا ويتفتح أمامنا كل باب نطرقه ، وعندئذ يتاح لك أن تدرس أحوال البشر جميعاً ، ثم تتدبر فى روية أمر تقرير مصيرك » .

ودخلوا المدينة فذهلوا لما بها من ضوضاء واحتك بهم أهل المدينة ، وعادت إلى الأمير وإلى الأميرة طبيعتهما الأولى ، فراعهما أن يسيرا بين الخلائق غير محتفل بهما ، وأن يتحدث إليهما أوضع الناس شأناً دون احتشاد ، وضاقت الأميرة أول الأمر بأن تسوى بسفلة القوة فلزمت غرفتها بضعة أيام لا تبرحها ، وكانت وصيفتها المختارة تسهر على خدمتها كما كانت تفعل فى قصر الوادى السعيد .

وكان عملاق ملمّا بأساليب التجارة فباع بعض الحلى فى اليوم التالى ، واستأجر داراً أجمل زينة فعده الناس من سراة التجار ، واجتذبت إليه كثيراً من الأخدان ، واجتذب كرمه إليه كثيراً من التابعين ، وعلى مائدته اجتمع أناس

من جميع شعوب الأرض ، وقد أعجب هؤلاء بعلمه الواسع وسعوا إلى التقرب منه ، أما رفقاؤه فقد استحال عليهم الاشتراك فى الحديث ، فلم يفتضح جهلهم ، ولم يقف أحد على ما استولى عليهم من عجب ، وهكذا تعرفوا على شئون الدنيا شيئًا فشيئًا كلما ازداد إلمامهم باللغة الجديدة .

وعلم عملاق الأمير منافع المال وطبيعته فى أحاديث عدة كان يلقيها عليه ، ولكن السيدتين أبتا طويلا أن تفهما تبادل التجار للقطع الذهبية الصغيرة والقطع الفضية الصغيرة ، كما استعصى عليهما أن تدركا كيف اتفق لهذه الأشياء التى لا نفع فيها أن تسوى بضرورات الحياة .

ودرسوا اللغة عامين ، وكان عملاق فى تلك الأثناء يهيئ لهم السبيل إلى دراسة أحوال الناس من مختلف الطبقات ، وتعرف على كل من شذ مسلكهم ، وكل من اختلف حظوظهم عن حظوظ الناس ، وتردد على المستهترين والمقتصدين وعلى الكسالى والمجدين وعلى التجار وأهل العلم .

وبعد أن أتقن الأمير اللغة وتعلم الحذر الضرورى فى مخالطة الغرباء بدأ يصطحب عملاقًا إلى أماكن الترفيه ويندمج فى كل مجتمع لعله بذلك يهتدى إلى ما يناسبه فى الحياة .

وبدا له جميع الناس أول الأمر فى درجة واحدة من السعادة ، فلم يجد ضرورة لتفضيل بعضهم على بعضهم الآخر ، وأينما حل كان يرى البشر يغمر النفوس ، وأينما ذهب كان يقابل بالعطف ، وأينما قصد كان يسمع أغانى الفرح وضحكات الخَلى الذى لا يعرف الأحزان ، فظن أن الدنيا تفيض بالخيرات وأن الناس يقضون للمحتاج حاجته ويوفون للقدير قدره ، وأن الكرم من شيم الأنام ، وأن أفئدة العالمين تذوب رقة وحناناً ، فقال :

« إذا كان هذا حال الدنيا فليس لبائس أن ييئس » .

ولكن عملاقًا ترك الأمير لأوهامه ، ولم يشأ أن يملأ نفسه الساذجة ظلاماً ، وكان يوم ساد فيه الصمت بينهما فقال الأمير :

« لست أدرى ما يجعلنى أقل سعادة من سائر الناس . إنى لأرى البشر يفيض على وجوههم دائماً أبداً ، وأرانى مضطرب البال قلق النفس . إن أسباب اللهو التى أنتهبها انتهاباً لا ترضينى ، وأنا أختلط بهذا الجمع اللاهى لا حباً فى لهوه بل هربًا من نفسى ، وما مرحى وصخبى إلا لإخفاء أحزانى » .

قال عملاق : « إن لكل إنسان أن يقف على ما يدور بأذهان الآخرين إذا هو استعرض ما يدور بذهنه ، وحين تحس بأن مرحك مفتعل فمن حقك أن تشك فى مرح خلانك ، والتحاسد لا شك متبادل ، وهكذا تمضى سنون وسنون قبل أن ندرك أن السعادة لا وجود لها ، ولكن كلا منا يحسبها من صفات الآخرين ، ليحيا بقوة الأمل فى أن ينالها لنفسه يوماً من الأيام . ولقد رأيت فى سهرة الأمس جواً من النشوة عظيمًا وإنطلاقًا فى خيال السامرين لا نجده إلا فى طبيعة الملائكة الذين يسكنون السبع الطباق الصافيات بمنجى من الهموم والفجائع ولكن صدقنى أيها الأمير ، ما بين خلانك واحد لم يكن يرهب اللحظة التى يخلو فيها إلى نفسه فتسلمه الوحشة إلى عذاب التفكير » .

قال الأمير : « قد يصدق هذا عن الغير مادام يصدق عنى ، ولكن مهما يكن شقاء البشر عميقاً فلا شك أن شقاءهم يتفاوت ، والحكمة تلزمنا بأن نختار من مسالك الدنيا أقلها شقاء حين نعتزم توجيه حياتنا » .

فأجاب عملاق : « إن أسباب الخير والشر تتباين ويصعب تقديرها إلى حد عظيم ، وهى كثيراً ما تختلط وكثيراً ما تتشعب وكثيراً ما تخضع للمصادفات التى لا سبيل إلى التكهن بها ، فمن أراد أن يبنى سعادته على ظروف ثابتة ومقدمات لا يرقى إليها الشك فعليه إذًا أن يقضى العمركله باحثًا متدبراً ».

قال الرأس إيلاس : « ولكن بلا جدال فى أن عقـلاء الناس الذين نستمع إلى حديثـهم فى رهبة وخشـوع ما اختـاروا سبلهم فى الحيـاة إلا لظنهم بأنها تهديهم إلى السعادة أكثر مما يهديهم سواها » .

قال الشـاعر : « إن من يملـكون الاختيـار فى الحيـاة هم الأقلون ، وكل امرئ قد وضعته فى موضـعه القائم ظروف لا دخل له فى تفاعلها ولا سلطان له عليه ، وهذا ما يدفع كل امرئ إلى الاعتقاد بأن حظه أبأس من حظ الآخرين .

قـال الأمير : « مـهما يكن من شىء فإنـــى أشكر مولـدى الذى هيـأ لـى ما لا يملكه غيرى ، أعنى القدرة على اختيـار سبيلى فى الحياة ، فالدنيا أمامى أستعرضها على مهل ، وأعتقد أنى واجد السعادة فى مكان ما » .

الفصل السابع عشر

الأمير يصادق فتيان اللهو والصبوات

واستيقظ الرأس إيلاس فى الصباح التالى ، واعتزم أن يبدأ تجاربه على الحياة . قال « إن الشباب عهد المرح ، فخليق بى أن أصطفى من الخلان من كانوا ينقطعون لانتهاب اللذات ، ويقضون كل أوان فى استنباط المسرات » .

وتردد على مجتمعات الشباب فأكرموا وفادته ، ولكنه انسحب منها بعد أيام ، مشمئز النفس متعب الأعصاب ، فقد وجد أن أفراحهم خالية من الخيال ، ومرحهم مفتعل مصطنع ، ولذاتهم غليظة حسية لا مقام للعقل فيها ، وسلوكهم جنونى وضيع ، وكانوا يهزءون من القانون ومن النظام ، ولكن غضب الولاة أخرسهم وحكمة العقلاء أخجلتهم .

وسرعان ما أدرك الأمير أنه لن يجد السعادة فى حياة يستحى منها ، ورأى أن أهل الرشد لا يليق بهم أن يعيشوا بلا نهج ولا خطة ، وأن يتوقف شقاؤهم أو سعادتهم على محض المصادفة . وفى ذلك قال :

« إن السعادة ينبغى أن تكون ثابتة ودائمة لا يطلها الخوف ولا تتهددها الشكوك » .

ولكن صراحة خلانه وأدبهم وقعا فى نفسه موقعًا حسنًا ، فلم يشأ أن ينشق عليهم دون أن يسدى إليهم النصح .

قال : « لقد تدبرت أسلوبنا وأهدافنا فى الحياة ، فوجدت أننا قد أخطانا السبيل ، فالسنوات الأولى من عمر الإنسان ينبغى أن تكون ذخيرة لمستقبله .

ومن لا يفكر بتاتاً تمتنع عليه الحكمة ، واللهو المتصل لابد يفضى إلى الجهالة ، والإفراط قد يلهب الـنفس ساعة ولكنه يقتـضب العمر ويشقيـه ، فلنقتنع بأن الشباب قصير الأجل ، وأننا لن نجد عـزاء إلا فى تقدير العقلاء ، ولن نجد راحة إلا فى فعل الخير حين نبلغ سن النضوج .

حين تنفض من حولنا عـرائس الخيال وتفرغ أطيـاف السعادة عن رقـصها حولنا ، فلنكف إذاً قبل أن نعجز عن الكف ، ولنحى حياة الفانين الذين كتبت عليهم الشيـخوخة ، فما يفزع المرء فى شـيخوخته إلا أن يحصى أعـوام عمره بالحماقات ، ويذكر صحته الغالية كيف أفنتها العربدة وسوء التقدير » .

وحين فرغ الأمير من مـقاله شخصت إليه أبصار السـامعين ، ثم انفجروا ضاحكين مستهزئين فانصرف لحال سبيله .

وحزَّ فى نفسه استخفافـهم به ، ولـم يسر عنه إحساسه بصدق نظره وبنبالة مقصده ، ولكنه استعاد هدوءه أخيراً ، ومضى فى بحثه عن السعادة .

الفصل الثامن عشر

الأمير يعثر على رجل حكيم سعيد

وفيما كان الأمير يسعى فى الشارع ذات يوم أبصر بناء رحيبا أبوابه مفتوحة للجميع ، ودخل مع الداخلين فألفى نفسه وسط قاعة للمحاضرات أو مدرسة من مدارس الإلقاء ، وفيها رأى الأساتذة يقرءون على السامعين بحوثهم . وشخص بصره إلى حكيم كان يجلس فى أعلى مكان بين الحكماء ، وكان ذلك الحكيم يخطب الناس فى حرارة عن ضبط النفس ، وكان مظهره يوحى بالاحترام وإشاراته لطيفة الوقع وصوته واضحاً وأداؤه يؤثر فى السامعين . ودلل الحكيم ببيانه القوى وأمثاله المتعددة على أن الطبيعة الإنسانية تنحط حين تسيطر الملكات الدنيا على الملكات العليا ، وكذلك دلل على أن الخيال إذا اغتصب من العقل سلطانه انهارت دولة النفس واضطرب أمرها ، كما تنهار الدولة حين تتسلط عليها حكومة غير شرعية ، فالوهم يفتح حصون الفكر أمام العصاة الغزاة وينشر بين بنيه التمرد على الرشد ، وهو سيدها الشرعى .

وشبه الحكيم العقل بالشمس ، فضياء الشمس ثابت دائم واحد ، وشبه الخيال بالشهاب الساقط فهو قوى الوهج زائله ، سريع الحركة ولكنه مضطربها ، وهو يضلل الناظرين .

ومن ثم انتقل الحكيم إلى المبادئ التى تناقلها الخلف عن السلف لقهر العاطفة ، وبين السعادة التى ينعم بها أولئك الذين انتصروا على شهواتهم ،

فهم يتحررون من الخوف ولا ينخدعون بكاذب الآمال ، ولا الحسد يأكلهم ولا الغضب يتلفهم ولا الحنان يذيبهم ولا الحزن يؤسيهم ، بل يسعون فى الحياة هادئين أمام زعازعها كما تسعى الشمس فى مسلكها لا يستوقفها جو عاصف ولا جو مطير .

وضرب لهم مثل الأبطال الذين لا يهتزون أمام المحن ، ولا يضطربون أمام اللذات ، بل ينظرون مستخفين إلى تلك الأعراض الزائلة التى يسميها السوقة بالخير والشر ، وحض الحكيم سامعيه على نبذ أحكامهم التى لا يدعمها منطق ولا حجة ، وأن يتسلحوا بدرع الصبر القوى ليحميهم درع الصبر من سهام الحاقدين ومن ضربات القدر ، وختم خطابه بقوله إن من بلغ هذه المرتبة فقد بلغ السعادة ، وإن هذه السعادة فى متناول كل إنسان .

واستمع الرأس إيلاس إلى مقاله باحتشاد يليق بذلك العالم الجليل ، وانتظره عند الباب ورجاه فى خشوع أن يأذن له بلقائه ليتزود من حكمته النادرة . وتردد الحكيم وقتاً ما ، فوضع الرأس إيلاس فى يده كيساً مملوءاً بالدنانير الذهبية ، فاستقبل الحكيم هذه المنحة بمزيج من الفرح والعجب .

ولما عاد الأمير إلى عملاق قال له : « لقد وجدت رجلاً يعلم الناس كل ما يلزمهم أن يتعلموه فى الحياة ، رجلاً يجلس على عرش من الحكمة وطيداً هازئا بما يجرى تحت قدميه من تقلبات فى ميدان الحياة ، رجلا يتكلم فكلامه مثال الدقة فى التعبير والإخلاص فى التفكير ، ولسوف أتخذ من هذا الرجل رائدى ، فأتعلم فلسفته وأتشبه به فى كل ما أعمل » .

فأجاب عملاق : « تريث ولا تثق بمعلمى الفضائل هذه الثقة العمياء ، فحديثهم من حديث الملائكة وفعالهم من فعال البشر » .

وكان الرأس إيلاس لا يتصور أن رجلا يستطيع أن يستخدم كل هذه الحجج الدامغة دون أن تتأثر نفسه بسلامة منطقه ، ولذا فقد زاره بعد أيام ولكن لم يؤذن له بالدخول .

وكان قـد عرف ما للمـال من قوة سحـرية فأبرز قطعـة ذهبية فـتحت له الطريق إلى داخلية المنزل ، وإذا به يرى الفيلسوف قابـعاً فى غرفة لاهى مضاءه ولا هى مظلمة ، وقد أغرورقت عيناه بالدموع وشـحب وجهه ، وسمعه يقول : « لقد جئت ياسيدى فى وقت لا ينفع فيه عطف ولا إخاء ، فأوجاعى لا شفاء لها ، وما ضاع لا سبيل إلى تعـويضه . إن ابنتى الوحيدة التى كانت تحنو على فى شيـخوختى ، قد مـاتت بالحمى ليلة أمس . لقد تحطمت آمـالى وانهارت أركان فلسفتـى وانقضـى أملى فى الحـيـاة ، فأنـا الآن وحيـد أعيش بمعـزل عن الناس » .

قال الأميـر : « إن الموت ياسيدى ظاهرة لا تدهش العقلاء ، فـالموت كما نعلم قريب منا فى كل لحظة ، ولهذا ينبغى علينا أن ننتظر وقوعه » .

فأجاب الفيلسوف : « أيهـا الفتـى ، إن حديثـك حديث من لم يجـرب آلام الفراق » .

قال الرأس إيلاس : « وهل نسيت تعاليـمك التى كنت تدافع عنها بحرارة عظمى ؟ أمـا قلت إن الحكمة درع تقـى القلب سهـام الخطوب ؟ فلنتذكـر أن التغير من طبيعة المادة ، ولنتـذكر أن الحق وحده هو الثابت ، وأن العقل وحده هو الوطيد » .

قال الحـيكم المفجـوع : « وأى عزاء أجده فى الحق والـعقل يا ترى ؟ إن الحق والعقل يقولان بأن ابنتى لن تعود إلىّ » .

وأبت على الأمير رقـة فؤاده أن يؤذى الحكيم البائس بتأنيـبه فى بأساته ، فانصرف عنه مقتنعاً بأن البلاغة جوفاء كالطبول ، وبأن العبارات المنمقة لا تعبر عن الحقيقة تعبيراً أميناً .

الفصل التاسع عشر

لمحة خاطفة عن حياة الرعاة

وكان حرصه على تقصى مواقع السعادة لا يزال يلازمه ، وسمع بزاهد يقيم عند أول شلال من شلالات النيل ، زاهد ذاع صيته فى جميع أرجاء البلاد ، وتحدث الناس بصلاحه فاعتزم أن يزوره فى صومعته ليرى إذا كانت حياة الوحدة تأتيه بالسعادة التى ضنت بها عليه حياة الحضر ، وليلتمس عند ذلك الشيخ الوقور بتقواه علما يدرأ به الشرور أو يحتلمها كلما حلت به .

وقبل عملاق والأميرة أن يرافقاه فى رحلته ، ثم بدءوا الرحلة بعد الإعداد اللازم ، ومروا بالحقول فوجدوا فيها الرعاة يهشون على أغنامهم ، ورأوا الحملان تلعب فى المرعى .

قال الشاعر : « هذه حياة الرعاة التى طالما تغنى القدماء بهدوئها وبراءتها ، فلنطلب الحمى من قيظ النهار فى خيمة من خيام الرعاة ، ولنبحث عن السعادة بين المراعى الساذجة فلعلنا نجدها هناك » .

وارتاح الرأس إيلاس إلى هذا الرأى ، واستدرج الرجلان الرعاة إلى وصف حياتهم على حقيقتها ، بعد أن أغرياهم ببدر المال ، ولكن الرعاة كانوا غلاظًا أفظاظًا جهالا لا يحسنون التمييز بين مزايا حياتهم ومساوئها ، ولا يجيدون الوصف ولا التعبير ، فلم يأخذا عنهم شيئًا يعول عليه ، ولكنهما استخلصا أن قلوبهم كانت تفيض بمر الشكوى ، وأدركا أنهم يعتقدون بأن

الرعاة جماعة قضى عليها بأن تكدح ليصيب الأثرياء الترف الذى يشتهون ، فهم ناقمون على كل من ارتفعوا فى الحياة عليهم مكانة وجاهاً .

وقالت الأميرة محتدة بأنها لا ترضى بالبقاء بين أولئك الهمج الحاقدين ، وأنها تؤثر ألا ترى وجهًا آخر من وجوه تلك السعادة الريفية ، ولكنها كانت لا تزال تؤمن بأن بعض ما سمعته عن لذة الحياة الساذجة ليس من عمل الأساطير ، وبقى لها شىء من إيمانها بأن السعادة الوادعة بين الحقول والغابات لا تضارعها سعادة ، وأعربت عن أملها فى أن تزور الريف فى وقت ما بين نخبة من أهل الذوق والفضل ، فتقطف من الأزهار ما زرعته يداها ، وتلاعب الحملان التى تلدها شاتها ، وتستمع خلية البال بين الجداول والنسمات إلى وصيفة من وصيفاتها تقرأ كتاباً فى الأشجار .

الفصل العشرون

مساوئ الثراء

واستأنف الثلاثة رحلتهم فى اليوم التالى حتى ألزمهم الحر أن يبحثوا عن مأوى ، وعلى بعد قليل رأوا غابة صغيرة ، وما أن ولجوا الغابة حتى أدركوا أنهم يقتربون من بعض المساكن ، وكانت الشجيرات قد اجتثت بعناية حتى تفسح الطريق أمام المارة ، أما الأغصان المتقابلة فقد كانت تتشابك بترتيب من يد الإنسان لا بفعل الطبيعة ، وفى كل فراغ أقيمت أرائك من حشيش مبسوط نمت به الأزهار ، وجرى نهير متعرجًا بحذاء طريق متعرج وكانت فى ضفتيه فتحات تصب فى أحواض صغيرة ، أما مجراه فقد كانت تعترضه أكوام من الأحجار صغيرة وضعت فيه ليزداد بها الخرير .

واخترقوا الغابة على مهل وقد سرهم ما صادفوا من أسباب الترف والتنميق على غير انتظار ، ومضوا يتكهنون بهوية ذلك السيد المفتن الذى وجد فى وقته متسعاً لهذا الترف والتنميق .

وتقدموا فى سيرهم فسمعوا أنغامًا ورأوا فتيانًا وعذارى يرقصون فى الغابة ، وتوغلوا فى سيرهم فشاهدوا قصراً منيفاً مشيداً على تل وبالقصر تحيط الأدغال ، ودخلوا القصر تبعاً لحقوق الضيافة عند أهل الشرق فاستقبلهم رب القصر بالبشر والترحاب .

وكان ذلك السيد ذا عين فاحصة فقرأ فى مظهرهم ما دله على أنهم ليسوا من عامة الناس فأقام لهم مأدبة عظيمة ، واسترعى انتباهه فصاحة عملاق ، أما أدب الأميرة الذى ينطق بالنبالة فقد استحق منه الاحترام .

ولما رغبوا فى الرحيل رجاهم فى البقاء ، وكان تشبثه بهم فى اليوم التالى أكثر من تشبثه بهم فى اليوم الأول ، وقبلوا دعوته شاكرين ، وبمضى الأيام زالت الحواجز بينهم وحلت محلها الثقة والحرية .

ورأى الأمير الخدم فى أسعد حال والطبيعة حوله فى أبهج حلة ، فداعبه الأمل فى أن يجد ضالته فى ذلك المكان ، وهنّأ الأمير رب القصر على السعادة الغامرة التى يعيش فيها ، ولكن رب القصر قال مبتسمًا : « إن عندى من مظاهر السعادة شيئاً عظيماً ولكن المظاهر مضللة ، فثرائى العظيم يعرض حياتى للخطر ، وباشا مصر يحنقه أن يرى فى هذا الجاه كما يحنقه أن يرى قلوب الناس متعلقة بى ، ولقد حمانى من غدره حتى الآن أمراء البلاد ، ولكن عطف العظماء لا يعول عليه دائماً ، ولست أدرى متى يغرى الباشا حماتى بالاشتراك فى نهبى ، ولقد أرسلت كنوزى إلى بلاد بعيدة ولسوف أبادر إلى اللحاق بها حين أرى ما ينذر بالخطر ، وعندئذ سوف يتمتع أعدائى بقصرى وحدائقى » .

وأقبل الجميع على السيد يواسونه فى حاله ويأسفون لما هو فيه من نفى متصل ، وقد بلغ من ألم الأميرة وغضبها أنها انسحبت إلى جناحها .

وأقاموا فى ضيافة هذا السيد الجواد أيامًا أخرى ، ثم رحلوا عنه بحثًا عن الزاهد .

الفصل الحادى والعشرون

الوحدة وسعادتها : قصة الزاهد

وفى اليوم الثالث دلَّهم الفلاحون على صومعة الزاهد ، فإذا بها كهف فى جبـل تظلـه أشـجـار النخيـل ، وكان الكهف على بعـد من الشلال عظيم ، فلم يصله من هديره الصاخب إلا خرير رقيق مـنتظم يهدئ النفس ويعدّها للتأمل العمـيق ، وكانت عذوبة الخـرير تزداد كلما صـفرت الريح بين الأغصـان وقد أدخلت يد الإنسان على هذا الكهف من الإصلاح ما أحال تلك الفجوة الخشنة إلى معـتكف به حجرات كـثيرة ، تستـخدم فى مخـتلف الأمور ويحط فيـها الرحال من حين لحين ، . كلما أدركهم ظلام الليل أو عصفت بهم الأنواء .

وكان الزاهد يجلس علـى أريكة عند الباب ليسـتمتع بنسـيم الماء ، وكان بجواره الأقلام والقراطيس وإلى جانبـه الآخر أدوات آلية من مختلف الأنواع . واقتربـوا منـه فلم يحس باقترابهـم وقرأت الأميـرة فى وجهـه ما يـدل على أنه لا يدرى عن السعادة شيئاً .

وحيوه باحترام عظيم فرد عليهم رد من ألف آداب البلاط . قال : « يابنى إذا كنتم قد ضللتم الطريق فسوف تجدون فى هذا الكهف منزلا تأوون فيه سواد الليل ، وإن لدى ضرورات الحياة جميعاً ، أما الكماليات فلا أحسبكم تتوقعون أن تجدوها فى صومعة ناسك » .

وشكروه ثم دخلوا ، وراقهم مـا رأوه حولهم من حسن التـرتيب وجاءهم الناسك باللحم والنبيذ ، ولكنه ما أكل إلا الفـاكهة وما شرب إلا الماء ، وكان حديثـه مرحـاً ولكن فى حدود الوقـار ، ورعاً ولكن دون حـماسـة شديد . وسـرعـان ما ألـزم أضـيـافـه باحترامه وقـد أسفت الأمـيـرة علـى تعجلـهـا فى الحكم عليه .

وأخيراً انتقل عملاق إلى الموضوع فقال : « هذا يفسر كيف ذاع صيتك فى العالمين ، ولقد سمعنا بحكمتك فى القاهرة فقصدناك راجين أن تدل هذا الفتى وهذه الفتاة على أسعد سبيل يسلكانه فى الحياة ».

فأجاب الناسك : « إن السعادة من نـصيب الأخيار ، وما عندى من رأى فى هذا الشأن إلا التنكب عن كل ما يتوسم فيه الإنسان شراً » .

قال الأمـير : « إن من يتبع مـثلك فينزوى عن الناس تمامـاً يتنكب طريق الشر ما فى ذلك شك » .

قـال الزاهـد : « لقـد اعتـزلـت الدنيـا خمسـة عـشـر عامـًا حقا ، ولكنى لا أرجو أن يقتفى الناس أثرى فيما فعلت ، ففى شبابى كنت من رجال الجيش وبلغت أعلى المناصب العـسكرية ، وقـد اجتـزت البلدان الواسعـة على رأس أجنادى ورأيت من المعارك وحصار المدن عدداً عظيما ، ووجدت أن الدنيا مليئة بالبؤس والتـشاحن وأسباب الغـواية ، ثم اتفق أن ضابطاً صغـيراً تخطانى فى الترقـية فسئمت نفسى الحـياة العامـة ، ووجدت أن قوتى الأولى قـد أنشأت تتدهور فرأيت أن أختم حياتى ختـاماً هادئاً بعيداً عن ضجيج الناس ، وذكرت يومئذ أنى قـد اعتصمت ذات مـرة بهذا الكهف من عدو يطاردنى ، فـاختارته نفسى ليكون معتزلى الأخير ، وقد جئت بالصناع ليقسموه إلى غرف وكدست فيه كل ما رأيت أنى سأحتاج إليه .

« وكنت فى الأيام الأولى من اعـتكافى أنعم بـوحدتى كـمـا ينعم الملاح بالمرفـأ بعـد أن تقسو عليـه الزعازع ، ووجـدت فى سكونى وراحتى ما شفانى

من ضجيج الحروب ووعثائها ، فلما زالت لذة الحياة الجديدة انصرفت إلى دراسة ما ينبت فى الوادى من أشجار وتحليل ما جمعته من معادن لاصقة بالصخور ، ولكنى أضيق الآن بـكل هذا ، وقد استـبد بى القلق وشـرود العقل فى الأيام الأخيـرة ، وبلبلت الحيـرة وجـدانى ، وسـممت الشكـوك والأوهـام خيالى ، وما ذلك إلا لأنى لا أجد ما أكسر به ملل هذه الحياة الرتيبة ، ويخجلنى أحيانًا أن أذكر أنى مـا وجدت سـبيــلا إلى اتقاء الشـر إلا الفرار من أداء الفضـيلة ، ويخيل إلى أحيانا أن ما دفـعنى إلى الاعتكاف ليس التقوى ، بل الغضب لما نزل بى من إجحاف . وفى نفسى تثور الخـواطر الهائجة ، ويؤسفنى أنى باعتكافى قد أشـعت الكثيـر وما جنيت إلا القليل ، وإذا كنت بفـرارى من المجتـمع قد أمنت غواية الأشرار فأنا به قد فـقدت هداية الأخيار ، ولقد وازنت طويلا بين مزايا المجتمع ومضاره وقد صح عزمى على العودة إلى الدنيا غداً والمعتزل لا شك فى شفائه ، أما ورعه فليس يعلو على الشك » .

واستـمعوا إلى مقـاله عاجبين ، ولكنهم بعـد أن أفاقوا عرضـوا عليه أن يصحبـهم إلى القاهرة ، فاستخرج كـنزاً عظيماً كان قد أخفـاه بين الصخور ، وعـاد معهـم إلى المدينـة ، فلمـا أشـرفـوا عليهـا التهـمهـا الـنـاسـك الجـذلان ببصره التهامًا .

الفصل الثانى والعشرون

سعادة الحياة المتمشية مع الطبيعة

وأخذ الرأس إيلاس يتردد على مجمع من مجامع العلماء يلتقى فيه رجال الفكر في أوقات منتظمة ليتبادلوا الآراء ، وكانت أساليبهم خشنة بعض الشىء ولكن حديثهم كان نافعاً وجدلهم كان قويًا وإن بلغ حد الاحتداد المرذول أحيانًا ، وتشعب حتى ينسى المتنافسان مبدأ المناقشة ، وكان أكثرهم يشتركون فى بعض النقائض ، فيحاول كل منهم أن يملى على الآخرين رأيه ويسرّ كل منهم للغض من قيمة زملائه .

وكان الرأس إيلاس يقص على أعضاء هذا المجمع ما كان بينه وبين الناسك ، ويروى لهم كيف أنه عجب إذ سمع ذلك الناقد يؤنب نفسه على اختياره حياة الزهد برضاه . واستقبل السامعون قصته استقبالا متفاوتاً ، فمنهم من رأى أن الحماقة التى أبداها فى ذلك الاختيار قد نالت قصاصها الحق بما لقيه الناسك من وحشة متصلة ، ومنهم من وصف الناسك بأنه منافق فيما فعل ودافع عن هذا الرأى أحر دفاع ، ومنهم من انتقل إلى الحديث عن حق المجتمع على الأفراد وحق المجتمع فى عمل الأفراد وعدوا اعتزال الحياة فراراً من الواجب ، وقال آخرون إن من حق الإنسان فى ظروف معينة أن ينسحب من الحياة بعد الوفاء بالتزاماته نحو الجماعة لكى يحاسب نفسه على ما قدمت ، ولكى يطهر ضميره من أدران الرذيلة .

وكان بينهم رجل تأثر لما سمع أكثر من سواه ، وقال إن الناسك سوف يعود بعد أعوام إلى معتكفه ، فإذا لم يرده الخجل أو يعترض الموت خطاه فقد يخرج إلى الحياة مرة أخرى ، وأيد هذا الرأى بقوله : « ذلك لأن أمل الإنسان فى السعادة متأصل فى نفسه فأطول التجارب لا تمحوه . ونحن نحس بالشقاء فى حالتنا الراهنة ولا سبيل إلى إنكار ذلك ، ولكن هذه الحالة ذاتها حين تصبح جزءاً من الماضى البعيد يلونها الخيال بأبهج الألوان فنتمنى لو تعود ، ولكن لا جدال فى أننا سنبرأ يوماً من عذاب الأمانى ، وهكذا يزول الشقاء الذى نفرضه على أنفسنا فرضاً .

وكان بين الحاضرين فيلسوف يستمع إلى كلامه بصبر نافد ، فما إن فرغ الرجل من مقاله حتى أجاب :

« لقد برأ الحكماء فعلا من عذاب الأمانى ، ولقد زال الشقاء الذى تعرضه على أنفسنا فرضا . وإن السعى وراء السعادة التى طرحتها الطبيعة ذات السماحة بين أيدينا لمن عمل الكسالى المتبطلين ، فطريق السعادة هو اتباع الطبيعة وفى طاعة ذلك القانون الكلى الثابت الذى نقشته يد القدر على كل قلب ، ولم تكتبه على كل قلب يد الإنسان ، ذلك القانون الكلى الثابت الذى ألهمناه بالفطرة ولم نكتسبه بالتعلم . إن من يستهدف الطبيعة فى كل ما يفعل لا تزعجه أوهام الأمل أو تباريح الرغبة ، فرضاه وإعراضه يأتيان عن نفس هادئة ، وأفعاله وإحساسه تكون بما يمليه العقل ، ولقد يتلهى بعض الفلاسفة بإيجاد التعاريف الدقيقة للسعادة والتفسيرات المنطقية المعقدة لمدلولها ، ولكن الحكمة لا تحتاج إلى كل هذه الحذلقة ، فليدرسوا غزال الغاب وطير الدغل ، وليتدبروا حياة الحيوان الذى تتحكم غرائزه فى كل حركة يتحركها . الحيوان يتبع رائده ، ورائد الحيوان طبيعته ، وسعادة الحيوان أعظم من سعادة الإنسان فالنقصر القول ولنتعلم كيف نعيش . فلنطرح تعاليمنا الثقيلة جانبا ، تلك

التعاليم التى لا يفـهم معناها أكثر الناس طنطنة بها ، ولنحـمل فى أفئدتنا المثل البسيط الواضـح الـقـائـل بأن البعـد عن الطبيعـة بعد عن السعادة » ولما فـرغ من كلامـه تلفت حولـه مطمئنا وارتـاح لما ألـقـاه من درر . وقال الأمير فى تواضع جم :

« لقد انصـرفت إلى تتبع حديثك بكل جوارحى لأنى أبحث عـن السعادة شأن غـيرى من الناس ، ولست أرتاب فى صدق هذه الأقـوال التى جاءت من عالم مثلك مفصّال فى لغـة مشربة باليقين ، ولكنى أطلب إليك أمرا واحدا ، الا وهو أن تهدينى إلى الحياة التى تتمشى مع الطبيعة ».

قال الفيلسوف : « أنا لا أضن بعلم على فتى فى مثل وداعتك وتواضعك . الحيـاة التى تتمشى مع الطبيعـة هى الحيـاة التى يعمـل فيها الإنسان دائماً تبعا لما تميله العلاقات القائمة بين الأسباب والنتائج ، وتبعا لما تتصف به هذه الأسباب وهذه النتائج من خواص ، وهى الحياة التى يتم فيها الانسجام مع ذلك القانون السرمدى العظيم قانون السعادة الكليـة ، وهى الحياة التى تنحو إلى التعاون مع الصفات والاتجاهات الخاصة التى تتميز بها الأشياء فى وضعها الراهن » .

وسرعان ما أدرك الأمير أنه يصغى إلى حكيم كلما أطال القول تعذر فهمه ، ولذا أحنى رأسه ولاذ بالصمت ، وحسب الفيلسوف أن صمته أمارة الاقتناع ، وخال أنه انتصر على الحاضرين انتصارا مبينا ، فنهض وخرج من القاعة خروج رجل قد تعـاون مع الصفات والاتجـاهات الخاصة التى تتـميز بها الأشـياء فى وضعها الراهن .

الفصل الثالث والعشرون

الأمير والأميرة يشتركان فى دراسة الحياة

وعاد الرأس إيلاس إلى داره غـارقاً فى بحار التفكير لا يـدرى كيف يوجه حيـاته المستقـبلة ، فقد رأى أن الحكمـاء والبسطاء يستـوون فى جهلهم بطريق السعادة ، ولكنه تعزى عن خيبـة أمله بحداثـة سنه ، وزعم أن أمـامـه متسعـًا من الوقت يبحث فيه وينقب .

وأعرب لعملاق عن ملاحظاته وشكـوكه ، ولكن إجابة عملاق زادته شكا على شك ، وبعدئذ تحدث إلى أخته بأكثر وبأصرح مما تعود أن يتحدث ، فقد كانت أخته لا تـزال مثله على أملها فى استكشاف السعـادة ، وكانت لا تعدم قولا تشجعه به على المضى فى بحثه كلما أصاب فشلا وفى ذلك قالت :

« إننا لم نختـبر من الدنيا إلا أقلهـا ، ونحن لا نزال من أوساط الناس ، فما ارتفعنا حتى الآن إلى مقام العظماء ولا انحططنا إلى سفلة القوم ، فقد كنا فى بلادنا من البيت المالك ولكن بلا سلطان ، أما فى هذه البلاد فنحن لم ننفذ بعد إلى خبايا الأسر لنرى ما تعيش فيه من سلام . إن عملاقاً لا يشجعنا على البحث مخافة أن نكشف له فى النهاية عن خطئه ، فلنشترك إذًا فى الاستقصاء ، ولتنفرد أنت بدراسة حـياة الأشراف ، ولأنفرد أنا بدراسة الطبـقات الأخرى ، فلعل السلطة والبأس هما مصدر السعادة لما يهيئانه للناس من فرص لفعل الخير ، أو لعل التوسط والاعـتدال همـا مصدر السـعادة لأنهمـا بعيدان عن الأعـمال الجسام ومتاعبها من ناحية ، وعن الفقر وآلامه من ناحية أخرى » .

الفصل الرابع والعشرون

الأمير يبحث عن السعادة بين الطبقات العليا

وأظهر الرأس إيلاس رضـاه عن هذا الرأى ، وفى اليوم التالى قـصد إلى بلاط الباشا فى حاشية عظيمة ، وسرعـان ما تبين علو قدره فقدموه إلى الباشا وأعوانه العظام على أنه أمير جاء به حبه للاستطلاع من أقطار بعيدة ، وتوثقت بينه وبينهم أواصر الصداقة .

وظن أولا أن رجـلا يقـدم له جـميع الناس فـروض الطاعة والاحـترام . رجلا تسمع كلمـته فى طول البلاد وعرضها ،لابد أن يكون راضـياً بحاله وفى ذلك قال :

« إن سعادة الحـاكم الذى يحس بأن حكمه الصالح قـد أسعد آلاف الناس لسعادة لا تعدلها سعادة ، ولكن قـبل هذه السعادة الفذة التى اختص بها رجل واحد لا أكثر بحكم النظام الاجتمـاعى الذى يقوم على أساس الطاعة والرياسة ، فمن الأرجح أن هناك نوعـا آخر من السـعادة قد يشـترك فيـه عدد من الناس عظيم ، والعقـل يقـول بأن من المحال أن يخضع الملايين لفرد واحد لا لشيء إلا لكى يفعموا قلبه بسعادة ليست بذات حدود » .

نعم ، هذا ما قاله الرأس إيلاس محدثاً نفـسه ، ولقد كانت هذه الخواطر تدور بفكره كـثيراً ، فـما وجد لهـذه العقـدة حلا ، ثم توطدت صلتـه برجال البلاط بالهدايا وحسن المقال ، فأدرك أن الكثرة المطلقة منهم يكن بعضها المقت

لبعضها الآخر ، وأن بحياتهم سلسلة متصلة من الدسائس وافتضاح الدسائس ، ومن المؤمرات وافتضاح المؤامرات ومن التحزب والخيانة والاعتقال والفرار ، ووجد أن كثيراً من أعوان الباشا قد بعثوا إليه ليراقبوا مسلكه وليقفوا على نواياه ، وسمع كل لسان يجأر بالنقد وكل عين تبحث عن خطأ .

وأخيراً جاءت وثائق العزل ، فإذا الباشا يحمل إلى القسطنطينية مغللا بالأصفاد ، وانطوى اسمه كأنه لم يكن .

قال الرأس إيلاس لأخته : « ما موقفنا الآن من السلطة ومزاياها ؟ أما نرجو من ورائها تحقيق الخير ؟ أما ترى الخطر يلازم المناصب الثانوية وحدها ، أما رب الدولة فهو مطمئن وسعيد ؟ ترى أيكون السلطان الشخص الأوحد الذى ينعم بالسعادة فى دولته ؟ أم ترى السلطان ذاته تؤرقه الشكوك والمخاوف لكثرة أعدائه ؟ »

وبعد فترة وجيزة عزل الباشا الثانى ، أما السلطان الذى كان قد ولاه على مصر فقد اغتاله عساكر الانكشارية لأن خليفته كان يختلف معه فى الرأى ويحمى طائفة من المقربين غير طائفته .

الفصل الخامس والعشرون

الأميرة تبحث جادة عن السعادة فلا تصادف توفيقًا عظيمًا

وفي هذه الأثناء كانت الأميرة تختلط بمختلف الأسر ، فالكرم والسماحة يفتحان كل الأبواب إلا أقلها ، ووجدت الأميرة أكثر بنات الأسر على مرح عظيم ، ولكن نكاية التي تعودت جاد الحديث من عملاق ومن أخيها لم ترتح إلى ثرثرتهن الصبيانية ، وحكمت على تفكيرهن بالضيق وعلى رغباتهن بالانحطاط وعلى مرحهن بالافتعال ، وكان لهوهن على تفاهته تفسده المنافسات الحقيرة والتحاسد على لا شيء ، فكانت كل منهن تنفس على الأخرى جمالها ، برغم أنها تعلم أن التمنى لا يأتي بالجمال والانتقاص لا يزيله . وكان بينهن عدد عظيم يعشق فتيانًا تافهين تفاهة البنات سواء بسواء ، فكن يتوهمن أنهن يهوين الفتيان حقًا وقد كن يتلهين بهم إزجاء للفراغ ، وكن لا يقدرن في الرجال رجاحة العقل أو نقاء النفس ؛ ولذا كان غرامهن ينتهي دائمًا بخيبة الأمل ، ولكن حزنهن كان خفيفاً عابراً شأن فرحهن ، وكن يعشن في الحاضر وحده فلا يتمثلن تجارب الماضي ؟ ولا يتصورن حياة المستقبل ، ولهذا كانت الرغبة تحل محل الرغبة ، فتمحوها في غير عناء كما يمحو حجر ألقي في الماء الدوائر التي رسمها حجر سابق .

ولما كان غرضها التغلغل في بواطن نفوسهن فقد دأبت على أخذهن بالحسنى ، واستطاعت بعطفها أن تحمل الشاكيات منهن على الإفضاء إليها بأسرار قلوبهن المحطمة ، كذلك دعتها الفتيات الطامعات في مال أو أمل إلى الاشتراك معهن في أفراحهن .

وكانت الأميـرة تلتقى بأخيهـا الأمير كل يوم تقريبـاً فى منزل يشرف على النيل لتبادل التجارب ، وفيما هما جـالسان معاً انصرف بصر الأميرة إلى النهر الجارى من تحتها وقالت :

« أجبنى يا أبا الأنهار العظيم ، أجب ندائى ، أنا ابنة ملك من ملوكك ، أجب يا من تفيض مياهك فتـروى ثمانين أمة . أفى واديك الطويل بيت واحد لا يهمس أهلوه بالشكوى ؟ »

فقـال الرأس إيلاس : « إذن ، فقد كـأن بحثك فى دخائل البـيوت عبـثاً كبحثى فى مجامع الأشراف » .

أجابت الأميرة : « لقد أمكننى أن أنفذ إلى حرمات الأسر التى تدل حالها على رخـاء لا بأس به وسلام لا يعكره شىء فى ظاهره ، ولكنى لـم أجد بين هذه الأسر كلها أسرة واحدة ليس لديها ما يقض مضجعها .

« فلما خالطت الفقراء لم أتوقع أن أجد بينهـم إلا شظف العيش ، ولكنى وجدت بينهم عدداً كبيراً يعيش فى رغـد ، أو ما أتصوره أنا رغداً ، فالفقر فى المدن الكبرى يتخذ أشكالاً تختلف كثـيراً عن أشكاله فى الريف ، فالبذخ يقيه والإسراف يطمس معالمه ، والكثـرة المطلقة من الناس تجتهد لستـر إملاقها عن العيـون ، وهى تحيا من يوم إلى يوم وهى تقضـى عامة النهار فى التـفكير فى حاجات الغد .

« وهذا الشر الفـاشى بين الناس لم يحزننى كـثيراً ، فـقد كنت أمـحوها بإغاثة كل من أخالطه من الفقراء ، ولكنى وجدت من بعضهم رفضاً لهباتى ، فقد آلمهم إدراكى لحاجـاتهم أكثر مما سرتهم رغبتى فى إغـاثتهم ، أما الآخرون الذي ألزمـهم سوء الحـال بقبـول عطاياى فلم يغـتفـروا لى قط هذا الصنيع ، ولكنى برغم ذلك قد صادفت كثيراً من الفقراء الذين استقبلوا العون شاكرين ، دون أن يعرضوا على الملأ شكرانهم أو يرجوا تجدد المكرمات » .

الفصل السادس والعشرون

الأميرة تمضى فى حديثها عن الحياة الخاصة

ولما رأت نكاية اهتمام أخيها بحكايتها مضت فى سردها تقول :

« وقد دلنى اختبارى على أن الشقاق يسود كل الأسر سواء فى ذلك الفقيرة وغير الفقيرة ، وإذا صدق عملاق بأن الدولة إن هى إلا أسرة كبيرة ، فيصدق كذلك أن الأسرة دولة صغيرة تمزقها الخلافات وتهددها الثورات . ومشاهد قليل الاختبار يتوقع أن يدوم حب الآباء والبنين ، وأن يكون متبادلا بدرجة متساوية ، ولكن هذا الحب قلما يدوم بعد سنى الطفولة ، فبعد قليل يكون التنافس بين الآباء والأبناء ، ويفسد المن أفضال الآباء فيقابل الأبناء أفضالهم بالجحود .

« ثم إن الانسجام لا وجود له بين الوالدين أو البنين ، فالبنون يتنافسون على حب الوالدين وتقديرهم ، وكذلك يتنافس كل من الوالدين على حب البنين وتقديرهم كل على حساب الآخر ، برغم أنهم لا يجنون من وراء ذلك إلا قليلاً ، فيكون من ذلك أن بعض الأبناء يثقون فى آبائهم ويثق البعض الآخر فى أمهاتهم ، وتشتد المشاحنات فى الأسرة شيئًا فشيئًا .

« وأفكار الأبناء تتعارض دائماً مع أفكار الآباء ، فالجيل الجديد بسنة الطبيعة يناقض الجيل القديم ، لأن الأول يفيض بالأمل والثانى يخضع لليأس ، ولأن الأول يتطلع إلى المستقبل والثانى يستعيد تجارب الماضى ، ولكل منهما ما يبرر موقفه ، فألوان الحياة تبدو زاهية لعين الشباب ، وتبدو كئيبة لعين

الشيخوخة ، فهى تختلف كما يختلف وجه الطبيعة فى الربيع وفى الشتاء ، والأبناء لا يجدون فى فلسفة الآباء زيفاً واضحاً لأنها لا تطابق الحياة كما يعرفونها .

« ويندر أن نجد من الآباء من يتقيد فى سلوكه العملى بآرائه فى الحياة ، والشيوخ يؤمنون تماماً بالتدبير المحكم والتقدم البطىء ، أما الشباب فيؤمنون بنبوغهم وقوتهم واندفاعهم . الشيوخ يمجدون المال أما الشباب فيمجدون الفضائل . الشيوخ يؤلهون الحزم أما الشباب فيؤلهون الشهامة ويتركون مصيرهم فى يد المقادير . والشباب الذى لا يضمر الشر قط يتوهم أن الشر لا وجود له ، وهذا سر صراحته ، أما الشيخوخة فتكثر من التشكك لأنها اختبرت الخديعة ، وكثيراً ما تعمد بنفسها إلى المخادعة . الشيخوخة تغضب لتهور الشباب والشباب يحتقر حذر الشيخوخة وهكذا يضيع الوئام شيئاً فشيئاً بين الآباء والأبناء ، وإذا كان أقرب الناس مودة يشقى بعضهم بعضاً فأين ياترى نلتمس الحنان والعزاء ؟ » .

أجاب الأمير : « لا شك أنك قد أسأت اختيار الأصدقاء ، فليس يعقل أن صلة الأبناء والبنين ، وهى أقوى صلة عرفتها الطبيعة ، تفسد هكذا بحكم الضرورة » .

قالت الأميرة : « إن الشقاق فى الأسرة ليس واجب الوجود ، ولكن تجنبه أمر عسير ، فلما نجد أن جميع أفراد الأسرة مستمسكون بالفضائل ، والأخيار والأشرار لا يتفقون ، وكذلك لا يتفق الأشرار والأشرار . ولقد يختلف الأخيار والأشرار أنفسهم إذا كانت فضائلهم من نوع مختلف ، أو إذا اتصفوا بالتطرف فى سجاياهم ، ولكننا نستطيع أن نحكم بوجه عام بأن الآباء الذين يستحقون الاحترام ينالونه ، فمن استقامت حياته عاش موفور الكرامه .

« كذلك تهدد الحيـاة الخاصة شتى المنغصات ، فمن الناس من يسـتعبدهم خـدمهم الذين اسـتـأمنوهم على شـئونهـم ، ومنهم من يزعـجهم أقـرباؤهم الموسرون ، فما يستطيعون إرضاءهم وما يستطيعون إيلامهم

كذلك نجد من الأزواج من يسـتبد بزوجته ، ونجـد من الزوجات من تشذ فى معاملتهـا لزوجها ، ولما كان فعل الشر أهون على النـفس من فعل الخير ، فـإن الحمـاقـات والرذائل تجـر من الشقـاء علـى الأسـرة مـا لا تعـوض عنـه الحكمة والفضيلة » .

قال الأمير : « إذا كانت هذه حال الزواج بوجه عام فسوف أجد من الخطر على سـعادتـى أن أربـط حياتـى بحيـاة أخـرى حتى لا تشقينى أخطاء شريكتى فى الحياة » .

قالت الأمـيرة : « لقد التـقيت بأناس كثـيرين يضـربون عن الزواج لهذا السبب ، ولكنى لم أجد فى حكمتهم ما يحسدون عليه ، فهم يقضون حياتهم فى أحـلام الوحدة وقـد جفت قلوبهم من الحب ، فـتراهم يسـعون إلى قـتل الوقت باللهو الخـبيث أو التسليـة الصبيـانية ، فما لـلوقت عندهم نفع ، كذا يتبدى إحساسهم بالنقص فى كل ما يفعـلون ، فالنقص يملأ نفوسهم بالسخيمة وألسنتهم بنقد الآخرين ، فهم سيئـو الطبع فى بيوتهم مولعون بالإيذاء خارجها ، وهم يجدون لذة فى تحطيم كل مجتمع لا يستقبلهم بصدر رحب ، لأن البشرية قد لفظتـهم من رحمتهـا وهم لا يعطفون على أحد ولا يعطف أحـد عليهم ، فإن سعدوا لم يشاركهم أحد سعـادتهم ، وإن شقوا لم يشاركهم أحد شقاءهم ، وهى حـال أقـسى على النفس من الوحـدة ذاتهـا ، فـهم لا يعـتزلون العـالم ولكنهم يخرجـون من زمرة البشر ، وإذا كـان فى الزواج آلام عديدة فليس فى العزوبة لذة واحدة » .

قال الرأس إيلاس : « وما العمل إذن ؟ إن الأمر يزداد تعقداً كلما أمعنا في بحثه وتحليله ، ولكن لا شك في أن من ينصرف إلى إسعاد نفسه يجد السعادة التي ينشدها » .

الفصل السابع والعشرون

مقال فى العظمة

وسكتا قليلا ، وبعد أن تدبر الأمير رأى أخته قال إنها قد حكمت على الحياة دون أن تنصف ، وافترضت وجود الشقاء حيث لا شقاء . قال : « إن ما رويته علىّ لا يلقى ظلا كئيباً على الحاضر وحده ، بل يطفئ كذلك سراج الأمل فى المستقبل . إن الصورة السوداء التى رسمها عملاق إن هى إلا خيال باهت للشرور التى تصفينها بانكاية ، ولقد اقتنعت أخيراً بأن الهدوء ليس وليد العظمة أو السلطان ، فهو لا يشرى بالمال ولا يصاب بغزو الغزاة ، فمن الواضح أن اتساع نفوذ الإنسان يعرضه بالضرورة لعداء الأعداء أو لزلل المصادفات ، ومن اضطلع بإرضاء الناس أو بإدارة شئونهم فإن عليه أن يستخدم من العمال عدداً عظيمًا ، ولابد أن بين هؤلاء العمال الجهال ولابد أن بينهم الظالمين ولابد أن بينهم المضللين ولابد أن بينهم الخائنين ، فلو أرضى الحاكم أحدهم أغضب سواه ولو قرب الحاكم نفراً زعم الآخرون أنه قد غمطهم حقوقهم ، ولما كانت العطايا لا تجزل إلا للأقلين بالكثرة المطلقة فى سخط مستديم » .

قالت الأميرة « إنى أزدرى هذا السخط الذى ليس له ما يبرره ، وأرجو الله ألا تخضع أنت له قط » .

أجاب الرأس إيلاس : « إن للسخط دائماً ما يبرره مهما صلح الحكم وسهرت الإدارة على إحقاق الحق وتوزيع العدل بين الناس ، وما من حاكم

مهما يكن يقظاً بمستطيع أن يستكشف موهبة نابغ طمسها الفقر أو سترها التحزب ، وما من حاكم مهما يكن قويًا بمستطيع أن يكافئ هذه الموهبة ، ولكن من يرى قليل الكفاية مقدماً على كثيرها يعزو ذلك التفضيل بطبيعة الحال إلى تحيز الرؤساء أو نزواتهم التى لا ضابط لها ، ويدخل فى باب المحال أن يستمسك رجل مهما عفت نفسه أو ارتقت سجاياه بالعدالة المطلقة فى كل زمان وفى كل ظرف ، فهو آناً يستسلم لعواطفه الشخصية ، وهو آنًا يستسلم لأهواء خلصائه ، وهو يرضى بالعاجزين وهو يرى من الفضائل فى أصفيائه ما لا يتحلون به فى الواقع وهو يسعى إلى إسعاد من يعملون على إسعاده .

وهكذا تسود التوصيات ولقد تشترى بالمال أو بما هو أخس من المال ، أعنى بالملق وتقبيل الأيادى .

« ومن كثرت أعماله تعرض للخطأ ، ولابد أن يتحمل تبعات خطئه ، ولو قبض لإمرئ أن يحسن طول حياته فلن يعدم وضيعاً ينقد عمله عن خبث ، ولن يعدم فاضلا ينقد عمله عن سوء تقدير .

« لهذا كان من المحال أن نجد السعادة بين عظماء القوم ، وإنى لا أعتقد أن السعادة قد هجرت عروش الملوك وقصور الأشراف إلى أكواخ الفقراء ومنازل المغمورين ، فهؤلاء تتناسب كفايتهم مع أقدارهم فى الحياة ، وهؤلاء يبصرون مجالهم ويدركون حدودهم حق الإدراك ، وهؤلاء لا يصطفون من الأصدقاء إلا من إستأهلوا ثقتهم ، ولست أرى كيف يحول بينهم وبين السعادة شيء ، فليس أمامهم إلا أن يخلصوا للغير فيخلص الغير لهم ، وليس أمامهم إلا طريق الفضيلة وهو طريق السعادة » .

قالت نبكاية : « ليس فى العالم ما يجعل السعادة الكاملة نصيب أهل الفضيلة الكاملة بالضرورة ، ولكننا نستطيع أن نقول إننا نرى مظاهر الفضيلة أكثر مما نرى أمارات السعادة بين الناس ، وإن ضربات الطبيعة جميعاً والكثرة المطلقة من ضربات المجتمع لتتناول الأخيار و الأشرار سواء بسواء ، فالقحط

يعم الجميع ولا يقتصر على فريق من الناس دون سواه ، فإذا تحطمت سفينة غرقوا جميعاً ، وإذا غزا العدو ديارهم فروا أمامه جميعاً .

« إن الفضيلة لا تهئ للإنسان إلا راحة الضمير والأمل المتصل فى نوال السعادة المطردة ، ولقد يعيننا كل ذلك على تحمل الشدائد صابرين ، ولكن الصبر ذاته يتضمن وجود الألم » .

الفصل الثامن والعشرون

الرأس إيلاس والأميرة نكاية يستأنفان حديثهما

قال الرأس إيلاس : « أنت يا أميرتى العزيزة تتورطين فى الخطأ الشائع ، ألا وهو المبالغة فى التعبير ، فإنى أراك تذكرين لى نماذج مألوفة من النكبات العامة والبؤس العميم نقرأ عنها فى الكتب أكثر مما نراها في حياتنا اليومية ، وهى نماذج أراد القضاء أن تكون نادرة الوجود لأنها شديدة البشاعة ، فلنكتف فى تصورنا للشر بما نحسه نحن فعلا ، ولنتجنب تصوير الحياة تصويراً ممسوخاً ، وأنا لا أطيق أن أستمع إلى شكايات الشاكين من أهل البلاغة ، تلك الشكايات تنذر كل مدينة بحصار أليم كحصار أورشليم ، وتنبأ بمجاعة كلما مر سرب من الجراد ، وتعلن مجئ الطواعين كلما هبت من الجنوب ريح قوية .

« ومن العبث أن نتجادل فى الضربات التى تحيق بالدول ولا سبيل إلى دفعها ، فمثل هذه الضربات لابد من احتمالها ، ولكن من الواضح أن الناس يرهبون هذه المآسى العامة أكثر مما يحسونها ، فمن الناس آلاف مؤلفة تشب وتشيخ دون أن تعرف من النكبات إلا النكبات الشخصية ، ولا تذوق من اللذات أو تعانى من المضايقات إلا مألوفها ، سواء أكانت تعيش تحت جور ملك طاغية أم كانت تعيش فى فىء ملك رحيم ، وسواء انتصرت جيوش بلادهم أم مزق العدو أوصالها ، فالحداد لا يفتأ يضرب بمطرقته سندیانه ، والفلاح لا يفتأ يدفع أمامه محراثه لا يدريان شيئا عن دسائس النبلاء التى تمزق

البلاط فى الداخل أو مساومات السفراء فى الخارج ، وهما يخضعان لضرورات الحياة ويزيلان تلك الضرورات ، وهكذا تتعاقب عليهما الفصول فتتعاقب معها مشاغلها المألوفة .

« فلنكف إذن عن تدبر ما قد لا يحدث بتاتا ، ولنكف إذن عن تدبر ما يتجاوز تقدير الإنسان . إننا لن نحاول أن نغير مجرى الطبيعة أو نبت فى مصائر الشعوب ، وغايتنا أن ندرس ما يمكن لأمثالنا أن نقوم به من أعمال ، فكل منا ساع فى طلب السعادة ووسيلته فى ذلك طلب السعادة للآخرين داخل نطاق حياته مهما ضاق نطاق حياته .

« وواضح أن الزواج تكليف من قبل الطبيعة ، فالرجال والنساء قد خلقوا ليتلازموا فى طريق الحياة ، وهذا ما يجعلنى أقتنع بأن الزواج سبيل من سبل السعادة » .

قالت الأميرة : « وما أدرانا بأن الزواج ليس سبيلا من سبل الشقاء وهى كثيرة يعجز دونها الحصر ، فحين أتأمل صور التعاسة الزوجية على اختلافها ، وحين أتأمل أسباب النزاع الدائم التى لم تدخل فى تقدير الأزواج ، وتباين الطباع ، وتضارب الآراء ، وكل صدام فظ بين الرغبات المتعارضة تمليه العواطف الهوجاء ، وحين أتأمل الشقاق المتواصل الذى يمليه اختلاف الفهم لمعنى الفضيلة ويزيد من حدته اقتناع كل بحسن نيته ، حين أتأمل كل ذلك يخيل إلى أحيانا أن ما يذهب إليه أسخر الساخرين فى كل أمة صحيح وهو أن الزواج أمر يأذن به الناس ولا يوافقون عليه ، ويبدو لى أنه ما من أحد يرضى بأن يكبل نفسه بأغلاله الأبدية إلا إذا كان صريع شهوة جارفة تعمى بصيرته » .

أجاب الرأس إيلاس : « لعلك قد نسيت أنك منذ لحظة واحدة قد صورت حياة الوحدة تصويراً أنكد من تصويرك للحياة الزوجية . إن كلا الحالين قد يكون سقيما ولكن لابد أن أحدهما أقل نكداً من الآخر ،

وهكذا الأمر إذا اجتمع فى العقل رأيان خاطئان فإن أحدهما لابد أن يدمر الآخر ، وبذا يهيئ العقل لمعرفة الحقيقة » .

فأجابت الأميرة : « ما كنت أتوقع أن ينسب هذا للبطلان ، فالبطلان ابن الضعف ، ومن العسير أن يوازن العقل بدقة بين كبار الأمور ذات المرمى البعيد والوجوه المتباينة ، كما أن من العسير على العين أن توازن بدقة بين ضخام الأجسام ذات الأطوال المديدة والصفات المختلفة ، ونحن لا ندرك الفوارق ولا نقف على المزايا لأول وهلة إلا إذا رأينا الأشياء فى كليتها ، فإذا عرض لى أمران لا أستطيع أن أحيط بهما تماماً من حيث جسامة المدى أو دقة التفاصيل فلا عجب أن يتلون حكمى عليهما بما يتركه كل منهما فى نفسى من أثر على التعاقب ، فأنا أفهم المجموع قياساً على فهمى الأجزاء ، وحين لا نرى من مسألة إلا جانباً واحداً فطبيعى أن أحكامنا عليها تتناقض من وقت لآخر تبعا لما يتكشف لنا منها فى ضوء السياسة والأخلاق ، تماما كما تتناقض أحكامنا مع أحكام الغير ، أما إذا رأينا المسألة برمتها دفعة واحدة رؤيتنا للمسائل الحسابية مثلا فلن نجد اثنين يختلفان فى حكمهما على هذه المسألة ، ولن نجد أحداً يغير من رأيه فيها » .

قال الأمير :« كفانا من الحياة بشاعتها ، فلا نزيد من بشاعة الحياة بهذه المشاحنة المريرة ، وحسبنا ما كان بيننا من جدل دقيق . لقد اشتغلنا بالبحث عن السعادة ، ولكل منا حظه من فرحة النجاح أو خيبة الفشل ، فالواجب يقضى إذن بأن نتعاون فيما أقدمنا عليه . إنك لا شك تتسرعين بمهاجمة الزواج فى ذاته لما ترينه من تعس المتزوجين ، ولكن ألا يدل شقاء الحياة كذلك على أن الحياة ليست نعمة من نعم السماء ؟ لابد من تعمير الدنيا ، إن بالزواج وإن بغير الزواج » .

فأجـابت نكاية : « إن طريقة تعميـر الدنيا ليست من شـأنى ولست أفهم اهتمـامك أنت بها ، ولست أرى شراً فى أن يموت الجـيل الحاضر بغـير خلف يرث مكانه على الأرض ، ونحن الآن لا نبحث عن سعادة العالم ، بل نبحث عن سعادتنا » .

الفصل التاسع والعشرون

مناظرة الزواج تستأنف

قال الرأس إيلاس : « إن صحة الكل لا معنى لها إلا صحة الأجزاء جميعها ، وإذا كان الزواج نافعاً للإنسانية فى مجموعها فواضح أنه نافع كذلك لأفراد الإنسانية كل على حدة ، فإذا لم يكن الأمر كذلك وكان القيام بهذا الواجب الضرورى الدائم مدعاة للشقاء فلابد من تضحية بعض الأفراد ليسعد الآخرون ، وفى تقديرك لحالة الزواج وحالة الوحدة ما يدل على أن أسباب الشقاء فى الزواج عرضية يمكن تجنبها ، أما أسباب الشقاء فى الوحدة فملازمة وأكيدة إلى حد عظيم .

« ولا مناص لى من الاعتقاد بأن الحكمة وصفاء النفس كفيلان بإسعاد الزواج ، وسر الشقاء بوجه عام غباوة البشر ، وهل ننتظر غير الخيبة والندم من اختيار يتم فى نزق الشباب وفى جموح الشهوة بلا تدبر ولا تبصر بعواقب الأمور ، ولا بحث عن الانسجام فى الآراء وفى العادات أو تحقق من سلامة التفكير أو خلوص العاطفة ؟

« إن أكثر الناس يتزوجون على هذا المنوال . يلتقى الفتى والفتاة بمحض المصادفة أو يدبر بينهما اللقاء ، فيتبادلان النظرات ويتبادلان المجاملات ثم يعود كل منهما إلى داره يحلم بالشخص الآخر ، ولا يجدان إلا القليل مما يشغل البال أو يصرف النظر ، فيحسان بالوحشة إذا افترقا ، ويحسبان أن سعادتهما

فى التلاقى فيتزوجان ، عندئذ يتكشف لهما ما خبأته عنهما الرغبة العمياء ، فيقضيان الحياة فى شجار متصل تمتلئ نفساها بالقسوة يوماً بعد يوم .

« ومثل هذا الزواج الباكر يؤدى إلى التنافس بين الآباء والبنين ، فالولد يحرص على التنعيم بأطايب الدنيا قبل أن يتركها له أبوه ، والحياة لا تتسع لإرضاء الجيلين معاً والبنت تتفتح كالزهرة المشرقة قبلما ترضى أمها بالذبول ، وهكذا تضيق كل منهما بالأخرى .

« ولا شك أن كل هذه النكبات يمكن تلافيها إذا تروى الناس ولم يتعجلوا الزواج ، فالأناة لابد منها للاختيار النهائى وفى مرح الشباب وتعدد ألوانه ما يجعل الحياة محتملة بغير شريك ، ومضى الزمن يضاعف الاختبار ، وسعة الاختبار تضاعف فرص النقص والاختيار ، فإن لم تكن للأناة منفعة ما فإن لها مزية واحدة محققة على الأقل ، وهى أنها تجعل الآباء يكبرون الأبناء بسنوات عديدة » .

قالت نكاية : « إن ما تقصر دونه مداركنا وما لا يدخل تحت اختبارنا لا سبيل إلى معرفته إلا بأقوال الآخرين . ولقد بلغنى أن الزواج فى سن متأخرة لا يفضى إلى السعادة حقا ، وهذا أمر أجل من أن نهمله ، وكثيراً ما عرضته على من توسمت فيهم أصالة الرأى وسعة العلم وصدق الملاحظة ، فاتفقوا على أن الخطر أن يجعل الرجل أو المرأة مصيره معلقاً بيد الطرف الآخر بعد أن تتكون لكل منهما آراؤه وترسخ عاداته ، وبعد أن يختار كل منهما دائرة أصدقائه ويحدد مجرى حياته وفقاً لمنهاج مضبوط ويرضى كل منهما بآماله فى الحياة .

« ويندر أن نجد شخصين خاضعين لتصاريف المصادفة يلتقيان فى طريق واحد ، وقلما نجد من يرضى بتغيير سبيله التى ألفها وأحبها بحكم العادة ، وحين تزول خفة الشباب ورعونته ليحل محلهما النظام والعيش الرتيب وتجىء الكبرياء التى تجد فى التسليم عاراً ، والعناد الذى يجد اللذة فى النضال ،

والزمن الذى يفعل فعله فى معالم الإنسان كفيل كذلك بتحريف العواطف وتثبيت العادات ، مهما يكن تقدير كل لصاحبه قويا ورغبته فى إرضائه أكيدة . والعادات المتأصلة لا يسهل كسرها ، ومن يحاول تغيير مجرى حياته إنما يحاول عبثا فى أكثر الأحوال ، فكيف نستطيع إذن أن نفعل بالغير ما نعجز عن فعله لأنفسنا فى أكثر الأحوال ؟»

فقاطعها الأمير قائلا : « كذلك لا ريب تحسبين أن الناس ينسون الأساس الأول فى الاختيار أو يهملونه ، فإن أنا رأيت أن أتخير لنفسى زوجا فأول ما أتطلبه فيها أن تنصاع لصوت العقل » .

قالت نكاية : « هذا ما ينخدع به الفلاسفة ، ففى الحياة ألف موضع للخلاف لا يستطيع العقل له حلا . نعم . إن فى الحياة ألف مسألة يحار فيها المنطق وتمتنع على بحث الباحثين ، ألف مسألة تتطلب الإنجاز العملى ولا تحتمل النقاش الطويل ، تدبر أحوال الناس تجد أن بينهم قلة ضئيلة تستطيع حقا أن تبت فيما يعرض لها من أمور تافهة كانت أو جليلة بتّا يستند إلى فهم للموقف واضح ، ولو أن هناك زوجين قضى عليهما بأن يبتا كل صباح فى جميع تفاصيل حياتهما اليومية بتّا بنى على العقل لكان هذان الزوجان أشقى من فى الوجود .

« إن من يتزوجون فى سن متأخرة ينجون غالباً من عدوان بنيهم ، ولكن هذه المزية تضيع إذا ذكرنا أنهم كثيراً ما يتركون بنيهم لرحمة الأوصياء قبلما تكتمل رياشهم ويتم تعليمهم ، فإن لم يحدث ذلك ماتوا قبل أن يرو فلذات أكبادهم فى نضج الرشاد أو فى قمة المجد .

« ولقد يأمنون حقّا جانب بنيهم ، ولكنهم لا يرجون فيهم كثيراً وهم يفقدون متعة الحب الباكر دون أن يعوضهم عن ذلك شىء ، وتضيع منهم فرصة التآلف والانسجام حين تكون طباعهم فى مرونتها الأولى وعقولها فى نضارة

الشبـاب تنطبع عليها المؤثرات الجـديدة ، فتقـضى طول المعاشرة على أسـباب الخلاف ، كـما هو الشـأن فى الأجسام اللـدنة تتشكل سطوحـها بدوام الحك والتآكل ليناسب أحدها الآخر .

« ويقينـى أن من يـؤخـرون زواجهم ينعـمـون ببنيهم أكثـر مـن سواهم ، أما من يعجلون به فينعمون بشركائهم فى الحياة » .

قال الرأس إيلاس : « لو أن النعـمتين اجتمعـتا لشخص واحد لتـحققت جميع أمانيه ، ولعل فى حياة الإنسان عمـراً يحقق فيه الزواج السعادتين جميعاً ، عمـراً لا هو بالعاجل فيفـسد على الآباء إحسـاسهم بالأبوة ، ولا هو بالآجل فيفسد على الأزواج نعيمهم بزوجاتهم » .

فأجـابت الأميرة : « إن كل سـاعة تمر بى تثبـت فى يقينى صدق مـاقاله عملاق من أن الطبـيعة تبعثر نعـمها ذات اليمين وذات اليسـار ، فالأمور التى تذكى فى الإنسان الأمل وتحـرك فيه الرغبة من شـأنها أن يتلاشى بعضـها كلما اقتربنا من سواه ، وفى الحياة من متناقض الخيرات ما يجعل من المحال علينا أن نظفر بالنقـيضين معا ، ولقـد نسرف فى الحرص فنجد طريقنا بين النـقيضين ، ولكن هذا الطريـق الوسط لا يدنينا من أحـدهمـا وهذه ثمـرة الـروية الطويلة أسوقهـا إليك وهى صادقة فى أكثر الأحايين : إن من يحـاول أن يتجاوز حظ البشر خائب فى كل ما يسعى إليه ، فـلا تمن نفسك بانتهاب اللذات المتعارضة ، واختـر لنفسك من النعم التى تعرض لك وارض بهـذا المصير ، فمـا من أحد يستطيع أن يظفر بثمار الخـريف وهو بعد ينشق من زهور الربيع ، وما من أحد يستطيع أن يملأ كأسه من منبع النيل ومن مصبه جميعاً » .

الفصل الثلاثون

عملاق يدخل ويغير مجرى الحديث

وهنا دخل عملاق وقاطعهما ، فقال الرأس إيلاس : « اسمع يا عملاق ، لقد كانت الأميرة تروى على منذ هنيهة مأساة الحياة الخاصة ، لقد أوشك اليأس أن يقعدنى عن متابعة البحث » .

فقال عملاق : « يخيل إلى أن سعيك لمعرفة الحياة السعيدة قد ألهاك عن الحياة ، فأنت تجوب أطراف مدينة واحدة ، ومهما بلغت هذه المدينة من الاتساع واختلاف الوجوه فهى لن تأتيك بجديد ، وإنك لتنسى أنك فى أمة اشتهرت بين أمم التاريخ الأول ببأس أبنائها وحكمتهم ، وإنك فى بلد تبلج فيه نور العلم قبل أن يتبلج فى سواه ، ومنه أضاء على العالمين ، بلد لا نعرف غيره مهداً للحضارة أو الفنون العملية .

« لقد خلّف قدماء المصريين تراثًا خالدا ينبىء بالقوة والمثابرة ، تراثا لا شك يتضاءل أمامه كل ما للأوروبين من مجد ، فخرائب عمارتهم هى المدرسة التى يتعلم فيها البناة المحدثون ، وإننا لنرى ما أبقى عليه الزمن من آثار فنرجم بما قد عصف به ولو على وجه التقريب » .

قال الرأس إيلاس : « إن فضولى لا يدفعنى كثيراً إلى زيارة الأحجار المكدسة أو أكوام التراب ، فأنا أتقصى حال الإنسان ، وما جئت هنا لأدرس بقايا المعابد أو لأختنق فى السراديب المعتمة ، بل جئت لأستعرض وجوه الحياة الحديثة على اختلافها » .

قالت الأميرة : « إن شواهد الحاضر تستوجب التفاتنا ، وإنها لأهل لذلك الالتفات ، فما شأنى بأطلال الماضى أو بأبطال التاريخ . نعم ، ما شأنى بأزمان لن تعود ، وبأبطال عاشوا وماتوا فى ظروف من الحياة تختلف عن ظروف حياتنا الراهنة ؟ » .

فأجاب الشاعر قائلا : « لا سبيل إلى معرفة الأشياء إلا بدراسة آثارهم ، ولا سبيل إلى فهم الإنسان إلا بالوقوف على أعماله ، وبذلك نعرف ما أملته العاطفة وما أوحى به العقل ، وبذلك نهتدى إلى أقوى الدوافع التى تحدد سلوك الإنسان ، وإذا شئنا أن نحسن الحكم على الحاضر فلابد من موازنته بالماضى ، فالحكم أيا كان نسبى ، المستقبل لا سبيل إلى معرفته ، والواقع هو أن الناس لا يفكرون فى الحاضر كثيراً ، لأن ذكريات الماضى وآمال المستقبل توشك أن تملأ كل فراغ فى حياتنا ، ونحن نفرح ونحزن ، نحن نحب ونبغض ، نحن نأمل ونتوجس ، أما الفرح والحزن فجذورهما فى الماضى ، وأما الأمل والتوجس فمصدرهما المستقبل ، حتى الحب والبغض من عمل الأمس ؛ لأن لكل معلول علة تسبقه .

« فالحاضر إذن ثمرة الماضى ، وطبيعى أن نبحث عن مصدر ما ننعم به من سعادة أو نشقى به من آلام . فإذا كان مسعانا لتيسير أمورنا الخاصة فليس من الحكمة تجاهل الماضى ، وإذا كنا أمناء على مصائر الغير فليس من العدل إهماله ، إن الجهل المقصود جريمة ، ومن يرفض أن يتعلم كيف يدفع الأذى لمسئول عن ذلك الأذى .

« ولم أر من وجوه التاريخ ما هو أمتع للنفس من تطور البشر ، ونمو العقل درجة درجة ، وتقدم العلم باطراد ، وتعاقب العرفان والجهالة على بنى الإنسان ، فهما نور البشرية وظلامها ، ثم انقراض الفنون وبعثها وثورات الفلاسفة ، وإذا كان الأمراء يهتمون بتاريخ المعارك والغزوات على وجه

التخصيص ، فالواجب يقضى بالاهتمام بالفنون النافعة منها والجميلة على حد سواء ، فمن أوتوا الممالك ليحكموها أمناء على تنوير أذهان الرعية .

« والمثل العملى أفعل فى النفس من كل تعليم نظرى ، فالحب مدرسة الجندى ، والرسام لا بد له من محاكاة صور الغير ، وفى هذه الحدود أجد أن الحياة الفكرية لها السيادة على الحياة العملية ، فالأعمال الباهرة قلما يراها الناس ، أما إنتاج الفن ففى متناول كل من يبغى الوقوف على إنتاج الفن » .

« وحين تقع العين على أثر ذى بال أو يستيقظ الخيال إلى عمل من الأعمال نادر يتجه العقل الناشط أولا إلى تفهم الطريقة التى تم بها قيام هذا الأثر ، أو إنجاز هذا العمل ، وهنا تبدأ منفعة التفكير الحقيقة ، فنحن نوسع مداركنا بالأفكار الجديدة ، ولقد ينجم عن ذلك أننا نهتدى إلى فن كان ثم ضاع ، ولقد نهتدى إلى إتمام ما نقص من علم فى بلادنا ، وأقل ما يمكن أن نصيبه من دراسة التاريخ أننا نقارن عصرنا بسالف العصور ، فنغتبط لما أدركنا من تقدم ، أو ننتبه إلى نقائصنا إن كانت بنا نقائص ، وهى الخطوة الأولى إلى الإصلاح » .

قال عملاق : « إن أفخم أثر من آثار المصريين وأدلها على عظمتهم هى الأهرام ، وهى أبنية من أضخم ما صنعته يد الإنسان شيدت قبل التاريخ ولا نعرف عنها إلا ما توارثناه عن روايات الأولين ، وهو لا يرتقى إلى مرتبة العلم المحقق ، وأكبر هذه الأهرام لا يزال قائمًا لم تعد عليه يد الزمن إلا قليلا » .

قالت نكاية : « فلنزر الأهرام غدًا ، فقد سمعت بأمرها كثيراً ، ولن يهدأ لى بال حتى أراها من الداخل ومن الخارج رؤية العين » .

الفصل الحادى والثلاثون

زيارة الأهرام

فلمـا استقـر رأيهم على ذلك خرجـوا فى اليوم التـالى لزيارة الأهرام ، وحملوا جمـالهم بالخيام فقد اعـتزموا أن يقيمـوا بين الأهرام حتى يرتوى منها فضـولهم ، وسعـوا فى رحلتهم الهوينـا ، كلما استـوقفتـهم عجـيبة وقـفوا يستطلعون ، ومن حين لآخر تمهلوا ليـتحدثوا مع الأهلين ، ولقد شاهدوا من المدن مختلفها ، فـبعضها مخرب وبعضهـا عامر بالسكان ، ولقد شاهدوا من الطبيعة أخضرها ووحشيّها .

فلما بلغوا الهرم الأكبر راعهم مـا رأوه من اتساع قاعدته ومن ارتفاع قمته . وقـد شرح عـملاق لهم كـيف اختـير الشـكل الهرمى لهـذا البناء الذى أراده أصحابه أن يثبت إلى آخر الزمـان ، وأوضح لهم أن تدرجه فى الصغر هو آية رسوخـه ، فهو الذى حمـاه من عوادى الطبيـعة ، فالزلازل ذاتها وهى أكـبر مخرب في الطبيـعة لا تستطيع تحطيمه ، ولو أن ضربة نزلت بالهـرم فحطمته لتحطمت القاهرة كلها أو أوشكت . وقاسوا أبعاد الهرم بعدًا بعدًا ، ثم ضربوا خيامهم عند سـفحه ، وفى اليوم التالى أعدوا العدة لولوج غرفـه الخارجية ، وبعـد أن استـأجروا أحـد الأدلاء صعـدوا إلى المدخل الأول ، وأطلت بيكوا صفية الأميرة فى الفجوة ثم تراجـعت وهى ترتجف ، فسألتها الأميرة قـائلة : « فيـم خوفك يابيكوا ؟ » فـأجابت السـيدة : « لقـد أخافنى المدخل الضـيق



وما رأيت من ظلام مـرعب . إنى لا أجسر على دخـول مكان لا ريب تسكنه الأرواح المضطربة . إن أصحاب هذه الأقباء الرهيبة لا شك ناهضون أمامنا من رقدتهم الطويلة ، ولقد يسجنوننا مـعهم إلى أبد الآبدين . » وفيما هى تتكلم تشبثت بجيد سيدتها .

قال الأمير : « إن كنت لا تخافين سوى الأشبـاح فأنا كفيل لك بالسلامة ، فالموتى لا ينزلون بأحد شراً ، ومن ووری قبره لا يخرج إلى عالم الأحياء » .

قال عـملاق : « إن قولـك يا سيدى الأمـير بأن الموتى لا يخـرجون إلى عالم الأحيـاء مناقض لـما اتفقت عليه روايات الناس أجـمعين فى كل أمة وفى كل زمان ، فـما من شعب إلا وعرف الأشـباح وآمن بها ، تسـتوى فى ذلك الشـعوب الناهضـة والشـعوب التـى تعيش على الفـطرة ، ولولا صحـة هذه الظاهرة لما آمن بها جـميع الناس فى جميع أرجاء الأرض فـيما نعلم ، وهذه الشعـوب المتباعدة لا يعـرف بعضها البـعض الآخر ، فاتفاقـها فى هذا الرأى العجيب دليل على أنه وليد الاختبـار ، فأمثال هذه العجائب لا تصدق إلا إذا أيدها الاختبار ، وشك نفر من المكابرين المتفرقين لا يضعف ما للرأى العام من قوة ، ثم إن بعض من ينكرون وجـود الأشباح بألسنتـهم يرتجفون فرقـاً إذا ما وطئوا منازلها .

« ولكنى لا أبغى بقولى هذا أن أضعاف مخاوف بيكوا ، فليس فى الهرم ما يجعله مسكنًا للأشباح أكثـر من أى مكان آخر ، وليس فى أشباح الهرم ما يجعلهـا تسعى إلى إيذاء الأبرياء والأطهـار أو ما يمكنهـا من ذلك ، ودخولنا ليس فيـه اعتداء على حرمـتها ، فنحن لن نسلبـها شيئـاً مما لها ، فكيف إذن تغضبها زيارتنا ؟ » .

قالت الأميرة : « يا صديقتى بيكوا لا تجـزعى . لسوف أتقدمك أنا فى السير ، ولسوف يمشى عملاق فى عقبك ، وتذكرى أنك رفيقة الأميرة ، أميرة الحبشة » .

فأجابت السيدة : « لو أن سيدتى الأميرة ترغب فى موتى فلتختر لى ميتة غـير هذه الميـتة الـشنيعـة ، فأنا لا أحـب أن أموت فى هذا الغـار المرعب ،

ومولاتى تعلم أنى لا أعـصى لها أمراً ، فـإن أمرت بدخلوى دخلت ، ولكن دخولى سوف يكون دخولا لا خروج بعده .. » .

ورأت الأميـرة أن جزع وصيـفتهـا قوى لا يجـدى معه عـتاب أو تأنيب فعانقتهـا ، وأمرتها بأن تبقى فى الخيمة ريثـما يعودوا ، ولم ترض بيكوا بهذا الوضع فذهبت تضرع إلى الأميرة أن تعدل عـن هذه الجولة الرهيبة فى مخابئ الهرم ، فأجـابتها نكاية قائلة : « إذا عجزت عن أن أعـلم غـيرى الشجـاعـة فلا أقل من أن أصون شجاعـتى ، فكيف أعدل عما جئت لتحقـيقه وما جئت إلا لتحقيقه ؟ » .

الفصل الثانى والثلاثون

دخول الهرم

نزلت بيكوا إلى الخيمة ودخل الباقون الهرم ، ومروا بالدهاليز وشاهدوا الأقباء الرخامية وتمعنوا فى التابوت الذى قيل إن بانى الهرم قد أودع فيه ، ثم جلسوا فى حجرة كبرى ليستريحوا قليلا قبل أن يقدموا على العودة .

قال عملاق : « لقد نعمنا الآن برؤية أكبر أثر من آثار البشرية بعد سور الصين العظيم ، أما ذلك السور العظيم فالدافع إلى بنائه واضح ، فهو الذى وقى أمة غنية مترفة تخشى غزوات البرابرة الذين زين لهم جهلهم بالفنون أن ينالوا بالسلب والنهب حاجاتهم التى أقعدهم ذلك الجهل عن نوالها ، فذهبوا من حين لآخر ينقضون على مواقع التجارة الآمنة انقضاض الطيور الجارحة على الطيور المستأنسة ، وقد كان من وحشيتهم وسرعة غزوهم أن ظهرت الحاجة إلى بناء السور ، وقد كان من جهلهم أن ردهم على أعقابهم وحقق الأمن المرجو منه .

« أما الأهرام فلا نعرف سببًا وجيهًا جعل القدماء ينصبون هكذا فى بنائها ويتكبدون أضخم النفقات ، فضيق حجراتها يدل على أنها لم تشيد لتكون ملجأ من الأعداء الظافرين ، والكنوز التى تحتويها الأهرام كان يمكن إخفاؤها بمثل هذا الإحكام دون حاجة إلى إنفاق هذه الأموال الطائلة كلها ، ويخيل إلىّ أن بناء الأهرام قد تم ليرضى الخيال الذى يستبد بالحياة الإنسانية ويدفعها أبدًا إلى عظائم الأمور . فمن أوتى كل من يشتهى فى الحياة لا بد له أن يستنبط

شهوات جدداً ،ومن استوفى حاجته من العمائر النافعة لا بد أن يبنى ليرضى غروره فيمتد بخياله إلى أقصى ما تملكه قدرة البشر حتى لا يجد فى نفسه فراغًا لرغبة جديدة .

« ورأيى أن هذا البناء الشامخ دليل على قصور أسباب السعادة بين بُناته . فالملك الذى لا حد لسلطانه ولا حد لثرائه لا يجد سبيلا لإرضاء شهوته إلى المجد وإزالة ملله فى الحياة إلا ببناء مثل هذا الهرم ، فرؤية الآلاف المؤلفة من التعساء يكدحون بغير طائل ، ويضعون الحجر فوق الحجر لغير ما غاية يدفع عنه سأم الشيخوخة . فيا من تضيقون بالحياة المألوفة وتتوهمون السعادة فى جاه الملوك ، وتحسبون أن الترف والجبروت يشبعان نهم النفس إلى كل جديد إلى يوم الممات ، انظروا إلى الأهرام واعترفوا بسفاهتكم » .

الفصل الثالث والثلاثون

محنة لم تكن تنتظر

ثم نهضوا وعادوا مجتازين الفجوة التى دخلوا منها ، وكانت الأميرة قد أعدت لصفيتها قصة طويلة ترويها عما رأت من سراديب مظلمة وحجرات باذخة وعما تركته فى نفسها الآثار المختلفة التى شاهدتها فى طريقها ، ولكن ما إن بلغوا خيامهم حتى وجدوا أتباعهم جميعًا فى صمت حزين ، أما الرجال فقد بدا الخجل والخوف فى عيونهم ، وأما النساء فجلسن فى الخيام باكيات .

ولم يحاول أحد منهم أن يتكهن بما قد حدث ، بل سألوا الجمع لفورهم ، فأجاب أحدهم : « ما إن دخلتم الهرم حتى هاجمتنا جماعة من الأعراب فلم نستطيع المقاومة لقوتهم ، ولم نستطع الفرار لأن هجومهم كان مباغتًا ، ولقد أوشكوا أن ينهبوا خيامنا ويسوقونا أمامهم سوق القطعان على نوقنا ، ولكنهم أحسوا بمقدم نفر من الفرسان الأتراك فولوا الأدبار وقد سبوا السيدة بيكوا ووصيفتيها ، والأتراك يطاردونهم فى هذه اللحظة ،وأنا أعتقد أنهم سيعجزون عن إدراكهم » .

وغلب الأميرة الحزن والعجب جميعًا ، أما الرأس إيلاس فقد تملكته سورة الغضب فأمر أتباعه بأن يتبعوه واستعد لمطاردة اللصوص وقد جرد حسامه ، ولكن عملاقًا قال له : « لا نفع يا مولاى من العنف ولا من الإقدام . إن الأعراب يركبون جيادًا مدربة على الكر والفر ، أما نحن فلا نملك إلا دواب تصلح لحمل الأثقال ، ولو قد تركنا موضعنا لفقدنا الأميرة كذلك دون أن نسترد السيدة بيكوا » .

وبعد قليل عـاد الأتراك بعد أن أفلت منهم اللصـوص ، فأنشأت الأمـيرة تندب من جديد ، وأوشك الرأس إيلاس أن يرمـيهم بالجبن ، ولكن عمـلاقًا قال إن فرار الأعراب لا يزيد من محنتهم ، فلربما قتل الأعراب أسيراتهم حتى لا يسلموهن .

الفصل الرابع والثلاثون

يعودون إلى القاهرة بغير بيكوا

لم يبق فى بقائهم نفع فعادوا إلى القاهرة نادمين على فضولهم ناحين بالملامة على الحكومة وإهمالها ، باكين تقصيرهم فى كراء حارس يحرس بيكوا عند دخلوهم الهرم ، وذهبوا يعددون الوسائل التى ينبغى أن تتخذ لتجنب ذلك الحادث المشئوم ، ويؤكدون عزمهم على استرجاعها ، ولكنهم وقفوا عاجزين فما وجدوا إلى التصرف سبيلا .

واعتكفت نكاية بغرفتها وذهبت تابعاتها يعزينها عن فقد بيكوا قائلات إن لكل بشرى قدره وقضاؤه ، وإن السيدة بيكوا قد استوفت حقها من السعادة فى حياتها الماضية ، فليس غريبًا أن يسوء حظها فى الحياة ، وتمنيت النسوة لبيكوا الخير أينما كانت وأينما رحلت كما تمنين للأميرة أن تجد لنفسها صفية أخرى تملأ ما تركت بيكوا من فراغ .

ولم تجب الأميرة فمضين فى عبارات العزاء ، ولكن حزنهن على فقدان صفية الأميرة لم يكن بالحزن الصادق .

وفى اليوم التالى قدم الأمير إلى الباشا مذكرة بالفاجعة التى نزلت به وملتمسًا يرجو به رد الأمور إلى نصابها ، وقد وعد الباشا بمعاقبة اللصوص ، ولكنه لم يحرك ساكنًا للقبض عليهم . وما استطاع أحد أن يتقدم بأوصاف كافية تعين الشرطة على اقتفاء أثر الأعراب .

واتضح بعـد قليل أن السلطات لا رجاء فـيهـا ، فالحكام قـد تعودوا أن يسمعوا بجرائم كثيرة لا قبل لهم بمعاقـبة مرتكبيها وبأضرار عديدة لا قبل لهم بإزالتها عمن تنزل بهم ، فأصـابهم تراخ وقعود وغدوا ينسون الشكايات لحظة أن يخرج الشاكون من دواوينهم .

لذلك حاول عمـلاق أن يستأجر بعض العـملاء ليقصـوا له الأنباء ، وقد جاءه عدد منهم عظيم وكلهم يدعى المعرفة الصادقة بمواقع الأعراب الحقيقية ، ويزعم أن له برؤسائهم صلة منتظمة ويعد باسـتراجاع بيكوا ، وقد زود بعضم بنفقات الرحلة فانطلقوا ولم يعودوا ، وأجـزل العطاء لبعضهم الآخر لقاء أنباء تبين بعد أيام أنها زائفة ، ولكن الأميرة لم تترك سـبيلا إلا سلكته ، مهما بدا قليل النفع ، وكانت تحيا بالأمل ، فكلما خابت طريقة جربت سواها ، وكلما عاد رسول ومعه خيبة مسعاه أطلقت سواه إلى موقع جديد لتتبع الأعراب .

ومرّ شهران ، وبيكوا لا يدرى أحد من شـأنها شيئًا ، وذوت الآمال التى كان كل منهم يذكيهـا فى قلب صاحبه ، ولما رأت الأميرة أنهـا قد استنفدت كل ما فى جعبـتها من وسائل البحث انتابها يأس قـاتل ، وذهبت تلوم نفسها الليل والنهار على مـا كان منها من تقـصير حتى أذنت لبـيكوا أن تتخلف عن الجمـاعة ، وكانت تقـول : « لولا أن حبى لهـا قد غلب سلطانى عليـها لما جرؤت بيكوا علىّ أن تتـحدث عن مخـاوفها ، وقـد كان ينبغى أن تخـشانى بيكوا أكثر مما تخشى الأشباح . كان ينبغى أن تسكتها نظرة منى صارمة . كان ينبغى أن تصدع بأوامرى فوراً . كيف يغلب على هذا التساهل الأحمق ؟ كان ينبغى أن أتكلم وألا أسمح لها بالكلام » .

قـال عمـلاق : « أيتها الأمـيرة العظيمة ، لا تأسفى لسجـاياك الحميدة ، ولا تلومى النفس على أمر وقع مصادفـة . إن عطفك على مخاوف بيكوا كان عطفًا كريمًا . إننا حين نلتزم حدود الواجب إنما نفوض إلى الله أمرنا وهو الذى يصرف بقوانينـه شئوننـا ، وحكمـتـه لا ترضـى لطائـع أن يعاقب على طاعته فى النهاية . فإذا كسرنا القوانين الطبيعية أو الأخلاقية التى فرضت علينا طمعًا

فى خير نجنيه ، فإننا بذلك نستغنى عن الحكمة الإلهيـة ونتحمل نتائج فعالنا جميعًا . والإنسان لا يفهم إلى اليـوم الصلة بين الحوادث وأسبابها حـتى يجازف بعمل الشر ليحـصد خيراً . أما اتبـاع الطريق المشروع فهو الذى يعوضنا عن خـيبتنا بالجزاء الآجل ، فـإذا لم نثق إلا بعقـولنا وحاولنا اختـصار الطريق إلى الخـير بتخطى الحدود المعروفة القائمة بين الخـير والشر شقينا ولو أصبنا النجاح ، لأن خروجنا عن الطريق السوى يطاردنا ، فـإذا ما ساءت العقبى كانت خـيبتنا أمرًّ وأدهى ، فمـا أتعس رجلا اصطلح عليه فى وقت واحـد الإحساس بالخطيـئة والإحساس بالمحنة التى أنزلتها به الخطيئة .

« فتدبرى يا مـولاتى الأميرة كيف كانت حـالك تكون لو أن السيدة بيكوا رجت ملازمـتك فأمرتها بالـتخلف فاختطفـها البدو ، أو تدبرى كـيف كانت حالك تكون لو أنك أرغـمتها على دخـول الهرم فقـضى عليها جزعـها تحت بصرك » .

فقالت نكاية : « لو أن شيئًا من هذا حدث لما احتملت الحياة إلى اليوم ، ولعذبتنى الذكرى ، ذكرى قسوتى حتى ضاع صوابى ، ولأبغضت نفسى وذبل جسدى حتى الممات » .

قال عملاق : « لقد أحـسنت التصرف وهذا هو الجزاء على أقل تقدير ، فما أتيت شيئًا تندمين على عواقبه » .

الفصل الخامس والثلاثون

فقدان بيكوا يضنى الأميرة

وهكذا هدأت نفس نكاية ، فعرفت أن كل الآلام تحتمل خلا ما ترتب على الخطيئة ، فزال عنها حزنها العاصف الآكل وحل محله حزن رفيق تأملاته سوداء ، وكانت تجلس طيلة النهار وتسترجع كل كلمة فاهت بها صديقتها بيكوا وكل عمل أتته ، وتجمع كل ما كانت بيكوا تحبه بعناية لا نظير لها ، حتى توافه الأشياء ، لعلها أن تذكرها بصاحبتها ، احتفظت فى ذاكرتها بكل ما كانت هذه الغائبة تقول أو تفعل ، وقدسته تقديساً كأنه من نواميس الحياة ، وكلما عرض لها أمر كان همها الأول والأخير أن تتدبر ما كان عساه أن يكون رأى بيكوا فى هذا الأمر العارض .

ولم تعلم النسوة اللائى يسهرن عليها عن حالها شيئًا ، لذلك كانت تتحدث إليهن بتحفظ وحذر ، وقل فضولها وانصرفت عن الالتفات إلى ما يحدث ، فقد ارتاحت إلى الصمت ورغبت عن الكلام . أما الرأس إيلاس فقد حاول أن يسكن جراحها أولا ، ثم حاول أن يسرى عنها فاستأجر لها جماعة من الموسيقيين يعزفون فى حضرتها ، فتستمع إلى أنغامهم ولكنها لا تسمع شيئًا ، وكذلك استقدم الرأس إيلاس لها نفراً من الأساتذة لتتلقى عليهم مختلف الفنون ، فكانت تنصت إلى محاضراتهم ولا تفهم منها شيئًا ، فيعيدون الشرح مرة بعد مرة ، وفقدت نكاية كل لذة فى الحياة ، وضاع منها طموحها الأول ، وكان ذهنها ينصرف إلى شئون اليوم شيئًا قليلا ، ولكنه كان يعود أبداً إلى الصورة الجاثمة فى خلدها ، صورة صديقتها بيكوا .

وكانت كل صباح تستحث عملاقا للبحث عن بيكوا الضائعة ، فما إن يعود ليلا حتى كانت تستطلعه الأخبار ، فلما وجد أنه لا يأتى لمولاته بجواب شاف قلّت رغبته فى المثول بين يديها ، ولاحظت الأميرة تخلفه فأمرته بالحضور ، ولما حضر أهابت به قائلة : « ما حسبتك تخطئ التقدير فتخال لهفتى غضبًا ، أو تظن أنى أتهمك بالإهمال لأن خيبة مسعاك تحز فى نفسى حزاً . وأنا لا أعجب كثيراً لانصرافك عنى ، فأنا أعلم أن الناس يضيقون بالتعساء ويتجنبون عدوى البأساء ، فالشكوى تضنى السعداء والبائسين على السواء . فمن ذا الذى يفسد لحظات الهناء التى تجود بها الحياة لنا وهى قليلة بأحزان الآخرين ؟ ومن ذا الذى يفتح صدره لآلام الغير وهو يرزح تحت عبء من أحزانه الخاصة ؟

« لن تزعج نكاية أحداً بأحزانها بعد اليوم ، فلقد انتهى بحثى عن السعادة ، ولقد وطنت النفس على اعتزال العالم ، عالم الغرور والأباطيل ، ولسوف أختفى فى عزلة كاملة ، ولا شأن لى إلا تهدئة خواطرى وإزجاء نهارى بساذج الأعمال ، حتى تتطهر نفسى جملة من كل ما يشتهيه الناس وأنتقل إلى الدار الأخرى التى يسعى إليها الأنام حثيثًا ، وهناك أرجو أن أنعم من جديد بصحبة بيكوا » .

قال عملاق : « لا تفسدى تفكيرك بقرارات لا تقبل العدول ، ولا تضاعفى حمل حياتك بهموم جديدة ، فلسوف تنسين بيكوا وتبقى آلام الوحدة ، وإن كنت قد فقدت من متع الحياة متعة فهذا لا يبرر انصرافك عن بقية المتع » .

قالت الأميرة : « لن تعد لى بعد بيكوا متعة تبقى أو متعة تضيع ، لقد فقدت من أحبها ومن أثق بها فأى أمل لى من بعدها ؟ إنى أبحث عن السعادة الحقيقية ، فلنفرض أن زينة الحياة اجتماع المال والمعرفة والطهارة . أما المال فقيمته فى إعطائه للآخرين وكذلك قيمة المعرفة فى نقلها للغير ، فلمن أجزل المال ولمن أحمل المعرفة بعد أن فقدت صديقتى الوحيدة ؟ ولم يبق لى

إلا الطهارة وبها وحدها أستمد نعيمي بغير حاجة إلى رفيق ، وحياة الطهارة يمكن تحقيقها فى حياة الوحدة » .

فأجاب عملاق : « لن أجادل مولاتى الآن فى الوحدة وأثرها فى الطهارة ، وإنما أذكرها باعتراف الناسك الورع ، لسوف تشتهين العودة إلى العالم بعد أن تنسى صاحبتك » .

قالت نكاية : « وهذا لن يكون . فكلما عشت لأرى الرذيلة والحماقة تذكرت سجاياها الحميدة ، تذكرت صراحتها الفياضة وخضوعها الكريم وأمانتها على السر » .

قال عملاق : « إن العقل إذا دهمته نكبة مفاجئة ليشبه فى حاله حال الناس عند بدء الخليقة ، فقد ورد فى الأساطير أن الليل الأول هبط عليهم فخالوا أن النهار لن يطلع من جديد . كذلك نحن ، تتجمع حولنا سحب الهم فتحجب عن أبصارنا ما وراءها ولا نرى إلى تفرقها سبيلا ، ولكن النهار يعقب الليل والهم مهما استعال فمن بعده الراحة لا شك فيها ، ومن يرفض أن يتعزى عن آلامه كان كأولئك المتوحشين الذين فقأوا عيونهم بمجئ الظلام .
إن عقولنا كأجسامنا فى تغير متصل ، وفى كل ساعة نخسر شيئا ونكسب شيئًا ، وجسامة الخسران تؤذى العقل والبدن جميعًا ، ولكن الطبيعة كفيلة برد ما كان إذا كانت ينابيع الحياة لا تزال فياضة ، والبعد له فى العقل ما له فى العين من أثر ، ومادمنا نطفو فى تيار الحياة فكل ما نتجاوزه يتضاءل ، وكل ما نشرف عليه يزداد حجمًا ، فلا تجعلى نبع حياتك يأسًا ، فلو قد ركد نبع حياتك لكثرت فيه الأوحال . اسبحى كما كنت تسبحين فى تيار الحياة . إن بيكوا سوف تختفى من خيالك رويداً رويداً ، ولسوف تلتقين فى طريقك بسيدة أخرى تصطفينها أو تتعلمين كيف تندمجين فى الناس جميعًا » .

وقال الأمير : « كل ما نطلبه إليك ألا تيأسى قبلما نستنفد جميع أسباب العزاء ، إن البحث عن السيدة المسكينة لا يزال جاريا ، ولسوف نأمر بتشديده إن وعدت بالتريث عامًا آخر قبل أن تتخذى القرار الأخير » .

ووجدت نكاية أن هذا الرأى يتـفق مع العقل فوعـدت أخاها بما طلب ، وما استخلص أخوها منها هذا الوعـد إلا بناء على مشورة عملاق ، ولـم يكن لدى عملاق أى أمل صـادق فى استرداد بيكوا ، ولكنه رأى أن الأمـيرة سوف تعدل عن فكرة الاعتزال لو عاشت فى المدينة عامًا آخر .

الفصل السادس والثلاثون

الأميرة لا تنسى بيكوا ، بل تتجدد أحزانها

لما رأت نكاية أن البحث عن صفيتها يدور قدر المستطاع وكانت قد عاهدت أخاها على تأجيل اعتكافها عامًا آخر ، انصرفت درجة درجة إلى شئون الدنيا ومسراتها المألوفة ، وفرحت برغمها لانجلاء الغمة عنها ، وكانت تجد نفسها من حين لآخر منصرفة عن ذكراها أتم انصراف فتغضب لذلك ، فقد أزمعت الأميرة على ألا تنسى صديقتها الوحيدة فى الحياة .

ثم حددت لنفسها ساعة من ساعات اليوم معينة تتجه فيها بقلبها إلى بيكوا وتتذكر سجاياها الحميدة ، ولقد مرت بها أسابيع حقّاً كانت إبانها تنزوى فى الوقت المحدد بانتظام ثم تعود كاسفة البال عليها آثار بكاء طويل ، ولكنها أخذت تتحرر رويداً رويداً من هذا القيد ، فإن جد لها من الأمور أمر ذو بال أذنت له أن يصرفها عن نحيبها اليومى ، ثم استسلمت لصغار الأمور كذلك ، وبدأت تنسى ما كانت تذكره على مضض منها ، وأخيراً تحررت نهائيّاً من واجبها فلم تعد تندب الغائبة كل يوم فى الساعة التى حددتها لذلك .

ولكن حبها الخالص لبيكوا لم ينقص بمرور الزمان ، فقد كان يذكرها بها ألف حادث وحادث ، وكلما احتاجت إلى أمر من الأمور التى لا يؤتمن عليها إلا الأصدقاء تجدد حزنها على بيكوا ؛ لهذا رجت نكاية عملاقاً ألا يقصر فى بحثه أى تقصير ، وأن يمضى فى تقصى أنباء صاحبتها ما استطاع إلى ذلك سبيلا حتى تعلم بأن ما هى فيه من عذاب لا يرجع إلى تكاسل أو إهمال ،

وكانت تقول : « ماذا نجنى من بحثنا عن السعادة إذا كـانت طبيعة الحياة تجعل من السعادة ذاتها علة الشقاء ؟ ولم نسعى إلى بلوغ شيء لا سبيل إلى استبقائه ؟ لن أنشد بعد اليوم حبـاً مهما كان صافيًـا ، أو كمالا مهما كان آسراً خشية أن أفقده فأفقد بفقدانه بيكوا من جديد » .

الفصل السابع والثلاثون

أنباء بيكوا تبلغ الأميرة

بعد سبعة شهور عاد رسول من الرسل الذين خرجوا للبحث عن بيكوا يوم وعدت الأميرة بالانتظار ، عاد من حدود النوبة بعد جولات كثيرة لا نفع فيها يقول إن بيكوا فى قبضة سيد من سادة الأعراب يملك قلعة أو حصنا عند تخوم مصر ، وإن ذلك السيد العربى الذى يعيش من النهب على استعداد لإعادتها مع خادمتيها لقاء مائتى أوقية من الذهب .

ولم يناقش أحد مبلغ الفدية ، وانتاب الأميرة فرح لا مزيد عليه حين علمت بأن صفيتها لا تزال على قيد الحياة ، وأن فى المستطاع استردادها لقاء هذا القدر الزهيد من المال ، ورأت ألا تضيع لحظة واحدة فى استعادة سعادة بيكوا وسعادتها معا ، فرجت أخاها فى أن يزود الرسول بالقدر المطلوب ويوفده من جديد ، وحين استشير عملاق أبدى شكه فى صدق ما روى الراوى وأعلن ريبته فى وفاء السيد الأعرابى قائلا إن الثقة المطلقة به قد تؤدى إلى احتفاظه بالمال والرهائن جميعًا ، كذلك قال إن من المجازفة أن يضع أحد نفسه فى قبضة الأعرابى بدخول حرمه ، كما أن خروج ذلك المغامر إلى بطن الوادى يجعله فى متناول قوات الباشا ، وعملاقًا لا ينتظر منه أن يفعل ذلك .

وقد جعل نقص الثقة عند الفريقين الوصول إلى اتفاق أمراً عسيراً ، ولكن عملاق كلف الرسول بعد شئ من التروى أن يقترح على السيد العربى إرسال بيكوا بين عشرة من الفرسان إلى دير القديس أنطونيوس بالوجه القبلى ، وهناك يستقبلها عشرة من فرسان الأمير يؤدون فديتها ويطلقون سراحها .

وكانوا يعتـقدون بأن هذا الاقتراح سوف يقـبل ، ولذا بدءوا رحلتهم إلى الدير فـوراً حتى لا يضـيعوا أى وقت ، وحـين بلغوا الدير اسـتأنف عـملاق رحلته بصـحبـة الرسول إلى قلعـة السيد العـربى ، ورغب الرأس إيلاس فى مرافـقتهـما ولكن أختـه وعملاقًـا لم يرضيا بذلك ، وقـد قام السيـد العربى بواجبات الضيافة نحو الرجلين اللذين سعيا إلى مكمنه كما تقضى قوانين قومه ، وبعد أيام قلائل رحل بيكوا وخـادمتها إلى المكان المحدد بطريق يعـرفه لا يتعب الراحلين ، وهناك تسلم المـال الذى اتفق عليه ورد بيكوا إلى حـريتها ، ومن ثم إلى أصـحابها ، ووعـد أن يحرس الجـمع إلى القـاهرة بشخـصه ليـقيهـم شر اللصوص وعدوانهم .

وتعانقت الأميرة وصفيتها عناقـًا حارًا تعجز عن وصفه الألفاظ ، وخرجتا معـًا إلى خلوة لتـذرف كل ما معهمـا من دموع الشوق ولتتبـادلا عبارات الود والشكران ، وبعد ساعات عادتا إلى حجـرة الطعام فى الدير حيث سأل الأمير بيكوا أن تقُصَّ قصتها فى حضرة الرهبان ورئيسهم .

الفصل الثامن والثلاثون

مغامرات السيدة بيكوا

قالت بيكوا : « لقد دلك أتباعك أيها الأمير عن الوقت الذى اختطفت فيه وعن الطريقة التى اختطفت بها ، وقد فاجأتنى الواقعة أول الأمر فلم أخف ولم أحزن ، بل تملكنى الذهول ، وزاد من اضطرابى ما كان من سرعة فرارهم بنا أمام الفرسان الأتراك ، وما كان من عجيج عظيم فى أثناء الفرار ، وقد بدا أن الأتراك يئسوا من إدراكنا أو خافوا من اللحاق بمن كانوا يطاردون فعادوا قافلين .

« حين ألفى الأعراب أنهم بمنجاة من كل خطر أبطأوا فى سيرهم ، ولم تكن تشغلنى مشاغلهم فبدأت أنزعج لما أنا فيه من حال ، وبعد وقت ما بلغنا نبعًا وارف الأفياء فى أحد المراعى فوقفنا فترجلنا وجلسنا على الأرض وأعطينا من المرطبات ما كان سادتنا يتناولون ، وقد أذنوا لى أن أنفرد بخادمتى بعيدًا عن جماعتهم ، ولم يحاول أحد أن يطيب نفسى أو يسىء إلىَّ بكلمة . وأخذت أحس بجسامة شقائى لأول مرة ، وجلست البنتان تبكيان فى صمت ، وترفعان إلىَّ البصر من وقت لآخر تطلبان النجدة ، ولم أكن أعلم عن مصيرنا شيئًا وما استطعت أن أرجم بمكان أسرنا أو أن أهتدى إلى شىء يبعث فينا الرجاء . لقد كنت فى قبضة فريق من اللصوص والمتوحشين فلم أطمع فى رحمتهم ، ولم أستبعد عليهم أن يعبثوا بنا ماشاءت لهم شهواتهم وما شاءت لهم قسوتهم ، ولكنى برغم ذلك عانقت خادمتى وذهبت أهدئ من روعهما قائلة إننا لم نرَ من أحد بعد سوى حسن المعاملة ، وإننا فى أمن على حياتنا ، لأن الأعراب فى أمن على حياتهم .

« وحين طلب إلينا أن نعتلى جيادنا من جديد تشبثت بى الخادمتان وأبتا أن يحال بينى وبينهما ، ولكنى أمرتهما بأن يتنكبا عن كل ما يغضب السادة الذين سقطنا فى قبضتهم . وهكذا رحلنا بقية اليوم فى أرض مهجورة لا مسالك فيها ثم بلغنا سفح تل فى الليلة القمراء ، وهناك حط القوم رحالهم وضربوا خيامهم وأوقدوا نارهم وحيا الأعراب رئيسنا تحية تفيض بالحب والإخلاص .

« ثم كان استقبالنا فى خيمة كبيرة وجدنا بعض النسوة اللائى صحبن أزواجهن فى الغزوة ، وقدمت النسوة إلينا ما أعددن من عشاء ، فأكلت تشجيعًا لخادمتى لا رغبة فى الأكل ، وبعد أن رفعت الصحاف مدت البسط لنستريح ، وكنت متعبة أرجو أن يخفف النوم آلامى فهذا شأنه مع البائسين ، وأمرت خادمتى أن تنزعا عنى ملابسى وقد لاحظت أن النسوة يتأملنى باهتمام عظيم ، فما كن ينتظرن أن يرين ما أحاط به من خضوع ، فلما نزعت سترتى بدت عليهن الدهشة واضحة لما رأينه من جمال ملابسى ، وقد مدت إحداهن يدها تلمس الوشى شبه خائفة ، ثم خرجت ، وبعد قليل عادت برفقة امرأة أخرى لاح أنها أكبر منها مقامًا وأوسع سلطة ، وعند دخولها أدت التحية كما ينبغى أن تؤدى ، ثم تناولت يدى واقتادتنى إلى خيمة أصغر حجمًا فرشت ببسط فاخرة نسبيا ، وفى هذه الخيمة قضيت ليلة هادئة ومن حولى خادمتاى .

« وفى الصباح كنت أجلس على الحشائش فجاءنى زعيم الأعراب فنهضت لاستقباله وانحنى هو باحترام عظيم . قال : أيتها السيدة العظيمة إن حظى قد تجاوز آمالى ، فقد أبلغتنى النسوة أن فى مضاربى أميرة من الأميرات ، فأجبت : لقد خدعت نسوتك أنفسهن ثم خدعنك يا سيدى ، فما أنا بالأميرة ، وإنما أنا غريبة شقية كنت أنوى الرحيل عن هذه البلاد سريعًا فإذا بى الآن سجينة فيها إلى الأبد . فأجاب الأعرابى : « أيا كان شخصك وأيا كانت

بلادك فثيابك وثياب خادمتيك تنبئ بأنك عالية المقام واسعة الثراء . فماذا يحملك على الظن بأن أسرك سوف يكون أبديا وأنت الغنية التى تملكين أداء فديتك دون أدنى مشقة ، وإن غايتى من هذه الغزوات التى أقوم بها زيادة مالى ، أو بتعبير أدق جمع الجزية من الناس . إن أبناء إسماعيل هم سادة هذه المنطقة من القاهرة . هم سادتها الطبيعيون وورثتها الأصليون ، وقد اغتصبها منا غزاة طغاة أرومتهم وضيعة ظهروا فى آخر الزمان ، ونحن ننتزع منهم بحد الحسام ما نعجز عن انتزاعه باسم العدالة ، ولا حيلة لنا فى ذلك ، والحرب لا تميز بين الناس ، فالرمح الذى يرتفع فى وجه الغاصب الجبار يرتفع كذلك فى وجه الوادع البرئ » .

« قلت : ما كنت أتوقع بالأمس أن ينزل بى هذا .

« فأجاب الأعرابى : لابد من انتظار المصائب فى كل لحظة . ولو أن المعتدين يفسحون فى قلوبهم مجالا للتجلة أو للشفقة لما أصابك مكروه لأنك امرأة فضلى ، ولكن ملائكة الانتقام تنشر أجنحتها على الفضلاء وعلى البغاة ، على الأقوياء وعلى الضعفاء ، ولا تبتئسى فلست من قطاع الطرق قساة القلوب الخارجين على القانون الذين يطوفون بمسالك الصحراء ناهبين سالبين . فأنا أعرف أصول الحياة المدنية ، وسوف أحدد مقدار فديتك وأزود رسولك بإذن مكتوب يمكنه من المرور فيحمل شروطى بما ينبغى من السرعة .

« فلا عجب إذن إن كان أدبه قد طاب لى ، ولما رأيت أن شهوته الأولى كانت للمال زالت عنى مخاوفى ، فقد كنت أعلم أنكم لن تضنوا بشىء لتحرير بيكوا . ولقد أجبته بأنى سوف أحفظ لك الجميل لو أنه أحسن معاملتى ، كما أنبأته بأنكم سوف تؤدون عنى أية فدية فى الحدود التى تتمشي مع وصيفة عادية مثلى ، فعليه ألا يصر على فدية تفتدى بها الأميرات . فقال إنه سوف يتدبر فى الأمر قبل تحديد الفدية ، ثم ابتسم وانحنى وانصرف .

« وبعد قليل اجتمعت حولى النسوة وتنافسن فى إظهار التجلة ، بل إن خادمتى قد أصابتا من احترامهن شيئًا كثيراً ، وأوغلت جماعتنا فى الرحيل ولكن رحلاتنا كانت قصيرة ، وفى اليوم الرابع أبلغنى السيد أن فديتى لا يمكن أن تقل عن مائتى أوقية من الذهب ، فأجبته بأنى سوف أنقده خمسين أوقية أخرى لو التزم حدود الشرف معى ومع خادمتى .

« ولم أكن أقدر من قبل قيمة الذهب ، فمنذ ذلك اليوم غدوت سيدة الجمع ، فكنت أشير عليهم بما نقطع من أبعاد فيصدعوا بأمرى ، وكانوا يضربون خيامهم حيثما رغبت فى الراحة ، وجىء لنا بإبل نرحل عليها بدل الخيل وساغ سفرنا لما أحاطونا به من أسباب الراحة ، وكانت خادمتاى تلازمانى بلا انقطاع ، وذهبت أرفه عن نفسى بدراسة أحوال البدو الرحل وبمشاهدة الأطلال البائدة ، وقد خيل إلىَّ أن عدداً عظيمًا من هذه العمائر كان يزين وجه تلك البلاد المقفرة فيما سلف من العصور .

« وكان رئيس العصابة رجلا أبعد ما يكون عن الجهل ، فكان يجيد السفر مستهديا بمواقع النجوم أو بالبوصلة ، وقد درس فى أسفاره المتشعبة من الأماكن ما يستحق دراسة العابرين ، وذكر لى أن أكثر العمائر احتفاظًا بكيانها ما كان منها قليل الورود عسير البلوغ ، فحين تنهار أمة وينقرض مجدها الأول تكثر عوامل التخريب حيث يكبر مقام الأهلين ، عندئذ يستغنى الناس عن المحاجر بالجدران ، وتتآكل القصور والمعابد فتخرج من الجرانيت مزاود الخيول ومن الصوان أكواخ الفقراء .

الفصل التاسع والثلاثون

بقية مغامرات بيكوا

« وهكذا تجولنا أسبوعًا بعد أسبوع ، وكان السيد يزعم أنه إنما يتجول على هذا المنوال للترفيه عنى ، وإن كنت أظن أنه كان يتبع غرضًا فى نفسه . وحاولت أن أبدى الغبطة حيث لا ينفع التجهم أو الغضب ، ولقد هدأ عقلى فعلا بهذه الرياضة ، ولكن قلبى كان مع نكاية دائمًا ، وأربت هموم الليل على أفراح النهار ، ولم يكن لخادمتىّ شغل غيرى فلما رأتا ما أعامل به من إكبار هدأ بالهما ، ونسيت كل نفسها فى أفراح اليوم العارضة التى تخفف من تعبنا فزال الحزن عنهما والقلق ، وسعدت بسعادتهما وشجعتى اطمئنانهما وهدأ روعى كثيرًا حين تبين لى أن الأعرابى يذرع الصحراء طلبًا للغنائم وحدها . إن الجشع رذيلة تتشابه فى جميع أصحابها وهى رذيلة يسيرة الإرضاء ، أما الرذائل الذهنية الأخرى فتختلف باختلاف أصحابها ، فما يرضى غرور رجل ما قد يثير غرور رجل آخر ، أما أهل الجشع فإرضاؤهم ميسور : إن زدتهم مالا لم يبخلوا عليك بشىء .

« وأخيرًا بلغنا مسكن السيد ، وقد كان بيتا متين البنيان فسيح الجنبات شيد بالحجر على جزيرة من جزر النيل تقع كما ذكرت لكم عند مدار السرطان . وقال الأعرابى : وسوف تستريحين يا سيدتى من وعثاء السفر أسابيع قليلة فى هذا المسكن ، وأنت فيه الملكة المتوجة . إنى أحترف القتال ، ولهذا اخترت هذا المسكن المنزوى ، فمنه أستطيع أن أخرج دون أن يعلم بى

أحد وإليه أستطيع أن أعود دون أن أخشى المطاردين ، فلتستريحى هنا فى أمان ، وإذا كانت الدار قليلة المسرات فهى كذلك بمنأى عن الأخطار ، ثم اقتادنى إلى الحجرات الداخلية وأجلسنى على أريكة من أنفس الأرائك ثم انحنى وانصرف . وكانت نساؤه يعتقدن أنى أنافسهن مكانتهن عنده فنظرن إلىَّ نظرة ملؤها الحسد ، ولكنهن علمن بعد قليل أنى سيدة ذات قدر عظيم ، وأنى أسيرة ابتغاء الفدية فأخذن يتسابقن فى إرضائى وفى إظهار ولائهن .

« ولما تجددت أمامى العهود بإطلاق سراحى بعد فترة وجيزة ، وانصرفت عن ضيقى بالتعرف على الدار الجديدة ، وكانت لها أبراج تطل على الريف فيرى المشاهد مساحات منه واسعة ويشرف على منحنيات النهر وهى كثيرة ، وفى النهار كنت أنتقل من مكان إلى آخر ، فقد كانت الشمس فى تسيارها تجدد روعة المنظر وتكسوه بمختلف الألوان ، فرأيت ما لم تره عينى من قبل . وكانت التماسيح وعجول البحر تكثر فى هذه المنطقة المقفرة ، وكنت أفزع لمرآهم برغم علمى بأنها لا يمكن أن تنالنى بأذى ، وقد أنبأنى عملاق بأن الأوروبيين قد وضعوا فى النيل طائفة من حور الماء ، فكنت فى مبدأ الأمر أتوقع أن أراها ، فلما لم يظهر منها شىء سألت الأعرابى فضحك من سذاجتى البالغة .

« وكان الأعرابى يصطحبنى فى أثناء الليل إلى برج منفصل خصص لرصد النجوم ، وهناك حاول أن يعلمنى أسماء الأفلاك ويعرفنى بمسالكها . ولم أكن أكترث لهذا النوع من الدراسة ، ولكنى تكلفت بعض الاهتمام إرضاء لمعلمى الذى كان شديد الفخر بدرايته ، وبعد قليل وجدت أن الملل يفتك بى ؛ فالحياة بين أشياء معدودة لا تتغير تولد السأم ، فأدركت أنه لا بد لى من عمل أقتل به الوقت . كنت أفتح الجفن فى الصباح فأرى ما أغمضت عليه الجفن فى المساء ؛ لذلك رضيت بدراسة النجوم دفعًا للفراغ ، ولكن دراسة النجوم لم تطيب نفسى تمامًا ، ويحسب غيرى أنى أقرأ صفحة السماء وما كنت إلا أفكر فى نكاية ، وسرعان ما خرج الأعرابى فى غزوة أخرى ، فما بقى لى إلا أن

أتحدث مع خادمتيّ عما كان من أمر اختطافنا وأصور لهما سعادتنا المقبلة يوم نخرج من الأسر » .

قالت الأميرة : « فقد كان معك بعض النساء فى قلعة الأعرابى فلم لم تفتحى لهن صدرك فتنعمى بحديثهن وتلتمسى السلوى فيما يعرفن من أسباب السرور ؟ وكيف تقنعين بهذا الظلام الذى يملأ النفس صدأ حين كانت غيرك من النسوة يجدن سبيلا إلى العمل أو إلى السلوى ؟ إنهن يحتملن هذا المصير طول الحياة فكيف ضقت بهذه الشهور المعدودات ؟ » .

فأجابت بيكوا : « إن النسوة يتلهين بالألعاب الصبيانية ، وعقلى الذى تعوّد التفكير كان لا يقنع بما يقنعن به ، ولقد كان فى مقدورى أن أفعل كل ماكن يفعلنه بحواسى وحدها ، أما خواطرى فكانت تطير إلى القاهرة . لقد كن يجرين من غرفة إلى أخرى كما ينتقل الطير من سلك إلى آخر داخل قفصه . لقد كن يرقصن لا حبّا فى الرقص ، ولكن طلبًا للحركة كما تتواثب الحملان فى المرعى ، وقد كانت بعضهن يوهمن الأخريات بأنهن قد جرحن فى أثناء اللعب حتى تفزع الأخريات ، أو يختفين حتى تبحث عنهن الأخريات ، وكن يتلهين أحيانًا بتأمل الأجسام الطافية وهى تسبح على وجه النهر والغيوم التى تغير أشكالها كل لحظة فى كبد السماء .

« وكان شغلهن الأوحد أعمال الإبرة ، وقد كنت أعينهن عليه مع خادمتى أحيانًا ، ولكن أناملى لم يكن لها على خواطرى سلطان ، وكيف ينتظرن أن تشغلنى أزهار الحرير عن نكاية فى ذلك المنفى السحيق .

« أما حديثهن فلم يكن لى فيه عنى رأين شيئًا يتحدثن عنه ، وقد عشن فى هذه البقعة المحصورة منذ شبابهن الباكر . لقد كن يجلهن القراءة والكتابة فكيف يعرفن مالم يرينه ؟ إن معارفهن كانت محدودة بما يقع تحت حواسهن ، فما كن يتحدثن إلا عن ثيابهن وطعامهن ، ولما كنت أقوى منهن شخصية فقد كن يلجأن إلىّ كثيراً لحسم ما ينشب بينهن من منازعات ، فكنت أقضى بينهن بالعدل ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، ولو أنى استطبت ما كنت أسمع

من شكاويهن لقضيت عامة نهـارى فى تتبع رواياتهن الطويلة ، ولكن أسباب النزاع بينهن كانت من التفاهة بحيث جعلتنى أضيق بكل قصة عند منتصفها » .

قال الرأس إيلاس : « لقد وصفت الأعرابى بأنه رجل فذ واسع المدارك ، فكيف كان يرتاح إلى حريم قوامه مثل هؤلاءِ النساء ؟ أهن بارعات الجمال ؟ » .

فقالت بيكوا : « نعم ، إن مثل هذا الجمال الحـيوانى التافه الذى قد نجده مجرداً من الخفة أو السمو أو الحيـوية العقلية أو نبالة الطباع ، مثل هذا الجمال الحيوانى قد توافر لهن ، ولكن الأعرابى كان ولا شك ينظر إلى جمالهن نظره إلى أزهار البستان ، يقتطفها ثم يقذف بها جـانباً ، ولو أنه استملح فيهن شيئاً فإن ما استملحه ليس طيب المعشـر أو أنس الصداقة ، وقد كان ينظر إليهن فى إهمال المسـتعلى وهن يتـلاعبن من حوله ، فإذا مـا تسابقن إلى إرضـائه كان يشيح عنهن بوجـهه اشمئـزازاً فى بعض الأحايين ، وكان جـهلهن يجعل من حديثهن لغواً لا يدفع شيئاً من سأم الحياة ، وكان حبهن له أو تظاهرهن بالحب له لا يثير فى قلبـه فخراً ولا امتناناً ، فقد كـان حبا لا اختيار لهن فـيه . كان يرى ابتساماتهن فلا يغتر بها ، فقد كان يعلم أن امرأة تبتسم لرجل لم تر غيره لا يقام لودها وزن ، وكن يمطرنه بنظرات العطف فلا يكترث بهـا كثيراً ، فقد كان يجهل مدى إخلاصـها ، وكثيراً ما كان يحس بأنها نظرات مغتـصبة قصد بها إيلام المنافسات أكثر مما قصـد بها إرضاؤه ، وكل ما كان يعطيهن من حب وكل ما كن ينلنه من عطف لم يكن يتجـاوز توزيع وقته الفائض بينهن ، وهو حب يستطيع الرجل أن يمنحه لامـرأة يحتقرها ، وهو لا يثير رجـاء أو إشفاقاً ولا يحرك الأفراح ولا الآلام » .

قال عملاق : « إن لك أن تسرى يا سيدتى بسرعة تحريرك ، فكيف رضى هذا الأعرابى المتشوف إلى المعرفة أن يعتقك برغم ما يحيط به من قحط فكرى وأنت صاحبة الحديث الذى لا يمل ؟ » .

فأجابت بيكوا : « أعتقد أنه كان يتردد فى تسريحى زمنًا ، فلقد كان برغم وعده كلما اقترحت عليه إيفاد رسول إلى القاهرة يلتمس المعازير لتأجيل سفر الرسول ، ولقد قام بجملة غزوات فى البلاد المجاورة فى أثناء مقامى ، ولو أنه عاد بما كان يأمل من غنائم لرفض على الأرجح إطلاق سراحى ، وكان كل مرة يعود إلىّ بالغ الاحتشاد ويقص علىّ أنباء مغامراته ويستمع إلى آرائى فى اغتباط شديد ويحاول أن يلقننى شيئًا جديداً فى أسرار النجوم ، ولما ألحفت عليه أن يبعث برسائلى إليكم هدأ خاطرى بعهود الشرف والإخلاص ، فلما استنفد كل تسويف معقول خرج فى رجاله وتركنى أقضى فى داره فى أثناء غيبته ، وقد أحزننى هذا التأجيل المقصود أشد الحزن ، وخفت أن تنسونى وترحلوا عن القاهرة بدونى فيكتب على أن أقضى ما بقى من عمرى فى جزيرة من جزر النيل ، وأخيراً غلبنى اليأس وتكاثرت علىّ الهموم وانصرفت عن تسليته كما كنت أفعل فانصرف هو عنى إلى خادمتىّ ، وكان أخشى ما أخشاه أن يتعلق قلب الرجل بى أو بهما على حد سواء ، ففى هذا الطامة الكبرى ، وساءنى نمو الألفة بينه وبينهما أعظم إساءة ، ولم يطل قلقى فقد عاد إلىّ بعد أن عاد إلىّ حبورى ، ولم أتمالك أن أحتقر نفسى لما ذهبت إليه من مخاوف .

« ولكنه دأب على التسويف فى طلب الفدية ، ولولا أن رسولكم قد اهتدى إلى مخبئه لما انتهى على الأرجح إلى قرار فى أمرى ، وإذا كان لم يسع إلى الذهب فهو لم يرد الذهب حين سعى الذهب إليه ، وعجل بإعداد ركبنا تعجيل رجل محموم ، واستأذنت من رفيقاتى فى الدار فودعتنى بفتور شديد » .

ولما سمعت نكاية قصة صاحبتها نهضت وعانقتهما ، وأعطاها الرأس إيلاس مائة أوقية من الذهب سلمتها إلى الأعرابى وما وعدته إلا بخمسين .

الفصل الأربعون

قصة عالم

وعادوا إلى القاهرة فرحين باجتماع شملهم حتى لقد لزموا دارهم واقتصدوا فى الخروج ، ونبت فى الأمير حب المعرفة ، وقد صرح ذات يوم لعملاق أنه قرر أن يهب للعلم ، وأن يقضى ما بقى ما أيامه معتزلاً يدرس الأدب .

فأجاب عملاق قائلا : «ينبغى أن تلم بجميع النتائج قبل أن تقدم على اختيارك الأخير ، وهذا لا يكون إلا باستشارة رجل أفنى عمره فى حياة الاعتكاف ، ولقد جئت الآن من مرصد يملكه فلكى من أوسع الفلكيين علماً فى جميع أقطار العالم ، وقد قضى هذا العالم أربعين عاماً يدرس حركات الأجرام السماوية وظواهرها دون أن يصيبه الكلال ، وقد أفنى نفسه فى عمليات حسابية مالها من نهاية ، وهو يأذن لنفر من أصدقائه بإزعاج عزلته كل شهر ليطلعهم على نتائجه ويغتبط بما استكشف ، وقد قدمونى إليه واصفين إياى بأنى من المثقفين الجديرين بصحبته ، وأمثال هذا العالم ممن قضوا زمناً طويلاً فى التخصص ويحسون بانقطاعهم عن تيار الحياة ليرحبون عادة بأهل الأفكار الغنية والحديث الطلىّ وقد أعجبته ملاحظاتى ، وحين قصصت عليه قصة أسفارى ابتسم لما سمع ونسى أفلاكه عن طيب خاطر وهبط إلى الأرض ليحيا بيننا لحظة أو لحظتين .

«وفى العطلة التالية عدته من جديد ، وسرنى ارتياحه إلى حديثى ، وقد خفف من تشدده معى ، فأذن لى أن أعوده فى أى وقت أشاء ، وقد وجدته فى شغل متصل ، ولكنه كان يرحب بكل راحة تأتيه على يدى ، وكان كلانا شديد الرغبة فى الإلمام بعلم صاحبه ، وهكذا تبادلنا الأفكار فى سرور عظيم ، وقد رأيت أنى أظفر بثقته كل يوم أكثر من سالفه ، كما أن إعجابى بتعمق تفكيره كان يتجدد مع الأيام ، أما إدراكه فواسع ، وأما ذاكرته فواعية حافظة ، وأما حديثه فمرتب ، وأما عبارته فواضحة .

«ونزاهة هذا العالم وكرم أخلاقه لا يقلان عن علمه الغزير ، فهو يعطل بحوثه مهما دقت ودراسته مهما كانت عزيزة عليه إذا سنحت له فرصة لفعل الخير ، إن بالإرشاد وإن بالعون المادى ، وهو يفتح داره ويجود بأثمن أوقاته لكل من لجأ إليه سائلا معونته ، وهو فى ذلك يقول : «إنى وإن كنت أضن على نفسى بالفراغ وأحرمها من أسباب السرور ، إلا أنى لا أغلق بابى فى وجه سائل يطلب الإحسان . إن الدراسة حق من حقوق البشر ، ولكن ممارسة الفضيلة واجب عليهم لزام» .

قالت الأميرة : «لا شك أن هذا الرجل قد وجد السعادة» .

أجاب عملاق : «لقد كثر ترددى عليه فازداد كلفى بحديثه : وجدت فيه السمو بغير غطرسة ، والأدب بغير تكلف ، والرغبة فى التعبير عن آرائه بغير تفاخر ، وقد كنت فى مبدأ الأمر أرى رأيك أيتها الأميرة العظيمة ، كنت أحسبه أسعد أهل الأرض طرّا ، وكثيراً ما هنأته على ما نال من نعيم ، فكان يبدو عليه فتور عظيم لم أتعوده منه ، ويجيب بكلمات غامضة ثم يغير موضوع الحديث .

«وسرعان ما أحسست بأن عاطفة أليمة تفتك بقلبه فتكاً برغم رغبته فى إرضاء الآخرين ورضاه بحديثهم ، وكثيراً ما كان يرفع بصره بلهفة إلى الشمس ثم يتهدج صوته فى أثناء الحديث ، وكثيراً ما كان يحملق فىّ صامتاً ونحن

منفردان ، وتبدو عليه الرغبة فى الإفصاح عن شىء يضطرب فى صدره ويريد أن يكبته كبتاً ، وكثيراً ما كان يرسل فى طلبى ويرجونى رجاءً حاراً أن أخف إليه ، فإن أقبلت عليه لم أجد فى كلامه شيئاً ذا بال ، وحين كنت أنصرف كان يستوقفنى ويتردد لحظات ثم يصرفنى من جديد» .

الفصل الحادى والأربعون

الفلكى يكشف عن سر اضطرابه

« وأخيرا خرج عن تحفظه وأفضى إلىّ بسره ، فقد كنا نجلس معاً فى برج مرصده نرقب ظهور تابع من توابع جوبتر ، واكفهر وجه السماء فجأة فقد هبت عاصفة وأفسدت علينا المشاهدة ، وجلسنا بعض الوقت صامتين فى الظلام ثم خاطبنى قائلا : لقد أحسست يا عملاق بأن صداقتنا هى أثمن ما فى حياتى . إن النزاهة لا نفع فيها ولا قوة لها إذا لم تقترن بالمعرفة ، كذلك المعرفة خطرة ومؤذية إلا إذا اقترنت بالنزاهة ، ولقد وجدت فيك كل ما يستوجب الثقة لما لمست فيك صفاء الطبيعة واكتمال الاختبار والقدرة على احتمال الخطوب . أما أنا فأؤدى واجبى منذ أمد طويل ولابد أن تحلنى الطبيعة من هذا الواجب قريباً ، ويسعدنى أن أنيبك عنى فى أدائه حين تحل أيام محنتى وأعود إلى طفولتى الثانية .

«ولقد شرفنى رأيه هذا فىّ فأجبت على مقاله بأن كل ما يسعده يسعدنى أنا كذلك .

«فقال : اسمع يا عملاق هذه القصة العجيبة ولسوف يصعب عليك تصديقها . منذ خمس سنوات وأنا أتحكم فى أحوال الجو وأحدد تعاقب الفصول ، وكانت الشمس تصدع بأمرى فتنتقل من مدار إلى مدار بإشارة منى ، والسحب تتفتق وتريق على الأرض ماءها بإذن منى ، والنيل يفيض تحقيقاً لمشيئتى ، ولقد كبحت جماح الشِّعرى وقلت للسرطان اهدأ فهدأ . كل ما فى

الطبيعة خضع لسلطانى ماخلا الريح ، ولكم هلك الناس كلما فاجأتهم زعازع الاعتدالين ، وكنت أقف أمـــام هـذه الزعـازع عـاجـزاً لا حيـلة لى فى ردها أو ضبطهـا ، ولقد كنت أؤدى هذه الأمانة بعدل تام وخـصصت لكل قطر من أقطار الأرض نصـيبه من المطر وضـوء الشمس ، ولو أنى جـمعت الغـيوم فى مناطق معـينة ، أو حبست قرص الشـمس فى نصف واحد من كرتنا الأرضـية لغدا نصف العالم فى شقاء عظيم » .

الفصل الثانى والأربعون

الفلكى يفسر مقاله ويبرره

« وأعتقد أنه قرأ فى وجهى أمارات العجب والشك برغم ظلام الحجرة ، فقد سكت قليلا ثم مضى فى حديثه قائلا : إن شكك فى صدق ما أقول لا يدهشنى ولا يغضبنى ، فلعلى أول بشرى أؤتمن على هذه الأسرار ، ثم إنى لست أدرى إن كان ما أصبت من معرفة لا نظير لها عقاباً أو ثواباً ، فمنذ أن أوتيت هذا العلم وسعادتى قد نقصت حتى أوشكت أن تزول ، ولم يعد ما يحثنى على هذه اليقظة المتصلة إلا إحساسى بأنى قد وقفت حياتى على فعل الخير .

«قلت : ومتى جاءتك هذه الرسالة العظيمة يا سيدى ؟

«قال منذ عشر سنوات أو نحوها انتهى بى تأملى لتغيرات السماء إلى التفكير فى الخيرات التى يمكن أن أضيفها إلى البشر لو أن لى سلطاناً على الفصول .

«وتأصلت فى رأسى الفكرة فقضيت الأيام والليالى أتوهم سيداً على عناصر الطبيعة أسكب الغيث على هذا الصعيد أو ذاك ، وأجعل الشمس تشرق بعد ما تريق السحب ماءها فأحيل الجدب إلى خصب عميم ، وكنت لا أملك إلا حسن المقصد ، ولكنى ما حسبت قط أن هذه القوة سوف تكون لى .

«وجاء يوم كنت فيه أتطلع إلى الحقول تتلفها حرارة الشمس ، فامتلكت نفسى رغبة مفاجئة فى أن أستمطر الغيث على جبال الجنوب ، وأجعل النيل

يفـيض ، ولـم أتدبر فى لهفـتى ما أنا مـقبل عليـه فأمـرت الأمطار أن تهطل وسرعان ما فاض النيل فعلمت أن الأمطار قد استجابت لندائى» .

«قلت : ألا يجوز أن عاملا آخر قد سـبب هذا التوافق ؟ إن فيضان النيل نتيجة لأمطار قديمة .

«قال بصـبر نافد : لا تحـسبن أن أمثال هذه الاعـتراضات قـد فاتت علىّ فلطالما جادلت نفسى برغم اقتناعى ، وتشككت فى الحقيقة بعناد شديد - ولقد ذهبتَ إلى الظن أحياناً بأنى مـخبول وما كنت لأجرؤ على الإفضـاء بهذا الأمر إلا لرجل مثلك ، قدير على التمييز بين مـا هو محال وما هو عجيب ، بين ما هو كاذب وما هو بعيد على التصديق» .

«قلت : ما دمت تعتقد يا سيدى بأن ما تقـوله صحيح فلم تنعته بأنه بعيد على التصديق » .

«قـال : لأنى لا أسـتطيع إثبـاته بالأدلة الظاهريـة ، وأنا العليم بوسـائل الإثبات ، وأعرف أن رأيى لن يقنع أحـداً سواى إلا إذا كان يحس بحرارة إيمانى . لذلك لن أثيـر من حولى لجـاجاً لإثبـات رأيى أمام الناس ويكفـينى أنى أحس بوجود هذه القوة فى نفسى ويكفينى أنى أباشرها كل يوم ، ولكن الأجل قصير وأوصاب الشيـخوخة تتكاثر علىّ ، ولسوف أعود ، أنـا منظم الفصول ، إلى التراب ، ولقد اشتغل بالى منذ أمد طويل بمن يخلفنى فى عملى هذا ، فكنت دائم التفكير فى الليل والنهار أوازن بين صفات من أعرفهم من الناس فلم أجد أحداً فى مثل كفايتك» .

الفصل الثالث والأربعون

« فاسمع إذاً ما سأدلى به إليك واستوعبه استيعاباً كاملاً فخير العالم متوقف عليه . إننا نصف عمل الملك بأنه عمل شاق برغم أنه لا يحكم إلا ملايين معدودات من البشر ، ولا يملك لرعاياه نفعاً كثيراً أو ضراً كثيراً ، فما أشق عملى أن المتحكم فى عناصر الطبيعة سيد الضوء والحرارة جميعاً ، وهى أعظم الهبات . اصغ إذن جيداً لما أقول .

«لقد درست موضع الأرض والشمس دراسة وافية ، ووضعت لكل منهما ألف ألف تصميم تبدل به مكانهما ، فكنت أزحزح محور الأرض أحياناً ، وكنت أغير المدار الإهليلجى الذى تسبح الشمس فيه ، ولكنى لم أنته من كل ذلك إلى وضع ينفع الأرض أكثر من وضعها الحالى .

فقد كانت بعض البقاع تنتفع على حساب غيرها مهما أدخلت من تعديلات ، برغم تجاهلى للأجزاء النائية التى لا نعرف عنها شيئاً من المجموعة الشمسية ، فلا يدفعنك الغرور إذن إلى استحداث شىء فى هذا النظام ، ولا تحسبن أن فى مقدورك الظفر بالخلود لو غيرت فصول العام .

فكل ما تجنيه من ذلك شر وبيل وذكرى غير عاطرة ، كذلك لا يليق بك أن تخضع لعاطفتك أو مصلحتك ، فلا تحرم البلاد الأخرى أمطارها لتغدق الأمطار على بلادك . إنما نجد فى النيل كفايتنا» .

«ووعدت صاحبى بأن أستخدم هذه السلطة يوم تؤول إلى بنزاهة لا يرقى إليها الشك . فقال : لقد أرحت الآن بالى وطمأنت فؤادى ولن يقض مضجعى بعد الآن رغبتى فى عمل الخير . لقد عثرت برجل من أهل الحكمة والفضيلة ، أهبه راضياً ميراث الشمس» .

وسمع الأمير هذه القصة بجد كامل ، أما الأميرة فقد ابتسمت ، وامتلكت نكاية نوبة من الضحك تشبه التشنج ، فقال عملاق : ليس من الكرم ولا من الحكمة أن نسخر من هذه المصيبة ، وهى كبرى المصائب التى يمكن أن تنزل بالإنسان ، فقليل من الناس قد بلغوا ما بلغه هذا الرجل من العلم ، وقليل من الناس لهم ماله من نفس خيرة ، ولكن ما من أحد يأمن تماماً شر هذه المحنة التى نزلت به . إن حياتنا الراهنة يكتنفها القلق من كل جانب ، وأفظع مصدر لهذه المخاوف هو اختلال عقل الإنسان » .

وهدأت نفس الأميرة وخجلت وصيفتها ، أما الرأس إيلاس فقد ازداد تأثره وسأل عملاقاً عن الجنون ومنشئه ومدى انتشاره بين الناس .

الفصل الرابع والأربعون

أضرار الإسراف فى الخيال

أجاب عملاق : «إن اختلال العقل بصوره المختلفة أكثر انتشاراً بين الناس مما يتوهم قصار الرأى . لو أننا توخينا الدقة التامة فى التعبير لقلنا إنه ما من عقل فى العالم بأسره كامل الاتزان . أجل ، ما من إنسان لا يسيطر خياله على حجاه فى بعض الأحايين ، وما من إنسان يستطيع أن يوجه انتباهه بما يرضى إرادته وحدها ويتحكم فى أفكاره تحكماً مطلقاً فيسيرها حسب مشيئته . ما من إنسان لا تستبد به من حين إلى آخر أوهام جوفاء فيتمنى من الأمانى مستحيلها أو يستسلم إلى مخاوف ليس ما يبررها ، وكل تسلط للخيال فى العقل درجة من درجات الجنون ، ولكن هذا التسلط لا يلحظه أحد فينا ما أمكننا أن نضبطه ونوقفه عند حده ، فلا نجد بين الناس من يصفنا بالخبل وهو لا يعد جنوناً واضحاً إلا إذا استفحل فأثر فى كلامنا وفعالنا .

«والاستسلام لسلطان الوهم وإطلاق العنان للخيال ملهاة يتلهى بها كثيراً أولئك الذين يرتاحون أكثر مما ينبغى إلى التأمل الصامت ، فحين ننفرد بأنفسنا قد لا نجد ما نعمله ، وعناء التفكير المجدى فى شئون الدنيا يثقل على النفس ، ومشقة البحث والاستقصاء تنتهى إلى حالة من الخمول أو الاكتفاء ، فمن لم يجد فى العالم الخارجى ما يشغله لا محالة يطلب لذته فى أفكاره الخاصة ، ويتوهم فى نفسه ولنفسه ما ليس فيها أولها ، فليس منا من هو راض بحاله قانع بواقعه ، وعندئذ تروته يسبح فى محيط المستقبل وهو مترام بلا نهاية ،

وينتقى من مفاتن الدنيا كل مـا يشتهيه فى ساعته ويركبه الغـرور فيتوهم لنفسه سلطاناً لا سبـيل له إلى بلوغه ، وهكذا ينتـقل خيـاله من مسرح إلى مـسرح مؤلفاً بين لذات الدنيا على كل وجه ممكن ، مـعربداً فى مجال السعادة ، وهى سعادة تعجز عن تحقيقها كنوز الأرض وطبيعة الأشياء مهما سخت .

«يمضى الوقت تتركز فى الذهن فكرة معينـة ، وينصـرف الذهن عـن كل ما عداها ، وهكذا يعود الذهن دائماً إلى هذه الفكرة المختارة كلما أضنته الحياة أو كلما تعطل عن العمل ، وهكذا يحيا الذهن على الأكاذيب البراقة كلما صدق الواقع المرير ، وهكذا يتوطد سلطان الوهم درجة درجة فـيسيطر على العقل ثم يستبد به ، فـإذا تم ذلك توهم المخبول الخيال حقيـقة ، وامتلكت رأسه الآراء الزائفة وقضى حياته فى أحلام السعادة أو فى تباريح الشقاء .

«وهـذه يا سيدى بعض أخطار الوحدة ، وقد اعترف الناسك بأن الوحـدة لا تقضى دواماً إلى الخير ، أما مـحنة الفلكى فتثبت أن الوحدة قد تكون وبالا على التفكير السديد» .

قالت بيكوا : «لقد كنت أتخيل نفـسى ملكة على الحبشة ، ولسوف أكف عن هذا التخيل ، فلطالمـا بددت الساعات التى كنت أفرغ فيـها إلى نفسى بإذن من سيدتى الأميرة ، أحلم فيها بالحفلات وأنظم شئون البلاط ، فكنت أسحق كبرياء المتـغطرسين وأجيب مطالب المساكين ، وكنت أبنى القـصور الجديدة فى مواقع أكثر بشراً وأروع جمالا من مـواقع القصور التى نعرفها ، وكنت أستنبت الأحراش فى أعالى الجبال ، وأنعم طويلا بعز الملوك حتى لقد كنت أوشك أن أنحنى تحية للأميرة كلما دخلت» .

وقالت الأمـيرة : «وأنا لم أعد أتخـيل أنى راعيـة من راعيات الغنم كـما تعودت أن أفعل فى أحلام اليقظة . لطالما هدأت نفسى إلى حياة الرعاة الطاهرة الساكنة ، حتى لقـد كنت من فرط الاستسلام لهـذا الحلم الجميل أتوهم الريح تصفر فى حجـرتى والأنعام تثغو ، وكنت آنـا أرى الحمل مشـتبكاً فى أغصان

الغابة فـأطلق سراحه ، وكنت آنا ألقى الذئب بـعكازى ، ولى ثوب من ثياب الفلاحـات كنت أرتديه ليسـتكمل خيـالى عدته ، ولى ناى كنت أعـزف عليه النغم الحنون واهمة أن القطعان فى أعقابى» .

قال الأمير : «أمـا أنا فقد كان خيالى يسـتسلم لحلم ذهبى أشد خطراً من كل هذه الأحلام ، فقد كنت أسعى دوماً إلى تصور الحكومة الكاملة التى تضع حداً لـكل الشرور وتصلح كل الرذائل وتضـمن لجمـيع رعاياها العـيش الآمن الطاهر . وقد استولدت هذه الفكرة فى رأسى عدداً لا حصر له من المشروعات والقوانين والأوامـر التى ترمى كلها إلى الإصـلاح الاجتمـاعى . أجل ، كنت أتلهى بكل هذا فى وحدتى أحياناً ، أو أكـد فيه وأنصب كلما واتانى الفراغ ، ولا أفيق منه إلا حين أذكر أنى بذلك أتمنى موت أبى وإخوتى» .

فقـال عملاق : « إن هذه طبـيعة الخـيال ومشـروعاته ، فـحين نبدأ هذه المشروعات نكـون على علم باستحالتـها ، ثم يألفها الذهن درجـة درجة حتى تخفى علينا حماقتها» .

الفصل الخامس والأربعون

الجماعة تتحدث إلى شبح هرم

وكان المساء قد أدركهم منذ زمن فنهضوا للأوبة إلى دارهم ، وفيما هم يسيرون بحذاء النيل وينعمون بمرأى القمر إذ يترجرج نوره على سطح المياه ، أبصروا على بعد قليل شيخاً هرماً كان الأمير يستمع إلى حديثه كثيراً فى مجمع الحكماء . قال الأمير : «ذاك رجل كبحت الشيخوخة شهواته ، ولكنها لم تعبث بعقله ، فلنختم أبحاث اليوم بسؤاله عما يراه فى حاله ، فنعلم إن كان الشباب دون سواه هو عهد الأمل ، ونقف على ما بقى لنا من أمل فى بقية العمر» .

وهنا تقدم إليهم الشيخ وحياهم ، فدعوه إلى المسير معهم وتحدثوا إليه تافه الحديث كما يفعل الصحاب إذا التقوا على غير موعد ، وكان الشيخ فى حالة رضية ميالا إلى الكلام ، فهونت صحبته الطريق على الجماعة وسره ما لقى من عناية فسار معهم حتى بيتهم ، ودعاه الأمير إلى الدخول فدخل . وأجلسوه فى مكان الصدارة وقدموا إليه النبيذ والأطعمة المحفوظة .

قالت الأميرة : «لابد أن نزهة المساء قد عادت عليك يا سيدى وأنت العالم الجليل بمتعة لا نعرفها نحن الشباب الذين لم نصب من العلم شيئاً ، فأنت تعرف كل شيء عما ترى ، تعرف عن النهر أسرار فيضانه وتعرف دورات الكواكب ، فكل شيء يدعوك إلى التأمل ويجدد إحساسك بمكانتك» .

فأجاب : «إن الشباب القوى المرح يجد فى النزهة المتعة ، أما الشيخوخة فحسبها من الحياة أن تجد الهدوء . إن الدنيا قد فقدت جدتها فى نظرى ، وأنا الآن أتلفت حولى لأرى ما كنت أراه فى صباى الطرير ، وأتكئ على شجرة لأستريح ، فأذكر كيف أنى ذات يوم كنت أقف فى ظل هذه الشجرة عينها أجادل صاحباً من أصحابى يرقد الآن تحت الثرى فى فيضان النيل ، وأرفع عينى إلى السماء وأشخص ببصرى نحو القمر المتغير فأذكر الحياة وتقلباتها وفى نفسى غصة موجعة . إنى لم أعد أستطيب متع العالم المادى ، فأى صلة عادت تربطنى بهذه الدار التى سوف أرحل عنها قريبا؟» .

قال عملاق : «أقل ما بقى لك هو لذة الذكرى ، ذكرى حياتك الشريفة النافعة ، فانعم بهذه الذكرى ، وانعم بالثناء الذى يكيله لك كل عارفيك» .

قال الحكيم متنهداً : «إن الثناء عند الشيوخ كلام أجوف ، فمالى أم تزهو بصيت ولدها ، ومالى زوجة تشاركنى هذا المقام الرفيع . لقد امتد بى الأجل فدفنت خلانى وأعدائى على السواء . ولم يعد فى حياتى شئ ذو بال ، فجميع آمالى قد ارتدت إلى ، إن الشباب ليرضى بالثناء لأن الثناء مقدمة لخير آجل ، والمستقبل أمام الشباب ممدود ، أما أنا فقد شخت حتى الوهن ، ومن شاخ حتى الوهن لم يخفه لوم الناس ولم يرج من عطفهم أو تقديرهم شيئاً ، ولقد يستطيعون النوال منى ، ولكنهم لن يستطيعوا نفعى بشىء ، فالمال لم تعد له قيمة ، ورفعة المقام تتمنى أكثر مما تسعد . إن استعراض الماضى يذكرنى بفرص ذهبية عديدة أهملتها ، وبالوقت الذى أضعته على التوافه وهو كثير ، وبساعات الفراغ والخمول وهى أكثر ، وهأنذا أقترب من حافة القبر ولما أبدأ بعد مشاريعى الجسام أو أتم منها ما قد بدأت ، وإنى لم أسئ إساءة كبرى تقض مضجعى ولذا أطمع فى الهدوء ، وإنى لأتجنب الآمال والأمانى التى يتعلق بها قلبى بعد هذه السنين الطوال برغم أن عقلى يرى بطلانها ، وأنا الآن أنتظر اللحظة التى أستوفى فيها أجلى راضى النفس صافى الضمير ، وأرجو أن

أصيب فى حياتى الثانية تلك السعادة التى فاتنى أن أصيبها فى هذه الحياة ، وأن أبلغ الفضيلة التى وقفت هنا ببابها ولم ألج» .

ثم نهض وانصرف تاركاً خلفه سحابة من اليأس خيمت على سامعيه ، فزهدتهم فى الحياة المديدة ، وجلا الأمير الغمة بقوله إن حديث الشيخ لا يحزن ، فما زعم أحد أن الشيخوخة عصر السعادة ، فإذا كانت الطمأنينة من نصيب الشيخوخة فلعل السعادة من نصيب الشباب ، عهد القوة والنشاط ، وإذا كان مساء الحياة هادئاً ساجياً فظهرها ناصع الضياء .

وقالت الأميرة إن الشيوخ لئام يضيقون بكل شيء ، وراقها أن تفجع الصغار فى آمالهم ، فقد رأت المالكين يحسدون ورثتهم على ما سيئول إليهم من نعم ، لقد رأت من العجائز من لا ينعمون بلذة من اللذات إذا شاطرهم إياها سواهم .

ورأت بيكوا أن الشيخ لابد أن يكون أكبر سناً مما يلوح ، ونسبت شكاته إلى الكآبة والهذيان ، أو إلى سوء حظه فى الحياة قائلة : «ما أيسر أن يتوهم كل إنسان أن الحياة عامة صورة من حياته الخاصة » .

ولم يشأ عملاق أن يفسد عليهم الجو ، فابتسم لما سمعه من الآراء التى أخذ كل منهم يعزى نفسه بها ويعزى الآخرين ، وذكر أنه كان فى مثل عمرهم واثقاً من السعادة وثوقهم ملتمساً مثلهم ما شاء من أسباب العزاء ، فتجنب أن يقحم عليهم تجاربه الأليمة تاركاً ذلك للزمن وهو لا يمهل . وانسحبت الأميرة ووصيفتها وقد اشتعل خيالهما بترهات الفلكى المخبول ، فرغبتا فى سؤال عملاق أن يتعلم فنه ويؤجل بزوغ الشمس فى الصباح التالى .

الفصل السادس والأربعون

الأميرة وبيكوا تزوران الفلكى

بعد أن تحدثت الأميرة وبيكوا على انفراد على الفلكى الذى تكلم عنه عملاق استقر رأيهما على زيارته ، فقد بدا لهما شخصية جذابة غريبة ينبغى أن تمتحن عن قرب ، ثم سألتا عملاقاً أن يدبر بينهما اللقاء المشنود .

ولم يكن هذا بالأمر اليسير ، فالفلكى لم يأذن لامرأة بدخول داره طول حياته ، برغم أنه كان يعيش فى مدينة يقيم فيها كثير من الأوروبيين الذين يتبعون عادات بلادهم ، كما يقيم فيها نزلاء جاءوها من جميع بقاع الأرض وأخذوا عن الأوروبيين حريتهم ، ولكن السيدتين لم تقنعا بالهزيمة وذهبتا تضعان الخطط المختلفة لتنفيذ مأربهما ، وقد كان من هذه الخطط أن يقدما إلى الحكيم بوصفهما غريبتين فى محنة ترجوان الغوث ، والحكيم لم يوصد بابه قط فى وجه ملهوف ، ولكن الجماعة نزلت عن هذه الخطة بعد شىء من التروى ، فقد وجدت أن حيلة كهذه لا تتيح لهما مخالطة الفلكى ، ولا تجيز لهما الإلحاف فى السؤال . قال الرأس إيلاس : « كل هذا صحيح ، ولكن عندى على استخفائكما اعتراضاً أقوى من ذلك ، لقد كان رأيى الثابت أن الاستفادة من سذاجة الناس مهما كان الدافع إليها جبن وتلويث لا شك فيه للطبيعة الإنسانية . إن الغش بجميع درجاته وأنواعه يهدم الثقة ويطفئ سراج الخير ، وحين يتبين الحكيم حقيقتكما سوف يغضب غضبة رجل عظيم الذكاء أدرك أن من دونه ذكاء قد غرروا به ، ولقد يودى ذلك إلى الأبد بثقته

فى الناس ، فيقبض عنهم نصحه وهو غال ، ويمنع عنهم جوده وهو سخى . ومن أين لنا بعد هذا بما يرد إليه طمأنينة نفسه أو إيمانه بالناس ؟» .

ولم يجب أحد على هذا بشىء ، وأنشأ عملاق يعلل نفسه بأن فضول السيدتين سوف يخمد ، ولكن السيدة بيكوا جاءته فى اليوم التالى تقول له إنها اهتدت إلى عذر شريف يبديانه للفلكى حين زيارته ، فهى تحب أن ترجوه فى أن يأذن لها بإتمام الدراسة التى بدأتها بإشراف العربى ، وللأميرة أن تصحبها باعتبارها زميلة فى الطلب ، أو باعتبارها صاحبة تحرس خطاها ، فالنساء الفاضلات لا يخرجن من دورهن فرادى .

قال عملاق : « أعتقد أن سيمل صحبتكما سريعاً ، فمن كان مثله غزير العلم لا يحب أن يعيد ما قاله بالأمس فى مبادئ العلم ، وإنى لأشك فى مقدرتك على التحصيل ، مهما أسف الحكيم إلى المبادئ الأولى ، فلسوف يمزج شرحه بتأملاته الخاصة ، ولسوف يضيف إلى تفسيراته ما تيسر له من استنتاجات» .

فأجابت بيكوا : «هذا شأنى أنا ، وكل ما أطلبه منك أن تمضى بى إليه فلقد يتجاوز علمى كل ما تتوهم ، ولسوف أؤمن على كل رأى يبديه فيتوهم أن علمى أوسع مما هو فى الواقع » .

ولتحقيق هذا الرأى قيل للفلكى إن سيدة أجنبية تسافر طلباً للمعرفة قد بلغها صيته فسعت إليه تتلمذ عليه ، وقد عجب لهذا الاقتراح وثار فضوله ، وبعد ترو قليل أذن لها بالقدوم ، وانتظرها بصبر نافد حتى الصباح التالى .

وارتدت السيدتان أفخر ما تملكان من ثياب وقادهما إلى الفلكى عملاق ، وسر الفلكى أن يجد نفسه موضع احترام تلكما السيدتين العظيمتين ، وقد بدا عليه الانكماش والحياء حين كانوا يتبادلون عبارات الترحيب ، ولكنه استرجع هدوءه لما انتظم الحديث ، وسأل بيكوا عما دفعها إلى دراسة الفلك ، فقصت عليه قصة مغامرتها قرب الهرم وما كان من مقامها فى جزيرة الأعرابى .

وكانت بيكوا تروى روايتهـا فى يسر ورشاقة حتى امتلك حـديثها على الحكيم حواسـه ، ثم دار الحديث حـول الفلك فبسـطت بيكوا أمام الحكيم علمـها ، فتـوسم الحكيم فيهـا النبوغ ، ورجاهـا أن تتم ما قد بدأت من دراسـة بعد أن أصابت كل هذا التوفيق .

وتجددت الزيارات فـما صادفـوا إلا الترحيب المـطرد ، وحاول الحكيم أن يدخل السرور على أفـئدتهم حتى يطول مكثهم ، فـقد كان يجد أن صحـبتهم تشحـذ عقله وتثيـر جنانه ، وزالت عنه غمة الوحـشة درجة درجة فـقد تولى الترفـيه عن أضيافـه برغم قصوره فى هذا البـاب ، وكان يحزن كلمـا غادروه ويضيق بحساباته الفلكية .

وكانت الأميـرة وصفيتـها أشد ما تكونان التـفاتاً إلى كل كلمة يتـفوه بها الحكيم ، ومضت بضعة شهـور على هذه الحال ، ولكنهما لم يظفرا منه بنطق ما يدل على إيمانه بقـوته الخارقة على تنظيم الفصـول ، وقد اجتهدتا كـثيرا أن تستخلصـا منه قولا صريحاً فى هذا الصدد ، ولكنه كـان يتخلص كل مرة من هذا الإحراج بمهارة وينتقل بالحديث إلى موضوع آخر .

ولما اشتـد ما بينهم من ود دعـته السـيدتان إلى دار عـملاق حـيث أحيط الحكيم بمظاهر التجلة التى لا نظير لها ، وبدأت ملذات هذا العـالم تجذبه شيئاً فشيئـاً ، فكان يبكر فى الحضور ولا يبرح الدار إلا متأخـراً ، وسعى جهده أن يحييـهم فى محضره بالمواظبـة وإجابة رغباتهم ، وأن يثـير فضولهم للمـعرفة الجديدة حتى يحسـوا بحاجتهم إلى معونته ، وقـد كان يرجوهم أن يقبلوه فى معيتهم كلما خرجوا فى نزهة أو رياضة .

وبعد هذا الاختبـار الطويل لحكمته وأمانته انتهى الأمير وأخـته إلى ائتمان جانبـه وقد أطلعاه على حقـيقة حالهـما مخافـة أن يخدعه أدبهمـا فيطمع فى العطاء ، وشرحـا له مقصـدهما من الأسفار وسـألاه النصح فى تخير «الحـياة السعيدة» .

قال الحكيم : «الحياة تعرض عليكما وجوها وليس فى وسعى أن أدلكما على أسعد هذه الوجوه ، وكل ما أستطيع أن أقوله هو أنى قد أسأت الاختيار ، فلقد أنفقت عمرى فى الدراسة ففاتنى الاختبار ، وما درست من العلوم إلا أقلها نفعاً لبنى الإنسان . أجل ، لقد كان الثمن الذى اشتريت به المعرفة نزولى عن سائر أسباب الراحة فى الحياة ، فضاعت منى صحبة النساء وهى جميلة ، وضاع منى حنان الأسرة وهو من أسرار السعادة ، ولقد كان امتيازى على سواى من العلماء امتيازاً يلابسه الخوف والقلق والحرص الشديد ، ولقد بدأت أشك فى قيمة هذا الامتياز ذاته منذ أن ازداد احتكاكى بالدنيا فتفتحت نفسى للحياة واتسعت أفكارى ، وكلما مرت بى أيام أنعم فيها بلذة الحياة خيل إلى أن دراستى قد انتهت بالضلال ، وأنى قد شقيت دهرى دون ما جدوى » .

وسر عملاقاً أن يرى الغشاوة تسقط عن بصر الحكيم والغيوم تنقشع عن بصيرته ، واعتزم أن يبعده ما أمكن عن أجرامه السماوية لعله ينسى ما ذهب إليه من إخضاعها لإرادته ، فيسترد بذلك رشده ويثوب إلى صوبه .

ومنذ ذلك اليوم غدا الفلكى صفيّا من أصفيائهم ، وشاركهم لهوهم وجدهم ، فكان احترامه لهم يحمله عن الالتفات إلى كل ما يقولون ، وكان نشاط الرأس إيلاس يملأ كل فراغه ، وهكذا ازدحمت أيامهم : فالنهار يقضى فى اختبارات تزود الليل بمادة الحديث ، أما الليل فينتهى بمشروع جديد للنهار .

واعترف الحكيم لعملاق بأن اعتقاده بسيطرته على الأفلاك قد أخذ يتلاشى من ذهنه درجة درجة منذ أن اتصل بجماعتهم المرحة ، وأخذ يوزع ساعاته بين أسباب السرور ، وشهد له بأنه قد بدأ ينزل عن نظريته التى عجز عن إثباتها للآخرين ، فهو يراها تتبدل كل يوم دون ما سبب معقول . قال : « ولو انفردت بنفسى ساعات قليلات امتلكنى هذا الاعتقاد الراسخ وتسلطت على نفسى قوة لا قبل لى بها ، فما إن أتحدث إلى الأمير أو تدخل على بيكوا حتى أتحرر من هذا الاعتقاد وتنطلق نفسى من هذه الأغلال . . وإن مثلى لمثل رجل

يخشى الأشباح كلما رآها ، وتطمئن نفسه إن جاءه مصباح ، ويعجب للمخاوف التى نهشته وسط الظلام ، فإذا ما انطفأ مصباحه عادت إليه مخاوفه من جديد وهو يعلم أنها سوف تتبدد مع النور ، غير أنى أخشى من حين لآخر أن ينتهى بى حب الهدوء إلى إهمال عملى ، وهو جريمة نكراء ، وأن أنسى الرسالة الجليلة التى كلفتنى المقادير بأدائها فى الحياة ، فلو أنى حابيت نفسى فى مثل هذا الخطأ الشائع أو زينت لى الراحة أن أنفض يدى من هذا الأمر الخطير الذى لم يتبين بعد صوابه من ضلاله ، فلن أغفر لنفسى هذا الجرم ما حييت » .

فأجاب عملاق قائلا : « ليس بين أمراض الخيال ما استعصى على العلاج كمخافة الخطيئة ، فالوهم والضمير يصطلحان عندئذ علينا ، ويختلطان فى نفوسنا فلا نعود نميز بين هواجس الوهم وأوامر الضمير ، والخيال قد يهيئ لنا أشياء تتنافى مع الدين أو مع الأخلاق ، فلا يجد الذهن عسراً فى طردها من نفوسنا ، أما إذا تقمصت الأفكار السوداء صورة الواجب فهى تنشب مخالبها فى النفس دون أن تجد ما يردها ، فنحن نخاف أن نتخلص منها ، لهذا تجد أن المستسلمين للخرافات أكثرهم من أصحاب الأفكار السوداء ، كما تجد أن أكثر أصحاب الأفكار السوداء يؤمنون بالخرافات .

« ولكن لا تدع هذه المخاوف تصرع تفكيرك الرشيد ، فإهمالك رسالتك لا يزيد احتمالاً عن قيامك بواجبك ، ولو قد نظرت إلى واجبك نظرة مجردة من كل قيد لوجدت أن هذا الواجب فى ذاتهِ ضئيل ، وأن هذا الواجب على ضآلته يتضاءل يوماً بعد يوم ، فافتح إذن فؤادك للنور الذى يشرق عليه من حين لآخر ، فإن عذابك نداء ضميرك وأنت تعلم فى لحظات صحوك التام أنه نداء زائف ، لا تضيع وقتك فى الجدل ، بل بادر إلى العمل وأطلب صحبة بيكوا، ولا تنس قط أنك لا تتجاوز أن تكون ذرة تافهة فى محيط الإنسانية الكبير ، وأنك لم تزود بفضيلة من الفضائل الكبرى حتى تختصك السماء برضاها ، ولا برذيلة من الرذائل الكبرى حتى تنفرد بغضب السماء » .

الفصل السابع والأربعون

الأمير يدخل ويغير موضوع الحديث

قال الفلكي : « ما أكثر ما تدبرت كل ما تقول ، ولكن عقلي قد استعبدته زمناً طويلاً فكرة جبارة لا سبيل إلى ردها حتى غدا قليل الإيمان بما يصل إليه من نتائج . وإني لأرى الآن كيف أفسدت سلام حياتي حين استسلمت في دخلية نفسي للترهات ، ولكن الأفكار السوداء تجعل صاحبها يخشى أن يصارح الغير بها ، ما وجدت قبلك رجلا أستطيع أن أسر إليه أوجاعي برغم أني كنت واثقاً من أن التنفيس يزيل غمتي ويرفع كدري ، وإني لسعيد بأن أجد في رأيك ما يدعم رأيي ، وأنت الحصيف الذي لا يسهل خداعه ، وأنت الأمين الذي لا يجد مبرراً لخداعي ، وآمل أن يبدد الزمن والحياة المتجددة هذه الكآبة التي اكتنفتني ، فأقضي بقية عمري في سلام » .

فقال عملاق : « إن سعة علمك وكرم نفسك لخليقان بأن يحققا لك هذا الرجاء » .

وعندئذ دخل عليهما الرأس إيلاس ومعه الأميرة وبيكوا ، وسألهما عما أعداه من جديد لمتعة الغد .

وقالت نكاية : « هذه شيمة الحياة ، فما من أحد يجد السعادة إلا في انتظار الجديد ، والتغيير في ذاته لا قيمة له ، فحين يتحقق لنا التغيير نطلب تغييراً جديداً . إننا لم نستنفد كل ما في الدنيا من وجوه جديدة فلنبحث غداً عن شيء لم أره من قبل » .

قال الرأس إيلاس : « إن السعادة لا تكون بغير التغير ، فالوادى السعيد ذاته قد عافته نفسى لأن نعيمه كان رتيب الصور ، ولكنى لم أستطع أن أمسك عن تأنيب نفسى حين رأيت رهبان القديس أنطونيوس صابرين يتحملون الحياة الشاقة الرتيبة الصعاب لا الحياة اللينة الرتيبة اللذات » .

فأجاب عملاق قائلا : « إن أولئك الرهبان أقل تعساً فى ديرهم الهادئ من أمراء الحبشة فى سجن السعادة ، فالراهب يعمل ما يعمل مدفوعاً بعوامل كافية ومسوغات معقولة ، وكدهم يأتيهم بضروريات الحياة ولابد أن يحسب حسابه ، وهو لاشك يؤتى ثمره ، وتهجدهم يعد نفوسهم للعالم الآخر ويذكرهم بقرب مجيئه ، أما وقتهم فموزع توزيعاً منظماً ، والواجب فى أعقابه واجب ، فهم لا يتعرضون لملل الفراغ أو لملل الخمول ، إنما لكل وقت عمله ، وهم يكدحون راضين لأنهم يرون فى كدحهم مظهراً من مظاهر الورع يقربهم باطراد من السعادة الأبدية » .

قالت نكاية : « أو تعتقد أن نظام الرهبانية أقرب إلى الكمال أو أقل نقصاً من أى نظام آخر ؟ ألا يأمل فى النعيم من خالط الناس واندمج فيهم فأغاث ملهوفهم بإحسانه ، وعلم جاهلهم ببيانه ، وساهم بجهده فى بناء الحياة ، وإن لم يعذب نفسه على غرار الرهبان ، وإن أقبل على برئ اللذائذ التى تضعها الحياة فى طريقه؟» .

فأجاب عملاق : « إن هذه المسألة قد اختلف فيها الحكماء وحار فيها أهل الخير منذ القدم ، فكيف أقطع فيها الآن برأى ؟ إن من يحيا حياة صالحة بين الناس لخير ممن يحيا حياة صالحة بين جدران الدير ، ولكن لعل بعض الناس لايقوون على مقاومة الغوايات فى الحياة الاجتماعية ، ومن لم يستطع أن ينتصر على الغواية فله أن يتراجع أمامها . فمن الناس من كانت قدرتهم على فعل الخير وقدرتهم على مقاومة الشر ضئيلة محدودة ، ومن الناس من أعياهم صراعهم مع الشدائد فأحبوا أن يتخلصوا من مصدر شقائهم ، ومن الناس من

أقعدتهم الشيخوخة أو أقعدهم المرض عن العمل المضنى الذى يقتضيه المجتمع من أبنائه . وفى الدير يعتصم العجزة والجازعون من الحياة ، وفى الدير يرتاح المتعبون ويفرغ الخطاة إلى التأمل فى توبتهم . وإن فى هذه المعتكفات التى يتجرد فيها الإنسان للعبادة والتأمل راحة للعقل أى راحة ، ونحن لانكاد نجد رجلاً واحداً لا يتمنى أن يقضى بقية أيامه فى التجرد والتقوى بين نفر من أصحابه يشبهونه فى التجرد والتقوى » .

قالت بيكوا : « إن هذه لأمنيتى فى الحياة ، ولقد سمعت الأميرة تقول إنها تكره أن تموت بين الناس» .

ومضى عملاق فى حديثه قائلا : « إن حق الإنسان فى اللذات البريئة لا جدال فيه ، ولكننا لا نعرف بعد أى اللذات برئ وأيها خبيث ، والشر الذى يصاحب أى لذة تتصورها نكاية ليس فى اللذة ذاتها ولكن فى عواقبها ، فاللذة فى ذاتها بريئة ، ولكنها قد تعود علينا بالأذى إذا حببت إلينا العرض الزائل وصرفتنا عن التفكير فى الأبدية التى نقترب من بدايتها ساعة بعد ساعة ، ولا يستنفدها مر الأيام وانطواء العصور . وتعذيب النفس ليس فى ذاته فضيلة ، ولا نفع فيه سوى أن يصرفنا عن مغريات الحواس . أما الحالة المثلى التى سنصير إليها فى قابل الأيام ونتطلع إليها جميعاً منذ الآن ففيها اللذة منزهة عن الأخطار ، وفيها الأمن الذى لا يكلف أحداً كدّاً ولا كدحًا » .

وسكتت الأميرة ، والتفت الرأس إيلاس إلى الفلكى وسأله إن كان يستطيع أن يؤجل اعتكافها بصور جديدة من العالم يعرضها عليها .

فأجاب الحكيم قائلا : « لقد كان حبكم للاستطلاع قويّا ورغبتكم فى المعرفة شاملة فلم تتركوا من صور الحياة إلا قليلا ، ولكن ما تضن به الحياة قد يجود به الموت ، فمن عجائب هذه البلاد مقابرها ، وهى سراديب وضعت فيها أجداث الأولين ، وحفظها التحنيط بالعقاقير من البلى ورد عنها العفاء » .

قال الرأس إيلاس : « أنا لا أفهم كيف تكون زيارة المقابر مبعثاً للسرور ، ولكنى قد عزمت على رؤيتها لأنى لا أجد ما أراه سواها ، ولسوف أضيف هذا العمل إلى الأعمال الكثيرة التى أتيتها دفعاً للفراغ ليس إلا » .

واستأجرت جماعتهم نفراً من الفرسان للحراسة ، وخرجت فى اليوم التالى إلى المقابر ، وحين هموا بالنزول فى كهوف الموتى قالت الأميرة : « أى بيكوا ، ها نحن أولاء نؤم منازل الموتى للمرة الثانية ، وأنا أعلم أنك سوف تتخلفين ، فأرجو أن أجدك سالمة حين أعود إليك» فأجابت بيكوا :«بل سوف أنزل معكما القبر ، وليكن موضعى بينك وبين الأمير ، فلن أتخلف هنا بمفردى » .

وهبطوا جميعاً فى السراديب التى تضل فيها خطى الزائرين حيث نام الموتى مصففين على الجانبين .

الفصل الثامن والأربعون

عملاق يتحدث عن طبيعة الروح

قال الأمير : « وماذا دفع المصريين إلى أن يتكبدوا كل هذه النفقات ليحفظوا أجداثهم من البلى ، على حين نجد أقواماً تحرق الجثمان وأقواماً تضع الجثمان فى التراب ليختلط الجثمان بالتراب ، وقد أجمع الجميع على التخلص من موتاهم بعد أن تجرى لهم طقوس الموت الكافية مباشرة؟ » .

قال عملاق : « إن منشأ العادات القديمة لا علم لأحد به ، وكثيراً ما تدوم العادة بعد اختفاء الداعى الذى سببها ، أما المراسم الخرافية فلا جدوى من التفكير فى أصولها ، لأنها ليست من عمل العقل ، ومالم يخلقه العقل لا يستطيع العقل أن يفسره ، وقد كان رأيى الثابت أن عادة التحنيط تنشأ من وفاء الناس لأجداث الأهل والأصحاب ، ومازلت عند رأيى هذا و ويؤيدنى فيه أن مثل هذه العادة لا يمكن أن تكون عادة شائعة ، فلو أن كل من ماتوا حنطوا لتجاوزت مساكن الموتى مساكن الأحياء ، وأعتقد أن سراة الناس وأماجدهم قد حفظوا دون سواهم من العفاء ، أما سائر الناس فقد تركوا للطبيعة تجرى فيهم مجراها .

« ولكن الرأى الشائع هو أن المصريين كانوا يعتقدون بأن الروح تعيش ما عاش الجسد ؛ ولذا فقد ابتكروا هذه الطريقة ليتجنبوا الموت » .

قالت نكاية : « كيف استطاع المصريون أن يتوهموا هذه الأوهام الساذجة عن الروح ؟ فلو أن الروح استطاعت أن تعيش بمفردها بعد انفصالها عن الجسم فماذا تستفيذ الروح من الجسم وماذا تخشى منه ؟» .

وقال الحكيم : « لم يكن بد أن يضل المصـريون فى تفكيرهم أيام كانوا فى ظلام الوثنيـة وفى فجـر الفلسفـة . وإن طبيـعة الروح لا تزال مـوضع بحث الباحثين برغم كل ما لدينا من فرص المعـرفة الدقيقة ، وإن من الناس من يقول إن الروح قد تكون مادية الجوهر ، ومع ذلك فهو ينسب لها الخلود » .

فأجاب عملاق قـائلا : « حقّاً إن بين الناس من يرى أن الروح من مادة ، ولكن لا أعتقـد أن بين أصحاب هذا الرأى واحداً من أصـحاب الفهم والمنطق فجـميع دلائل العقل تؤكـد أن الذهن مجرد من المادة ، وجـميع دلائل الحس وأبحاث العلم تتفق فى إثبات خلو المادة من الوعى .

« فما من أحد يرى أن التفكير خـاصة من خواص المادة ، أو أن كل دقيقة من دقائق المادة كائن مفكر . ومع ذلـك لو جردنا كل جزء من أجزاء المادة من التفكيـر ، فأى جزء مـن أجزاء المادة يمكن أن ننسب له التفـكير الذى نرى فى الحيـاة . إن المادة لا تختلف عن المادة إلا فى الشكل وفى الكثافـة وفى الحجم وفى الحركة وفى اتجـاه الحركة ، فبأى هذه الخصـائص نستطيع أن نربط الوعى سواء فرادى أو مجتمعات . فالشكل المستدير والشكل المربع والصلابة والسيولة والضخامـة والضآلة ، وبطء الحركة وسرعتـها فى هذا الاتجاه أو فى ذاك ، كل هذه حالات للوجود المادى كلها بعيدة عن طبيعة التفكير ، وهى بعيدة عنه بعداً متساوياً ، فإذا كانت المادة خلواً من التفـكير فلا سبيل إلى التفكير إلا إذا دخل عليـها تحول جـديد ، ولكن كل تحول يمـكن أن يدخل على المادة لا صلة بينه وبين قوة التفكير » .

قال الفلكى : « ولكن المـاديين يحتجـــون بأن المـــادة قد تكون لها خواص لا علم لنا بها » .

فأجاب عملاق : « ليس من عـقلاء الناس من يقطع بفساد ما يعلم لمحض احتمـال وجود ما لا يعلم ، ويرجح الإمكانيــة المفترضة على الثـابت المقرر ، فكل ما نعـرفه عن المادة أنها خـاملة ، لا حس فيهـا ولا حياة ، فـإذا لم نجد مفنداً لهذا الرأى فى المادة إلا إمكان وجود شىء ، لا نعلمـه ، فقد اجتمع لنا

كل ما يقنع المنطق الإنساني . فلو أن ما لا نعلم ينسخ في أذهاننا ذلك الذي نعلم لما وصل كائن إلى اليقين إلا الكائن الأعلى الذي تناول علمه كل شيء » .

قال الفلكي : « ولكن في هذا حداً وقحًا لقدرة الخالق ، فلنتجنبه » .

قال الشاعر : « نحن لا نحد قدرة الخالق التي تتناول كل شيء إذ نقول إن الشيء مناقض لغيره ، أو أن القضية الواحدة لا يمكن أن تكون صحيحة وكاذبة في وقت واحد ، أو أن العدد الواحد لا يمكن أن يكون فرديًا وزوجيًا معًا ، أو أن التفكير لا يمكن أن ينسب إلى شيء عاجز عن التفكير بحكم تكوينه » .

قالت نكاية : « أنا لا أرى جدوى للبحث في هذا الموضوع ، لقد أثبت لنا بما يكفي تجرد الروح من كل مادة من حيث تكوينها ، فهل لا مادية الروح هذه تتضمن بالضرورة مبدأ الخلود ؟

أجاب عملاق : «إن علمنا باللامادية علم سالب كله ، وهو لهذا غامض . ولكن يبدو أن اللامادية تتضمن القدرة الطبيعية على البقاء الأبدي ؛ لأن اللامادية معفاة من جميع أسباب الانحلال والفناء ، فكل ما يفني بانحلال الأجزاء التي يتركب منها نسيجه ، يفنى بتفكك أجزائه ، ونحن لا نستطيع أن نتصور كيف أن شيئا لا أجزاء له ، وبالتالي غير قابل للتفكك ، يخضع لعوامل التعفن والهدم التي تلازم الطبيعة» .

قال الرأس إيلاس : « أنا لا استطيع أن أتصور وجود شيء لا امتداد له ، وكل ما له امتداد له بالضرورة أجزاء وكل ماله أجزاء باعترافك يخضع للهدم » .

فأجاب عملاق : « تأمُّل أفكارك يُسَهِّلُ عليك الاقتناع بما أقول ، فأفكارك جوهر لا امتداد له ، والصور المجردة لا تقل واقعية عن الماديات ذات الأحجام ، ومع ذلك فالصور المجردة لا امتداد لها ، وحين تفكر في الهرم فذهنك يحوى صورة مجردة للهرم ، وهذه الصورة موجودة في الواقع وجود الهرم ذاته في الواقع ، فأى فرق هناك بين الفراغ الذى تملؤه في ذهنك فكرة الهرم والفراغ الذى تملؤه في ذهنك فكرة حبة من حبوب القمح ؟ وهل يمكن تمزيق هذه

الفكرة أو تلك ؟ والعلة كالنتيجة ، وما تقوله فى الفكر تستطيع أن تقوله فى القوة المفكرة ، إنها قوة سالبة لا تدرك » .

قالت نكاية : « ولكن الكائن الذى تضطرب لذكره نفسى ، الكائن الذى خلق الروح مستطيع أن يحطمها » .

فأجاب عملاق :« لاشك أنه مستطيع أن يحطمها ، فمهما تكن الروح خالدة فهى تستمد قدرتها على البقاء من طبيعة أسمى من طبيعتها ، وبالفلسفة ثبت أن الروح لن تتلاشى نتيجة لعوامل الانحلال أو ناموس الفناء ، ولكن الفلسفة تقف عند هذا الحد ، وهنا نحتاج إلى حجة أسمى تلهمنا أن الخالق الذى خلق الروح لن يحطمها » وبعد أن فرغ عملاق من كلامه ساد الصمت بين الجميع وثاب كل إلى نفسه . وقال الرأس إيلاس :« ألا فلنغادر هذه الدار ، دار الموتى ، فما أشد كآبتها لمن جهل أنه باق لا يموت ، لمن جهل أن القوة التى تعمل الآن ماضية فى نشاطها ، لمن جهل أن الروح التى تفكر الآن سوف تفكر إلى أبد الآبدين . إن من نراهم أمامنا ممددين ، وهم حكماء العالم القديم وسادته ، إنما يذكروننا بقصر حالتنا الراهنة ، ولعل المنية اختطفتهم وهم يشتغلون اشتغالنا بالبحث عن السعادة » .

قالت الأميرة :« إن البحث عن السعادة فى دار الفناء لم يعد الآن يشغلنى كما كان يشغلنى من قبل ، ورجائى منذ الآن أن أنقطع للبحث عن السعادة الأبدية دون سواها » .

وخرجوا من المقابر مسرعين ، وعادوا إلى القاهرة فى حمى الحراس .

الفصل التاسع والأربعون

الخاتمة التى لا تختم شيئًا

وحل وقت فيضان النيل ، فبعد زيارتهم لمقابر الأولين بأيام قليلة بدأ صدر النهر يرتفع .

ولزموا دارهم ، ورغبوا عن الرحلات ، لأن الماء قد غمر المنطقة كلها ، ووجدوا كفايتهم من الحديث لإزجاء الفراغ ، فوازنوا بين صور الحياة التى رأوا ، وتبادلوا الأمانى ، فقد رسم كل لنفسه خطة تهديه إلى الحياة السعيدة فى قابل الأيام .

أما بيكوا فلم تر شيئاً سحر خيالها كدير القديس أنطونيوس ، حيث ردها الأعرابى إلى سيدتها الأميرة ، وكان قصارى رجائها أن تملأ جنبات ذلك الدير بالعزارى الطاهرات ، وأن تُنَصَّبَ عليهن رئيسة ، ولقد أمضها طول الانتظار وعافت الحياة المتقلبة ، فوجدت سعادتها فى التماس الحياة الثابتة التى لا يحدث فيها جديد .

ورأت الأميرة أن أثمن ما فى الحياة الدنيا هو المعرفة ، فتمنت أن تدرس جميع العلوم أولاً ، ثم تؤسس مدرسة تجمع فيها عالمات النساء وتديرها بشخصها ، وهكذا توزع وقتها بين تحصيل المعرفة وإعطائها للغير ، تتحدث إلى الكبيرات وتؤدب الصغيرات ، وتعد للجيل القابل نماذج من الحزم والصلاح .

وتمنى الأمير مملكة صغيرة يقيم فيها العدل بنفسه ، ويشرف على جميع فروع الحكومة ، ولكنه تردد فى تحديد تخوم دولته ومد سلطانه على رعايا جدد كل يوم .

بقى عملاق والفلكى ، وقد ترك كل منهما نفسه يطفو فى تيار الحياة قانعاً بذلك ، لا يطلب وجهة ولا يسعى إلى مرفأ معين .

ولكن الأمانى جميلة ، وقد كانا يعلمان أن منالهـا محال ، فتشاوروا قليلا فيما ينبغى عليهما عمله ، وأخيراً قررا أن يعودا إلى الحبشة بعد انتهاء الفيضان .

تمت الترجمة فى باريس ١٩٤٦

شبح
كانترفيل

الفصل الأول

عندما ابتاع مستر هيرام ب. أوتيس وزير أمريكا المفوض فى بلاط سانت جيمس قصر كانترفيل لامه جميع عارفيه ووصفوا عمله ذلك بأنه حماقة كبرى، فما من شك فى أن القصر كان « مسكونًا »، بل إن لورد كانترفيل ذاته، وهو رجل يقدس الشرف، قد رأى أن من واجبه تنبيه مستر أوتيس إلى هذه الحقيقة حين أخذا يدرسان شروط البيع ، فقال :

- يجب أن أذكر لك يا مستر أوتيس أننا قد نزحنا عن القصر منذ أن أصيبت عمة أبى دوقة بولتون بنوبة رعب شديد لم تشف منها تمامًا حتى هذه اللحظة ، فقد كانت ترتدى ثياب السهرة ذات مساء تأهبًا للعشاء، فإذا بها تحس بيدى هيكل عظمى تستقران على كتفيها ، والواجب يلزمنى أن أذكر لك يا مستر أوتيس أن جملة أفراد من أسرتى لا يزالون على قيد الحياة قد رأوا الشبح رؤية العين ، كما رآه أسقف الأبروشية ، نيافة أوغسطس دامپير ، الزميل بكلية الملك بكامبريدج ، وقد تركنا أكثر خدمنا من الشباب منذ حادثة الدوقة، ولازم الأرق ليدى كانترفيل بسبب ما تسمعه أثناء الليل من أصوات رهيبة تنبعث من الدهليز ومن مكتبة القصر .

فأجاب الوزير المفوض قائلا :

- أنا يا سيدى اللورد سأشترى الأثاث والشبح حسب تقدير الخبير ، فالبلاد التى أنتمى إليها بلاد عصرية ، فيها كل ما يمكن للمال أن يبتاعه ، واعتقادى أنه لو كان فى أوروبا شبح حقًا لاقتنصه فوراً شبابنا المتأنقون الذين يفدون عليكم كل عام ، ويفتحون الدنيا القديمة فتح الغزاة ويعودون إلى الدنيا

الجديدة بخيرة ممثليكم وممثلاتكم ، ولرأيناه معروضاً فى متحف من متاحفنا أو فى شارع من شوارعنا .

قال لورد كانترفيل :

ولكن وجود الشبح حقيقة مقررة وإن كان مندوبوكم الأذكياء لم يعثروا عليه ، ونحن نعلم بوجوده منذ ثلاثة قرون ، أو منذ سنة ١٥٨٤ على وجه التحديد ، وهو يظهر كلما حضرت الوفاة فرداً من أفراد الأسرة .

- هذا يصدق عن طبيب الأسرة كذلك يا لورد كانترفيل ، ولكنى أجزم ياسيدى بأن الأشباح لا وجود لها ، وأعتقد أن الطبيعة لن تغير مجراها إرضاءً للأرستقراطية البريطانية .

ولم يفهم لورد كانترفيل عبارة مستر أوتيس الأخيرة ، وأجاب قائلا :

- ما أشد إيمانكم بالمنهج العلمى ، معشر الأمريكيين ! ، وإذا كان لا يضيرك أن تقيم فى بيت « مسكون » فلا بأس عندى من هذه الصفقة ، ولكن لا تنس أنى حذرتك .

وتمت الصفقة بعد أسابيع قليلة ، وما انتهى الموسم إلا وقد انتقل الوزير المفوض وأسرته إلى قصر كانترفيل ، أما مسز أوتيس فقد كانت قبل زواجها بالوزير تسمى الآنسة لوكرشيا تابان ،وتسكن الشارع الثالث والخمسين الغربى، وكانت من أشهر جميلات نيويورك ، وهى الآن سيدة فى منتصف العمر تلفت الأنظار أناقتها الشديدة وعيناها النجلاوان ويسحر القلوب منظرها الجانبى ، وتتوهم كثيرات من الأمريكيات أن ادعاء المرض من خصائص المجتمع الراقى فى أوروبا ، ولذا فهن يصطنعنه اصطناعًا كلما خرجن من بلادهن ، ولكن مسز أوتيس لم ترتكب هذه الغلطة قط ، فقد كانت ذات بنية قوية يملؤها حب الحياة ، ولقد كانت كالإنجليزيات فى كثير من خصالها ، بل لقد كانت نموذجا حيًا يثبت أننا لا نختلف الآن عن الأمريكيين فى شىء ، ما خلا اللغة طبعًا ، وكان ابنها الأكبر فتى ذهبى الشعر وسيم الطلعة إلى حد ما ، وقد أعد نفسه

للوظائف الدبلوماسية كما يفهمها الأمريكيون بإتقانه فن الرقص، وكان يقود الراقصين فى كازينو نيوبورت وتحدث الناس بمهارته فى مراقص لندن ، واختار له والداه عند مولده اسم واشنطون فى لحظة حماسة وطنية ، ولكنه ظل ناقما على هذا الاسم طول حياته ، ولم يكن به من نقائص إلا كلفه الشديد بأزهار الجاردينيا ورغبته الملحة فى أن يكون من ذوى الألقاب ، وكانت أخته مس فرچينيا إ . أوتيس صبية صغيرة فى الخامسة عشرة من عمرها ، ينبثق منها الحسن وتنبثق منها الحيوية كأنها حورية من حور الأساطير ، ترى قلبها الخلى فى عينيها الزرقاوين الصافيتين ، وتفيض بالعافية كأنها أمازونة من الفارسات المحاربات اللائى جاء ذكرهن فى التاريخ ، ولقد خرجت ذات مرة للنزهة على مهرها مع اللورد بيلتون العجوز وكان بينهما سباق فركضا حول هايدپارك مرتين فتقدمته بطول ونصف طول عند تمثال آخيل ، وسرّ بذلك الدوق الصبى ، ودوق تشيشاير ، سروراً لا مزيد عليه وعرض عليها الزواج لوهلته ، ولكن أوصياءه ردوه إلى إيتون فى تلك الليلة بالذات فعاد إليها تجرى دموعه أنهاراً ، ويلى فرجينيا التوأمان ، ولقبهما فى الأسرة العلم الأمريكى ، أو على الأصح « النجم و الأشرطة » لكثرة ما يبقى على جسديهما من علامات الضرب ، ولكثرة ما يريان من نجوم كلما ضربا ، وكانا غلامين ظريفين ، وإذا استثنينا سعادة الوزير المفوض ، لم يكن بأسرة أوتيس من يدين حقّاً بالمبادىء الجمهورية سواهما .

وكان قصر كانترفيل يبعد سبعة أميال عن اسكوت، وهى أقرب محطة من محطات السكك الحديدية للقصر ، ولهذا أبرق مستر أوتيس يطلب عربة تحمله إلى داره الجديدة ، وسارت بآل أوتيس العربة تشق طريقها إلى كانترفيل وهم فى سرور عظيم ، فالمساء فى يوليو جميل والهواء رقيق عاطر بأريج غابة الصنوبر ، وسمعوا فى طريقهم إحدى حمائم الغاب تهدل وقد سحرهم صوتها الجميل ، ورأوا طيور الدراج يلمع صدرها وسط الأعشاب ذات الحفيف، واسترقت النظر إليهم من بين أغصان الزان السناجيب الصغيرة ،

وفرت الأرانب واثبة تخترق الأشواك وتجتاز المرتفعات التى كستها الطحالب، ولكن ما إن بلغوا طريق كانترفيل الظليل حتى اكفهر وجه السماء وركد الهواء ركودا غير مألوف ، وشاهد آل أوتيس سربًا عظيما من الغربان يندفع فوق رءوسهم ولا يسمع له صوت ، وقبل أن يبلغوا الدار انهمرت قطرات جسيمة من عين السماء .

ووجدوا بباب الدار امرأة هرمة تقف فى انتظارهم ، وكانت ترتدى ثوبًا من الحرير الأسود ومن فوقه فوطة بيضاء وعلى رأسها قلنسوة بيضاء ، وكان ملبسها مرتبا يدل على العناية ، وكانت تدعى مسز أمنى ، ومسز أمنى هذه هى مدبرة الدار ، وقد استبقتها مسز أوتيس فى خدمة الدار بعد أن رجتها ليدى كانترفيل رجاء حاراً أن تستبقيها ، ولما أخذوا ينزلون من العربة انحنت وثنت ركبتها تحية لكل فرد منهم ، وقالت فى لهجة غريبة عتيقة : « نزلتم أهلا بقصر كانترفيل » وتقدمتهم فاجتازت بهم القاعة الفخمة المبنية على طراز أسرة تيودور ، ودخلت بهم المكتبة فوجدوها غرفة طويلة منخفضة السقف تزين جدرانها ألواح البلوط السوداء ، وتنتهى بنافذة كبيرة زجاجها ملون ، وفى المكتبة وجدوا الشاى فى انتظارهم ، وبعد أن خلعوا معاطفهم جلسوا ليتناولوا شايهم وأجالوا البصر فى أرجاء الغرفة يتفقدون ، ووقفت مسز أمنى بالقرب منهم فى انتظار أوامرهم .

ثم لاحظت مسز أوتيس فجأة أن على أرض الغرفة بجوار المدفأة بقعة باهتة ، ولم تدر ما تكون هذه البقعة ، فقالت مخاطبة مسز أمنى :

- أرى أن على الأرض آثار سائل أريق .

فأجابت المدبرة العجوز بصوت خفيض :

- نعم يا سيدتى ، فقد أريق الدم فى ذلك المكان .

فصاحت مسز أوتيس قائلة :

- ياللفظاعـة ! أنا لا أحتمـل أن أرى بقعة دم فى الصـالون ، ولا بد من إزالتها فوراً .

ولكن المرأة العـجوز ابتـسـمت وأجابت بصـوتهـا الخفـيض الذى يوحى بالأسرار :

- إنه دم ليدى إليـانور دى كانترفيل الـتى قتلها زوجهـا سير سيـمون دى كانترفيل عام ١٥٧٥ فى ذلك الموضع من الغرفة ، وقد عاش سير سيمون تسع سنوات بعد موتها ، ثم اختـفى فجأة بطريقة عجيبة لا يعلم أحـد عنها شيئًا ، ولم يعثر أحد على جثتـه ، ولكن روحه الآثمة لا تزال تسكن القـصر ، وقد نالت بقعـة الدم هـذه إعجـاب كثيـر مـن السائحين وسـواهم من رواد الدار ، ولا يمكن إزالتها .

فصاح واشنطون أوتيس قائلا :

- أى هـراء هـذا ! إن دهـان بنكرتون الأصلـى العجيب كفيـل بأن يزيلها فى ثوانٍ .

وانكفا عـلى الأرض فوراً قبل أن تجـد المدبرة العجـوز مجالا لـلتدخل ، وأنشأ يحك الأرض بقلـم صغير أسـود يشبه الأقـلام الملونة التى تستـخدم فى التزين ، وفى لحظات اختفى كل أثر لبقعة الدم .

وقال واشنطون بلهجة الظافر والأسرة من حوله معجبة :

- أما قلت لكم إن دهان بنكرتون كفيل بإزالتها ؟

ولكن ما إن فرغ من عبارته حتى أضاء الغرفة المقبضة وهج برق مخيف ، ودوت فيها قعقـعة رعد عظيم ، فهبوا جميعا واقفين وخرت مـسز أمنى مغشياً عليها .

قال وزير أمريكا المفوض وهو يشعل سيجاراً طويلا بعد أن هدأ روعه :

- ياله من جــو بشع ! أظــن أن إنجــلترا قــد ازدحــمت بالسكان أكـثــر مما ينبغى ، والحكومة لهذا عاجزة عن توفـير الجـو الصحو لجميع أبناء الشعب ، إن رأيى الثابت هو أن الهجرة هى العلاج الوحيد لجميع مشكلات إنجلترا .

وقالت مسز أوتيس :

- ما دواء الإغماء يا عزيزى هيرام ؟

فأجاب الوزير المفوض :

- اخصميـه من أجرها كما تخصمين ما تكسره من الأوانى ، فإن فعلت ذلك لم تعد إلى الإغماء مـرة أخرى ، وقد حدث ما كان يتـوقعه تماما ، لأن مسز أمنى أفـاقت بعد لحظات معدودات ، ولكن اضطرابها كان عظيـما ما فى ذلك شك ، ولقد تنبأت لمستر أوتيس بكارثة تحل بالدار ، قالت :

- لقد رأيت شـتى الأشياء تحدث فى هذا الـبيت يا سيدى ، رأيتـها رؤية العين ولم أسـمع بها من إنسـان ، ولكم قضيت الـليالى لا يغمـض لى جفن لفظاعة ما رأيت .

ولكن مـستر أوتيـس وزوجـه أكدا لهـذه المرأة الطيبـة أنهمـا لا يخشـيان الأشباح ، واستمطرت المدبرة العجوز بركـات السماء على سيدها الجديد وعلى سيدتها الجديدة ، ولم تنس أن تفـاوضهم فى رفع أجرها ، ثم انصرفت تخب فى سيرها قاصدة غرفتها .

الفصل الثانى

زمزمت العاصفة طول الليل ، ولكن لم يحدث شيء ملحوظ فى قصر كانترفيل ، غير أنهم وجدوا بقعة الدم قد تجددت فى الصباح ، قال واشنطون وهم يتناولون فطورهم :

- أنا أثق بدهان بنكرتون الأصلى العجيب ثقتى بنفسى ، وقد جربته مراراً وتكراراً فأزال البقع بجميع أنواعها ، فلا بد أن يكون هذا من عمل الشبح .

وأزال بدهانه البقعة للمرة الثانية ، ولكنها تجددت فى الصباح التالى ، كذلك ظهرت البقعة فى اليوم الثالث بالرغم من أن مستر أوتيس كان قد أقفل المكتبة بالمفتاح بيده أثناء الليل وحمل المفتاح إلى غرفته ، وثار فضول الأسرة فردا فردا ، وبدأ مستر أوتيس يراجع نفسه فى إنكاره المطلق لوجود الأشباح ، وصرحت مسز أوتيس برغبتها فى الانضمام إلى « جماعة تحضير الأرواح » ، أما واشنطون فقد كتب رسالة مسهبة فى « ثبات البقع الدموية الناشئة عن الجريمة » ، نعم . فى تلك الليلة زال عن آل أوتيس كل شك فى أن للأشباح وجوداً موضوعيًا .

كان النهار دافئا مشرقة شمسه ، فلما جاء الأصيل الرطيب خرجت الأسرة بكامل هيئتها للنزهة فى العربة ، ولم يعودوا قبل تمام الساعة التاسعة ثم تناولوا عشاء خفيفا، ولم ينصرف حديثهم إلى الأشباح إطلاقًا ، مما دل على أن نفوسهم كانت خالية من الاستعداد الذى يسبق عادة شهود الأرواح ، بل دار الحديث ، كما علمت فيما بعد من مستر أوتيس ، حول الموضوعات المألوفة

بين أبناء الطبقة المثقفة من أثرياء أمريكا ، مثال ذلك : ضآلة سارة برنار إذا هي قيست بالآنسة فاني دافنبورت ، صعوبة الحصول في بيوت إنجلترا - حتى في أرقاها - على القمح الأخضر والكعك المصنوع من القمح الأسود وجريش الذرة من كل ما يأكله الأمريكيون في بلادهم ، أهمية الدور الذي تلعبه بوستون في تقويم الروح الإنسانية ، منافع نظام الأمتعة الجديد في السفر بالسكك الحديدية ، جمال لهجة نيويورك إذا قورنت بلهجة لندن المتكاسلة ، ولم يجر بتاتًا ذكر العالم المجهول ، ولم يشر أحد بكلمة واحدة إلى سير سيمون دي كانترفيل ، فلما أن بلغت الساعة الحادية عشرة أوى كلٌّ إلى غرفته ، وبعد نصف ساعة أطفئت جميع الأنوار ، ولكن مستر أوتيس استيقظ بعد فترة ، استيقظ على ضجة عجيبة في الدهليز خارج غرفته ، وكان الصوت الذي سمعه أشبه شيء بصليل المعادن ، وخيِّل إليه أن الصوت يقترب منه لحظة بعد لحظة ، فنهض فورًا ، وأشعل عودًا من عيدان الكبريت ونظر إلى الساعة فإذا هي الواحدة تمامًا ، وكان هدوؤه كاملا وجس نبضه فإذا هو آية في الانتظام ، ومع ذلك فقد ظل يسمع الضجة العجيبة يصحبها وقع أقدام واضح لا لبس فيه .

ولبس خُفَّيه واستخرج من أحد الأدراج قارورة صغيرة مستطيلة ، ثم فتح الباب فرأى أمامه مباشرة شيخًا فانيًا رهيب المرأى يقف في نور القمر الشاحب ، كانت عيناه حمراوين كأنهما جمرتان ، وانسدل شعره الأشيب الطويل على كتفيه في ذوائب كأنها السبائك الخام ، أما ثيابه العتيقة الزي فقد كانت ممزقة ملطخة وتدلت من معصميه ومفصلي قدميه الأصفاد والسلاسل الثقيلة الصدئة ، قال مستر أوتيس :

- اسمع يا سيدي ، أنا ألح في أن « تزيت » تلك السلاسل ، وقد جئتك لهذا الغرض بقارورة صغيرة من زيت تاماني للتشحيم من ماركة الشمس المشرقة ، ويقال إنه يأتي بالأثر المطلوب إذا استخدم مرة واحدة ، وتستطيع إذا أحببت أن تقرأ الكلام المكتوب على القارورة ؛ ففيه شهادة من خيرة كهنة

بلادنا ، وها هى القارورة أتركها لك بالقرب من شموع غرفة النوم ، ويسرنى أن أزودك بمزيد من هذا الزيت ، إذا كنت بحاجة إليه .

وما إن فرغ وزير أمريكا المفوض من مقالته هذه حتى وضع الزجاجة على مائدة رخامية وأغلق بابه وأوى إلى فراشه .

ومرت بشبح كانترفيل لحظة وقف فيها واجما من فرط غضبه ، ثم قذف بالقارورة قذفا شديدا على الأرض المصقولة وفرَّ مجتازا الدهليز وهو يئن أنينًا رهيبا أجوف ويشع نورا رهيبا أخضر ، ولكن ما إن بلغ قمة السلم العريض المصنوع من خشب البلوط حتى انفتح بابٌ فجأة ، وظهر منه صبيان صغيران فى ثياب بيضاء واندفعت بجوار رأسه وسادة تصفر كأنها الرصاصة المنطلقة ! وتجسم له أن الخطر يتهدده فبادر إلى الفرار واتخذ البعد الرابع فى المكان واختفى فى ألواح الحائط ، وعاد إلى البيت الهدوء الشامل .

فلما بلغ حجرة خفية فى الجناح الأيسر من القصر اتكأ على شعاع قمرى ليسترد أنفاسه اللاهثة ، وأنشأ يفكر فى الموقف ، فما حدث قط أن أساء إليه إنسان من قبل هذه الإساءة البالغة طوال عمره المجيد ، وهو ثلاثمائة سنة ، وذكر الدوقة الأرملة التى ملأها رعبًا وهى تقف أمام المرآة كاملة الزينة فانتابتها نوبة عصبية ، وذكر الخادمات الأربع اللائى فزعن أيما فزع لأنه تجهم لهن من وراء الستائر فى غرفة من الغرف المهجورة وما زاد على ذلك شيئا ، وذكر أسقف الأبروشية الذى أطفأ شمعته وهو خارج من المكتبة فى أعجاز الليل ، فصرع الخوف جنانه وهو لايزال إلى اليوم فى رعاية سير وليم جل يستشفى مما ألم به ، كذلك ذكر السيدة العجوز مدام دى تريموياك التى استيقظت ذات صباح فى مطلع الفجر فأبصرت هيكلا عظميا يجلس فى مقعد ضخم بجوار المدفأة ويقرأ يومياتها ، فلزمت فراشها ستة أسابيع من هول الصدمة تمزقها الحمى المخية ، فلما أبلت من مرضها جددت صلاتها بالكنيسة وقطعتها بالمتشكك الكبير مسيو دى فولتير ، وذكر اللورد الشرير لورد كانترفيل كيف

وجده الناس مختنقًا فى حجرته الخاصة وقد حُشى حلقه بورقة من أوراق اللعب هى الفاليه البستونى ، واعترف أمام الملأ بأنه قد غش بتلك الورقة عينها تشارلس جيمس فوكس فربح منه خمسين ألف جنيه زوراً ، وأقسم أن الشبح لا سواه هو الذى حشا بالورقة حلقه . عادت إلى الشبح أعماله الباهرة واحداً واحدا ، فمن كبير الخدم ذلك الذى انتحر بالرصاص فى مخزن الطعام لأنه رأى يدا حمراء تنقر زجاج النافذة ، إلى ليدى ستتفيلد الجميلة التى أطبق أصابعه الخمسة الملتهبة حول جيدها فترك فى جلدها الناصع أثرا لا يمحى مما ألزمها بأن تلبس سوارا من القطيفة السوداء حول عنقها فى كل زمان وفى كل مكان لتخفى الأثر ، ثم أغرقت نفسها آخر الأمر فى بركة عند طريق الملك ، ذكر الشبح انتصاراته المشهودة جميعا فى حماس يشبه حماس الفنان الأصيل الذى يعبد نفسه ويعتز بفنه ، وابتسم متحسرا حين عادت إلى خياله ذكرى آخر مرة لعب فيها دور « روبين الأحمر ، أو الطفل المخنوق » وأول مرة لعب فيها دور « جيبيون الناحل ، مصاص الدماء بسهوب بكسلى » ، نعم ، ابتسم متحسرا حين عادت إلى خياله ذكرى الضجة الكبرى التى أحدثها يوم رآه الناس فى ملعب التنس يلهو بعظامه ويقيم منها أهدافا يصيبها ، ثم بعد هذا التاريخ الحافل المجيد يأتى قوم من أمريكا لا وزن لهم ، من أبناء هذا العصر ، ويقدمون إليه زيت الشمس المشرقة للتشحيم ويقذفونه بالوسائد ! إن هذا لكثير ! إن قدرته على الاحتمال لتضيق بكل ذلك ، ثم إنه مامن شبح من أشباح التاريخ صادف مثل هذه المعاملة الخشنة ، لذلك عقد شبح كانترفيل عزمه على أن ينزل بهم الويل والثبور وعظائم الأمور ، واستغرق فى بحار التفكير حتى مطلع الصباح .

الفصل الثالث

فى الصباح التالى اجتمع آل أوتيس للفطور ، وتحدثوا فى أمر الشبح طويلا ، وطبيعى أن وزير أمريكا المفوض اغتاظ حين رأى أن هديته لم تقبل . قال :

- انا لا أريد أن أنزل بالشبح أى أذى يحيق بشخصه ، ولكن لا مفر من الاعتراف بأن قذفه بالوسائد تجاوز لحدود الأدب ، هذا إذا راعينا الأجيال الطويلة التى قضاها فى هذه الدار .

وكان هذا التعليق على الموقف معقولا ، ولكن يؤسفنى أن أقول إن التوأمين استقبلاه بالضحك العالى .

وأتم مستر أوتيس حديثه فقال :

- فإذا ما رفض استخدام زيت الشمس المشرقة للتشحيم ، فلا مناص من أن تنزع عنه أغلاله ، فالنوم مستحيل مع كل هذه الضوضاء التى تجرى خارج حجرات النوم .

ولكن الأسبوع انقضى دون حادث ما ، وكل ما أثار اهتمامهم هو تجدد بقعة الدم على أرض المكتبة ، وما من شك فى أن هذه الظاهرة كانت موضع عجبهم ؛ لأن مستر أوتيس كان يغلق باب المكتبة بالمفتاح ونوافذها بالمزلاج كل ليلة ، وكانت البقعة تصطنع كالحرباء لونا جديدا كل صباح ، مما زاد فى عجب العاجبين واستوجب الحديث الطويل فى أمرها ، فهى آنًا غبشاء الحمرة، وهى آنًا بلون البرتقال ، وهى آنًا كالأرجوان الصريح ، وقد حدث

أنهم نزلوا مرة إلى المكتبة لأداء فريضة الصلاة طبقا لتعاليم الكنيسة الأمريكية الأسقفية الإصلاحية الحرة ، فوجدوها فى لون الزمرد الأخضر ، وكان طبيعيًا أن تكون موضع سمرهم هذه التغيرات الشبيهة بتغيرات ألوان الكالبدوسكوب ، وكانوا يتراهنون كل مساء على لون البقعة فى الصباح التالى ، أما فرچينيا فقد كانت لا تشترك فى هذا المزاح مع بقية أفراد الأسرة ، وكان يؤسيها كثيرا أن ترى بقعة الدم لسبب لا يعلمه أحد ، بل لقد أوشكت أن تبكى جزعًا يوم أن رأتها تصطبغ بخضرة الزمرد .

وظهر الشبح للمرة الثانية ليلة الأحد ، فبعد أن انصرف كلٌ إلى فراشه بوقت قليل أفزعتهم قعقعة عظيمة فى القاعة ، فهبوا فجأة من منامهم واندفعوا إلى الطابق السفلى يستطلعون ، فوجدوا حلة حديدية كبيرة من حلل الفرسان العتيقة قد نزعت من موضعها وهوت على الأرض ذات البلاط الحجرى ، على حين جلس شبح كانترفيل على كرسى ظهره عال ، ومضى يحك ركبتيه وعلى وجهه أمارات الألم المبرح ، وكان كل من التوأمين قد أحضر نبلته ، وسرعان ما سدد كل منهما إليه حصاة بتوفيق عظيم لا يصيبه إلا من اكتسب المرانة الطويلة بضرب معلم الخط فى المدرسة ، وفيما هما يفعلان ذلك شهر وزير أمريكا المفوض مسدسه ، وطلب إلى الشبح أن يرفع يديه مسلما على طريقة أبناء كاليفورنيا ! فنهض الشبح وهو يصيح صيحة الحنق وشق بينهم طريقه كأنه قطعة من ضباب ، وأطفأ قنديل واشنطون أوتيس فخلفهم فى ظلام كامل ، وحين بلغ قمة السلم استعاد جأشه وقرر أن يخيفهم بضحكته الشيطانية المشهورة ، فقد علمته تجاربه السالفة أن هذه الضحكة ناجعة الأثر ، ولقد جرت الرواية بأنها أرعبت لورد ريكر حتى جعلت شعره المستعار يبيض هولاً فى ليلة واحدة ، وأنها جعلت ثلاثا من المربيات اللائى استخدمتهن ليدى كانترفيل يتركن خدمتها ولما يمض شهر على بدئهن العمل ؛ لذا أطلق الشبح ضحكة نكراء ما فى جعبته أشد منها نكرا ، فتجاوبت أصداؤها فى جنبات

السقف المقوس العتيق ، وما إن اختفى الرجع الرهيب حتى انفتح من الأبواب باب وخرجت منه مسز أوتيس فى روب خفيف الزرقة قائلة :

- إنك لا شك مريض ، ولقد جئتك بزجاجة من محلول الدكتور دوبيل، فإن كنت تشكو عسر الهضم فستجد فيه الدواء الشافى .

فحملق الشبح فيها والغضب يمزقه ، وشرع يتأهب للتجسد فى هيئة كلب كبير أسود وهى طريقة من طرقه المأثورة ، لجأ إليها مرة فأصيب الأنورابل توماس هورتون عم لورد كانترفيل بعته مقيم ، وطبيب الأسرة يعزو هذا العته لذلك الحادث بصورة قاطعة ، ولكنه سمع وقع أقدام تدنو منه فتردد فى تنفيذ مراده الخبيث ، واكتفى بأن بعث حوله نوراً فوسفورياً خفيفاً ، وحين صعد التوأمان السلم وأشرفا عليه توارى لفوره عن الأنظار وهو يئن أنيناً يشبه أنين المقابر .

فلما أن بلغ غرفته تهافت من فرط الإعياء واستبد به حزن عاصف ؛ فلقد آله حقاً مسلك التوأمين ، وهو مسلك يدل على الابتذال وسوء التربية ، ولقد حزّت فى نفسه المادية البشعة التى تجلت فى كلام مسز أوتيس ، ولكن فجيعته الأولى جاءت من عجزه عن ارتداء حلة القتال الحديدية ، وكان يحسب أن مرأى شبح فى حلة القتال يدخل السرور على نفس كل إنسان ، بما فى ذلك أمريكيو القرن التاسع عشر ، وكان يحسب أن أمريكيى القرن التاسع عشر يسرون برؤية شبح فى حلة القتال ، ولو من باب الوفاء لشاعرهم لونجفيلو ،ذلك الشاعر الجميل البيان الساحر المعانى الذى أفنى بمطالعته ساعات السأم وهى طويلة كلما رحل آل كانترفيل إلى لندن ، وذكر النجاح العظيم الذى أصابه يوم خرج فى حلة القتال إلى جولة كنلويرث سيد الفرسان ، حتى لقد هنأته الملكة العذراء ذاتها ، ولكن شيئا ألم به أخيرا فأقعده ، فلقد حاول أن يلبس الحلة فى تلك الليلة ولكن الصدر الفولاذى الضخم والخوذة الفولاذية

الضخمـة ثقلا عليه تماما ، فهوى على الأرض ذات البـلاط الحجرى وتسلخت ركبتاه تسلخًا موجعًا ورُضّت مفاصل يده اليمنى .

وأقعـده المرض فلـزم غرفته جملة أيام بعد هذا الحادث ، ولم يخرج منها إلا ليعـيد بقعـة الـدم إلى مـوضـعها بانتظام ، ولقـد أبلَّ أخيرا بعـد أن أحاط نفسه بجـميع ضروب العناية ، وانتهى رأيـه إلى القيام بمحاولة ثالثـة يُفزع بها وزير أمريكا المفـوض وأسـرته ، واخـتـار لهـذه التجـربة يـوم الجـمعـة المـوافق ١٧ أغـسطس ، وحين حل ذلك اليـوم قضى الشـبح عامـة النهـار باحثـا فى مجموعة الملابس التى يملكها عن رداء يناسب المقام ، وأخيرا انتخب قبعة كبيرة فيها ريشة حمراء وكفنا موشى قرب المعصمين وعند العنق وخنجرا صدئا ، ولما أقبل المساء هبت عاصفة مطيرة وعـوت الرياح وزمجرت حتى ارتجت لها نوافذ الدار وقعـقعت ، فكان الشبح أسعـد ما يكون فى ذلك الجو ، وكـانت خطته كالآتى : عليه أولا أن يتسلل فى هدوء إلى غرفة واشنطون أوتيس ويتمتم عند طرف السرير ، ويطعن نفـسه فى موضع الرقبة ثـلاث مرات على صوت لحن خفـيض ، وكان يحقـد على واشنطون أوتيس بوجه خـاص لأنه كان يعلم أنه المسئول عن إزالة بقعة الدم المشهورة بدهان بنكرتون الأصلى العجيب ، وما إن يفزع ذلك الشاب المجازف الطائش ويفتك بجنانه حتى ينتقل من ثم إلى الغرفة التى ينام فيـها وزير أمـريكا المفوض وزوجتـه ، وهناك يضع على جبين مـسز أوتيس راحـتـه البـاردة ، ويهـمس فى أذن زوجـهـا المرتعـد بحـديث الجـيف والقبور ، أمـا فرجـينيا الصغيرة فـلم يدر ما يفعـل بها ، فـهى ما أساءت إليه قط ، ثم إنها كانت جميلة دمثة الطباع ، ويكفيه إذن أن يزعجها بآهات جوفاء يرسلها من داخل الدولاب ، فـإذا لـم تكف الآهات الجوفاء لإيقاظهـا فلا بأس من أن يجذب غطاء السـرير بأصابع محـمومة تنقبـض وتنبسط ، ولكنه وطن نفسه على أن يعلم التوأمين درسًا لا ينسيانه ، وأول ما ينبغى عليه عمله بطبيعة الحال هو أن يجلس على صدريهما حتى يختنقا اختناق صاحب الكابوس ، ثم يقف بين سريريهما المتقاربين فى هيئة جيفة خضراء باردة كالثلج حتى يصرعهما

الخوف ، وحين يفرغ من كل ذلك ينزع عنه كفنه ويزحف فى أرجاء الغرفة ، فتبرز فى الظلام عظامه البيضاء وتلمع عين له واحدة زائغة ، وخلاصة القول أن عليه أن يمثل أمامهما دور « دانيال الأخرس ، أو هيكل المنتحر » ، وهو دور عظيم الأثر لعبه مراراً فنجح فيه نجاحًا كبيراً ، وهو دور لا يقل هولاً عن الدور الأكبر الذى طار صيته فى الآفاق ، ألا وهو دور « مارتن المجنون ، أو اللغز المقنع » .

ودقت الساعة العاشرة والنصف ، وسمع أفراد الأسرة يأوون إلى حجراتهم ، وأزعجه الضحك العصبى العالى الذى كان يخرج من غرفة التوأمين وقتًا ما ، فقد كان التوأمان يلهوان قبل النوم فى مرح الصبيان الذين لا يفهمون معنى الأحزان ، ولكن ما إن بلغت الساعة الحادية عشرة والربع ، حتى شمل قصر كانترفيل سكون مطلق ، وما إن دقت الساعة تؤذن بانتصاف الليل حتى خرج من مكمنه ، وارتطمت البومة بزجاج النوافذ ، وفى شجرة السرو العتيقة نقّ الغراب وناحت الريح حول الدار كأنها روح ضائعة ، ولكن آل أوتيس ناموا هنيئًا لا يستشعرون مصيرهم الجلل ، ورغم الزعزع الهوجاء والمطر المدرار استطاع الشبح أن يسمع وزير أمريكا المفوض يغط غطيطًا عاليًا منتظمًا ، وانسل خارجا من ألواح الحائط وعلى فمه المغضن القاسى ابتسامة شيطانية تنبىء بشرٍّ مستطير ، وغطى القمر وجهه بغيمه هلعًا حين مر الشبح بالنافذة البارزة الجسيمة التى نقشت عليها صورة ذراعيه وذراعى زوجه القتيل بماء الذهب واللازورد ، وانساب الخيال الشرير لا يثنيه عن سيره شىء ، بغيض الهيئة حتى لقد أشفقت منه الظلمة الجاثمة ، وفيما هو يسعى ظن أن مناديًا يناديه فكف عن السير ، ولكن ما سمع إلا نباح كلب فى الحقل الأحمر ، فاستأنف المسير وهو يتفوه باللعنات بلغة أهل القرن السادس عشر ، شاهرا خنجره الصدىء فى ظلام الليل على كل شىء ، متأهبًا للانقضاض فى ظلام الليل على كل شىء ، وأخيراً بلغ من الدهليز الركن الذى يفضى إلى غرفة واشنطون المسكين ، وتوقف لحظة وطارت ذوائبه الطويلة الشيباء مع الريح

حول رأسه ، وطوت الريح كفنه المرعب فى أشكال خرافية مخيفة ، ثم دقت الساعة الربع فأحس بحلول الميعاد ، وصدر من فمه صوت يدل على السخرية ، ودار حول الركن ، ولكن ما إن فعل ذلك حتى تراجع معولاً إعوالاً أليمًا من فرط رعبه وأخفى وجهه الأبيض فى عظام كفيه ، فقد رأى قبالته طيفًا مخيفًا ثابتًا كالتمثال المنحوت ، بشعًا كأحلام المجانين ! كان رأسه الأصلع يبرق فى الظلام وكان وجهه الأبيض ممتلئًا مستديراً ، وقد التوى محياه كمن كان يضحك ضحك الأبالسة ثم بدا عليه عبوس مقيم ، ومن عينيه انسابت أشعة حمراء فاقعة الحمرة ، أما فمه فكان بئراً فسيحًا من النيران الحامية ، وكان يأتزر بثوب قبيح فى بياض الثلج يشبه كفنه ، ثوب كسا قدّه العملاق ، وعلى صدره لوحة خطت عليها عبارات غريبة كتبت بحروف قديمة ، خالها سجل مخازيه أو صفحة خطاياه الشائنة أو طرس جرائمه ، وقد رفع بيده سيفًا من الفولاذ اللماع .

ارتد الشبح خائفًا لأنه لم يسبق له أن رأى شبحًا ، وألقى على الطيف الشائه نظرة ثانية عجلى ، ثم عاد إلى غرفته يتعثر فى كفنه وهو يجتاز الدهليز مسرعًا ، وأخيرًا أسقط خنجره الصدىء فى حذاء مستر أوتيس الطويل حيث وجده كبير الخدم فى الصباح ، فلما أن خلا إلى نفسه فى جناحه الخاص ألقى بنفسه على سرير صغير الحجم ، وأخفى وجهه تحت الغطاء جزعًا ، ولكن شجاعة آل كانترفيل المأثورة عادت إلى الشبح بعد قليل ، وعزم على البحث عن الشبح الآخر بعد مطلع النهار والتحدث إليه ، فلما بزغ الفجر وكسا التلال بالفضة عاد إلى الموضع الذى شاهد فيه الطيف المفزع أول مرة ، وأخذ يعلل نفسه بأن وجود شبحين فى القصر أشد فعلاً من وجود شبح واحد ، وأخذ يمنى نفسه بأن صديقه الجديد سوف يعينه على ترويض التوأمين دون أن ينزل به أذى ، فلما بلغ المكان رأى ما ملأه إشفاقا ، فقد تغير الشبح ، فانطفأت عيناه الفارغتان تماما ، وسقط من يده السيف اللامع واستند إلى الحائط على نحو مضنٍ ، فاندفع إليه وأمسك بذراعه ، ولكن شد ما أرعبه أن يرى رأسه ينفصل

عن جسده ويهوى على الأرض وأعضـاءه تميل إلى الجدار ، وألفى نفسه ممسكا بستارة بيـضاء صغيرة جميلة من سـتائر السرير ، وعند قدميـه فرشاة من فرش البلاط وأداة من أدوات المطبخ وواحدة من اللـفت مجوفة ! وعجز عن تفـسير هذا التحول العجـيب فتناول اللوحة بسرعة جنونية واستطاع أن يتـبين فيها هذه العبارات الرهيبة على ضوء الصباح الأشهب :

شبح أوتيس هو الشبح الحقيقى الوحيد
فاحذروا من التقليد ، كل ما عداه زائف

وأدرك مغزى هذه العبارات ، أدرك أنهم قد احتالوا عليه وسخروا منه ومكروا به ، فغضب أيما غضب ولمع فى عينيه بريق لايلمع إلا فى عيون آل كانترفيل الصناديد ، وجرش أسنانه ، بل جرش لثتيه فقد كان بلا أسنان ، ورفع يده الذابلة إلى هامته ، وأقسم بلغة أهل الزمان الغابر وهى جميلة ليسفكن الدماء غزاراً وليدعونّ عزرائيل ليمشى فى جنبات الدار عند صياح الديك .

وما إن أتم قسمه الرهيب حتى سمع ديكًا يصيح من فوق بيت بعيد أحمر السقف معلنًا مجيء الفجر ، فضحك ضحكة طويلة خفيضة ، ولكنها ضحكة مُرة ، وانتظر ، ولكنه انتظر الساعة بعد الساعة دون أن يسمع للديك صياحًا ثانيًا ، ولم يعرف لذلك سببًا ، ولبث هكذا فى مكانه ساهراً مترصداً حتى دخلت عليه الخادمات فى الساعة السابعة والنصف ، فيئس من ترصده وكف عنه وانصرف إلى غرفته يمشى مشية المتغطرس وهو يفكر فيما كان من أمر قسمه المهدور وعزمه الذى طاش ، وفى غرفته رجع إلى بعض الكتب التى تبحث فى الفروسية القديمة ، كان شديد الكلف بها ، فعلم أنه ما من مرة أطلق فيها هذا القسم إلا وصاح الديك مرتين .

فقال محدثًا نفسه :

- ويل لهذا الديك العابث ، كيف يفعل بى ذلك وأنا الذى كنت فى الماضى أستطيع أن أغمد فى رقبته رمحى وألزمه بأن يصيح لى ولو كان فى حشرجة الموت !

ثم آوى إلى نعش وثير صنع من الرصاص ، وفيه رقد حتى المساء .

الفصل الرابع

فى اليوم التالى صحا الشبح مهدم العظام واهن القوى ، فالأحداث الرهيبة التى ألمت به فى الأسابيع الأربعة الفائتة قد أخذت تزعزع من كيانه ، وتحطمت أعصابه تمامًا ، فكان أتفه الأصوات يزعجه ، وقبع فى غرفته خمسة أيام ، وعزم آخر الأمر على إغفال بقعة الدم التى كان يجددها كل ليلة على أرض المكتبة ، فبدهى أن آل أوتيس لا يستحقون أن يكون لهم مثل هذا الشرف لأنهم لا يرغبون فيه ، وقد اتضح له أنهم قوم يعيشون على مستوى مادى سافل ، ويعجزون عن تقدير ما لأمثال هذه الظواهر المحسوسة من قوة رمزية ، أما مسألة الأشباح المترائية وتطور الأجسام الخيالية فهى أمور أخرى لا حيلة لها فيها ، فقد كان من واجباته المقدسة أن يظهر فى الدهليز مرة من كل أسبوع ويتمتم من مكانه عند النافذة البارزة الجسيمة فى الأربعاء الأول والثالث من كل شهر ، ولم يدر كيف السبيل إلى الفكاك من التزاماته دون أن يهدر شرفه ، فما من شك فى أن حياته كانت مثالاً للبغى ، ولكنه كان آية للوفاء فى جميع صلاته بالعالم العلوى ، ولهذا كله اجتاز الدهليز فى أيام السبت الثلاثة التى أعقبت ذلك ، كعادته بين منتصف الليل والساعة الثالثة ، وكان أشد ما يكون حرصًا على ألا يراه أو يسمعه إنسان ، فخلع نعليه واسترق الخطى استراقًا على الأرض الخشبية البالية التى أتلفت ألواحها الديدان ، ولبس معطفًا فضفاضًا من المخمل الأسود ، ولم ينس أن يزيت أغلاله بزيت الشمس المشرقة ، ولابد لى أن أعترف بأنه لم يلجأ إلى هذه الطريقة الأخيرة

لحماية نفسه إلا بعد تردد شديد ، وقد اغتنم فرصة اجتماع الأسرة للعشاء ونفذ إلى غرفة مستر أوتيس وسرق الزجاجة منها ، وأحس بالخجل بادئ الأمر ، ولكن كفة العقل رجحت فيه أخيراً واقتنع بما لهذا الزيت من فوائد جمة ، ولقد انتفع به فعلاً إلى حد ما ، على أن هذا الاحتياط كله لم يغنه شيئًا كثيراً ، فقد مُدَّت فى طريقه الحبال بعرض الدهليز فى كل جولة ، فانكفأ على وجهه المرة بعد المرة ، وقد حدث ذات ليلة أنه خرج مستخفيًا فى زى « إسحق الأسود ، أو صياد هوجلى وودز » فسقط سقطة موجعة لأن التوأمين قد طليا بالزبد المسافة الواقعة بين قمة السلم وباب الغرفة التى تستخدم لحفظ المنسوجات الملونة ، وقد غضب لهذه الإساءة الأخيرة غضبا لا مزيد عليه ، فرأى أن يبذل آخر مجهود يثأر به لكرامته ومكانته ، وقرر أن يزور هذين التلميذين الوقحين فى الليلة التالية مستخفيًا فى الزى المشهور زى « روبرت المجازف ، أو النبيل مفصول الرأس » .

وكانت آخر مرة اتخذ فيها هذا الزى منذ سبعين سنة ، أى منذ أن أفزع به السيدة الجميلة ليدى باربارا موديش حتى فسخت خطبتها مع جد لورد كانترفيل الأخير ، وفرت مع جاك كاسلتاون وسيم الطلعة إلى جرتنا جرين ، وأعلنت يومها فى الناس أنه ما من قوة على الأرض تستطيع إجبارها على الزواج من رجل تسمح أسرته لمثل هذا الطيف العبوس أن يجوس خلال الشرفة عند الشفق ، وقد مات جاك المسكين قتيلاً برصاص لورد كانترفيل فى مبارزة تمت فى حديقة واندويرث ، أما ليدى باربارا فقد ماتت غمًا ولما ينصرم العام فى تنبريدج ولز ، ولا شك أن تتابع المآسى على هذا النحو كان نصراً للشبح عظيمًا ، وآية على أن هذا الزى من أقوى الأزياء فعلاً فى نشر الرعب ، ولكنه كان زيًا صعبًا جدًا لدقة ما يستلزمه من « ماكياج » إذا جاز لى أن أستعير هذا الاصطلاح من لغة المسرح لأصف به حدثًا جللاً فى العالم العلوى ، أى فى عالم ما وراء الطبيعة بتعبير أهل العلم ، ولم يفرغ الشبح من تخفيه قبل مضى

ثلاث ساعات ، وأخيراً انتهى إعـداد كل شيء ، وسر الشبح بمرآه سروراً عظيمًا ، وكان حذاء الركوب الطويل المصنوع من الجلد الذى ارتداه لهذه المناسبة أكبر من قدميه قـليلاً ، كذلك بحث عن الغدارتين فلم يجد منهـما إلا غدارة واحدة ، ولكنه رغم ذلك كان راضـيًا أتم الرضا ، وحين بلغت الساعـة الواحدة والربع انساب من ألواح الحائط واجتاز الدهليز متسللا ، فلما وصل إلى غرفة التوأمين التى كانت تعـرف بالغرفة الزرقـاء للون ستائرها ، وجـد بابها مفتـوحًا بعض الشيء ، وأراد أن يدخل دخولاً مـؤثراً فدفعـه فجأة فانفـتح على مصراعـيه ، ولكن إبريقًا كـبيراً من الماء انسكب على جسـده فابتل كل ما فيـه وكاد الأبريق يصيب كـتفـه الأيسر إلا أنه سقط علـى بعد بوصات قليلة ، وسـمع فى تلك اللحظة ضحكًا حادًا مختنقًا آتيًا من ناحـية السرير ذى الأعمدة الأربعة ، وشد ما اضطربت أعـصابه حـتى لقد فر إلى غـرفته بأقـصى ما يملك من سـرعة ، واعتصم بها وجـاء اليوم الـتـالى ، فـإذا به طـريح فى فراشه من أثر برد شديد أصابه ، ولولا أنه قد قصد إلى غرفة التوأمين بغير رأس لتعرض لأوخم النتائج .

ويئس من إخافـة هذه الأسرة الأمريـكية قليلة الذوق يأسًا نهـائيـًا ، وقنع بالتسلل فى الدهاليز مرتديًا خفين وكوفية صفيقـة حمراء يستر بها عنقه لتحميه من تيـارات الهـواء ، حـاملاً قوسـًا وسـهامًا صغـيرة خشـية أن يعتـدى عليه التوأمان ، وكان آخر ما أحاق به من النكـبات ما حدث له فى التاسع عشر من شهر سبتـمبر ، فقد هبط إلى البهو المتـرامى عند مدخل الدار وكان يحسب أنه سـوف يكون فى أمان مطـلق ، هنالك على الأقل ، وانشـأ يروح عن نفسـه بالسخرية من الصـور الفوتوغرافية المعلقة وهى صـور تمثل وزير أمريكا المفوض وزوجتـه ، وقد وضعت مكان صور آل كـانترفيل ، وكـان رداؤه بسيطًا ولكنه مرتب ، فـقد لف حول أعطافه كـفنًا مستـفيضًا عـليه نقاط خضـراء من عفن القبور ، وربط فكيـه بقطعة من التيل الأصفر ، وكـان يحمل مصباحًا صـغيراً ومجرفـة ، وعلى الجملـة فقد كان مـستخفيًا فى زى « يونس الذى لاقبر له ، أو خاطف الجثث الذى يسكن جرن تـشرتسى » وهو دور من خيرة أدواره التى

يمثلها ، ولقد مثله مرة مع آل كانترفيل فلم ينسوه مدى الحياة ؛ لأنه أدّى إلى المجافاة التى حدثت بينهم وبين جارهم لورد رفورد ، وكانت الساعة وقتئذ الثانية صباحًا ، وكان على يقين من أن أهل الدار قد هجعوا ، وفيما هو يمشى فى طريقه إلى المكتبة ليرى ما آلت إليه بقعة الدم بعد إهمالها ، انقض عليه الغلامان من ركن مظلم وطفق كل منهما يلوح بيديه عاليًا فى حركة مخيفة وصرخا فى أذنه بصوت واحد « بخ ! » .

واستولى عليه الذعر ، وأى مخلوق فى مثل موقفه لا يذعر ! وبادر يلتمس السلم ولكنه وجد واشنطون أوتيس فى انتظاره هناك حاملاً الأداة التى يقتل بها البستانى الحشرات فى الحديقة ، فلما ألقى نفسه محاصراً بأعدائه من جميع الجهات ولم يبق أمامه إلا الدفاع عن حياته اختفى فى المدفأة الحديدية الضخمة ، وكان من حسن طالعه أن المدفأة لم تكن موقدة ، وهكذا عاد إلى غرفته خلال المداخن والثقوب ، وبلغها متسخ الثياب لا حد لقذارته مضطرب الهيئة لا حد لاضطرابه ، ويئس النفس لا حد ليأسه .

ولم يره أحد بعد ذلك يتجول ليلاً ، ولقد سهر التوأمان فى انتظاره جملة مرات ونثرا الدهاليز كل ليلة بقشر الجوز مما أغضب الوزير وزوجه وخدم الدار ، ولكن جهدهما ذهب أدراج الرياح ، لقد طعن الشبح فى شعوره فأضرب لذلك عن الظهور ، وكان من أثر اختفائه أن عاد مستر أوتيس إلى إتمام كتابه العظيم عن تاريخ الحزب الديموقراطى ، وهو الكتاب الذى استنفد منه الأعوام الطوال ، كذلك نظمت مسز أوتيس من الولائم العظيمة ما أذهل أهل المقاطعة جميعًا ، وذهب الغلامان يلعبان لاكروس واليوكر والپوكر وما شاكل ذلك من الألعاب القومية عند الأمريكيين ، أما فرچينيا فقد كانت تخرج على مهرها فى رفقة دوق تشيشاير الصغير الذى هبط كانترفيل ليقضى بقية عطلته فيها ، وكانا يجوسان خلال الطرق سويًا ، وظن الجميع أن الشبح قد غادر القصر ، بل لقد كتب مستر أوتيس إلى لورد كانترفيل رسالة بهذا المعنى فرد عليه اللورد معبراً عن سروره البالغ مهنئًا زوجة الوزير بهذا الحدث أصدق تهنئة .

ولكن آل أوتيس كانوا واهمين فيما ذهبوا إليه ، فلقد كان الشبح لايزال مقيمًا بالدار ، ولقد كاد يلازمه المرض حقّا ، ولكنه ما كان لينسى ما ألم به من محن بفضل هذه الأسرة ، وتحركت أشجانه خاصة حين عرف أن دوق تشيشاير نزيل من نزلاء الدار ، وذكر كيف أن عم جده ، لورد فرانسيس ستلتون ، راهن الكولونيل كاربورى بمقدار مائة جنيه على أن يلعب الزهر مع شبح كانترفيل ، فوجده الناس فى صباح اليوم التالى منبطحًا على الأرض فى غرفة الورق وقد أصابه فالج تركه بين الموت والحياة بقية عمره الطويل ، وأدركه عىّ جعله لا يتفوه بشىء إلا كلمة « دُش » حتى يوم وفاته ، وذاع أمر هذه القصة وقتئذ ، ولكن الحقيقة أخفيت قدر المستطاع تقديراً لشعور الأسرتين الكريمتين ، ومن أراد أن يطلع على تفاصيل ذلك الحادث وجد وصفًا له شافيًا فى الجزء الثالث من كتاب لورد تاتل : « ذكرياتى عن الوصى على العرش وخلانه » ، أقول لما علم الشبح بأن دوق تشيشاير قد نزل ضيفًا على آل أوتيس ، رغب بطبيعة الحال فى أن يثبت للناس أن سلطانه على آل ستلتون لا يزال باقيًا وكانوا من أصهاره الأبعدين ، فبنت عمه تزوجت مرتين وكان زوجها الثانى السيد دى بولكى ، ودوق تشيشاير من نسل هذا السيد كما يعلم جميع الناس ، وعلى هذا أعد الشبح نفسه للظهور فى زى مشهور هو زى « الراهب شارب الدماء أو الناسك الخالى من الدماء فى دير القديس بندكت » ، لعله بذلك يخيف عاشق فرچينيا الصغير ، وكان هذا الزى مفزعا حقّا ، حتى لقد رأته ليدى ستارتب العجوز ذات مرة فى عشية عام ١٧٦٥ فصرخت صراخًا مرّاً انتهى بنوبة صرع شديدة ، وماتت بعد ثلاثة أيام ، وقد حرمت آل كانترفيل من ميراثها ، وأوصت بكل ما تملك للصيدلى الذى كان يمدها بالدواء من لندن ، ولكن الشبح رغم ذلك لم يظهر ، فقد خشى أذى التوأمين ولزم غرفته ، ونام الدوق الصغير فى أمان يحلم بفرچينيا تحت المظلة الفاخرة المحلاة بالرياش بالغرفة الملكية .

الفصل الخامس

مرت بضعة أيام خرجت بعدها فرچينيا وفارسها ذو الشعر المجعد يتجولان على مهريهما في مراعى بروكلى ، وقد تمزق ثوبها أشد تمزيق وهى تحاول اختراق سور من الأسوار ، حتى لقد رأت أن تدخل الدار عند عودتها من الباب الخلفى حتى لا يبصر أحد ما آلت إليه حالتها ، وفيما هى تعدو مجتازة غرفة الستائر المصورة خيل إليها انها لمحت بداخلها شخصًا ، فقد كان بابها مفتوحًا ، وحسبت أنها وصيفة أمها ، التى اعتادت أن تعتصم بتلك الغرفة كلما أرادت أن تنجز قطعة من شغل الإبرة ، ودخلت فرچينيا لتطلب إلى الوصيفة أن تصلح لها ما تمزق من ثوبها ، وشد ما عجبت حين وجدت نفسها أمام شبح كانترفيل ذاته ! وكان الشبح جالسا بجوار النافذة يطل منها على قشور الشجر الدارس تتطاير كأوراق الذهب فى الهواء ، وأوراق الشجر الدارس تتراقص حمراء مجنونة بطول الطريق الظليل ، وكان يسند خده بيده ، وكان مظهره العام ينبئ بضيق لا يحتمل ، بل لقد بلغ من حزنه وانكساره أن فرچينيا الصغيرة التى أوشكت أن تبادر بالفرار إلى غرفتها وتوصدها دونه عدلت عن ذلك لأن فؤادها رق لحاله ، وعولت على ملازمته للتفريج عن نفسه ، بلغ من خفة خطوها وعمق تأمله الحزين أنه لم يحس بوجودها حتى خاطبته قائلة :

- كم أرثى لحالك ، ولكن لا تبتئس فأخواى عائدان الغداة إلى إيتون ، ولو حسن سلوكك فلن يضايقك أحد بعد الآن .

فالتفت إليهـا متعجبًا لشجاعـة هذه الصبية الصغيرة المليـحة التى تجاسرت على مخاطبته ، وقال : سخف أن يطلب إليّ تحسين سلوكى ، نعم ، سخف ما بعده سخف ، إذ لابد لى من الصلصـة بأغلالى والانين من خروق المفاتيح والتجول ليلاً ، إذا كان هذا ما تقصدين ، فأنا ما وجدت إلا لأفعل ذلك .

- بل ما وجدت لتـفعل شيئًا من ذلك ، وأنت تـعلم أنك قد أسرفت فى فعل الشر ، ولقد روت لنا مسز أمنى فى أول يوم هبطنا قصر كانترفيل أنك قد قتلت زوجتك .

قال الشبح فى استكبار :

- نعم ، أعتـرف بأنى فعلت ذلك ، ولكن هذه مـسألة من صمـيم أمور الأسرة ، وهى لا تخص أحداً ما .

وكانت فرچينيـا من وقت إلى آخر تكشف عن طوية بروتستانتيـة متشددة ورثتها عن جد من أجدادها كان يقيم فى نيو إنجلند فقالت :

- القتل خطأ فاحش أيـّا كان الدافع إليه .

- كم أبغض هذه المجردات الأخلاقية ، وكم أبغض قسوتها على الناس ! إنها لقسوة رخيصة ، فلقد كانت زوجتى لا تجيد شيئًا ، نعم كانت تهمل إعداد ملابسى وكانت تجهل كل مبادئ الطهى ، وإنى لأذكر يوم جئتها بصيد اقتنصته من غابات هوجلى فـعبثت به عبـثًا ما بعده عـبث ، ولكن دعينا من هذا الآن فقـد مضى وانقضى ، ثم إن أخويهـا حرمانى من الطعـام بعد أن قتلتهـا حتى فاضت روحى ، فهل هذا من الإصناف فى شىء ؟

- أحـدث هذا حـقـًا ؟ إذن فـأنت الآن جـائع يا سيـدى الشبح ، أقـصد ياسيدى السير سيمون .

إن فى حقيبتى قطعة « ساندوتش » فهل آتيك به ؟

- شكرا لك ، ولكنى لا آكل الآن شيئا ، ومع كُلّ فهذا ظرف منك شديد ، وأنت من طينة أخرى غير طينة أسرتك الشنيعة السفيهة المبتذلة التى لا تعرف معنى الأمانة .

فصاحت به فرچينيا قائلة :

- صه ! إنما أنت هو الشنيع السفيه المبتذل ، أما عن الأمانة فأنت تعلم حق العلم أنك قد سرقت ألوان الرسم من صندوقى لتجدد بها تلك البقعة السخيفة التى ترسمها على أرض المكتبة ، وقد استوليت أولا على كل ما أملك من لون أحمر ويدخل فى ذلك البرتقالى ، فلم أجد ما أرسم به الطبيعة وقت الغروب ، ثم استوليت على الأخضر الزمردى والأصفر الكرومى ، ولم تبق لى على شىء إلا النيلة واللون الأبيض الصينى ، وهذه لا نفع فيها إلا رسم المناظر التى تسبح فى نور القمر ، وهى مناظر تبعث الضيق فى نفس رائيها ، وهى مناظر صعبة التصوير ، ومع كل ذلك لم أفش لأحد سرك ، نعم لم أفش لأحد سرك رغم غيظى الشديد ورغم سخافة تفكيرك ، فهل سمع أحد ببقعة من الدم فى لون الزمرد الأخضر ؟

وقال الشبح بوداعة :

- لم تكن لى فى ذلك حيلة ، فالحصول على الدم ليس أمراً ميسورا فى هذه الأيام ، وقد بدأ أخوك التحدى بما يسميه دهان بنكرتون العجيب ، فلم أجد ما يمنعنى من أن أستخدم ألوانك ، أما لون البقعة فهذه مسألة أذواق ، وآل كانترفيل مثلا دمهم أزرق ، بل أشد زرقة من أى دم فى إنجلترا ، ولكنكم معشر الأمريكيين لا تكترثون لمثل هذه الأمور كثيرا .

- أنت تجهل كل شىء عنا ، وانصحك أن تهاجر إلى أمريكا لتتسع ثقافتك ، ولن تكلفك الرحلة بنسا واحدا لأن أبى سيتوسط لنقلك بالمجان عن طيب خاطر ، ومع أن الضريبة على الأشياء الروحية عالية جداً إلا أن موظفى الجمرك جميعا من أنصار الحزب الديمقراطى ، وهذا أدعى للتساهل ، فإذا ما هبطت نيويورك فالمستقبل أمامك مفتوح ، ولسوف تصيب نجاحا منقطع النظير ،

فأنا أعـرف أن فى نيويورك أناسـا على استعـداد لأن يدفعـوا مائة ألف دولار ليحصلوا على جد ، ومائتى ألف دولار ليكون لأسرتهم شبح .

- أعتقد أن أمريكا لن تناسب ذوقى .

قالت فرچينيا تتهكم به :

- إن أمريكا لن تناسب ذوقك لخلوها من الأطلال .

أجاب الشبح قائلا :

- هذا غير صحيح ، فقد نسيت البحرية الأمريكية ونسيت سلوككم .

- طاب مـساؤك إذن ، وسـوف أطلب إلى أبى أن يمد فى عطلة التـوأمين أسبوعا آخر .

فصاح الشبح قائلا :

- أرجوك ألا تنصرفى يا مس فرچينيا فلقد قتلتنى الوحدة ، وأنا فى شقاء لا يوصف ، فلست أدرى أى طريق أسلك ، وأنا أرغـب فى النوم ولكنه يمتنع علىّ .

- هذا هراء فكل ما عـليك أن تفعله هو أن تأوى إلى مخـدعك ثم تطفئ الشمعـة ، إن اليقظة أصعب من النوم وخاصة فى الكنيـسة ، النوم فى متناول كل مخلوق وحتى الأطفال يـعرفون كيف ينامون ، فالمسألة كـما ترى لا تحتاج إلى ذكاء .

قال حزينًا :

- أنا لم أذق للنـوم طعـمـا منذ ثلاثـمـائة سنة ، نعم لـم أذق النوم منذ ثلاثمائة سنة ، وأنا جد متعب .

فحملقت فيه عـينا فرچينيا الزرقاوان الجميلتان عجـبًا ، وبدا عليها الحزن الشديد وارتجفت شفتاها كما ترتجف أوراق الورد ، وسعت إليه وجثت بجواره وتصفحت وجهه الذابل البالى وقالت :

- يا لك من شبح مسكين ألا تجد مكانا تنام فيه ؟

أجاب بصوت حالم منخفض :

- هناك حديقة صغيرة وراء غابة الصنوبر بأميال وأميال ، وفى تلك الحديقة تنمو الحشائش الطويلة بغزارة والأزهار السامة تبدو كأنها النجوم الجسيمة البيضاء ويغنى البلبل طوال الليل ، نعم ، يغنى البلبل طول الليل ويطل القمر البلورى وتظل شجرة السرو النائمين بالفىء المديد .

وتجمعت العبرات فى عينى فرچينيا ، وأخفت وجهها فى راحتيها ، وهمست قائلة :

- هذه حديقة الموت .

- نعم حديقة الموت ، فالموت كما ترين جميل ، جميل أن ترقدى تحت الأرض الناعمة السمراء والحشائش تهتز فى مسرى النسيم فوق رأسك ، جميل أن تصغى إلى السكون ، جميل أن يمحى أمسك وغدك ، جميل أن تنسى الزمن وأن تنسى الحياة ، جميل أن يحل عليك السلام ، وأنت تستطيعين إنقاذى مما أنا فيه من عذاب بأن تفتحى لى باب الموت ؛ لأنك جميلة يمشى الحب فى ركابك والحب يقهر الموت .

وارتجفت فرچينيا ومشت فى أعطافها رعشة باردة ، ولم تجد ما تقوله فخيم الصمت لحظات ، وحسبت أنها تمر بحلم مزعج .

ثم عاد الشبح إلى الكلام وجاءها صوته كنواح الريح .

قال :

- أما قرأت النبوءة القديمة المخطوطة على نافذة المكتبة ؟

قالت الفتاة وهى تنظر إليه :

- نعم ، كثيرا ما قرأتها ، وأنا أعرفها جيداً ، فهى منقوشة بحروف غريبة سوداء وقراءتها عسيرة ، وليس على النافذة إلا ستة سطور هى :

لن يحل على الدار السكون حتى تستخلص فتاة لها نضرة الربيع

صلوات التوبة من شفتى آثم ،

ولن يحل على كانترفيل السلام

حتى تثمر شجرة اللوز العقيم ،

وتذرف طفلة بريئة دموعها .

ولكنى لا أفهم معنى هذه الكلمات .

فأجاب الشبح بنفس حزينة :

- معناها أن عليك أن تندبى معى خطاياى فما أملك البكاء ، وأن تستغفرى معى لذنوبى فما أملك الإيمان الذى يعود بالغفران ، ولسوف يرحمنى عندئذ ملاك الموت إذا كانت حياتك الماضية كلها خير ورقة وحنان ، ولسوف ترين فى الظلام أطيافا مخيفة ، ولسوف تسمعين فى الظلام همسًا كهمس الفاجرين ، ولكن لن يصيبك من هذه ولا تلك أذى ؛ فقوى الجحيم تقف مشلولة أمام براءة الأطفال .

ولم تجب فرچينيا ، وأنشا الشبح يعصر كفيه عصراً فى يأس قاتل وهو يتأمل رأسها الذهبى المنحنى . . . ونهضت فجأة شاحبة المحيا ، ولكن يلمع فى عينيها بريق غريب وقالت بشجاعة :

- لست بخائفة ، ولسوف أسأل الملاك أن يختصك برحمته .

ونهض الشبح من مكانه يصيح صيحة خافتة هى صيحة الفرح ، وأمسك بيدها وانحنى كما كان يفعل أهل الزمان الغابر وقبلها قبلة جميلة ، وكانت أصابعه باردة كالثلج وكانت شفتاه تحترقان بنار حامية ، ولكن فرچينيا لم تتردد بل سارت خلفه تجتاز الغرفة الكئيبة ، وكان على الستائر الملونة نقوش صغيرة تمثل الصيادين ، ونفخ الصيادون فى أصوارهم ذات الشراريب الصغيرة ولوحوا لها بأيديهم الصغيرة أن تكف عن السير وصاحوا بها قائلين :

- عودى ، ألا عودى يا فرچينيا الصغيرة .

ولكن الشبح شدد القبض على يدها فأطبقت عينيها دون ما ترى ، ونظرت إليها تستوقفها أفراد من الحيوان ذات أذناب كأذناب السحالى وذات عيون جاحظات ، كانت تختبئ فى المدفأة وقالت :

- الحذار يا فرچينيا الصغيرة ، الحذار ، فقد تختفين إلى أبد الآبدين .

ولكن الشبح انساب مسرعا ،ولم تستمع فرچينيا لهذا النذير ، فما إن بلغا طرف الغرفة حتى وقف الشبح وتمتم بكلمات لم تفهم لها معنى ، وفتحت عينيها فرأت الحائط يختفى كانه طبقة من ضباب ، ووجدت أمامها كهفا أسود غائراً .

وهبت حولها ريح صرصر باردة ، وأحست بشيء يجذب ثوبها وسمعته يقول : « عجِّلى ، عجِّلى ، وإلا فات الأوان ، وفى لحظة انطبقت خلفهما ألواح الحائط ، وعادت الغرفة فارغة موحشة » .

الفصل السادس

لم تمض عشر دقائق بعد ذلك حتى دق الجرس معلنا حلول موعد الشاى ، ولما وجدت مسز أوتيس أن فرچينيا لم تحضر أرسلت أحد الخدم لتذكيرها ، وعاد الخادم بعد دقائق وهو يقول إنه لم يعثر لمس فرچينيا على أثر فى أى مكان ، وكان من عادات فرچينيا أن تخرج إلى الحديقة كل مساء لتقطف بعض الأزهار التى تزين بها المائدة قبل العشاء ، فلم تنزعج مسز أوتيس لهذا الخبر أول الأمر ، ولكن حين دقت الساعة السادسة ولم تعد فرچينيا بدأ اضطرابها ، وأرسلت الغلامين ليبحثا عنها خارج الدار ، وطافت بالحجرات واحدة بعد أخرى مع زوجها ، وعاد الغلامان حين بلغت الساعة السادسة والنصف وقالا إن بحثهما كان غير مجد ، وشمل القلق الجميع وصاروا لا يعرفون كيف يتصرفون ، ثم تذكر مستر أوتيس فجأة أنه أذن منذ أيام لفريق من الغجر بأن يضربوا خيامهم فى مشارف الدار ، فخرج لفوره بصحبة ولده الأكبر واثنين من الفلاحين وقصدوا إلى بلاكويل هولو حيث حط الغجر رحالهم كما كان يعلم ، ورجاهم الدوق الصغير ، دوق تشيشاير ، أن يأذنوا له بالخروج معهم ، فقد كاد صوابه أن يطيش من فرط قلقه ، ولكن مستر أوتيس لم يأذن له بذلك ؛ لأنه كان يتوقع نشوب معركة لاسترداد ابنته ، فلما أن بلغ مضارب الخيام وجد أن الغجر رحلوا ، وعلم أن رحيلهم كان مفاجئا ؛ إذ أبصر ناراً لاتزال موقودة وأطباقا لاتزال ملقاة على الأرض ، وأوفد مستر أوتيس واشنطون والفلاحين لينقبوا فى بقية أنحاء المنطقة ،

أما هو فعاد إلى داره عدوا وأبرق إلى جميع مفتشى الشرطة فى المقاطعة سائلا إياهم أن يبحثوا عن بنت صغيرة خطفها الغجر أو خطفها المتشردون ، ثم طلب جواده ، وأصر أن تتناول زوجته والتوأمان عشاءهم كالمعتاد ، فلما جىء بالجواد خرج مع أحد السائسين فى طريق اسكوت ، وما إن ركب ميلين حتى سمع جوادا يركض فى أثره ، والتفت إلى الوراء فرأى الدوق الصغير يتبعه على مهره محتقن الوجه عارى الرأس ، وقال الصبى لاهثا :

- أنا آسف لمجيئى يا مستر أوتيس ، ولكنى لن أستطيع أن أتناول أى طعام حتى نعثر على فرچينيا ، فأرجوك ألا تغضب منى ، ولو أنك وافقت على خطبتنا فى العام الماضى لما حدث شىء من هذا . . . أرجوك يا مستر أوتيس ألا تأمرنى بالعودة ، فإن أمرتنى فلن أطيع .

وابتسم الوزير المفوض برغمه لمرأى هذا الصبى الوسيم ، وتأثر أيما تأثر حين رأى إخلاصه لفرچينيا ، فمال وربت على كتفه بحنان وقال :

- إذا كنت ترفض العودة يا سسيل فلا مفر من بقائك معى ، ولكن لابد أن أشترى لك قبعة تلبسها حين تبلغ اسكوت .

فأجاب الغلام ضاحكا :

- دعنا من أمر قبعتى .

وركضا حتى بلغا المحطة ، وفى المحطة سأل مستر أوتيس ناظر المحطة عما إذا كان قد شاهد على الرصيف بنتًا تطابق أوصافها أوصاف فرچينيا ، فأجاب بالنفى ، ولكنه مع ذلك أبرق للمحطات الأخرى على الجانبين ، وأكد له أن رجاله سوف يتفحصون كل وجه يمر بهم ابتغاء العثور عليها .

ثم انطلق مستر أوتيس قاصداً بيكسلى بعد أن ابتاع قبعة للدوق الصغير من تاجر كان يهم بإغلاق حانوته ، وبيكسلى هذه قرية تبعد عن اسكوت نحو أربعة أميال ، وكان يعلم أنها من البلاد المختارة عند الغجر ، لأن فى مشارفها أرضًا معشبة واسعة تصلح لضرب الخيام ، وحين بلغا القرية أيقظا الشرطى ،

ولكنهما لم يظفرا منه بجواب شاف ،وبعد أن طافا بالأرض المعشبة الواسعة طولاً وعرضًا عادا إلى كانترفيل نحو الساعة الحادية عشرة يفتك بهما الإعياء والهم العظيم ، وكان واشنطون والتوأمان فى انتظارهما عند مدخل الدار يحملون المصابيح لينيروا الطريق الظليل المعتم ، ولم يجد أحد لفرچينيا أثراً ، فقد استوقف الغجر فى مراعى بروكلى ولكن فرچينيا لم تكن بينهم ، وفسروا هجرتهم المفاجئة بانهم ظنوا أن موعد احتفالات كورتون قد حل فبادروا بالنزوح خشية أن يتأخروا فى الوصول ، ولكم حزنوا حين علموا باختفاء فرچينيا ، فقد كانوا يحمدون لمستر أوتيس أنه أذن لهم بالإقامة بمراعيه ، وتخلف منهم أربعة رجال ليشتركوا فى البحث عن الفتاة ، كذلك فتش الباحثون البركة والغابة المشرفة على القصر تفتيشًا دقيقًا ولكن دون جدوى ، وعلم الجميع أنهم لاشك مفتقدون فرچينيا فى تلك الليلة على الأقل ، وسعى مستر أوتيس والغلمان إلى الدار فى حزن لا يوصف ، ومن خلفهم سار السائس وهو يقود المهر والجوادين ، فلما دخلوا البهو وجدوا فريقًا من الخدم فى جزع عظيم بالمكتبة ، ورأوا مسز أوتيس على الأريكة مستلقية وقد أوشكت أن تجن من فرط اضطرابها ، والمدبرة العجوز إلى جوارها تمسح جبينها بالكولونيا .

وألحف عليها مستر أوتيس فى أن تتناول من الزاد شيئًا وأمر بإحضار الطعام للجميع ، وخيَّم على القوم الوجوم أثناء العشاء ، حتى التوأمان المرحان سكتا جزعا وكمداً ، فقد كانا أشد ما يكونان حبا لأختهما ، وبعد أن انتهى العشاء أمر مستر أوتيس كلا منهم أن يأوى إلى فراشه قائلا إن الانتظار لن يثمر فما فى الإمكان عمل شىء فى تلك الليلة ، معلنًا أنه سوف يبرق فى صبيحة اليوم التالى إلى سكوتلانديارد فى طلب بعض رجال البوليس السرى ، ورجاه الدوق الصغير أن يمهلهم فرفض مستر أوتيس رفضا باتا ، وفيما هم خارجون من غرفة الطعام بدأت الساعة تدق انتصاف الليل ، وما انتهت آخر دقة حتى سمعوا جلجلة جسم يسقط ، ثم صرخة حادة ، وقعقع الرعد فاهتزت جدران

الدار ، وسبحت فى الهـواءِ نغمات لحن ليس من ألحان البشر ، وسـقط فجأة عند قمة السلم لوح من ألواح الحائط فكانت ثغرة ، ومن الثغرة دخلت فرچينيا شاحبة الوجه تحمل سلةِ صغيـرة واندفع الجميع نحوها ، وفى لحظة كانت مسز أوتيس تضمها إلى صـدرها فى انفعال شديدٍ ، وكاد الدوق الصغـير أن يخنقها بقبلاته المتلاحقة ، أما التوأمان فقد ذهـبا يرقصان حول الحاضرين رقصة عنيفة من رقصات القـتال ، وظن مستر أوتيس لحظة أن فرچـينيا كانت تلعب بهم ، فقال بلهجة لا تخلوا من الغضب :

- أين كنت يابنيتى ، بحق السماء ! لقـد بحثنا عنك ، سسيل وأنا ، فى جمـيع أرجاء المنطقـة ، وأوشكت أمك أن تموت جزعًا ، فـلابد أن تكفى عن أمثال هذه الدعابة .

وصاح التوأمان وهما يرقصان حول الجماعة :

- إلا مع الشبح ! إلا مع الشبح !

وقالت مسز أوتيس وهى تقبل ابنتهـا المضطربة الفؤاد وتسوى بيدها شعرها الذهبى المهوش :

- الحمد لله على سلامتك يابنيتى العزيزة لا تغيبى عن بصرى ثانية .

قالت فرچينيا بصوت هادئ :

- لقد كنت مع الشبح يا أبت ، وقد مات ولابد أن تأتوا لرؤيته ، إنه كان شبحـًا شريرًا ، لكنه ندم على فـعاله أشد الندم ، وأعطانى هذا الصندوق قبل وفاته ، والصندوق مملؤ بالحلى الكريمة .

فحملق فيهـا الجميع عاجبينِ وقد ألجمتـهم الدهشة ، ولكنها كانت آية فى الجد لا تعـرف المزاح ، وتقدمتهم ونفـذت بهم من الثغرة إلى دهليـز سرى ، ومن ورائها واشنطون حـاملا بيده شمعـة متقدة وجدها علـى المائدة فأخذها ، وأخيرًا بلغوا بابًا ضخمًا صنع من خـشب البلوط به عدد من المسامير الصدئة ، وما إن مسته فرچينيا حتى انفتح على مصراعـيه فألفوا أنفسهم فى غرفة صغيرة

منخفض سقفها محدودب ، لها طاقة واحدة ذات عوارض من أسياخ الحديد ، وشاهدوا حلقة حديدية ضخمة مغروسة فى الحائط وقد قيد فيها هيكل عظمى ناحل كان مستلقيًا على الأرض الحجرية استلقاءً كاملاً ، وبدا أن أصابعه الطويلة العارية من كل لحم تجتهد أن تمسك بإبريق وصحفة وضعا بجواره على نحو لا يمكنه من بلوغهما ، وما من شك فى أن الإبريق كان يستخدم فى الماضى ؛ فقد كان العفن الأخضر يكسوه من الداخل ، ولم يكن فى الصحفة غير حفنة من تراب ، وجثت فرچينيا بجانب الهيكل العظمى وعقدت يديها وأنشأت تصلى صلاة صامتة على حين أخذ بقية أفراد الأسرة ينظرون فى عجب إلى هذه المأساة التى تكشف لهم سرها منذ لحظات .

وكان أحد التوأمين يطل من النافذة ليعرف مكان الغرفة من الدار ، وإذا به يصيح فجاة :

- انظروا ! انظروا ! لقد أينعت شجرة اللوز اليابسة ، وإنى لأرى أزهارها واضحة فى نور القمر .

ونهضت فرچينيا من مجثاها وأشرق فى محياها ضياء جميل وقالت بخشوع :

- إن الله قد غفر له .

وطوّق الدوق الصغير جيدها بذراعه وقبلها قائلا :

- ما أنت إلا ملك كريم .

الفصل السابع

مضت على هذه الأحداث أربعة أيام وأقيمت جنازة فى قصر كانترفيل ، بدأ الموكب من الدار وكانت تجر العربة ثمانية جياد سود كل منها يحمل فوق رأسه خصلة جسيمة متراخية من ريش النعام ، وكان النعش مصنوعا من رصاص وقد كساه كفن ثمين لونه أرجوانى نقشت عليه بخيوط الذهب شارة آل كانترفيل ، ومشى الخدم بجانب عربة الموتى وما بعدها من عربات يحملون المشاعل ، فكان الموكب جليلا يملأ الناظرين خشوعًا ، وكان لورد كانترفيل على رأس أصحاب الحداد ، وقد جاء من ويلز خاصة ليشهد الجنازة ، وجلس فى العربة الأولى بجوار فرچينيا الصغيرة ، وفى العربة الثانية جلس وزير أمريكا المفوض وزوجته ، وفى العربة الثالثة جلس واشنطون والغلمان الثلاثة ، وجلست مسز أمنى فى العربة الأخيرة ، فقد رأت الأسرة أن من حقها أن تودع الشبح الوداع الأخير لأنه أقض مضجعها زهاء خمسين عاما ، وفى ركن المقبرة حفر لحد عميق بجواره شجرة السرو العتيقة .

وقرأ القداس نيافة الأسقف أوغسطس دامبير بصوت مؤثر يشيع الرهبة فى القلوب ، فلما انتهت المراسم أطفأ الخدم مشاعلهم كما تقضى بذلك تقاليد آل كانترفيل منذ القدم ، وفيما هم يدلون التابوت فى اللحد تقدمت فرچينيا ووضعت عليه صليبًا كبيراً صنع من أزهار اللوز البيضاء وأزهار اللوز الوردية ، وظهر القمر من وراء سحابة ليشهد فرچينيا تبارك الراحل بالصليب ، فغمر نوره الفضى المقبرة الصغيرة ، ومن دغل بعيد أطلق بلبل عقيرته بالغناء ، وتذكرت وصف الشبح لحديقة الموت ففاضت من عينيها الدموع ، وحين عاد الجميع إلى القصر لزمت الصمت العميق .

وقبل أن يعود اللورد كانترفيل إلى لندن فى صباح اليوم التالى جرى بينه وبين مستر أوتيس حديث بصدد الحلى التى أعطاها الشبح لفرچينيا ، وكانت الحلى رائعة الحسن ، بينها عقد من الياقوت المطعم على طريقة البندقية ، فهو آية من آيات القرن السادس عشر ، وكانت الحلى عظيمة القيمة حتى لقد مانع مستر أوتيس فى أن تقبل ابنته مثل هذه الهدية بدافع من ضميره ، قال :

– أنا أعلم يا سيدى اللورد أن العادة فى هذه البلاد قد جرت بأن يسرى الوقف على الجواهر كما يسرى على الأرض ، وما من شك فى أن هذه المجموعة من الحلى ينبغى أن تكون من تراث الأسرة الثابت ، ولهذا لايسعنى إلا أن أرجوك أحر الرجاء أن تأخذها معك إلى لندن وأن تعدها جزءاً من ميراثك رُدَّ إليك فى ظروف غير مألوفة لا أكثر ، أما ابنتى فهى لاتزال طفلة وهى بحمد الله لاتزال إلى اليوم بعيدة عن الاهتمام بأمثال هذه الأشياء من مستلزمات الأرستقراطية المترفة المتبطلة ، ثم إن مسز أوتيس وهى حجة لا يستهان بها فى التحف الفنية بحكم ترددها الطويل على بوستون أيام صباها ، أقول إن مسز أوتيس قد أخبرتنى بأن لهذه الجواهر قيمة مالية عظمى ، ولو أنها عرضت للبيع لجاءتك بثمن طائل ، لهذا كله يا سيدى اللورد كانترفيل أعتقد أنك ستقدر استحالة بقائها فى حوزة أى فرد من أفراد أسرتى ، وأضيف إلى ذلك أن أمثال هذه الأدوات الصبيانية والكماليات الزائفة ، وإن تكن من ضرورات الجاه عند الأرستقراطية البريطانية ، لا محل لها إطلاقا فى مجتمع ربى على البساطة التامة التى تنادى بها المبادئ الجمهورية الخالدة ، الخالدة على الأقل فى رأيى أنا ، ولا بأس من أن أذكر أن فرچينيا شديدة الرغبة فى الحصول على الصندوق كتذكار من سلفك المسكين الضال ، ولما كان الصندوق قديما أتلفه البلى ولا سبيل إلى إصلاحه فلعلك لا ترى مانعا من تحقيق رغبتها ، أما أنا فيدهشنى جداً أن أرى بنتا لى تظهر الكلف بأى أثر من آثار العصور الوسطى ، وإنى لأعزو هذا إلى ظروف مولدها ، فقد ولدتها أمها فى ضاحية من ضواحى لندن بعد عودتها من رحلة قامت بها إلى أثينا بفترة قصيرة .

وكان لورد كـانترفيل يصـغى إلى كلام الوزير الجليل باهتـمام بالغ ، وهو يفتل شاربه الأشيب من وقت لآخر لعله بذلك يستر ابتـسامة تغالبه ، فلما فرغ مستر أوتيس من مقاله صافحه بحرارة قصوى وقال :

- يا سيدى العـزيز ، إن ابنتك الساحرة قد أدت إلى سلفى التـاعس سير سيـمون خـدمة جلّـى ، ونحن ، أنا وأسرتى ، مـدينون لها بالكثـير بسـبب شجاعتها النادرة .

فلا جدال فى أن الحلى ملك لها ، ولو أنى سـلبتها أياها فلست أشك فى أن جدى الشرير هذا تارك قبـره بعد أسبوع واحد لينتقم منى أشـد انتقام ، أما عن قولك إن هذه الحلى تراث لنا دائم ، فنحن فى إنجلتـرا لا نعد التراث دائما إلا إذا نص عليه فى وصية أو فى وثيقة لها صفة رسمية ، وهذه الحلى لم يعلم بوجودها إنسـان ، فـأؤكد لك أن حقى فيـها لا يزيد عن حق كبيـر الخدم فى بيتك ، وأعتقد أن ابنتك سوف تسـر بأن تجد ما تتزين به حين تكبر ، ثم إنك نسيت يا مستر أوتيس أنك قد اشتريت منى الأثاث والشبح على أنهما جزء من الصفقة ، وكل ما يملكه الشبح تنتقل ملكيته إليك بطبيعة الحال ، وإذا كان سير سيـمون قد أبدى بعض النشاط فى دهليـز القصر أثناء الليل ، فـهو رغم ذلك ميت فى نظر القانون ، وقد آلت إليك أملاكه بقوة الشراء .

وأحـزن مستر أوتيس رفض لورد كانترفـيل ، فرجاه أن يعيد فى الأمر النظر ، ولكن النبيـل طيب القلب كان ثابتا لايتـزعزع فى رأيه ، ونجح آخـر الأمر فى إقناع الوزير المفوض بأن يأذن لابنته فى أن تحتفظ بهبة الشبح .

ولما تقدمت الدوقة الشابة ، دوقة تشـيشاير ، عام ١٨٩٠ لمقابلة الملكة فى افتتاح موسم الحـفلات بمناسبة زواجها ، كانت حليهـا موضع إعجاب الخاص والعام ، فلقد حصلت فرجينيا على إكليل الزهر الذى تكافأ به كل فتاة أمريكية صالحة ، وزفت إلى عاشـقها الصغير حـالما بلغ سن الرشد ، وكان الدوق آية فى الوسامة ، وكانت الدوقة آية فى الجمال ، وكان كل منهما يحب الآخر حبا

لا مزيد عليه ، حتى إن الجميع استقبلوا هذا الزواج بالغبطة ، اللهم إلا المركيزة العجوز ، مركيزة دمبلتون التى كانت تطمع فى اقتناص الدوق لإحدى بناتها السبع ، وتقيم الحفلات المتتالية لتحقيق هذا الغرض ، كذلك لم يرض مستر أوتيس نفسه عن هذا الزواج وهو أمر جد غريب ، فقد كان يحب الدوق الصغير من الناحية الشخصية ، ولكن مبادئه كانت لا تقر الألقاب ، وكان يخشى على قوله « أن تنسى فرچينيا البساطة التى تمليها المبادئ الجمهورية تحت تأثير الأرستقراطية التى تعيش للذة وحدها ، وهو تأثير خبيث ، مهما يكن من شيء فإن اعتراضاته لم يؤخذ بها ، وأحسب أنه يوم سار فى ممشى كنيسة سانت چورچ بميدان هانوفر تعتمد ابنته على ذراعه أحس بأنه لا يطاوله إنسان فى إنجلترا كلها .

ولما انتهى شهر العسل قصد الدوق والدوقة إلى قصر كانترفيل ، وفى اليوم التالى لوصولهما خرجا معا بعد الظهر إلى المقبرة الموحشة المتاخمة لغابة الصنوبر ، وقد صادف آل كانترفيل بعض المشقة فى اختيار الكلمات المناسبة التى تحفر على شاهد سير سيمون ، ولكنهم انتهوا آخر الأمر إلى الاكتفاء بحفر الحروف الأولى من اسمه يليها السطور المنقوشة على نافذة المكتبة ، وكانت الدوقة تحمل بعض الورود فنثرتها على قبره ، وبعد أن وقفا إلى جوار القبر وقتًا ما جاسا بين أطلال الدير المخرب .

وهناك جلست الدوقة على عمود محطم ورقد زوجها عند قدميها يدخن سيجارة ويتأمل عينيها الجميلتين ، ثم ألقى بسيجارته فجأة وأمسك بيدها قائلا :

- اسمعى يا فرچينيا ، إن الزوجة لا يحق لها أن تخفى عن زوجها شيئا .

- ولكنى لا أخفى عنك شيئا يا حبيبى .

فأجاب وهو يبتسم :

- نعم ، إنك تخفين عنى شيئا ، فأنت لم ترو لى ما حدث بينك وبين الشبح حين كنتما فى الغرفة على انفراد .

قالت فرچينيا بلهجة جادة :

- ولكنى لم أروه لأحد ياسسيل .

- أنا أعلم ذلك ، ولكن هل لى أن أعرف ما حدث ؟

- كلا ياسسيل ، وأرجوك ألا تسألنى ؛ فلست أستطيع أن أبوح به لأحد . يا للسير سيمون من رجل تاعس .

إنى لمدينة له بالشىء الكثير ، ولا تسخر منى يا سسيل فهذا صحيح ، لقد علمنى مغزى الحياة ومغزى الموت ، وعرفت منه كيف يقهر الحب المنون .

ونهض الدوق وقبل زوجه قبلة العشق الصافى وقال :

- لن يخفى على سر من أسرارك ما دمت أملك قلبك .

- ولقد ملكت قلبى دائما ياسسيل .

- ولسوف تقصى ما حدث على أطفالنا ، أليس كذلك ؟

وضرج الخجل خدى فرچينيا .

صورة
دوريان
جراى

مقدمة

الفنان صانع الأشياء الجميلة .

غاية الفن أن يكشف عن نفسه وأن يخفى شخصية الفنان .

الناقد من يترجم عن أثر الجمال فى نفسه بلغة الفنان ، أو يصوغ من إحساسه به مادة غير مادة الفن ، وإن أعلى أنواع النقد لا يختلف عن أحطها فى أنها جميعًا تراجم لحياة النقاد على نحو ما ، ومن يقرأون معانى القبح فى آيات الجمال هم السفهاء ، ولا عذر لمن ضل سواء السبيل ، أما من يقرأون معانى الجمال فى آيات الجمال فهم الأصفياء : هم رجاء الإنسانية ، هم المختارون الذين لا يرون فى الجمال إلا جمالا .

ليس بين الكتب كتب أخلاقية وكتب منافية للأخلاق ؛ فالكتب إما جميلة التأليف وإما رديئته . تلك هى خلاصة القول .

ثورة القرن التاسع عشر على الأدب الواقعى هى ثورة كاليبان [1] حين يرى وجهه فى المرآة ، وثورة القرن التاسع عشر على الأدب الخيالى هى ثورة كاليبان حين « لا » يرى وجهه فى المرآة .

---

(١) كاليبان فى مسرحية « العاصفة » لشكسبير مخلوق شأنه أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان ، دائم السخط منحط الرغبات ، فهو رمز الجسد ، استخدمه الساحر بروسبيرو لقضاء حاجاته اليومية . كذلك استخدم بروسبيرو كائنًا آخر لطيفًا جميلا سامى النفس شديد الميل إلى الحرية هو الطيف آريل ، وهو يرمز للروح . ويقال إن كاليبان وآريل يرمزان إلى الشر والخير ، وكلاهما فى قبضة الإنسان (المترجم) .

الحياة الأخلاقية بعض مادة الفن ، ولكن « أخلاقية » الفن تأتى من كمال التعبير رغم نقص أداة التعبير .

ما من فنان يريد إثبات نظرية ما : فالحقائق ذاتها يمكن إثباتها .

ما من فنان يتحيز لمدرسة فى الأخلاق معينة ، والتحيز الأخلاقى لازمة فى الأسلوب لا تغتفر .

ما من فنان يشتكى السقم أبدًا ؛ فالفنان يستطيع التعبير عن كل شىء فى الحياة .

أداة الفن : الفكر واللغة ، ومادة الفن : الفضيلة والرذيلة .

أرقى الفنون من ناحية القالب : الموسيقى ، وأرقى الفنون من ناحية الشعور : التمثيل

للفن ظاهر مكشوف ورمز خبىء ، ومن يتجاوز الظاهر يجازف بكل شىء ، ومن يفهم الرمز يجازف بكل عزيز .

الفن ليس صورة الحياة ، بل صورة المستعرض لموكب الحياة .

اختلاف الظنون فى العمل الفنى دليل على أن العمل جديد ومعقد ونابض بالحياة ، وكلما اختلف النقاد أحس الفنان بأنه أدى واجبه .

فى وسعنا أن نصفح عن صحاب الفن المفيد إذا أدرك أن فنه ليس جميلا ، والمبرر الأوحد لوجود الفن غير المفيد هو أن يأسرنا بجماله .

لا نفع فى الفن إطلاقًا .

أوسكار وايلد

الفصل الأول

كان عبير الورود يملأ استديو الرسام ، وحين هب نسيم الصيف بين أشجار الحديقة ، نفذ من الباب المفتوح عطر لعله عطر الليلج النفاذ أو عطر النسرين المنعش .

وفى ركن الأريكة المكسوة بالطنافس العجمية اتكأ اللورد هنرى وتون مدخنًا كعادته بلا انقطاع ، وكان من متكئه يلمح بريق الأزهار المنتشرة على شجرة النحل فى صعوبة ، فتبدو له صفراء كالشهد حلوة كالشهد ، والشجرة تهتز أغصانها كأنها لا تقوى على حمل كل ذلك الجمال المكدس فوقها ، فيهتز معها الوهج الذهبى ، وعلى الستائر الحريرية الخشنة ، الممتدة بطول النافذة العالية ، كانت ترتمي بين الفينة والفينة ظلال عجيبة هى ظلال طيور عابرة ، فتخلق فى الغرفة جواً يابانيًا لا يلبث أن ينجلى .

ويستعرض اللورد هنرى فى خياله رسامى طوكيو ذوى الوجوه الشاحبة ، فيذكر كيف يسعى أولئك الرسامون إلى التعبير عن معانى السرعة والحركة بفنهم التقليدى الجامد ، كل ذلك والنحل يطن طنينًا مقبضًا وهو يتلمس طريقه بين الحشائش التى لم تشذب ، أو يحوم فى إلحاح حول كئوس اللبلاب الذهبية التى تسلقت جدران الحديقة كأنها تبغى الفرار منها ، فازداد السكون بطنينه وحشة ، وامتلأ الجو ضيقًا ، أما عجيج لندن فقد كان خافتًا مكظومًا كأنه صوت أرغن مكتوم بعيد .

وكان فى وسط الغرفة حامل مستقيم ثبتت عليه صورة بالحجم الطبيعى لشاب لا حد لجماله ، وقد جلس أمامها الرسام نفسه « بازيل هولوورد »

وأخـذ يتـأملهـا على بعـد قليل ، أجل ، هذا هو بـازيل هولوورد الذى أثار اختفـاؤه الفجائى منذ بضـعة سنوات فضول الخـاص والعام ، وظن الناس فى تأويل احتجابه أعجب الظنون .

وفيـما كان الرسـام يتأمل الصورة السـاحرة التى أبدعتـها ريشتـه فى دقة ومهارة شاعت فى محياه ابتسامة الرضا ، ثـم استقرت الابتسامة على شفتيه ، ولكنه نهض فجأة ووضع أصابعه على جـفنيه ، كأنه يريد بذلك أن يحبس فى مخيلته حلمًا عجيبًا خشى أن يزول .

قال اللورد هنرى فى تراخ :

- هذه أبدع صورة رسـمتها يا بازيل بلا جـدال ، ولا بد أن ترسلها إلى معرض جروفـنور فى الموسم القادم ، إن معرض الأكاديمية لا يليق لـها ، فهو واسع ومبـتذل ، وفى كل مرة دخلـته وجدته مكتظًا بالزبائـن مما حجب عنى الصـور ، أو مكتظًا بالصـور مما شـغلنى عـن رؤية الزبائن ، لا شك فى أن معرض الجروفنور هو أنسب معرض لك .

فأجاب بازيل وهو يرفع رأسه إلى الوراء بتلك الطريقـة الغريبة التى كانت تضحك زملاءه منه أيام الطلب فى أكسفورد :

- لست أظن أنى سأعرضها فى مكان ما ، بل هذا مؤكد ، فلن أعرضها فى أى مكان .

ورفع اللورد هنرى حاجبيه ، ونظر إليه عاجبًا بين ذؤابات الدخان الأزرق الخفيف الذى تصاعد من سيجارته المخلوطة بالأفيون فى أشكال لولبية متداخلة جميلة ، ثم قال :

- أتقول إنك لن تعرضها فى أى مكان ؟ وكيف ذلك يا صديقى العزيز ؟ ما السبب ؟ مـا أعجب أطواركم معشر الرسامين أنتم تقلبـون الدنيا رأسًا على عقب لكى تصيبوا شـيئًا من الشهرة ، فإن أصبتـموها بدا أنكم زاهدون فيها ، هذه غباوة منك يابازيل ، فهناك شىء واحد أسوأ من أن تكون موضع حديث

الناس ، وذلك ألا تكون موضع حديثهم ، وهذه الصورة خليقة بأن ترفعك على شباب الفنانين فى إنجلترا ، وأن تملأ قلوب شيوخهم غيرة منك ، إن كانت للشيوخ قلوب .

أجاب الرسام :

- أعلم أنك ستسخر منى ، ولكنى فى الواقع لاأستطيع عرضها لأنى وضعت فيها من نفسى أكثر مما ينبغى لرسام أن يضع فى صورة .

وتمدد اللورد هنرى على الأريكة ، واسترسل فى ضحك طويل ، فقال الرسام :

- نعم ، هذا ما كنت أتوقعه منك ، ولكنى ما قلت إلا الحقيقة .

- أنت تقول إنك وضعت فيها من نفسك أكثر مما ينبغى ، وهذا غرور منك عظيم . أقسم لك ياBازيل إنى ما كنت أحسبك مخدوعًا فى نفسك إلى هذا الحد ، فأنت ياذا الوجه الضخم الخشن ، والشعر الأسود الفاحم كيف تشبه نفسك بهذا الفتى الذى يحاكى أدونيس جمالاً ، ويبدو كتمثال مخروط من عاج كسته أوراق الورد ؟ ياصديقى بازيل إن صاحبك هذا هو الإله نرسيس قلبًا وقالبًا . أما أنت فلست أنكر أن لك مخايل المفكرين وما إلى ذلك كله ، ولكن الجمال الحقيقى يختفى حين تظهر مخايل الذكاء ، والذكاء نفسه إسراف من الطبيعة ، والإسراف يفسد التناسب فى أى وجه ، فالمرء إذا مابدأ يفكر ، تحول وجهه إلى جبهة كبيرة ، أو أنف كبير ، أو أى شىء من هذا القبيل . استعرض سائر النابهين فى أى مهنة من مهن الفكر تر صورهم نماذج فى البشاعة ليس لها مثيل ، ولقد يستثنى من ذلك رجال الكنيسة ، ولكن هذا طبيعى ، فرجال الكنيسة لا يفكرون البتة ، والأسقف يردد وهو فى الثمانين ما لقن أن يقوله وهو فى الثامنة عشرة ، ولذلك تراه يحتفظ بجماله إلى آخر يوم من أيام حياته ، إن صديقك الشاب هذا الذى تبخل على باسمه وتحيطه بهالة من الغموض قد سحرتنى صورته ، وأؤكد لك أن صديقك هذا لا يفكر

بتاتًا ، ياله من مخلوق جـميل لا عقل له !وما أخلقه بأن يقضى مـعنا الشتاء ليغنينا مرآه عن الزهور الـغائبة ، وما أخلقه بأن يقضـى معنا الصيف ، لنجـد فيـه مـا يطفئ ذكـاءنا ! كـلا يا بـازيل ، لا تخدع نفسك فما فيه منك شـىء .

فأجاب الفنان قائلاً :

- لقد أسأت فـهمى يا هارى ، فأنا أعلم أنى لا أشبهـه ، ولست بحاجة إلى من يدلنى على ذلك ، ولو قدر لى أن أكون مثله لساءنى أن أكون ، أراك تهز كتفـيك استخفافـًا ، ولكنى صادق فى قولى ، إن القـدر يكيد لأصحاب الذكاء النابغ والجمـال النابغ ، ويتعقبهـم كما يتعقب الملوك منذ فـجر التاريخ بدون إشفاق . ولخيـر لنا أن نكون من طينة العامة ، فالأغبياء ودمـيمو الخلقة أسعد أهل الأرض طرًا ؛ لأن فى وسعهم أن يجلسوا فى اطمئنان ، ويحملقوا كالبلهـاء من أماكنهم فى موكب الحـياة الحافل ، فإن فـاتهم النصر فقد كـفوا مرارة الهزيمة . هم يعيشون كما ينبغى أن نعيش جميعًا ، يعيشون فى صفاء ، لا يبالون بشىء ، آمنين مطمـئنين ، لا يفسدون حـياة أحد ، ولا يفسـد أحد حياتهم ، أما نحن فندفع ثمن التفوق غاليًا : أنت تدفع ثمن جاهك وحسبك ، وأنا أدفع ثمن ذكائى وفنى أيا كان قدرهمـا ، ودوريان جراى يدفع ثمن جماله وشـبابه ، نعم يا هارى ، لسـوف ندفع ثمن مـا حبـتنا به الآلهـة من نِعَم ، ولسوف نتعذب غذابًا أليمًا .

فسار اللورد هنرى نحو بازيل هولوورد وسأله قائلا :

- دوريان جراى ، أهذا اسمه ؟

- نعم ، هذا اسمه ، وما كان فى نيتى أن أبوح لك به .

- ولـم تريد إخفاءه عنى ؟

- لست أعـرف كيف أشـرح لك الأمـر ، ولكنى إذا أحـببت أحـدًا من أعماق قلبى كتمت عن الناس اسمه ؛ لأن فى إعـلانه شيئًا من الخيانة ، ولقد تعلمت الولع بالأسـرار ، ويبـدو لى أن الأسـرار هى كل مـا بقى لنا فى هذا

العصر مما يملأ الحياة غرابة وغموضًا ، فـأتفه الأمور يثير فضولنا إن هو حُجب عنا ، ولذلك تجدنى لا أطلع أحدًا على وجهـتى كلما غادرت لندن فى هذه الأيام ، فإن فعلت فقدت كل شىء فى رحلتى ، أعترف لك بأنها عادة سيئة ، ولكنها تدخل على الحياة شيئًا من سحر الخيال ، وأظنك تحسبنى مخبولا لكلفى بالأسرار .

فأجابه اللورد هنرى قائلا :

– كلا يا صديقى بازيل ، ولعلك نسيت أنى متزوج ، وأن اللذة الوحيدة فى الزواج هى أنه يجعل حياة الغش لازمة للطرفين ؛ فأنا لا أعلم أين تذهب زوجتى ، وزوجتى لا تعلم شيئًا عما أفعل ، ولقد نتقابل ، فنحن نلتقى فعلا بين وقت وآخر حين نتعشى معًا خارج المنزل ، أو حين نذهب معًا لزيارة أبيها الدوق ، فإذا تقـابلنا قص كل منا على الآخر أسـخف الأكاذيب متكلفًـا الجد الكامل ، وزوجتى قد بزت فى هذا الفن ، بل هى أطول منى فـيه باعًا ، فليس يبدو عليها أقل ارتباك عند ذكر التواريخ كما يبدو علىّ دائمًا ، فإن تبينت تناقض أقوالى لم تثر بتاتًا ، وياليتها تثور ، فهى تكتفى بالضحك هازئة منى .

قال بازيل هولوورد وهو يسير نحو الباب المؤدى إلى الحديقة .

– لست أحب أسلوبك هذا فى الكلام عن حياتك الزوجية يا هارى ،وأنا أعتقد أنك زوج فاضل ولكنك تخـجل من فضائلك ، عجبـًا لك يا رجـل ، ما سمـعتك تقول كلمة طيبة ، ومـا رأيتك تفعل شيئًا شـريرًا ، إن سخريتك بكل شىء إن هى إلا موقف تصطنعه اصطناعًا .

فعلق اللورد هنرى على هذا بقوله :

– إن أردت أن تبدو طبيعـيًا فلابد لك من التكلف ، وأشق أنواع التكلف عندى هو التكلف الذى ألتزمه لأبدو طبيعيا .

وخرج الرجلان معـًا إلى الحديقة ، وهناك جلسا على مقعد من الخيزران طويل فى ظل شجرة من أشجار الغـار ، وانصبت أشعة الشمس على الأوراق الملساء ، وبين الحشائش اهتزت الأقاحى البيضاء .

وبعد صمت قليل أخرج اللورد هنرى ساعته من جيبه وقال :

- يجب أن أنصرف الآن يا بازيل ، ولكن لا بد أن تجيبنى قبل انصرافى عن سؤال طرحته عليك منذ هنيهة .

فأجاب الرسام مطرقًا :

- أى سؤال هذا ؟

- لا تتجاهل تجاهل العارف .

- لست أفهم ما تريد .

- إذًا فها هو ذا السؤال للمرة الثانية : أريدك أن تفسر لى امتناعك عن عرض صورة دوريان جراى . إلىّ بالسبب الحقيقى .

- لقد ذكرت لك السبب الحقيقى .

- كلا . إنما ذكرت أنك وضعت فى الصورة من نفسك أكثر مما ينبغى، وهذا تعليل صبيانى .

فنظر بازيل إلى اللورد هنرى نظرة ثابتة وقال :

اصغ إلىّ يا هارى ، إن كل صورة ترسم بإحساس قوى هى صورة الفنان وليست صورة نموذج ، فالنموذج شىء عارض لا أكثر ولا أقل ، أو هو المناسبة فقط ، والرسام لا يكشف عن شخصية نموذج الصورة التى يرسمها وإنما يكشف عن شخصيته هو ، ولقد كشفت أنا فى هذه الصورة عن سرّ روحى ، ولهذا لن أستطيع لها عرضًا .

فضحك اللورد هنرى وسأله قائلا :

- ترى ما يكون هذا السر ؟

- سأطلعك عليه .

فقال صاحبه وهو يتأمله مليًا :

- هات ما عندك ، فكلى آذان صاغية .

قال الرسام :

- ليس فى الأمر تعقيد كما تظن يا هارى ، وأخشى أن يتعذر عليك فهم ما سأقول ، أو أن تشك فى صدق كلامى .

وابتسم اللورد هنرى ، ثم مال وقطف أقحـوانة من بين الأعشاب أوراقها وردية ، وأخذ يتفحصـها ثم قال متأملاً قلبها الذهبى الصـغير الذى نمت حوله نتف بيضاء :

- بل سأفهم كل مـا تقول تمامًا ، أما عن الشك فأنا أصـدق كل ما يقال لى ما دام شيئًا غير معقول .

وهبت نفحة من النسيم فتـساقطت بعض الأزهار عن أشجارها ، وأخذت أزهار الســوسن تتأرجح ذات اليـمين وذات الشمـال فى الهواء الراكـد كأنـها جمهرة من النجوم ، وغنّى جندب بجوار الحائط ، ثم مر بالحائط طيّور طويل نحيل ذو أجنحة بنية شفافـة فبدا كالخيط الأزرق ، وخيل إلى اللورد هنرى أنه يسمع قلب بازيل هولوورد يخفق خفقانًا ، فعجب لحاله أشد العجب .

قال الرسام أخيراً :

- إليك القصـة يا هارى : منذ شهـرين قصدت إلى دار الـليدى براندون لقضـاء السهرة ، ولا يخفى عليك أننا - مـعشر الفنانين المسـاكين - مطالبون بالظهور فى المجتمعات بين وقت وآخر لنثبت للناس أننا لسنا قومـًا متوحشين ، وأنت القائل إن أى شخص يستطيع فى عصرنا أن يبـدو رجلاً متحضراً إذا كان يملك زى السهرة الأبيض ، حتى السمـسار يستطيع أن يفعل ذلك ، ولا أطيل عليك القـول ، فقد مـرت بى عشر دقـائق قضـيتهـا فى الصالون مـتنقلا بين سيـدات هرمات ضخـام مثقـلات بالملابس الفاخـرة ، متحـدثًا إلى فريق من

أعضاء الأكاديمية التافهين الثقلاء ، ثم تنبهت فجأة على فتى يطيل التأمل فيّ ، واستدرت قليلا فرأيت دوريان جراى ، رأيته للمرة الأولى ، وعندما تلاقت نظراتنا أحسست بالدم يغيض من وجهى ، وتملكنى فزع عجيب ، وأيقنت أنى أمام إنسان ذى شخصية ساحرة مدمرة ، فلو أنى تركت الأمور تجرى مجراها العادى لاستغرقت روحه روحى، ولأفنت نفسه نفسى، ولسيطر على فنى ومواهبى ، ولم أكن وقتئذ لأرضى بأى تأثير خارجى يتحكم فى حياتى ، وقد كنت دائمًا سيد نفسى ، وأنت تعرف نزعتى الاستقلالية يا هارى ، فعزمت على تجاهله ، ثم هتف بى هاتف لا أعرف مصدره يقول إن حياتى تجتاز أزمة هائلة ، وأحسست بأن القدر يخبئ لى أفراحًا لا حد لها وأتراحًا لا حد لها، فجزعت أشد الجزع وهممت بالانصراف جبنا وإشفاقًا لا بوازع من ضميرى ، فلا فضل لى فى ذلك .

- الجبن والضمير اسمان لمدلول واحد يا بازيل ، وكل ما هنالك أن الضمير هو الاسم الرسمى ، الماركة المسجلة على حد قولهم .

- أنا أخالفك فى هذا يا هارى ، ولا أخالك تعتقد فيما تقول ، ولعل الدافع كان الكبرياء ، فلقد كنت فيما مضى شديد الكبرياء ، ولكن أيًّا كان الدافع فقد رأيتنى أقتحم الباب ، وعند الباب اصطدمت طبعًا بالليدى براندون، فصاحت بى قائلة : « لن أسمح لك بالانصراف بهذه السرعة يا مستر هولوورد » وأنت بلا شك تعرف نبرتها الحادة الشاذة .

قال اللورد الشاب وهو يمزق زهرة اللؤلؤ بأنامله العصبية ورقة ورقة :

- نعم ، فهى تشبه الطاووس فى كل شىء سوى الجمال .

- وهكذا لم أستطع التخلص منها ، فقدمتنى إلى بعض أفراد الأسرة المالكة ، وإلى أشخاص زينت أكتافهم النجوم ، واختالوا تيهًا بوسام ربطة الساق ، وإلى سيدات عجائز على رؤوسهن تيجان عالية مدببات الأنوف لا يختلفن كثيرًا عن الببغاوات ، وسمعتها تتحدث إلى هؤلاء عنى كأنى صديق من أعز أصدقائها ، ورأيتها تمعن فى التعظيم من شأنى برغم أنى

لم أرَها قبل ذلك إلا مـرة واحدة ، ولعل السبب فى ذلك صـورة من صورى أصابت وقتئـذ نجاحًا عظيمًا ، وأطنبت فى تقريظها الصـحف اليومية ، وأنت تعلم أن الصـحف اليوميـة هى عند أهل القرن التـاسع عشـر سجل الخلود ، وفـجأة وجـدتنى مـرة أخرى أمـام الشـاب الذى اضطربت نفـسى لمرآه كل هذا الاضطراب ، واقترب كل منا من الآخر حتى كدنا أن نلتصق ، والتقت نظراتنا ثانية ، فلم يسعنى إلا أن أطلب إلى الليدى براندون أن تتولى تقديمنا ، ولو لم تفعل لتبـادلنا الحديث دون تعريف سابق ، ومن هذا ترى أن مـوقفى لم ينطو على الجرأة كما تصـورت أنا فى تلك اللحظة ، لأن الظروف ألزمتنى به إلزامًا ، وقـد قـال لى دوريان فيـما بعد إنه أحس إحسـاسى ، وزعم أن المقادير هى التى دبرت لنا هذا التعارف .

فسأله صاحبه قائلا :

- وماذا قالت الليدى براندون عن هذا الشاب العجيب ؟ إنها مولعة بذكر لمحة خاطفة عن ضيوفها كلمـا قدمت أحدهم إلى الآخر ، وأذكر أنها قدمتنى مـرة إلى نبيل من الـنبلاء أحـمر الـوجه نافـر الطبع غطت صـدره الأوسمـة والنياشين ، وبعـد أن قدمتنى إليـه همست فى أذنى بلهجـة مؤثرة تفصـيلات مدهشـة سمعهـا ولا شك كل من بالقاعة ، فآثرت الانسـحاب لأنى أحب أن أستكشف الناس بنفـسى ، ولكن الليدى براندون تعامل مـدعويها كمـا يعامل الخبير المثمن السلع المعروضة فى المزاد : فهى تارة تشرح لك كل ما يتعلق بهم حتى تزهد فيهم ، وتارة تذكر كل شىء إلا ما تهمك معرفته .

قال هولوورد بغير اهتمام :

- مسكينة الليدى براندون ، ما أقسى حكمك عليها يا هارى .

- يا صديقى العزيز ، إنهـا حاولت أن تنشىء صالونًا ففتـحت مطعمًا ، فمن أين يأتى إعجابى بها ؟ ولكن ماذا روت لك عن دوريان جراى ؟

- أشيـاء من قبيل : « يـا له من فتى ساحـر ! لقد كنا أنا وأمـه المكسينة متلازمين أبدًا ، ولست أذكر الآن ما عمله ، ولكنى أعتقد أنه بلا عمل ، نعم ،

لقد تذكرت أنه يتقن البيانو . . . أم تراه يتقن الكمان ؟ أهى الكمان مستر جراى ؟ » فلم نستطيع أن نكتم الضحك ، وفى الحال زالت الحواجز بيننا .

قال اللورد الشاب وهو يقطف زهرة أخرى من أزهار اللؤلؤ :

- ليس الضحك بداية سيئة للصداقة بحال من الأحوال ، وأعتقد أنه أحسن نهاية لها كذلك .

فهز هولوورد رأسه ثم قال :

- أنت لا تفهم معنى الصداقة يا هارى ، بل لا تفهم معنى العداوة كذلك ؛ أنت تستلطف كل الناس ، ومعنى ذلك لا تبالى بأحد .

فقال اللورد هنرى وقد دفع بقبعته إلى الوراء ، ونظر إلى السحب الخفيفة المتناثرة وهى تسبح فى سماء الصيف الفيروزية كالخيوط الحريرية المغزولة البيضاء :

- ما أظلمك يا بازيل ! نعم ، أنت تسرف فى ظلمى ، فأنا أفرق تمامًا بين أنواع الناس ، فأختار أصدقائى لجمالهم ، وزملائى لكرم أخلاقهم ، وأعدائى لذكائهم ، ولابد من الحذر الشديد فى اختيار الأعداء ، ولن تجد بين أعدائى عدواً غبيًا واحداً ، فهم جميعًا من أهل الذكاء ، لذا تراهم يقدرونى حق قدرى ، فهل هذا من مظاهر الغرور يا بازيل ؟

- بالتأكيد يا هارى ، ولكن إذا رجعت إلى تصنيفك للناس دخلت أنا فى قائمة الزملاء .

- أنت يا صديقى بازيل أقرب عندى كثيراً من مجرد زميل .

- وأبعد كثيراً من صديق ، أنا عندك فى مرتبة الأخ كما أعتقد .

- لا تذكرنى بالإخوة فأنا لا أحبهم إطلاقًا ، فأخى البكر لا يريد أن يموت ، وإخوتى الصغار أراهم دائمًا مشرفين على الموت .

فعبس هولوورد وزجره قائلا :

- لا تقل مثل هذا الكلام يا هارى !

- أنا لا أعنى ما أقـول بالحرف الواحد يا صديقى ، ولكنى أكـره أقاربى بالرغم منى ، ولعـل السبب فـى ذلك هو أن الإنســان يسوءه أن يرى غـيـره يشاركـه عيوبه ، وأنا أعطف مـن كل قلبى على الكره التى تبديه الديمقـراطية الإنجليزية لمـا تسميه مـساوئ الطبقة الراقية ، فعامـة الشعب تشعر بأن العربدة والغباوة والانحلال الخلقى امتيازات خاصة بها ، وإذا اتصف أحدنا بنقيصة من هذه النقائص بدا أنه اعتدى على اختصاصات تلك الطبقة، فعندما تقدم سذوك المسكين إلى محكمة الطلاق غضبت العامة غضبة كبرى ، ومع ذلك فأنا أعتقد أن أصحاب الأخلاق الفاضلة بين أبناء الشعب لا يتجاوزون عشرة فى المـائة .

- لست أصدق كلمة واحدة مما تقول ، ويخيل إلىّ يا هارى أنك لا تقول ما تعتقد .

فأخذ اللورد هنرى يداعب لحيته المدببـة السمراء ، ويضرب حذاءه الرقيق بعصاه الأبنوسية المحلاة بالأزرار ، ثم قال :

- يا لك من إنجليزى صمـيم ! فهذه هى المرة الثانية التى تبدى فـيها هذه الملاحظة ، وإن مجرد عرض فكرة من الأفكار على إنجليزى صميم لضرب من الحمـاقة ، اعـرض فكرة ما على إنجلـيزى صمـيم تجد أنه لا يحـاول أن يزن صدقها أو خطأها ، فكل ما يهمه منها هو مدى إيمان صاحب الفكرة بفكرته ، أما أنا فأرى أن جمال الفكرة لا صلة له بإخـلاص صاحبها ، والواقع أنه كلما قل إيمان الإنسان بفكرته كانت أقرب إلى الصحـة بوجه عام ؛ لأنها تتجرد فى هذه الحالة من ميوله الشخصيـة وأحكامه الموروثة وحاجاته فى الحياة ، ولكنى لا أرغب الآن فى أن أجادلك فى الشئون السياسية أو الاجتماعية أو الميتافيزيقية وإلا خسرت صداقتك ، والأشخـاص أفضل عندى من المبادئ ، والأشخاص الذين تجـردوا من المبادئ أفـضل عندى من كل شىء فى الحـياة ، ولنعـد إلى دوريان جراى ، هل يتردد عليك كثيراً ؟

- كل يوم ، ويشـقـينى أن يمر يوم دون أن أراه ، فـهـو ضـرورة من ضرورات حياتى .

- هذا غريب ، فقد حسبتك لا تهتم بشئ سوى فنك .

فأجاب الرسام بلهجة جادة :

- إن دوريان جراى قد أصبح كل فنى الآن ، ويخيل إلىّ أحيانًا ياهارى أن تاريخ العالم ليس فيه إلا عصران لهما بعض الأهمية : فالعصر الأول هو العصر الذى ظهرت فيه أداة جديدة للتعبير الفنى ، والعصر الثانى هو العصر الذى ظهرت فيه شخصية جديدة أصبحت موضوعًا للفن ؛ فاختراع الرسم بالزيت كان له من الأهمية عند البندقية ما كان لوجه أنتينوس فى الفن اليونانى القديم ، ودوريان جراى سيحدث فى فنى ثورة لا تقل خطراً عن هذين الانقلابين ، وما ذلك لأنى أصوره أو أرسمه أو أنقل على اللوحة خطوطه وقسماته ، فقد ألفت ريشتى ذلك ، ولكن لأنى لا أنظر إليه نظرى إلى نموذج فحسب ، ولست أقصد أنى غير مطمئن تمام الاطمئنان إلى الصور التى نقلتها عنه ، أو أن جماله يستعصى على الفن ، فالفن لا يستعصى عليه شىء ، وأنا أعرف أن إنتاجى قد تقدم منذ أن عرفت دوريان جراى ، بل دخل عليه إتقان لم يكن من خصائصى أولا ، ولست أدرى إن كنت تفهم معنى هذا الكلام أم لا ، ولكن شخصيته قد ألهمتنى أسلوبًا فى الفن جديداً لا أعلم كيف جاءنى ، فأصبحت أرى الأشياء وأفكر فيها بطريقة مختلفة عن طريقتى الأولى ، بل أصبحت أستطيع أن أصوغ الحياة كلها صوغًا جديداً على نسق لم آلفه من قبل ، أتذكر من القائل : « أيامى تأمل ، ولكنى أحلم بالجمال » ؟ لقد نسيت الآن ، ولكن هذا مقام دوريان جراى عندى ولقد جاوز العشرين ربيعًا ، ولكنه ما زال فى نظرى صبيًّا غض الإهاب ، ليتك تفهم معنى هذا الكلام يا هارى ! إن رؤية هذا الصبى حين يخطر أمامى تلهمنى دون وعى منى بأسس مذهب جديد ، وأحس بهذه الأسس إحساسًا واضحًا فتلهمنى بأسلوب جديد اجتمع فيه خيال المدرسة الرومانسية ، وسمو الروح اليونانى ، أسلوب يقوم على انسجام الروح والجسد ! فياله من حلم جميل ! ها نحن بحماقتنا قد

فصلنا الروح عن الجسد ، واستحدثنا منهما فنًا مثاليًا خاويًا من كل مغزى، وفنًا واقعيًا مبتذلا ، فياليتك تعرف موقع دوريان جراى عندى يا هارى ! أنت لا شك تذكر ذلك المنظر الطبيعى الذى رفضت أن أنزل عنه لأنيو برغم عروضه السخية ، فهو من أبدع ما رسمت ، أو تعرف لم ضننت به عليه ؟ لأن دوريان جراى كان يجلس إلى جوارى ساعة أن رسمته ، فطاف بى وحى منه لطيف خرج من شخصيته فغمرنى ، فكشفت للمرة الأولى فى حياتى عن ذلك السحر الذى كنت أنشده دون أن أدرك معناه ، وعبّرت عن كل ذلك فى اللوحة .

– يا للعجب ! لا بد أن أرى دوريان جراى يا بازيل .

ونهض هولوورد من المقعد ، وأخذ يسير فى الحديقة جيئة وذهوبًا ، وبعد برهة عاد إلى مكانه وقال :

– إن دوريان جراى عندى محض دافع يدفعنى إلى الخلق الفنى يا هارى ، فلن تر فيه شيئًا عجبًا ، أما أنا فأرى فيه كل شىء ، وإذا ما غاب عنى ظهر فى فنى أكثر منه وهو قريب ، فهو كما ذكرت لك ملهمى بأسلوب جديد ، وأنا أعثر عليه فى بعض الخطوط الدقيقة ، وأعثر عليه فى بعض الألوان الحلوة، هذا كل ما فى الأمر .

فسأله اللورد هنرى قائلا :

– إذا كان الأمر كذلك فلم تمتنع عن عرض صورته ؟

– لأنى وضعت فيها دون قصد منى ما يعبر عن هذه الوثنية الفنية الشاذة ، وهو لا يعرف عنها شيئًا بطبيعة الحال ، هو لا يعرف عنها شيئًا ولن يعرف عنها شيئًا ، ولكن الناس قد يفطنون إليها ، ولست أحب أن تقف روحى عارية أمام أنظار المتطفلين الأغبياء ، كلا يا هارى، لن أضع قلبى تحت أنظار السوقة ليقرأوا أسراره ، فلقد وضعت فى الصورة من نفسى أكثر مما ينبغى ، أجل يا هارى ، أكثر مما ينبغى .

- أرى الشعراء أقل منك وسوسة ، فهم يعـرفون فائدة العاطفة فى سوق النشر ، وفى عصرنا هذا نجد أن القلب الممزق يعاد طبعه مراراً وتكراراً .

فقال هولوورد :

- وهذا ما يثير حفيظتى على الـشعراء ، فواجب الفنان أن يصنع الأشياء الجميلة ، ولكن حرام عليـه أن يودع فيها شيئـًا من نفســه ، ففى هذا العصر ينظر الناس إلى الفن نظـرهم إلى المذكرات التى يدونهـا الكتـاب عن حيـاتهم الشخصية . نعم ، لقد فقدنا القدرة على فهم الجمال المجرد ، ولسوف أكشف للعالم يومًا ما عن سر هذا الجمـال المجرد ، ولهذا السبب عينه لن يرى العالم الصورة التى رسمتها لدوريان جراى مهما كلفنى ذلك .

- أعتقـد أنك مخطئ يا بازيل ، ولكنى لن أجادلك فى رأيـك ، فالجدل هويّة السفهاء . قل لى : أيحبك دوريان جراى ؟

ظل الرسام يفكر لحظات ثم أجاب :

- أجل يحـبنى . أعـرف أنه يحبنى ، والأمـر مـفهـوم لأننى أتملقـه ، وتتملكنى لذة عجيبة عندما أقول له أشياء أعرف أنى سأندم على قولها ، وهو فى العادة شـديد التلطف معى ، فنحن نقضى الوقت الطويل فى الاسـتديو ، ونتحدث فى ألف موضوع وموضوع ، ومن وقت إلى آخر ينتابه طيش بغيض فأراه يجـد متعـة حقـيقة فى الإسـاءة إلى ، وعندئذ أشعر يـا هارى بأنى قد أسلمت روحى إلى مخلوق ينظر إليه نظره إلى زهرة توضع فى عروة سترته ، ويرى فى فنـى مـجـرد حليـة ترضى غـروره ، أو زينـة تكمـل جـمال اليـوم الصائف الصبوح .

قال اللورد هنرى :

- إن أيـام الصيـف طويلـة ، وربمـا سئـمت مـنه قبـل أن يسـأم منـك ، ولا جدال فى أن العبقرية أطول أجلا من الجـمال ، وهذه أفظع مأساة فى حياتنا الإنسانية ؛ ولذا ترانا نتكالب على تثقيف أنفسنا ، وفى تنازعنا الوحشى للبقاء

نبحث عن ذخيرة باقـية ؛ ولذا ترانا نحشو أدمغتنا ، بالحـقائق والترهات على السواء كيلا نفقد أمكنتنا فى الحـياة ، وهى غاية سخيفة . إن المثل الأعلى فى عصرنا هو الرجـل الذى يعرف كل شىء ، وجمجمـة الرجل الذى يعرف كل شىء صندوق مزعج ، بل هى حانوت من حـوانيت العاديات اكتظ بالوحوش الأثـرية وأكداس التـراب ، ولن تجـد فيه سلعـة لـم يبـالـغ فى تقـدير ثمنها . ما زلت أظن يا بازيل أنك سـتسأم منه قبل أن يسـأم هو منك ، ولسوف يأتى يوم تنظر فيه إلى صاحبك هذا فتتبين أنه قد صار نموذجًا عتيقًا لا يصلح للرسم أو يضايقك توزيع الألوان فـيه ، أو أى شىء من هذا القبيل ، وعندئـذ تقسو فى حكمك عليه ، وتظلمه فى قـرارة نفسك ، وتحس إحساسًا عمـيقًا بأنه قد غـدر بك ، فتنطفئ حرارتك تمامًا وتصبح كـبركان خامد ، وهذا شىء يؤسف له ، لأنك ستتبدل من حال إلى حال . وإن القـصة العنيفة التى رويتها عليك لهى قصة الفن ، إن صح هذا التعبير ، وأفـظع ما فى الخيال أنك تستفيق منه على الحقيقة المرة .

- كفاك ما قلتـه يا هارى ، فلسوف تظل شخصية دوريـان جراى مسيطرة على ما دمت حيًا ، ولن يتاح لمثلك أن يقدر إحساسى لأنك متقلب الطبع .

- بل إن طبـعى المتـقلب هذا يـا صديـقى بازيل هو مـا يجـعلنى أقـدر إحساسك ، فـالمخلصون لا يعرفون من الحب إلا جـانبه التافه ، أمـا المتقلبون فيذوقون علقمة .

ثم أشعل اللورد هنرى عود ثقـاب بحكه فى علبة فضية جـميلة ، وأخذ يدخن سيجارة هادئ البال راضيًا عن نفســه وكأنه لخص فلسفة الحياة فى جملة واحدة . واحتك باللبلاب القاتم الخضرة سرب من الشحارير فسمع له حفيف ، وزقزقت العصافير ، وأنشأت ظلال الغـيوم يطارد أحدها الآخر فوق الحشائش كأنها تتسابق فى الحديقة . والحديـقة ! ما كان أجمل الحديقة ! كذلك بدت له عواطف الناس جميلة . أجمل. فتنته عواطف الناس أكثر مما فتنته أفكارهـم ،

وبحث عن سحر الحياة ومصدره ، فوجد أنه ينبثق من روح الإنسان ومن عواطف أحبائه . ثم أخذ اللورد هنرى يتخيل الغداء الممل الذى فاته فى بيت عمته ببقائه كل هذا الوقت مع بازيل هولوورد فاغتبطت نفسه ، فلو قد ذهب إلى بيت عمته لوجد عندها اللورد جودبودى لا محالة ، ولدار الحديث كله حول . الفقراء وإطعامهم ، وحول ضرورة البدء فى بناء البيوت النموذجية . أجل . لو أنه ذهب إلى بيت عمته لسمع الأغنياء يتحدثون فى مزايا الاقتصاد ، ولسمع الكسالى يتحدثون فى شرف العمل ببلاغة قصوى . فما أسعده بتجنب هذا الجو الخانق ! وفيما هو يفكر فى عمته جال برأسه خاطر فقال :

- لقد تذكرت الآن يا بازيل .

- وماذا تذكرت يا هارى ؟

- تذكرت المكان الذى سمعت فيه اسم دوريان جراى .

فعبس الرسام قليلاً وقال :

- وأين كان ذلك ؟

- لا تعبس يا بازيل كأن فى الأمر شراً . لقد سمعت اسم دوريان جراى فى بيت عمتى الليدى أجاثا ، وقد قالت لى عمتى إنها عثرت على شاب يساعدها فى أعمالها الخيرية التى تقوم بها فى حى الإيست إند ، واسم هذا الشاب دوريان جراى ، ويجدر بى أن أقول إنها لم تتحدث قط عن جمال هذا الفتى ، وهذا طبيعى ، فالنساء لا يتذوقن الجمال ، أو على الأقل الصالحات منهن لا يتذوقنه ، وقد وصفته لى بأنه شاب جاد خَيِّر النفس ، فتخيلته رجلاً يلبس نظارة خفيف الشعر ضخم القدمين شوهت وجهه آثار الجدرى . فليتنى كنت أعرف أنه صديقك الملهم هذا .

- لو أنك عرفت لساءنى ذلك يا هارى .

- ما السبب ؟

- لأنى لا أحب أن تلتقى به !

- أنت لا تحب أن ألتقى به ؟

- نعم .

وخرج كبير الخدم إلى الحديقة وقال :

- إن مستر دوريان جراى فى الاستديو يا سيدى .

فضحك اللورد هنرى وقال :

- لا بد أن تقدمنى إليه الآن يا بازيل .

والتفت الرسام إلى الخادم فرأى عينيه تختلجان فى ضوء الشمس . قال :

- سل مستر جراى أن ينتظرنى يا باركر ، فلن أتأخر طويلا .

فانحنى الرجل وانصرف ، ثم نظر الرسام إلى اللورد هنرى وقال :

- اسمع يا هارى . إن دوريان جراى أعز صديق لى ، وهو ساذج النفس مطبوع على الخير ، وقد أصابت عمتك تمامًا فيما قالته عنه ، فلا تفسده ولا تحاول أن تؤثر فيه ، فتأثيرك فى الناس سيئ . إن العالم أمامك رحيب وبه آلاف من الناس يستحقون اهتمامك ، فلا تحرمنى من هذا الصديق الواحد الذى أستوحى منه فنى ، واعلم أن مستقبلى كفنان متوقف عليه دون سواه ، فتذكر يا هارى أنى أثق بك .

وكان هولوورد يتكلم مكرهًا وببطء شديد كأن كل كلمة تخرج من فمه تعصر فؤاده عصراً ، فاحتج اللورد هنرى على كلامه وهو يبتسم ، وتأبط ذراعه وسعى به إلى البيت كأنه يجره جراً .

الفصل الثانى

رأى الرجلان دوريان جـراى حين دخلا الاستـديو ، وكان جـالسـًا أمام البيـانو يقلب صحـائف كراسة من « منـاظر الغابة » للموسـيقى شـومان فلم يشاهـدا وجهه . قال :

– ما أجـمل هذه الصـحائف يا بازيل ؟ أحب أن أدرس هذه الكـراسة ، فهل تعيرنى إياها ؟

– نعم يا دوريان ، سأعيرك إياها إذا أحـسنت الجلوس أمامى فلم تتحرك كثيرًا أثناء قيامى برسمك .

فدار الفتى على مقعد البيانو وأجابه متحديًا :

– لقد سئمت الجلوس ، وما أنا براغب فى صورة بالحجم الطبيعى .

ثم وقع بصـره على اللورد هنرى فـارتبك قليلا وأحـمرت وجنتـاه لحظة ونهض قائلاً :

– عفوًا يا بازيل فقد كنت أظننا على انفراد .

– هذا يا دوريان هو الـلورد هنرى وتون ، صـديقى منذ أيـام الطلب فى أكسفـورد ، وقد كنت منذ دقيقـة واحدة أصفك له بأنك خيـر من جلس أمام رسام ، وها أنت ذا قد أفسدت كل شىء .

فتقدم اللورد هنرى إلى الشاب باسطًا يده وقال :

– بل لا زلت سعيدًا بلقائك يا مستـر جراى . إن عمتى تحدثنى عنك كثيرًا ، فأنت أحد أصفيائها ، بل أخشى أن أقول إنك أحد ضحاياها كذلك .

وبدا على وجه دوريان جراى أسف ليس من طبعه ، وأجاب قائلا :

- أنا فى قائمتها السوداء فى الوقت الحاضر ، فقد وعدت عمتك الليدى أجاثا بأن أخرج معها إلى نـاد بحى هوايت تشايل ، ولكنى نسيت تمامًا ، وقد كان الغرض من هذه الرحلة أن نشترك فى عـزف بعض المقطوعات الموسيقية ، أما وقد أخلفت وعدى فلن أجد الشجاعة لزيارتها بعد الآن .

- سأصلح أنا بينكمـا ، ولن أجد صعوبة فى ذلك ، فـهى تحبك حبّـا جمّا ، ولست أظن أن تخلفك قد أفسد شيئًا ، فعمتى أجاثا حين تعزف على البيانو تحدث ضجة كبرى ، ولا يبعد أن سامعيها حسبوا أن هناك عازفين لا عازفًا واحداً .

فقال دوريان ضاحكًا :

- هذه قسوة عليها وإهانة لى .

ونظر اللورد إليه مليّا. نعم. لا شك أنه آية فى الجمال ، فشفتاه الحمروان من خلق فنان دقيق ، وعيناه الزرقـاوان الصافيتان وشعـره الذهبى المتموج من خلق فنان سخى ، وقـد اجتمع له من صراحـة الشباب منتهـاها ومن طهارته أصفاها ومن حرارته أقواها ، فلا عـجب أن مرآه كان يوحى بالثقة فى القلوب لحظة أن تقع عليه العـيون ، كأنه مـخلوق نقى صان نفســه عن دنس الدنيا . وزال عجب اللورد هنرى من تفانى بازيل هولوورد فى الولاء له . وأخيراً قال :

- إنما يهتم بأمور الإحـسان الثقـلاء ، وأنت يا مستر جراى شاب لطيف ، بل أنت مثال اللطف .

وبعد أن فرغ من كلمـاته ارتمى على الأريكة وأخرج سيجـارة من علبته . أما الرسام فقد كان مشتغلا بخلط ألوانه وإعداد أدواته ، وكان القلق يبدو عليه ، فلما أن سمع عبارة اللورد هنرى الأخيرة التفت إليه وقال بعد تردد قليل :

- لا بد أن أفرغ الـيوم مـن رسم هـذه الصـورة يـا هـارى ، وأرجـو ألا تحسبنى فظّـا إذا طلبت إليك أن تتركنا .

فابتسم اللورد هنرى ورمق دوريان جراى بنظرة ذات مغزى وقال :

- أأنصرف يا مستر جراى ؟

- بل أرجو أن تبقى معنا ، فبـازيل اليوم منقبض النفس ، وأنا لا أحتمله حين يكون منقبض النفس ، وفضلا عن ذلك فـأنا أحب أن تشرح لى ما قلته من أن الاهتمام بالأعمال الخيرية لا يناسبنى .

- لا أظن أنى سأحدثك عن الجمعيات الخيرية ، فهو موضوع جدى ممل ، ولكنى مع ذلك سأبقى معكما مـا دمت قد طلبت منى ذلك ، وأرجو يا بازيل ألا يكون فى بقائى مضـايقة كبيرة لك ، ألم تـقل مراراً إنك تحب أن يجد من ترسمهم جليساً يدفع عنهم الملل ؟

فعض هولوورد شفتيه وأجاب قائلا :

- إذا كان دوريان يحب أن تبقى معنا فلن يسعك إلا البقاء بطبيعة الحال، فرغبات دوريان أوامر لا تعصى عند جميع الناس ما خلا نفسه .

ولكن اللورد هنرى تناول قبعته وقفازه وقال :

- اشكرك على إلحـاحك علىّ فى البـقاء يـا بازيل ، ولكن لا بد لى من الانصراف ، فأنا على موعد فى نادى أوليانز . الوداع يا مستر جراى ، واعلم أنه يسرنى أن تزورنى فى شارع كيرزون فى عـصر يوم من الأيام ، فأنا موجود دائماً فى بيتى حول الساعة الخـامسة إلا فى الأحوال النادرة . اكتب لى بموعد زيارتك ، وتذكر أنى سأحزن كثيراً إن لم أرك ثانية .

فصاح دوريان جراى قائلا :

- اصغ إلى يا بازيل ، إذا انصـرف اللورد هنرى انصـرفت أنا كـذلك ، فأنت لا تنطق بكلمة حين ترسم ، ولقد مللت الوقوف أمامك كل يوم متكلفاً الابتسام .

قال هولوورد وهو يرنو إلى الصورة فى تفحص :

- أرجو أن تبقى يا هارى لترضى دوريان ولترضينى . إن ما قاله دوريان صحيح ، فأنا لا أنطق بكلمة أثناء العمل ولا أستمع لكلام الغير ، ولا بد أن ذلك يضايق من أرسمهم أشد المضايقة . هلا رجوتك أن تبقى ؟

- وهل أخلف ميعادى فى نادى أوليانز ؟

ضحك الرسام وأجاب :

- هذه مسألة سهلة . عد إلى مكانك يا هارى ، وأنت يا دوريان خذ مكانك على القاعدة ولا تصغ كثيراً إلى كلام اللورد هنرى، فإن له تأثيراً خبيثًا فى جميع أصدقائه لم ينج منه إلا أنا .

وسار دوريان جراى إلى القاعدة كأنه شهيد يسير إلى حتفه ، وأخذ مكانه عليها ، وزمجر امتعاضًا كأنه يشكو أمره إلى اللورد هنرى الذى راق فى نظره، ورأى دوريان أن اللورد هنرى وبازيل طرفا نقيض . كم كان صوت اللورد هنرى حلواً . وبعد لحظات كان دوريان جراى يسأل اللورد هنرى قائلا :

- هل صحيح ما يقوله بازيل عنك يا لورد هنرى من أن لك تأثيراً خبيثًا فى الناس ؟

- التأثير الصالح لا وجود له يا مستر جراى ، فكل تأثير يتنافى مع الأخلاق ، أعنى إذا أردت أن تحكم حكمًا عمليًا .

- لست أفهم .

- إن تأثيرك فى شخص ما معناه أنك تسبغ روحك عليه ، مما يملأ رأسه بأفكار ليست افكاره ، ويملأ قلبه بعواطف ليست فى طبعه ، ويجعل من رذائله رذائل مستعارة من الغير ، وبذلك يصبح صدرى يردد ترنيمة رجل آخر ، أو ممثلاً يلعب دوراً لم يكتب له . إن غاية الحياة تقدم الذات ، وما خلق كل منا إلا لينمى ملكاته ، ويصون طبيعته على الوجه الأكمل ، ولكن الناس فى هذه الأيام يخافون من أنفسهم ، وينسون أن واجب الإنسان

الأول هو واجبه نحو نفسه ، فتراهم يطعمون الجياع ويكسون العراة وأرواحهم جائعة عارية . ولا بد من أحد أمرين ، فإما أن شعبنا قد فقد شجاعته، أو أن الشجاعة لم تكن من صفاته في يوم من الأيام ،فنحن عبيد الخوف : الخوف من المجتمع وهو جوهر الأخلاق ، والخوف من الله وهو جوهر الدين . ومع ذلك . . .

كان الرسام مستغرقًا فى عمله فلم يتتبع الحديث ، ولكنه لاحظ أن وجه دوريان جراى يسطع ببريق جديد لم يره من قبل . قال :

- أدر رأسك قليلاً يا دوريان .

قال اللور هنرى مستأنفًا حديثه بصوت خافت رخيم وهو يعبر عن قصده بيده كعادته منذ أن كان تلميذاً فى كلية إيتون :

- ومع ذلك ،فاعتقادى أن الأيام لو قيضت لنا رجلاً واحداً يحيا حياته كاملة ، فيصور كل إحساس يجيش فى نفسه ، ويعبر عن كل فكرة تمر بخلده ، ويحقق كل حلم يداعب خياله ، لعادت البهجة إلى الحياة مرة أخرى ، وانتشلتنا هذه الصراحة من كابوس القرون الوسطى الذى لا نزال نشقى به . أجل . لو قيضت لنا الأيام مثل هذا الرجل لعدنا إلى المثل الأعلى فى حضارة اليونان ، حضارة هيلاس ، بل لتجاوزنا اليونان وحضارتهم الخصبة الجميلة ، ولكن أشجع رجل بيننا يرتعد أمام نفسه فرقًا .

إن إنكار الذات الذى يفسد علينا الحياة لهو بقية أليمة من تراث الهمجية الأولى حين كان رجل الغاب يمزق جسده بيده ، وها نحن ندفع ثمن زهدنا فى الحياة ، فكل نازع نكبته فى نفوسنا يجثم فى أفئدتنا ، ويسمم فينا ينابيع الحياة . إن الجسد يخطئ مرة واحدة ثم تغسل عنه خطيئته ، لأن التجربة تطهره ، ولا يبقى بعدها إلا لذة الذكرى ، أو غصة الندم الجميل ، ولا نجاة من الغواية إلا بالاستسلام لها ، فإن قاومت الغواية ذبلت روحك من شوقها إلى المحظور ، وما حظر المحظور إلا رياؤها ، وبكت نهمًا إلى الحرام ،

وما حرم الحرام إلا يأسها وإشفاقها ، فيقولون إن الأحداث الكبرى تبدأ فى عقل الإنسان ، وأنا أقول إن الجرائم الكبرى تبدأ فى عقل الإنسان كذلك ، بل تبدأ فى الإنسان لا سواه ، وحتى أنت يا مستر جراى ، بشبابك المتفتح كالوردة الحمراء ، وطفولتك النقية كالوردة البيضاء ، حتى أنت يا مستر جراى قد جمحت بك شهوات ارتعد أمامها ضميرك ، وعصفت بك خواطر ملأت قلبك رعبًا ، وعرفت فى يقظتك ومنامك أحلامًا كلما ذكرتها ضرج الخجل خديك بالدماء .

فقاطعه دوريان جراى فى لعثمة قائلاً :

- كفى ! كفى ! لقد بلبلت أفكارى . أعتقد أن هناك ردًا على كل ما تقول ، ولكنى عاجز عن إيجاده . الزم الصمت ودعنى أفكر .

وظل ما يقرب من عشر دقائق ثابتًا فى مكانه فاغر الفم يلمع فى عينيه ضوء غريب ، وكان يحس إحساسًا مبهمًا بأنه يدخل تحت تأثير ما ، ولكنه أحس كذلك بأن النفوذ الجديد الذى يسيطر عليه لم يأته من الخارج ، وإنما خرج من أعماق نفسه ، فلقد هزت الكلمات القليلة التى قالها صديق بازيل وترًا خفيًا فى فؤاده لم يهتز من قبل لشىء ، وأيقظت فيه أعجب المشاعر ، ولا شكل فى أن اللورد هنرى تعمد بعض الشىء أن يحير دوريان ، ولكن كلماته جاءت عرضًا وبغير تحضير سابق .

ولم تكن هذه المشاعر جديدة على دوريان جراى ، فقد كانت الموسيقى توقظ مثلها فيه ، ولكم ملأته بالقلق والحيرة ، ولكن الموسيقى خرساء لا تفصح ، وهى لا تخلق فى نفوسنا عالمًا جديدًا مرتبًا متماسك الأجزاء، بل تخلق فيها عالمًا من الفوضى ، أما الألفاظ فسلطانها عظيم وتصويرها دقيق وتعبيرها قاس ، ومن رام الفرار منها لاحقته أينما ذهب ، ولكنها برغم ذلك كله ذات سحر لطيف ، ولها من النغم العذب ما للعود وللكمان ، وهى تحبس كل شارد من العواطف فى إطار من حديد . فيالنا من الألفاظ ! ليس أصدق من الألفاظ تعبيرًا عن الحقيقة .

كم من أشياء مرت بدوريان جراى وعجز عن فهمها أيام صباه ، ولكن ها هو يفهمها الآن . وهذه الحياة تصطبغ فجأة أمام ناظريه بالألوان النارية العنيفة ، وخيل إليه أنه يمشى بين ألسنة اللهب دون أن يكتوى بنارها ، ويا ليته اكتوى . أما اللورد هنرى فقد كان يتأمله وعلى شفتيه ابتسامة ذات مغزى ، وكان يعرف متى يتوقف عن الكلام ويستعين ببلاغة الصمت ، ثم ثار فضوله وعجب لما رآه من تأثير فجائى لكلماته ، وتذكر ذلك الكتاب الذى قرأه وهو فى السادسة عشرة من عمره ، وتعلم منه ما لم يعلم من أسرار الحياة ، فجال بباله أن دوريان جراى يمر الآن فى تلك التجربة ذاتها ، ولم يكن ما قاله اللورد هنرى إلا سهمًا انطلق بغير تصويب ، فهل أصاب السهم الهدف ؟ يا له من هدف جذاب !

ولم يتنبه هولوورد إلى السكون الذى خيم على الحجرة ، فقد كان مشتغلا بالرسم يلون الصورة بألوانه الجريئة التى تضفى على عمله رقة وأناقة هما فى الواقع مظهر من مظاهر القوة ، فى الفن على الأقل . قال دوريان جراى :

- لقد أتعبنى طول الوقوف يا بازيل ، والهواء هنا يخنق أنفاسى ، فلا بد أن أخرج إلى الحديقة لأرتاح قليلاً .

فأجاب الرسام :

- عفواً يا صديقى ، فقد أنسانى الرسم كل شىء . إن وقفتك اليوم يا دوريان أجمل من وقفتك فى أى يوم مضى ، فلم تبد منك أدنى حركة ، كذلك أمكننى أن أنقل التعبير الذى كنت أطلبه ، أقصد ذلك البريق فى عينيك ، وذلك الانفراج الخفيف فى شفتيك ،ولست أعرف بم حدثك هارى ، ولكن حديثه بلا جدال قد أكسب محياك تعبيراً لا نظير له . أكان يطريك طيلة هذا الوقت ؟ مهما يكن من شىء فلا تصدق كلمة واحدة مما يقول فهو يلقى الكلام جزافًا .

قال دوريان :

- كلا . لم أسمع منه كلمة إطراء واحدة ، ولذا تجدنى أميل إلى الشك فى كل ما قاله .

قال اللورد هنرى معترضًا ، وهو ينظر إليه بعينيه الناعستين الحالمتين :

- بل أنت تؤمن بصدق ما أقول ، وأنت تعلم ذلك . إن الحرارة هنا خانقة فلنخرج معًا إلى الحديقة . آتنا شرابًا مثلجًا به شىء من الشليك يا بازيل .

- بالتأكيد يا هارى . أمامك الجرس فاطلب خادمى پاركر ومره بما تشاء ، أما أنا فباق هنا لأتم هذه الصورة ، وأرجو ألا تعطل دوريان فى الحديقة طويلاً إذ لابد لى منه ثانية ، فأنا أحس برغبته فى العمل لم أحس بها من قبل . يا لها من صورة رائعة ، فما أسعدنى بها ! لسوف تكون أبدع ما رسمت حين تتم ، بل لا أغالى إن قلت إنها أبدع ما رسمت فى وضعها الحالى .

وخرج اللورد هنرى إلى الحديقة فوجد دوريان جراى يدفن وجهه بين أزهار الليلج المنعشة يستاف عبيرها كأنه نبيذ كريم ، ودنا منه ثم وضع يده على كتفه وقال فى صوت خافت :

- ها قد عرفت طريقك إلى الخلاص يا دوريان ، فما يطهر الروح إلا الحواس ، وما يطهر الحواس إلا الروح .

فجفل الفتى وارتد قليلاً ، وكان عارى الرأس فعبث أوراق الشجر بشعره المتموج ، وتشابكت خيوطه الذهبية ، وبدا فى عينيه ارتياع عظيم كأنه نائم أوقظ فجأة من منامه ، وارتجف أنفه الدقيق ، ونبض فى شفتيه القرمزيتين عصب دفين فتركهما ترتعشان بلا انقطاع . واستأنف اللورد هنرى حديثه قائلاً :

- نعم يا مستر جراى ، هذا سر من أسرار الحياة ، بل سر من أسرارها الكبرى ، أعنى شفاء النفس عن طريق الحواس ، وشفاء الحواس عن طريق النفس ، وأنت نموذج من نماذج الخلق رائع ، وشوقك إلى معرفة الحياة أكبر من معرفتك بها ، ولكن معرفتك بالحياة أكبر مما تظن .

فأظلم وجـه دوريان جراى ، وأشاح برأسه عـن اللورد هنرى ، فلقد بدأ على الرغم منه يتـعلق بهذا الرجل المديد القـامة الرشـيق التكوين الواقف إلى جواره ، وأثار اهتـمامه محـياه الأسمر الحـالم وملامحـه المتعبة ، أمـا صوته الخفيض الكسلان فقد كان يسحر الحجر ، ويداه الناصعتان الناعمتان كان لهما سحر زهرة غـريبة ، وكانتا تتحـركان بلا انقطاع كلما تكلم حركة تشـبه إيقاع لحن رتيب ، فيكاد سامعـه أن يفهم ما تقولان ، ولكن دوريان برغم ذلك كله خامره الخوف منه ، وإن أخجله أن يخاف ، وكيف لا يخاف من هذا الغريب الذى يقرأ عليه صفحة نفسه كأنها كـتاب مفتوح ، ويهتك أمامه ما خفى عليه من أسـرارهـا . لقـد عاشـر دوريـان جـراى بازيل هولوورد. فلم يسمع منه إلا كلمات الإطراء ، ثم دخل فى حياته فجأة رجل وصف له الحياة ففك له لغزها . ولكن مم يخاف ؟ لو أنه كان صبيًا غـريرًا أو بنتًا قليلة الحيلة لجاز له أن يخاف ، أما وهو ليس بهذا ولا تلك فلا مبرر لخوفه على الإطلاق . قال اللورد هنرى :

- هيا بنا إلى الظل نجلس فيه . هذا باركر قد أتانا بالشراب ، ولو مكثت فى هـذا الجـو المحرق طـويلا لأتلفتك الشمـس ، ولم يعد بازيل يجد فيك ما يستحق الرسم ، فحذرا من الشمس يا مستر جراى ، فالسمرة لا تناسبك .

فأجاب دوريان ضاحكًا وهو يجلس على مقعد فى طرف الحديقة :

- وما أهمية ذلك .

- بل أهميته جوهرية بالنسبة لك .

- وكيف ذلك ؟

- لأن شبابك لا نظير له ، والشباب هو كل مـا يستحق أن نتمناه لأنفسنا فى الحياة .

- ولكنى لا أحس بشبابى يالورد هنرى .

- هذا طبيعى ، وأنت لا تحس بشبابك لأنك تملكه ، ولن تحس به إلا إذا فقدته ، ولسوف تفتقده يوم يضيع منك . ستفقده حين يزول جمالك ويمتلئ وجهك بالغضون . ستفقده حين يحفر الهم أخاديده فى جبينك الجاف ، ويكوى الأسى بنيرانه شفتيك . أنت تفتن الدنيا أينما ذهبت الآن ، فهل يدوم لك ذلك ؟ ما رأيت وجهًا قط فى جمال وجهك يا مستر جراى ، ولا تعبس؛ فهذه حقيقة مقررة ، والجمال لون من ألوان النبوغ ، بل الجمال أعلى قدراً من النبوغ ، وهذه أيضًا حقيقة مقررة ، فإن كنت تشك فى ضوء الشمس أو فى الربيع أو فى القمر الفضى حين ينعكس خياله على المياه المظلمة أو فى أشباه هذه الحقائق الأولية ، فلك أن تشك فى صدق ما أقول . إن الجمال يحكم العالم بإذن من الله ، ولا ينازعه فى دولته شىء فى الوجود ، فمَن حبته الطبيعة به جلس على عرش القلوب . أراك تبتسم لهذا الكلام ، ولكنك لن تبتسم حين يزول عنك جمالك ، أسمع الناس يقولون إن الجمال سطحى ، ولعلهم صادقون فيما ذهبوا إليه ، ولكن الجمال مهما كان سطحيًا فلن تصل تفاهته إلى تفاهة الفكر ، ولو سألتنى الرأى لقلت لك إن الجمال عجيبة العجائب ، ولقد يكون الجمال قشرة ظاهرية ، ولكن الظواهر هى كل شىء فى الحياة ، ومن لا يحكمون بالظواهر هم السطحيون الذين لا يفهمون شيئًا عن لغز الحياة ، فلغز الحياة هو ما نراه ، وليس ما لا نراه . نعم يا مستر جراى ، إن الآلهة تحبك ، ولكن لا تنس أن الآلهة تسترد ما تمنح ، ولم يبق أمامك إلا سنوات معدودات تستطيع فيها أن تحيا حياتك على أكمل وجه ، فحين يذوى شبابك يذوى معه جمالك ، ولسوف تجد يومئذ أن أيام مجدك قد مضت ، وتفهم معنى الهزيمة ، أو تقتنع من كل هذا السلطان العريض بذكرى مجدك الزائل ، وهذا أشد مرارة من الهزيمة . إن كل شهر يفوت يقترب بك من هذا المصير الأليم ، فالزمن ينفس عليك شبابك ويغار من وردك ورياحينك ، وحين يصرعك الزمن يشحب لونك ويتكهف خداك وينطفىء البريق الذى يلمع الآن فى عينيك ، وتتعلم كيف يكون الشقاء ، فانعم بشبابك ما بقى لك.

أيامك ذهبية ، فلا تبعثر ذهب أيامك مستمعًا إلى نصائح الوعاظ الثقلاء أو آخذاً بيد العاثرين أو مكرسًا حياتك للجهال والسفهاء ، فهذه أهداف عصرنا وهو مريض ، وهذه مثله العليا وهى زائفة . عش وانعم بالحياة المتفتحة فيك، واستفد من كل اختبار يمر بك ، وجدد إحساسك بالحياة ولا تخش شيئًا ؛ فعصرنا بحاجة إلى دين جديد ، إلى وثنية جديدة ، إلى إحياء عبادة الجمال التى انطوت تحت أنقاض اليونان ، ولتكن أنت رمز هذه الفلسفة الجديدة ، فالدنيا وما عليها طوع بنانك حتى ينطوى ربيعك الناضر . لقد أدركت لأول وهلة حين لقيتك أنك تجهل حقيقة نفسك ، وتجهل ما ينتظرك من أفراح ، وها أنا أُفَصِّلُ لك أمرك ؛ لأن قوة خفية فيك جذبتنى إليك فأشفقت أن يضيع منك كل هذا الشباب المكنوز ، وهو خليق بأن يضيع . إن الأزهار الساذجة النامية على البطاح تذيل مع الخريف ، ولكنها تتجدد فى مقدم الربيع ، وهذه الشجرة الصفراء التى تتوهج الآن أمام عينيك سوف تسترد ما عليها من نضار فى مثل هذه الأيام من العام القادم ، ولسوف تكسو النجوم الحمراء أدواح الداليا بعد شهر واحد ، وتلمع تلك النجوم فى ليل أوراقها الخضراء سنة بعد أخرى ، أما نحن فشبابنا المهراق لا يعود ، وأشواقنا تخبو وأفراحنا تفتر بعد أن كانت تهزنا هز الأعاصير فى سن العشرين ، كذلك تهن أبداننا وتنطفئ حواسنا وتؤول إلى دمى كريهة لا نفع فيها ، دمى تحن إلى ما فات ، وقد كانت ترتعب فى القديم من نداء السعادة ، وتتأوه على الغوايات الحلوة ، وقد كانت لا تجرؤ على إطاعتها أيام الشباب ، فحىّ الشباب ؛ إنه كل ما فى الدنيا من صور النعيم .

وكان دوريان جراى يستمع إليه عاجبًا ، فسقطت من يده باقة الليلج على الأرض المرصوفة بالأحجار الصغيرة ، واندفعت نحوها نحلة طنت قليلا ثم بدأت تدب فى الليلج الملفوف ، وطفق يتأمل هذه الظاهرة التافهة باهتمام عظيم كما نفعل عادة حين نضطرب لأمر جلل ، أو حين تهزنا عاطفة جديدة

لا نستطيع التعبير عنهـا ، أو حين تلح علينا فكرة رهيبة وتأبى إلا أن نخضع لها ، ثم طارت عن الليلج النحلة ، وشـاهدها دوريان جراى تقتحم زهرة وتختـفى فى أعماقها ، ورأى الزهرة ترتجف ، ثم تتأرجح ذات اليمين وذات اليسار .

وظهر الرسـام فجـأة بباب الاسـتديو ، وأشار لهـما بالعـودة ، فتـبادلا النظرات وابتسما ، وسمعاه يقول :

- أنا فى الانتظار ، والضوء الآن جميل ، فـعودا وتناولا شرابكما هنا .

فنهض الرجـلان وسـارا متكـاسلين فى ممشى الحـديقة ، وطارت بـجوارهمـا فراشتان إحداهمـا بيضاء والأخرى خضراء ، وسمعا عصـفوراً يغرد فى شجرة الكمثرى عند طرف الحديقة ، وقال اللورد هنرى :

- أسعيد أنت بلقائى يا مستر جراى ؟

- نعم ، أنا الآن سعيد بلقائك ، ولكن هل سأظل هكذا دائمًا ؟

- لا تقل « دائمًا » يا مستر جراى ، فكلمة « دائمًا » كلمة فظيعة تجعلنى أرتجف فرقًـا ، والنساء مولعات بهـا إلى حد كبيـر ، فهن يفسدن كل عـلاقة جميلة برغبتهن فى أن تدوم هذه الـعلاقة إلى الأبد . إن كلمة « دائما » كلمة لا معنى لهـا ، والفرق الوحـيد بين النزوة العارضـة والعاطفـة الدائمة هو أن النزوة العارضة أطول عمراً من العاطفة الدائمة .

وفيمـا هما يدخلان الاستديو أمـسك دوريان جراى بذراع اللورد هنرى ، وقال فى شجاعة أخجلته :

- إذا كان الأمر كذلك فلتكن صداقتنا نزوة عارضة لا عاطفة دائمة .

ثم أخذ مكانه من جديد أمام الرسام .

وارتمى اللورد هنرى على مقـعد كبيـر ، وأنشأ يتأمله عن كـثب . وخيم على المكان صمت طويل ، فمـا كان يسمع إلا حفيف الفـرشة على اللوحة ، وبين وقت وآخر كانت تسمع خطوات هولوورد وهو يتراجع ليمتحن عمله من بعيد . وفى راووق الضـوء المتدفق خلال الباب المفتوح سـبحت ذرات التراب وبدت كدقائق التبر ، وتأرج كل شىء بعطر الورود .

وتوقف الرسام عن العمل ربع ساعة أو يزيد ، وأدمن النظر طويلاً إلى دوريان جراى ثم إلى الصورة ، وهو يعض فرشته الضخمة فى تجهم واضح ، وأخيراً صاح قائلاً :

- لقد اكتملت الصورة .

وانحنى كثيراً ، وكتب اسمه فى ركنها الأيسر بحروف كبيرة حمراء ، ودنا اللورد هنرى من الصورة ليمتحنها بنفسه ، فوجدها آية من آيات الفن لا تبارى ، ووجدها نسخة تطابق صاحبها تماماً . قال :

- أهنئك يا بازيل من صميم قلبى ، فهذه أجمل صورة رسمت فى العصر الحديث . تعال يا مستر جراى لترى نفسك .

كان الفتى مسترسلا فى أحلامه فأفاق منها ، ونزل من القاعدة وقال فى صوت خافت :

- هل انتهت الصورة حقًا ؟

فأجاب الرسام :

- نعم . انتهت تماماً ، فشكراً على حسن وقوفك اليوم .

قال اللورد هنرى :

- الشكر لى يا بازيل ، فلولاى لما أحسن الوقوف . أليس كذلك يا مستر جراى ؟

لم يجب دوريان ، بل مر أمام صورته بغير اكتراث ثم التفت إليها، فلما وقع بصره عليها رجع خطوة إلى الوراء واشتعل خداه لحظة من فرط السرور ، وفاضت عيناه بالبشر كأنه يقف على حقيقة جماله للمرة الأولى ، وثبت فى مكانه كالمسحور لا يعى شيئًا مما يدور حوله ، اللهم إلا صوت هولوورد فقد جاءه كاللغط المطموس . لقد أشرق عليه وجهه الصبوح فبدهه جماله كأنه وحى عظيم ، وكانت تلك أول مرة يخالجه فيها هذا الإحساس ، فقد كان من قبل

لا يقيم وزنًا لـكلام بازيل هولوورد ، ويحسب إطراء إياه مـجاملة لطيـفة من مجاملات الأصدقاء ، وتذكر دوريان جراى إطراء بازيل هولوورد . كم أصغى إليه،وكم ضحك منه،وكم نسيـه ! إن إطراء بازيل هولوورد لم يترك فى نفسه أى أثر ، والآن أقبل اللورد هنرى وتون ورنم أمامه ترنيـمة الشباب وحذره من الزمن الغدار الذى ينسخ الشبـاب ، فاهتز فؤاده لكلماته . وفيـما كان دوريان جراى يتـأمل نضارته تملأ اللوحة ، فَهِمَ مـغزى تلك الكلمات ، واقـتنع بأنها تعبر عن الواقع الملوس، فلسوف يأتى يوم يتشقق فيه وجهه ، وتنطفىء عيناه، ويغدو قده المياس عـودًا يابسًا ، ويهرب القرمز من شفتـيه والذهب من شعره الجميل ، وتمسخ الحياة جسده ، وقـد كان خليقًا بها أن تجدد روحه . أجل . لسوف يصير إلى مخلوق شائه كريه . .

وحين خطر له هذا الخـاطر أحس بالألم يمزق أوصاله كـأنه طعن المدى ، وارتجف كل عصب فى بنيانه ، وازرقت مـقلتاه ، وترقرقت فيهـما الدموع ، وخيل إليـه أن يدًا من جليد تمـس قلبه الدافىء . أمـا الرسام فلم يفـهم لهذا الصمت مـعنى ، وأنى له أن يعرف مـا كان يدور برأس الفـتى من هواجس، فقال حزينًا :

- ألا تعجبك الصورة ؟

فقال اللورد هنرى :

- وكيف لا تعجـبه ؟ بل كيف لا تعجب العالم كـله ؟ إنها آية من أفخم آيات هـذا الجيـل يا بازيـل ، ولا بـد أن أشـتريهـا . اطلب أى ثمـن يروقـك فهو لك .

- إنها ليست ملكًا لى يا هارى ؟

- من صاحبها إذًا ؟

- دوريان جراى بطبيعة الحال .

- ياله من فتى مجدود .

فقال دوريان جراى وعيناه لا تنصرفان عن الصورة :

- بل إنى لفتى تاعس ! نعم . إنى فتى تاعس ! سوف يتقدم بى العمر ، وأصبح مخلوقًا بشعًا تنفر منه العيون ، أما هذه الصورة فستظل أبدًا ناضرة الشباب ، ولن يزيد عمرها عن هذا اليوم من شهر يونيو . ليت الأمر كان بعكس ذلك ! ليت الصورة تكبر ، وأخلد أنا فى شبابى ! إنى لأنزل عن أعز ما أملك لتتم هذه الصفقة ، وليس فى العالم كله ما أضن به ليتحقق لى هذا الحلم . هذه روحى أنزل عنها مختاراً ليكون لى ما أريد .

ضحك اللورد هنرى وقال عابثًا :

- لا أحسب هذه الصفقة فى مصلحتك يا بازيل ، فالخطوط التى يرسمها الزمن ستفسد ولا شك عملك الجميل .

فأجاب هولوورد :

- طبعًا أنا أمانع فى ذلك بكل ما أملك من قوة .

عندئذ التفت دوريان جراى إليه ، وقال متفرسًا فيه :

- هذا لا يدهشنى منك يا بازيل ، فأنت تقدم فنك على أصدقائك ، وما مقامى عندك إلا مقام تمثال من البرنز ، بل لعل تمثال البرنز أثمن عندك منى .

فحملق الرسام فيه من فرط دهشته ، فما كان ينتظر منه أن يقول هذا الكلام . إن دوريان جراى الذى يعرفه لا يفكر على هذا النسق . أفهذا جزاؤه منه ؟ ترى ماذا حدث له ؟ وصعد الدم إلى وجه بازيل هولوورد ، واستولى عليه غضب شديد فالتهبت خداه ، ولكن دوريان مضى فى حديثه قائلا :

- نعم . إن موقعى عندك لأبخس من موقع هرمز العاجى هذا أو هذه الغزالة الفضية التى تحرص عليها حرصك على الحياة ، وحبك لهما لن يبلى

على الزمن ، فكم يدوم حبك لى ؟ سيدوم حبك لى ما دامت لى نضرتى ، وحين تظهر فى وجهى أول بادرة من بوادر الهرم سأخرج من قلبك جملة . لقد أدركت الآن أن الإنسان يفقد كل شىء يوم يفقد جماله ، مهما كان حظه من الجمال . صورتك علمتنى ذلك يا بازيل ، ولقد أصاب اللورد هنرى فى كل ما قال ، فالشباب هو كل ما يستحق أن نتمناه لأنفسنا فى هذه الحياة ، ولسوف أقتل نفسى حين أعرف أن شبابى قد ذهب .

عندما سمع هولوورد هذا الكلام شحب لونه ، وأمسك بيد دوريان جراى وصاح به :

- ماذا دهاك يا دوريان ؟! ماكنت أرجو فيك أن تقول مثل هذا الكلام ، فما أخلصت لأحد إخلاصى لك ولن أخلص . أأصبحت تغار من الجمادات يا دوريان ؟ دع عنك هذه الأوهام ، فأنت أصفى معدنًا من كل هذه الأشياء !

- إنى أغار من كل شىء جماله لا يموت ، أغار من الصورة التى نقلتها عنى ، فكيف يبقى جمالها ، وأفقد أنا جمالى برغمى ؟ إن كل لحظة تمضى تقتطع منى شيئًا وتضيف إليها شيئًا ، فليت الأمر كان على عكس ذلك . واهًا لى ! ليت الصورة تتغير وأبقى أنا على حالى . ماذا دفعك إلى رسمها ؟ إنها ستسخر منى حين يأتى الأوان .

وفاضت عيناه بالدموع ، ونزع يده من يد هولوورد ، وألقى بنفسه على الأريكة ، ودفن وجهه فى وسائدها كأنه يتلو الصلوات . فقال الرسام فى مرارة :

- أنت المسئول عن هذا يا هارى .

- بل هذا دوريان جراى الحقيقى .

- ليس هذا صحيحًا .

- علام تلومنى إذًا ؟

قال الرسام بصوتٍ متقطع :

- كان خليقًا بك أن تتركنا حين سألتك أن تنصرف يا هارى .

فأجابه اللورد هنرى قائلا :

- ولكن سألتنى أن أبقى .

- اسمع يا هارى . أنت ودوريان أعز أصدقائى ، ولن أستطيع أن أخاصمكما معًا فى وقت واحد . لقد جعلتمانى أبغض أجمل شىء أنتجته فى حياتى ، ولذا سأحطم هذه الصورة . إن هى إلا خيش وألوان ، ولن أدعها تدخل بيننا فتفسد حياتنا .

فلما سمع دوريان جراى هذا الكلام رفع رأسه الذهبى من الوسادة ، ونظر إليه شاحب الخد دامع العين فرآه يسير نحو النافذة ذات الأستار العالية حيث المائدة التى يجمع فيها أدواته . ماذا عساه يفعل ؟ إنه يبحث عن شىء ، فأصابعه تتحسس شيئًا بين الأنابيب الفارغة والفرش الجافة . إنه يبحث عن المدية الفولاذية الحادة التى يستخدمها فى مزج الألوان ، ولقد وجدها ، وها هو يهم بتمزيق الصورة .

فوثب دوريان جراى من الأريكة وقد اختنقت فى صدره زفراته ، وهجم على هولوورد وانتزع المدية من يده ، وقذف بها إلى طرف الاستديو صائحًا :

- كلا . كلا يا بازيل ! هذا والقتل سواء !

قال الرسام ببرود بعد أن أفاق من دهشته :

- أشكرك يا دوريان على هذا التقدير ، وإن جاء متأخراً . ما كنت أظنك ستقدر الصورة .

- لا تتحدث عن التقدير يا بازيل ، بل تحدث عن التقديس ، فأنا أعبدها عبادة لأنها قطعة من نفسى ، وهذا هو إحساسى الصادق .

- إذا كان الأمر كذلك فسأتركك حتى تجف أولا ، ثم أضع عليك الورنيش لتلمع ، ثم أحبسك فى إطار ، ثم أرسلك أخيراً إلى بيتك ، وحين تصل إلى بيتك تستطيع أن تفعل بنفسك ما تشاء .

وبعد أن فرغ من كلامه مشى إلى الجانب الآخر من الغرفة ودق الجرس وقال :

- أتحب أن تتناول قليلاً من الشاى يا دوريان وأنت يا هارى ؟ هل لك فى فنجان من الشاى ، أم تراك تحتقر هذه المتع البسيطة ؟ .

فأجاب اللورد هنرى قائلاً :

- وكيف أحتقر المتع البسيطة يا بازيل ، وهى عزاؤنا الباقى كلما مللنا المتع الكبيرة ! ولكن كفى مشاحنة ، فأنا لا أحب أن أرى المناظر المؤثرة إلا على المسرح ، ولم أر أسخف منكما إنسانًا . ما أبعدكما عن العقل ، فأى أحمق هذا الذى وصف الإنسان بأنه حيوان عاقل ؟ إن هذا التعريف سابق لأوانه كثيراً ، فالإنسان قد يكون متعدد الملكات ، ولكن العقل ليس من ملكاته ، وهذا ما يحببنى فيه . إن احتدادكما بشأن الصورة قد ساءنى ، ومن الخير يا بازيل أن أحتفظ أنا بالصورة ،فهذا الولد الطائش ليس بحاجة حقيقة إليها .

فصاح دوريان جراى قائلا :

- اسمع يا بازيل ، لو أعطيتها لأحد سواى فلن أغتفر لك ذلك ، ثم إنى لا أسمح لأحد بأن يصفنى بأنى ولد طائش .

- أنت تعلم يا دوريان أن الصورة ملك لك ، أهديتك إياها قبل أن تخرج إلى الوجود .

- وأنت تعلم يا مستر جراى أن سلوكك لم يخل من الطيش ، وعهدى بك أنك لا تغضب إذا ذكرك أحد بحداثة سنك .

- لقد كان يجب أن أغضب هذا الصباح ، يا لورد هنرى .

- آه من هذا الصباح ! لقد فات هذا الصباح ، وانطوى من عمرك بعضه .

وطرق الخادم الباب مستأذنا فى الدخول ، ثم دخل حاملاً صينية عليها أطيب المأكولات ، ووضعها على مائدة صغيرة بها نقوش يابانية ، وارتفع صوت الأطباق والفناجين ، والماء المغلى بخاره المكتوم يتصاعد من الإناء القديم الذى يحتويه فيصفر صفيراً مسموعًا ، ودخل خادم آخر بالصحون الصينية ، وتقدم دوريان جراى ليصب الشاى فى الفناجين على حين سار الرجلان فى تثاقل صوب المائدة ، وكشفا أغطية الأوانى ليريا ما خبىء تحتها من ألوان الطعام ، وأخيراً قال اللورد هنرى :

- أقترح أن نذهب الليلة إلى مسرح ، وأعتقد أننا سنجد مسرحًا مفتوحًا ، لقد وعدت أن أتعشى هذا المساء فى مطعم هوايت ، ولكنى أستطيع أن أتغاضى عن هذا الموعد ، فهو موعد مع صديق قديم لا أكثر ، وسأرسل له برقية أعتذر فيها بأن صحتى منحرفة ، أو أقول فيها إنى أرتبط بموعد آخر وهذا أفضل ، لأنه سيجد فى صراحتى مفاجأة لطيفة تنسيه الإساءة .

وقال هولوورد :

- أنا أمقت ملابس السهرة ، فارتداؤها يضايقنى ومنظرها لا يطاق .

أجاب اللورد هنرى :

- هذا صحيح . إن ملابس السهرة فى القرن التاسع عشر فظيعة ، فلونها قاتم مقبض ، ولم يبق لنا من الألوان الجذابة فى الحياة الحديثة إلا لون الرذيلة .

- يحسن ألا تذكر هذه الأمور على مسمع من دوريان جراى .

- أى دوريان تقصد ؟ دوريان الذى يصب الشاى لنا الآن ، أم دوريان الذى نراه فى الصورة ؟

- كليهما .

قال الفتى :

- أود أن أصحبك إلى المسرح يا لورد هنرى .

- فلنذهب معًا إذًا ، وأنت يا بازيل ، هلا أتيت معنا ؟

- كلا ، فعملى يمنعنى .

- فلنذهب بمفردنا إذًا ، أنت وأنا يا مستر جراى .

- ذلك يسرنى جدًا .

فعض الرسام شفته ، وسار نحو الصورة حاملاً فنجانه فى يده وقال فى أسى :

- أما أنا فسأبقى مع دوريان الحقيقى .

تقدم الفتى صوبه وقال :

- أهذا الذى نراه فى الصورة دوريان الحقيقى ؟ أهذه صورة صادقة منى ؟

- نعم ، هذه صورة صادقة منك .

- ما أجملها صورة يا بازيل ؟

فتنهد هولوورد وقال :

- أنت تشبهها فى المظهر على الأقل ، ولقد تتغير أنت ولكنها لن تتغير ، وفى هذا بعض العزاء .

قال اللورد هنرى :

- ما هذا اللغو الكثير الذى يردده الناس عن الوفاء ! إن الحب نفسه مسألة فسيولوچية ولا دخل للإرادة فيها . أرى الشبان يحاولون الوفاء فيعجزون عنه ، وأرى الشيوخ يحاولون الخيانة فيعجزون عنها . هذا كل ما نستطيع أن نقوله فى الموضوع .

قال هولوورد :

- لا تذهب إلى المسرح الليلة يا دوريان ، بل ابق معى للعشاء .

- لا أستطيع .

- لماذا ؟

- لأنى وعدت اللورد هنرى أن أرافقه .

- ولكن اللورد هنرى لن يقدر فيك الوفاء بوعودك ، فهو يخلف وعوده باستمرار . أرجوك أن تبقى معى .

فضحك دوريان جراى ، وهز رأسه دلالة الرفض .

- أضرع إليك أن تبقى معى .

تردد الفتى قليلاً ونظر إلى اللورد هنرى فألقاه واقفًا بجوار مائدة الشاى يتأملها وهو يبتسم ، وأخيراً قال :

- لا بد أن أذهب يا بازيل .

فأجاب هولوورد وهو يضع فنجان الشاى على الصينية :

- إذا كان الأمر كذلك وجب أن تسرع فالوقت متأخر ، ولا بد أن تستبدل ملابسك . إلى اللقاء يا هارى . إلى اللقاء يا دوريان ، ولا تغب طويلاً . تعال غداً .

- بالتأكيد .

- أرجوك ألا تنسى .

- لن أنسى بالطبع .

- اسمع يا هارى !

- نعم يا بازيل ؟

- تذكر رجائى إليك حين كنا فى الحديقة هذا الصباح .

- أى رجاء هذا ؟ لقد نسيت .

- أنا أثق فيك .

- ولكنى لا أثق فى نفسى . هيا بنا يا مستر جراى فعربتى تنتظر فى الخارج ، وفى إمكانى أن أصل بك إلى بيتك . إلى اللقاء يا بازيل . لقد كان يومنا حافلاً .

ولما أقفل الباب دونهما ارتمى الرسام على إحدى الأرائك ، وتملكه حزن شديد .

الفصل الثالث

خرج اللورد هنرى وتون من منزله فى شارع كيرزون فى الساعة الثانية عشرة والنصف من ظهر اليوم التالى ، وسار إلى نادى أوليانز ليزور عمه اللورد فيرمور ، وهو شيخ أعزب ، طيب القلب ، خشن المعاملة ، تناقضت في وصفه الآراء ، فمن يجهلونه يصفونه بالخسة والأنانية ؛ لأنهم لا يستفيدون منه شيئًا ، أما عارفوه من أبناء البيوتات فيصفونه بالسخاء ؛ لأنه يطعم كل من يسلوّنه ، وقد كان أبوه سفيرنا فى مدريد حين كانت إيزابيلا صغيرة وپريم لم يولد بعد ، ولكنه استقال من السلك السياسى فى لحظة الضيق ؛ لأن وزارة الخارجية ضنت عليه بسفارة باريس ، وهو منصب كان يعده حقًا من حقوقه الطبيعية ، يؤهله له طيب منبته ، وكسله ، وجمال أسلوبه فى الخطابات الرسمية ، ونهمه الشديد لأطايب الحياة . أما الابن فقد كان يومئذ سكرتيراً لأبيه ، واستقال باستقالة رئيسه مما عده الناس حماقة فى التصرف . فلما أن ورث اللقب بعد بضعة شهور وأصبح اللورد فيرمور ، خصص كل ملكاته لدراسة فن الأرستقراطية العظيم ، فن البطالة ، وكان يملك منزلين فسيحين ولكنه أثر أن يستأجر شقة فى لندن ليتجنب عناء الإشراف على منزل فسيح ، وتعود أن يتناول وجباته فى ناديه ، وقد وجه اللورد فيرمور بعض التفاته إلى إدارة مناجم الفحم التى يملكها فى الميدلاندز ، وكان يعتذر عن اشتغاله بالصناعة ، وهو أمر مبتذل لا يغتفر فى چنتلمان ، قائلا إن للفحم مزية واحدة لا غناء عنها فى أى مجتمع سليم ، هى أنه يمكن الچنتلمان من استخدام الخشب فى مدفأته ، وهو ترف لا تعرفه السوقة مستهلكة الفحم . وكان فى السياسة محافظًا حتى يصل المحافظون إلى الحكم فيخرج عليهم

متهمًا إياهم بأنهم عصبة من المجددين ، أما عن أخلاقه الشخصية فقد كان بطلا فى نظر خادمه الخاص ؛ لأن خادمه كان يتجبر عليهم ، وكان كابوسًا فى نظر أفراد أسرته ؛ لأنه كان بدوره يتجبر عليهم ، وكان يقول فى كل مناسبة إن البلاد تنحدر إلى الحضيض ، أما مبادئه الرجعية فقد كانت بالية ، وأما حقده الموروث على كل جديد فلم يعدم من يدافع عنه .

ودخل اللورد هنرى الغرفة فوجد عمه جالسًا يدخن سيجاراً ، ويطالع صحيفة التايمز متذمرًا . قال السيد العجوز :

- ما جاء بك يا هارى فى هذا الوقت المبكر . لقد كنت أحسب أن أمثالك من الوجهاء لا يستيقظون قبل الساعة الثانية ، ولا يقابلون الناس قبل الساعة الخامسة .

- أؤكد لك يا عمى أن شوقى إليك هو الذى دفعنى إلى المجىء . لقد جئت لأطلب منك شيئًا .

فقال اللورد فيرمور عابسًا :

- أظنك جئت تطلب مالا . أجلس وارو لى القصة من أولها إلى آخرها . إن شباب هذا الجيل يرون أن المال هو كل شىء فى الحياة .

قال اللورد وهو يصلح من عروته :

- هذا صحيح . وحين يتقدم بنا العمر ندرك صحة ذلك ، ولكنى ما جئت لأطلب منك مالا ، فما يطلب المال إلا شخص يسدد ديونه ، وأنا لا أسد ديونى مطلقًا ؛ فالاستدانة رأس مال الابن الأصغر ، والحياة جميلة برأسمال كهذا ، ثم إنى أتعامل مع تجار دارتمور ولهذا أسلم من المضايقة ، إنما جئت لأطلب معلومات ، أقصد معلومات تافهة لا معلومات نافعة بطبيعة الحال .

- فى استطاعتى أن أخبرك بكل ما ورد فى الدليل العام يا هارى ، وإن كان الدليل العام مشحونًا بالأكاذيب فى هذه الأيام . لقد كانت الأمور خيراً

مما هى الآن حين كنت فى السلك ، ولكن بلغنى أخيراً أنهم يعقدون امتحانًا لطالبى الالتحاق فى هذه الأيام ، وهذا خطأ يا سيدى ، فالامتحانات من أولها إلى آخرها كذبة كبيرة ، والجنتلمان . .

قال اللورد هنرى فى تراخ :

- جئت أسألك عن مستر دوريان جراى ، وهو لم يرد فى الدليل العام يا عمى .

فقال اللورد فيرمور وهو يعقد حاجبيه الكثيفين :

- ومن يكون مستر دوريان جراى هذا ؟

- هذا ما جئت أسألك عنه يا عمى . أنا أعرف من يكون ، فهو حفيد آخر لورد كلسو وأمه سليلة ديفيرو . أمه هى الليدى مرجريت ديفيرو ، وقد جئتك لأعرف شيئًا عنها ، فحدثنى عنها وعن زوجها . أنت عرفت أكثر أبناء جيلك ، فلعلك عرفتها فيمن عرفت ، وقد قابلت مستر دوريان جراى فى الأيام الأخيرة فأثار اهتمامى .

قال اللورد فيرمور مسترجعًا الماضى البعيد :

- حفيد كلسو ! حفيد كلسو ؟ دعنى أتذكر . حقّا ما أغبانى ! نعم ، كنت أعرف أمه معرفة جيدة بطبيعة الحال ، وأعتقد أنى حضرت الاحتفال بتعميدها . لقد كانت مرجريت ديفيرو آية من آيات الجمال ، وأثارت غيرة الرجال حين فرت مع شاب مفلس لا يساوى شيئًا . نعم ، يا سيدى ، فرت مع جندى فى فرقة المشاة أو ما يشبه ذلك ، وأنا أذكر القصة كلها كأنها حدثت البارحة . نعم ، أذكر كيف قتل ذلك الشاب المسكين بعد زواجه ببضعة شهور فى مبارزة مدبرة ، وقد سمعنا يومئذ بإشاعة مخزية تقول إن كلسو قد كرى سفاحًا بلجيكيًا ليهين زوج ابنته أمام الناس . نعم ، يا سيدى : كراه بالمال ليقتله ، فأجهز عليه كما تجهز على حمامة وديعة ، وأخفيت الحقيقة عن الناس ، ولكن أقسم لك أن أصدقاء كلسو قاطعوه زمنًا طويلا نتيجة لذلك الحادث ، وقد بلغنى أنه رد ابنته إلى كنفه ، ولكنها رفضت أن تبادله الحديث حتى ماتت ،

وقد ماتت بعد شهور قليلة . نعم يا سيدى ، لقد كانت قصة محزنة ، ولم أكن اعرف أنها ماتت عن ولد فقد نسيت الآن هذه التفاصيل . ما حال هذا الغلام ؟ إن كان قد ورث صورة أمه فلا بد أن يكون فتى وسيمًا .

فقال اللورد هنرى مؤمنًا على كلامه :

- إنه آية من آيات الجمال .

واستأنف السيد العجوز كلامه قائلا :

- أرجو أن يجد هذا الفتى من يعتنى به ، وإذا كان كلسو قد أحسن التصرف فى ماله فسيجد هذا الغلام شيئًا كثيرًا فى انتظاره ، كذلك كانت أمه من أهل الثراء ، فقد ورثت كل أملاك جدها فى سلبى ، وكان جدها يمقت كلسو ويحتقره لأنه كان كلبًا قذرًا . أذكر أنه هبط مدريد حين كنت بها ، فكان مصدر خجل دائم لى ، وقد سألتنى الملكة مرارًا عن ذلك النبيل الإنجليزى الذى كان فى شجار مستمر مع الحوذية بسبب أجورهم ، وكانت فضيحة الموسم ، فلم أجرؤ على الظهور فى البلاط شهرًا كاملا . أرجو أن يكون قد عامل حفيده خيرًا مما كان يعامل الحوذية .

فأجاب اللورد هنرى :

- لا أعرف عن هذا الموضوع شيئًا ، ولكنى اظن أنه سيصبح من أهل الثراء حين يبلغ سن الرشد ، وإن كنت أعلم أن سلبى تقع فى أملاكه لأنه ذكر لى ذلك بنفسه . أكانت أمه جميلة حقًا ؟

- نعم . لقد كانت مرجريت ديفيرو تحفة فى الجمال يا هارى ، ولم افهم قط ما الذى دفعها إلى ذلك المسلك الشاذ ، فقد كان فى وسعها أن تتزوج من تشاء من الرجال ، فكارلنجتون مثلا كان مجنونًا بحبها ، ولكنها كانت فتاة تميل إلى الخيال شأن سائر نساء أسرتها ، ويا لهن من نساء رائعات ! أما رجال الأسرة فقد كانوا طغمة من الأوباش . وقد جثا كارلنجتون أمامها مرة كما اخبرنى بنفسه ، فضحكت منه . أقول حدث هذا وقت أن كانت جميع بنات

لندن يطاردنه ، وبمناسبة الكلام عن الزواج الشاذ يا هارى ، ما هذا اللغط الذى أسمعه عن رغبة دارتمور فى أن يتزوج بأمريكية . ألا يجد فى إنجلترا كلها فتاة واحدة تصلح له ؟

- إن الزواج بأمريكيات هو آخر تطور فى الذوق الإنجليزى يا عمى .

فضرب اللورد فيرمور المائدة بقبضة يده وصاح :

- أنا أراهن بكل ثروتى على الفتاة الإنجليزية .

- لكن الناس يراهنون الآن على الأمريكيات .

فأجاب عمه :

- لقد بلغنى أنهن متقلبات .

- أعتقد أن الخطوبة الطويلة تجهدهن ، ولكنهن يجلين فى سباق الحواجز ، فمفتاح قلوبهن السرعة ، ولا أعتقد أن دارتمور سيصادف نجاحًا كبيراً .

قال السيد العجوز ساخطًا :

- بنت من تكون هذه الفتاة ؟ ما أسرتها ؟ ألها أسرة ؟

فأجاب اللورد هنرى ، وهو يتأهب للانصراف :

- إن الأمريكيات يجدن إخفاء نسبهن كما تجيد الإنجليزيات إخفاء ماضيهن .

- أغلب الظن أن أهلها يشتغلون بعمل الجامبون .

- من مصلحة دارتمور أن يكونوا كذلك ، فقد قيل لى إن عمل الجامبون أربح مهنة فى أمريكا بعد السياسة .

- أجميلة هى ؟

- إنها تسلك سلوك فتاة جميلة كما تفعل أكثر الأمريكيات ، وهذا سر فتنتهن .

- إذا كانت أمريكا حقًا جنة النساء كما نسمع دائمًا من الأمريكيات ، فلماذا يخرجن من هذه الجنة .

فقال اللورد هنرى :

- ولكن أمريكا جنة النساء فعلا ، وهذا بالذات ما يحملهن على الهرب منها كما هربت أمهن حواء من جنتها . والآن لا بد لى من الانصراف ، وإلا وصلت متأخراً للغداء فوداعًا يا عماه ، وشكراً على ما زوّدتنى به من معلومات ، فأنا أحب أن أعرف كل شىء عن أصحابى الجدد ، وأحب أن أجهل كل شىء عن أصحابى القدماء .

- وأين تتناول غداءك اليوم يا هارى ؟

- عند عمتى أجاثا ، فقد دعوت نفسى ، ومستر جراى إلى مائدتها ، فمستر جراى آخر اكتشاف اكتشفته عمتى .

- إذًا فأرجو أن تبلغ عمتك أن تعفينى من نداءات البر التى توجهها إلىّ ، فقد ضاق بها صدرى . إن هذه السيدة المباركة تخال أن عملى فى الحياة هو كتابة الشيكات لأعمالها الخيرية .

- سأبلغها ذلك يا عمى ، وإن كنت أعرف أن كلامى لن يثمر ، فأهل البر يفقدون كل شعور إنسانى .

وصدرت من السيد العجوز أصوات غير واضحة معناها أنه يوافق اللورد هنرى فى الرأى ، ودق الجرس ليستدعى خادمه ، أما اللورد هنرى فسار مخترقًا ممراً سقفه ذو أقباء حتى بلغ شارع برلنجتون ، ثم سار فى اتجاه ميدان باركلى .

هذه إذًا قصة دوريان جراى . إن اللورد فيرمور قد رواها له فى غير تنسيق ، ولكن أى قلب لا يضطرب لهذه الفاجعة العنيفة ، وأى خيال لا يتحرك أمام هذه القصة الغريبة ! لقد كان يحسب أن عصر الخيال قد مات ، ولكنه أدرك أن الخيال لا يزال حيّا ، حتى فى القرن التاسع عشر . فيالها من مأساة مروعة ! وهذه امرأة جميلة تغامر بكل شىء لترضى شهوة جامحة . ويا لها من أسابيع مشهودة تفيض بالسعادة وتنتهى بجريمة وحشية ! ويا لها من

شهور طوال من العذاب الصامت تنتهى بميلاد طفل شقى بين الأحزان ! هذه أم تموت فى ريّق العمر فتترك وليدها فى كنف رجل مسن منزو لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلا ليسومه مر العذاب . لقد كان لدوريان جراى ماض غير مألوف ، ماض خليق به ، فلا بد لهذا الجمال الفذ من قصة فذة تمهد له ، والجمال لا ينبت إلا فى بيت الأحزان . إن الطبيعة عرفت آلام المخاض حين تفتحت فيها أول زهرة ، فكيف بدوريان جراى ذى الجمال القهار ! لقد جلس أمامه فى الليلة السالفة يتناول معه العشاء فى النادى ، وكان فاغرًا فاه محملقًا عاجبًا ، يغمره مزيج من الخوف والطرب ، وسقط عليه من الشموع نور أحمر ضرّج خده الوردى بورد جديد ، فبدا كإله فاتن مشدوه . لقد كان الحديث معه أشبه شيء بالعزف على كمان حنون ، لأن أوتار قلبه كانت تهتز لكل كلمة تقال . ما أشبه الخضوع لأفكار الغير بالعبودية ، وما أشبه إخضاع الغير لأفكارنا بالاستعباد . إن التأثير فى الغير يكسب الإنسان إحساسًا بالقوة لا نظير له فى الحياة . فما أجمل أن تمتد الروح إلى الخارج وتسكن جسدًا آخر ، ولو للحظات معدودات ، وما أجمل أن يسمع المرء آراءه ترتد إليه كرجع الصدى دافئة بنفس الشباب حلوة بإيقاعه الحنون ، وما أجمل أن يمتزج الطبع بالطبع امتزاج السائل السحرى بالسائل السحرى أو امتزاج العطور . إنها لذة لا تعدلها لذة ، ولعلها كل ما بقى لنا من مباهج الحياة فى هذا العصر السوقى المحدود ، هذا العصر غليظ الذوق ، رخيص الأهداف ، الساعى وراء أفراح الجسد وحدها ، ولقد كان هذا الفتى الذى عرفه مصادفة فى استديو بازيل هولوورد نموذجًا عاليًا لشباب الجيل ، ولو لم يكن لأمكن أن يصاغ منه نموذج عال لشباب الجيل على أية حال ، فالفتنة ملك يديه وطهارة الصبا والجمال الذى اقتبس منه رخام الأولين . إن دوريان جراى طينة لدنة فى يد من يصوغها ، ولقد يكون منه مارد شاهق أو دمية تلعب بها الأطفال ، فواهًا لهذا الجمال يوم يزول ! ثم إن هناك بازيل ، وبازيل فى ذاته دراسة نفسية ممتعة ! لقد كان بازيل صاحب أسلوب فى الفن جديد ، وصاحب نظرة إلى الحياة جديدة ،

وتلك النظرة استوحاها من إنسان ملهم لا يدرى أنه ملهم ، ولقد كانت روحه فيما مضى روحًا صادقة نـافرة تسكن الدغل المظلم وتمشى خفية بين الحقول ، وها هى الآن تتجلى فـجـأة فى وضـح الضحى كأنها حـورية من حور الغاب لا تخزع من شىء لأنها صـحت على رؤيا عالم عجيب ، عـالم فيه كل شىء صاف، وكل شىء يرمز لفكرة مثالية لا تتحقق إلا به . وما أعجب هذه الرؤيا ! أو لم يصف لـنـا أفـلاطـون ، فنـان الفكـر ، هـذه الرؤيـا فـى القـديم ؟ أو لم يجسدها لنا بوناروتى فى رخام ملون متـماسك كأنه قريض شاعر عظيم ؟ ولكن هذا كان ممكنًا فى المـاضى ، أمـا فى هذا العصر فهو المعـجزة الكبرى . فليكن اللورد هنرى لدوريان جراى إذًا ما كانه دوريان جراى لبازيل هولوورد ، وليسيطـر على نفسه سيطرته على نفس الفنان ، ولقـد أصاب فى ذلك بعض النجاح ، ولسـوف يتملك ذلك الروح البهى فى قـبضتـه كما يتملك السـاحر الجان فى قبضته . إنه ابن الحب والموت ، وهو نسب فى طرفيه عظيم .

ثم توقف اللورد هنرى فجأة عن المسيـر ، وأنشأ يتأمل المساكن فأدرك أنه قد تجاوز بيت عمته كثيراً ، فابتسم لشرود ذهنه وعاد إليه ، وحين دخل القاعة الموحشـة أنبأه كبيـر الخدم أنهم يتناولون الغداء ، فسلم قـبعته وعـصاه ودخل حجرة الطعام ، فلما أن رأته عمته صاحت به وهى تهز رأسها مؤنبة :

- أراك قد جئت متأخراً كعادتك .

فأسعفه خيـاله بعذر من الأعذار المـألوفة ، ثم احتل مكانه فى المـائدة إلى جوارها ، وأجال فى المدعوين بصره فرأى دوريان فى طرف المـائدة ، وشاهده ينحنى فى خجل محييًا إياه ، وقد بدا عليه السرور لمرآه ، وكانت دوقة هارلى تجلس قبالته ، وهى سيدة محبـوبة طيبة القلب حلوة الشمائل ، ولكنها كانت قطعة فخـمة من العمارة الرازحـة التى يراها مؤرخو هذا العـصر فى الدوقات فيـسمـونها صـحة وعافـية ، ويرونهـا فى النساء العـاديات فيـسمونهـا بدانة واستكراشـًا ، وعن يمينها جلس السير تومـاس بيردون وهو عضو مـن أعضاء

البرلمــان راديكالى المذهب يتبع رئيس حـزبه فى الحيـاة العامـة ، ويتبع أمـهر الطهاة فى الحياة الخاصة ، فتراه يأكل على موائد المحافظين ، ويشارك الأحرار نظرياتهم فى الحيـاة تمشيًا مع المثل السائر المعروف ، وعـن يسار الدوقة جلس مستر إرسكين وهـو سـيد مسن من أهـل تريـدلى لطيـف المعشـر واسـع الثقافة لا يعيبه إلا عادة خبيثة واحدة هى صمته المستمر ، وقد اعتذر عن هذا الصمت مرة لليدى أجاثا بأنه استنفد كل ما فى جبعته من الكلام قبل أن يبلغ الثلاثين، أما جارة اللورد هنرى ذاته فكانت مسز فاندلور وهى صديقة من أقدم صديقات عمته أجاثا لها صفات القديسات ، ولكنها زرية الهيئة تذكرك بكتاب من كتب التراتيل مهلـهل الغلاف ، وإلى جوار مسز فـاندلور جلس اللورد فوديل وهو كهل فاشل فى عمله برغم ذكائه المتقد ، يذكرك رأسه الأصلع ببيان وزارى فى مجلس العموم ، خـلا من كل تنميق ، وكانت تتحدث إليه فى جـد وحماسة وهى غلطة لا تغتـفر يتورط فيهـا ذوو النوايا الطيبة ، ولا ينجو مـنها أحدهم مهما اجتهد .

قالت الدوقة وهى تحيى اللورد هنرى بإشارة من رأسها :

- نحن نتـحـدث عن دارتمور المسكين يا لورد هنرى ، فـهل تعـتقـد أنه سيتزوج من تلك الأمريكية الساحرة كما يقال ؟

- أنا يا سيدتى الدوقة أعتقد أنها عازمة على أن تخطبه .

فصاحت الليدى أجاثا :

- هذه نكبة ! أليس هناك من يتدخل ؟

قال السير توماس بيردون فى صلف واضح :

- لقد بلغنى من مصدر عليم أن أباها يملك متجراً للبضائع الجافة .

- من رأى عمى أنه يتاجر فى لحم الخنازير المحفوظ .

فسألت الدوقة رافعة يديها الكبيرتين فى تعب :

- وماذا تكون هذه البضائع الجافة ؟ نعم ، ماذا تكون ؟

فأجاب اللورد هنرى وهو يتناول سمانة :

- البضائع الجافة هى القصص الأمريكية .

فبدت الحيرة على وجه الدوقة لأنها لم تفهم معنى النكتة ، وهمست الليدى أجاثا فى أذنها قائلة :

- لا تلقى بالاً يا صديقتى لما يقوله اللورد هنرى فحديثه هزل متصل .

وقال عضو البرلمان الراديكالى :

- لما استكشفت أمريكا . . .

واسترسل فى سرد بعض التفاصيل المملة ، وأراد أن يستنفد الموضوع فاستنفد صبر سامعيه ، وتنهدت الدوقة وباشرت حقها فى المقاطعة فقالت :

- ليت أمريكا لم تستكشف قط ، فالأمريكيات لا زلن يزاحمن بناتنا فى سوق الزواج حتى كسدت بضاعتهن ، وهذا ليس من الإنصاف فى شىء .

قال مستر إرسكين :

- ومن يدرينا أنها استكشفت ؟ فأنا مثلا أعتقد أننا لا نعرف عن أمريكا إلا أنها قارة موجودة .

فأجابت الدوقة قائلة :

- هذا غير صحيح ، فقد رأيت نماذج من سكانها بنفسى ، ولابد أن أعترف بأنهن رائعات الجمال صاحبات أناقة يشترين كل ملابسهن من باريس ، وكم تمنيت أن يكون لى المال الذى يعود علىّ بكل هذا الترف .

كانت عند السير توماس تشكيلة كبيرة من الفكاهات القديمة ، فقذف الحاضرين بواحدة منها . قال :

- يقولون إن أبرار الأمريكيين يذهبون إلى باريس بعد موتهم .

فسألته الدوقة قائلة :

- عجبًا ! أين يذهب إذاً أشرار الأمريكيين ؟

قال اللورد هنرى فى صوت خافت :

- يذهبون إلى أمريكا .

فعبس السير توماس بيردون ، وقال لليدى أجاثا :

- أرى أن ابن أخيك يا سيدتى متحامل على هذا البلد العظيم . لقد زرت أمريكا بلداً بلداً فى سيارات أعدها لى مديرو الشركات ، فهم قوم يعرفون كيف تكون المجاملة ، وأؤكد لك ياسيدتى أن فى زيارة أمريكا ثقافة للزائرين .

فاعترض مستر إرسكين على ذلك بقوله :

- وهل من الضرورى أن أرى شيكاغو لتتم ثقافتى ؟ يا لها من رحلة مضنية .

قال السير توماس مشيراً بيده :

- إن مستر إرسكين قد جمع العالم على رفوف مكتبته ، أما أمثالنا من الرجال العمليين فنحن نفضل أن نرى الدنيا لا أن نقرأ عنها ، وأعتقد أن الأمريكيين شعب جدير باهتمامنا ، فهم أهل تفكير مستقيم ، بل إن التفكير المستقيم أول صفاتهم . نعم يا مستر إرسكين ، إن الأمريكيين أهل منطق لا يخطئ ، وأؤكد لك أن الغفلة ليست من صفاتهم .

فصاح اللورد هنرى قائلا :

- هذه مأساة ، فالقوة الصارمة يمكن احتمالها ، أما المنطق الصارم فلا سبيل إلى احتماله ، وليس من العدل استخدامه .

قال السير توماس محتداً :

- لست أفهم ما ترمى إليه يا لورد هنرى .

قال مستر إرسكين مبتسما :

- أنا أفهم ما ترمى إليه يا لورد هنرى .

قال السيد توماس :

- إن التعبير عن الأشياء بنقائضها جميل فى بابه ولكن . . .

فقاطعه مستر إرسكين قائلا :

- لست أرى فيما قاله اللورد هنرى تعبيراً عن شىء بنقيضه ، ولكن ربما كنت مخطئًا فى فهمى . مهما يكن من شىء فالتناقض طريق الحقيقة ، فإذا أردنا أن نتأكد من صدق شىء وجب أن نراه من جميع وجوهه . وجب أن نرى الحق يلعب أمامنا كالبهلوان الذى يسير على حبل مشدود .

قالت الليدى أجاثا :

- ويلنا منكم معشر الرجال ، فكم تحبون الجدل ! أقسم إنى لا أفهم كلمة واحدة مما تقولون ، أما أنت يا هارى فإنى مستاءة منك أشد الاستياء لأنك تحاول أن تصرف مستر دوريان جراى عن الاهتمام بالفقراء ، وأؤكد لك أن فى امتناعه عن الاشتراك فى أعمال البر خسارة لا تعوض ، ففقراء الإيست إند سيسرون به إذا رفَّه عنهم بالمقطوعات الموسيقية .

فابتسم اللورد هنرى ، ونظر إلى دوريان جراى فلقى فى وجهه ما يشجعه فقال :

- لأنى أريده أن يرفه عنى أنا بالمقطوعات الموسيقية .

اعترضت الليدى أجاثا قائلة :

- ولكن الفقراء فى هوايت تشابل فى شقاء لا يوصف .

فقال اللورد هنرى وهو يهز كتفيه استخفافًا :

- إن صدرى يتسع لكل شىء ، ولكنه يضيق بالشقاء . نعم ، أنا لا أعطف على الشقاء ، فالشقاء بشع ، الشقاء كريه ، الشقاء يكسر القلوب ،

وأنا أرى أن اهتمام أهل هذا الجيل بالألم نوع من المرض ، فالواجب أن نهتم بألوان الحياة الزاهية ، بجمالها ، بأفراحها ، فخير لنا أن ننسى أوجاع الحياة .

قال السير توماس وهو يهز رأسه كأنه يدلى بتصريح خطير :

- ولكن الإيست إند مشكلة برغم كل ما تقول .

فأجابه اللورد الشاب قائلا :

- لست أشك فى ذلك . إنها مشكلة العبودية ، ونحن نحاول حلها بتسلية العبيد .

فنظر السياسى إليه نظرة فاحصة وسأله :

- إذًا ، فأى تغيير تقترح إجراءه لحل هذه المشكلة ؟

ضحك اللورد هنرى وقال :

- أنا لا أقترح تغيير شىء فى إنجلترا إلا جوها ، ويكفينى من الإصلاح مجرد التفكير الفلسفى فيه ، ولكن إذا كان القرن التاسع عشر قد استنفد كل ما يملكه من عطف على فقرائه حتى أفلس تمامًا ، فأنا أقترح أن نلجأ إلى العلم ،لعل العلم يقوّم اعوجاجنا . إن مزية العواطف أنها تضللنا ، ومزية العلم أنه خال من العواطف .

واجترأت مسز فاندلور على الاشتراك فى المناقشة ، وقالت فى حياء :

- ولكن مسئولياتنا خطيرة .

وأيدتها الليدى أجاثا قائلة .

- بل جد خطيرة .

فنظر اللورد هنرى إلى مستر إرسكين وقال :

- إن الإنسانية تهتم بنفسها أكثر مما ينبغى ، ويبدو أن هذه هى خطيئتنا الأولى ، فلو أن رجل الكهف تعلم كيف يضحك لتغير مجرى التاريخ .

قالت الدوقة فى تنغيم مضحك :

- إن حديثك ينزل على قلبى برداً وسلاماً يا لورد هنرى ، فكلما جئت لأعود عمتك عنفنى ضميرى لقلة اهتمامى بالإيست إند ، أما وقد عرفت رأيك فلن أخجل منها بعد الآن .

فقال اللورد هنرى :

- إن الخجل يناسب السيدات يا سيدتى الدوقة .

فأجابت :

- نعم ، إذا كن فى مقتبل العمر ، أما مثيلاتى من العجائز فالخجل فيهن دلالة سيئة . واهاً على الشباب يا لورد هنرى ! هلا علمتنى كيف أستعيد شبابى !

ففكر لحظة ثم سألها :

- أتذكرين حماقة كبرى ارتكبتها فى شبابك يا سيدتى الدوقة !

قالت :

- أجل . بل أذكر حماقات وحماقات .

قال فى لهجة جادة :

- ارتكبيها إذاً من جديد ، فلن يستعيد إنسان شبابه إلا إذا ارتكب حماقاته من جديد .

فصاحت الدوقة قائلة :

- هذه نظرية جميلة ، وسأعمد إلى تطبيقها فوراً يالورد هنرى .

قال السير توماس :

- بل هذه نظرية خطرة !

وهزت الليدى أجاثا رأسها ولكن بدا عليها السرور ، أما مستر إرسكين فأنشأ يستمع إلى اللورد هنرى وهو يمضى فى حديثه قائلا :

- نعم ، هذا سر من أسـرار الحيـاة الكبرى ، فنحن اليوم يـفتك بنا وباء نسميه التفكيـر السليم ، وهو يدب فى أعضائنا قـليلا قليلا حـتى يشلنا تمامًا فنموت ، وعنـدمـا نفقـد كل شىء ندرك أن أخطاءنا هىَ الأشياء الوحيدة التى لا نندم عليها فى الحياة .

فضحك القوم .

فلمـا رأى أن الفكرة أعجبـتـهم أعطاهم المزيد فيـها ، وطفق يلعب بـها ويخرّج منـها شتى التـخريجـات ثم يستطرد ، ومـا توشك أن تفلت من يده الفكرة حتى يتلقـفها من جديـد ، وهكذا اجتهد فـيها حتى وضع عليـها كل توابله ، وهكذا اجتهد فيها حتى طلاها ببـريق الخيال ، وزودّها بأجنحة التعبير السحـرى ، وما إن فرغ من بيـانه حتى أصبح تمجـيد الحمـاقة بفضله فلسـفة ناضجة ، وأصبحت الفلسفة الناضجة بفـضله عذراء بلقاء خضب النبيذ ثيابها ، وتوج الغار رأسـها ، تشتاق إلى اللذة الحـرام ، وترقص فوق تلال الحياة رقـصة البنات الشـمالى فى أسـاطير اليـونان ، وتعنف باخـوس على صحـوه واتزانه ، ووطئت قدماها البيضاوان حان الخيَّام حكيم الزمان، وخاضتا فى عصير العنب الذى فاض من حولها أنـهاراً ، وبللت ضفائرها فقاقيع الـنبيذ الأرجوانى حين طفح زبده الأحمـر على جوانب الدن السوداء ، وانحـدر قطرة قطرة . وكان حديثه مـرتجلا لا أثر للتحضـير فيه ، ولكنه ملك القلوب ، وفيـما هو يتكلم أحس بعين دوريان جـراى تحملقـان فيه ، فـذهب ذلك بجنانه ، وفـتق ذكاءه وجـعله ينمق ويجـوّد ويحـسن التـأويل لعله يوقظ وجـدانه ويأسـر فـؤاده ، وتتابعت عـباراته زاهيـة الألوان رخيمـة الأنغام خطرة على السـامعين ، وفتن كلامه الحـاضرين فنسى كلٌ نفسه ، وراح يتـبع هذا المزمار الطروب ، ويرقص على أنغامه الجذلة ، كل هذا ودوريان جراى لا يحول عنه عينيه ، بل ثبت فى مكانه كالمسحور يبتسم الرضا على شفتيه ، وتحملق الأحلام فى عينيه .

وأخيراً أفاقوا على الحقيقـة ، وكانت الحقيقة التى قطعت عليهم هذا الجو المرح هى خادم الدوقة . دخلت الحقيقة من الباب ترتدى ثياب العصر وأعلنت أن عربة الدوقة تنتظرها ، ففركت الدوقة يديها تتكلف غصص اليأس وقالت :

- ياللنكد ! لابد أن أنصرف لألتقى بزوجى فى النادى ، ومن ثم أصحبه إلى اجتـماع سـخيف فى بيت واليـس ليرأس الاجتـماع ، ولو تأخـرت عنه لغضب غضبًا شديداً ، وأنا الآن فى حالة لا أحتمل معها الشجار ، فيجب أن أنصرف يا عزيزتـى أجاثا . الوداع يا لورد هنرى . إنك لرجل ساحر ومـفسد للأخلاق ، ولست أدرى كيف أستقـبل آراءك هذه . لابد أن تأتى للعشاء معنا فى أقرب فرصة ، أيناسبك يوم الثلاثاء ؟ ما رأيك فى يوم الثلاثاء ؟

فانحنى اللورد هنرى بأدب جم وقال :

- إنى لأبطل أى موعد فى سبيل إرضائك يا سيدتى الدوقة .

فقالت :

- هـذا كـرم مـنـك ، ولكنـه خطـأ عظيم ، مهـما يكن من شـىء فنحن فى انتظارك . وخرجت الدوقـة من الغرفة تتبعـها الليدى أجاثا وسـائر السيدات ، ولمـا اسـتعـاد اللورد هنرى مكانه انتقل مـستـر إسكين إلى جواره ، وأمـسك بذراعه قائلاً :

- إن كـلامك يملأ المجلدات يا لـورد هنرى ، فلمـاذا لا تضع كـتـابًا .
فأجاب اللورد هنرى قائلاً :

- إن شغفى بالقراءة يجعلنى أزهد فـى الكتابة يا مستر إرسكين . لا شك أنى أحب أن أضع قصـة يومًا ما ، قصـة تشبه البسـاط العجمى فى جمـالها وغرابة تصميـمها ، ولكن الجمهور فى إنجلتـرا لا يهتم إلا بالصحف وبالكتب المدرسيـة وبـدوائـر المعـارف . إن الإنجليـز أفـسـد أهـل الأرض ذوقـًا من الناحية الأدبية .

قال مستر إرسكين :

- أعتـقد أن هذا صحيح لسـوء الحظ ، ولقد كانت لى أطمـاع أدبية منذ زمن طويل ولكنى طلقتهـا . والآن يا صديقى الشاب ، هل لى أن أسألك إذا كنت حقا تعتقد فى كل ما قلته لنا أثناء الغداء ؟

فابتسم اللورد هنرى وأجاب :

- لقد نسيت ما قلته تمامًا . أكان كلامى معيبًا حقـًا ؟

- نعم ، كان معيبًا إلى حد كبير ، وأنا أعدُّك رجلا خطراً على المجتمع، ولو أصاب الدوقة مكروه لحـملناك جميعًا تبـعة ذلك ، ولكنى مع ذلك أتوق إلى اسـتطلاع آرائك فى الحيـاة ، فالجـيل الذى أنتـمى إليه جـيل ممل ، وإنه ليسـرنى أن تزورنى فى تريدلى يوم تزهد فى لندن ، وفى تريدلى تسـتطيع أن تشرح لى فلسفة اللذة التى تبشر بها بين كئوس النبيذ البورغونى النادر .

- ذلك يسعدنى حـقًا يا مستر إرسكين ، فـفى زيارة تريدلى شرف عظيم لى ، وسوف أجد فيها مضيفًا كريمًا ومكتبة رائعة .

فانحنى مستر إرسكين بأدب وأجاب :

- إن مكتبتى لن تكمل إلا بك . والآن يجب أن أستـأذن عمتك الفاضلة فى الانصراف ، لأن علىّ أن أكون فى نادى الأثنيوم فقد حل موعد نوم الأعضاء .

- أتنامون جميعًا فى النادى يا مستر إرسكين ؟

- نعم . نحن أربعون عضواً ننام فى أربعين مـقعداً وثيراً ، ونحن بذلك نضع نواة أكاديمية أدبية .

ضحك اللورد هنرى ونهض قائلاً :

- أما أنا فسأخرج للنزهة فى هايد بارك .

وفيما هو خارج ضغط دوريان جراى على ذراعه ، وقال بصوت خافت :

- اسمح لى أن أرافقك .

فقال اللورد هنرى :

- ألم تعد بازيل هولوورد بزيارته ؟

- هذا صحيح ، ولكنى أفضل صحبتك ، وشعورى يملى علىّ أن أرافقك فاسمح لى بذلك ، وعدنى بأن تتحدث إلى طول الوقت ، فما من أحد يجيد الحديث كما تجيده أنت .

قال اللورد هنرى مبتسمًا :

- لقد تحدثت اليوم بما فيه الكفاية ، وكل ما أبغيه هو أن أستعرض موكب الحياة ، فتعال لتستعرضه معى إذا أحببت .

الفصل الرابع

مر شهر من الزمان ، وكان دوريان جراى جالسًا فى استرخاء على مقعد كبير وثير بمكتبه اللورد هنرى فى بيته بحى مايفير ، وكانت المكتبة حجرة صغيرة أنيقة على طريقتها الخاصة ، تكسو جدرانها ألواح من البلوط عالية طلاؤها أخضر ، ويزدان سقفها السمنى وكورنيشها السمنى بنقوش من المصيص البارز ، ويغطى أرضها بساط من الجوخ الأحمر فوقه عدد من السجاجيد العجمية ذات الشراريب الحريرية الطويلة ، وعلى مائدة صغيرة بالحجرة وقف تمثال صغير لكلوديون وإلى جانب التمثال كانت هناك نسخة من كتاب « القصص المائة » جلَّده كلوفيس إيف فى الأيام الغابرة للملكة مرجريت دى فالوا ، وعلى الكتاب وشى من الأقاص الذهبية التى اتخذتها الملكة شارة لها ، وقد رُصَّت على رف المدفأة بعض الأوانى الصينية الكبيرة الزرقاء ، ونفذ الضوء فى ذلك اليوم الصائف من النافذة فبدا لونه كلون البرتقال المنطفىء ، ولم يكن اللورد هنرى قد عاد بعد إلى بيته ، فقد كان من مبدئه أننا نضيع العمر بالمواظبة ، ولذا بدا على دوريان جراى شىء من العبوس ، وهو يقلب صحائف نسخة من قصة « مانون ليسكو » محلاة بأجمل الصور وجدها على أحد رفوف المكتبة ، وكانت بالحجرة ساعة دقاقة من طراز لويس الرابع عشر ، ظلت تدق دقًا منتظمًا أثار أعصابه ، وخطر له مرة أو مرتين أن ينصرف ، ولكنه سمع أخيراً وقع أقدام فى الخارج ، وانفتح الباب فقال الفتى فى صوت خافت :

- لقد تأخرت كثيراً يا هارى !

ولكن صوتًا حادًا أجابه مصححًا :

- إن هارى لم يصل بعد يا مستر جراى .

فالتقت دوريان جراى إلى الباب بسرعة ، وحين أدرك خطأه بادر بالوقوف وقال :

- أطلب عفوك يا سيدتى ، فقد حسبت . . .

- نعم ، حسبت أن زوجى هو الداخل . اسمح لى أن أعرفك بنفسى فأنا زوجة هارى ، وقد عرفتك من صوتك لأنى رأيت صوراً منك كثيرة ، وأظن أن زوجى قد جمع سبع عشرة صورة من صورك .

- سبع عشرة صورة يا ليدى هنرى ؟

- هل أخطأت فى العدد ؟ لعله جمع ثمان عشرة ، كذلك رأيتك معه ليلة أمس فى دار الأوبرا .

وضحكت السيدة ضحكة عصبية ، ورنت إليه بعينين ناعستين ، وكانت الليدى هنرى امرأة غريبة حقّا ، فثيابها تدل على اضطراب صانعها واضطراب لابسها معًا ، وكانت بلا انقطاع عاشقة بلا عشيق مما أبقى على أوهامها عن الحب ، ثم إنها كانت تتعمد الإهمال فى ملبسها لتلفت الأنظار إلى جمالها فتلتفت الأنظار إلى إهمالها ، وكان اسمها فكتوريا ، وكانت تتردد على الكنيسة بكثرة تدل على الجنون .

- إذًا فقد رأيتنى فى دار الأوبرا ؟ أظن أن ذلك كان ليلة « لوهنجرين » يا ليدى هنرى .

- نعم ، كان ذلك ليلة « لوهنجرين » ، وأنا أحب فاجنر أكثر من أى موسيقىّ آخر ، لأن ألحانه عالية الضجيج ، وهذا يدع لى فرصة للكلام أثناءها دون أن يسمع أحد شيئًا مما أقول ، وهذه مزية كبرى . ألا توافقنى على ذلك يا مستر جراى ؟

وضحكت السيدة ضحكة عصبية ثابتة ، على حين أخذت أصابعها تعبث بنصل من النصال التى يقطع بها الورق صنع من ظهر السلحفاة ، فابتسم دوريان ، وهز رأسه قائلا :

- يؤسفنى أن أختلف معك فى هذا الموضوع يا ليدى هنرى ، فأنا لا أتكلم بتاتًا حين أسمع الموسيقى الجميلة ، أما إذا كانت الموسيقى رخيصة فمن الواجب إسكاتها بالكلام .

- ولكن هذا رأى من آراء هارى يا مستر جراى ، أليس كذلك ؟ إن آراء هارى تصلنى عن طريق أصدقائه ، ولولا ذلك لما عرفت منها شيئًا ، ولا تظن يا مستر جراى أنى أكره الموسيقى الجميلة ، فأنا أقدسها ، بل أعبدها ، ولكنها تخيفنى ، كذلك أقدس الموسيقيين بل أعبدهم ، ولكم شغفت بعازفى البيانو حتى إن هارى كان ينبهنى إلى أنى أعشقهم أزواجًا أزواجًا فى بعض الأحايين ، ولست أعرف ما يحملنى على حبهم ، ولكن لعل منشأ حبى لهم أنهم أجانب ، فعازفوا البيانو جميعهم من الأجانب ، أليس كذلك ؟ حتى الإنجليز منهم يصبحون بعد قليل أجانب ، أليس كذلك ؟ وأعتقد أن هذه مهارة منهم ، كما أنها تحية للفن الذى يخدمونه ، فهى تخرج به عن دائرة إنجلترا الضيقة وتصبغه بصبغة عالمية . أنت لم تحضر أية حفلة من حفلاتى يا مستر جراى ، ولابد أن تشرفنى مرة بزيارتك ، وإذا حضرت حفلة من حفلاتى فلن تجد فى بيتى أزهار الأوركيد ، فهى غالية الثمن إلى حد لا يطاق ، ولكنك ستجد فيه كثيراً من الأجانب، لأن الأجانب يزينون البيت ، وأنا أدعوهم باستمرار مهما غلا ثمنهم . ها قد جاء هارى ! اسمع يا هارى ، لقد جئت لأستفسر عن شىء ، ولكن نسيت الآن ما جئت لأستفسر عنه ، وقد وجدت مستر جراى هنا ، وتحدثنا عن الموسيقى حديثًا شهيًا ، وأعتقد أن آراءنا متشابهة تمامًا . كلا . إن آراءنا ليست متشابهة تمامًا ، بل مختلفة تمامًا ، ولكنى سررت بلقياه على أية حال ، فقد كان مثال اللطف معى .

- أنا سعيد بذلك يا حبيبتى ، نعم ، سعيد ، ولا تؤاخذنى يا دوريان إذ كنت قد تأخرت ، فقد قصدت شارع واردو لأشترى قطعة من الدنتلا الأثرية ، وضاعت منى ساعات طويلة فى المساومة . إن الناس فى هذه الأيام لا يعرفون قيمة شىء ، ويعرفون ثمن كل شىء .

ثم حل صمت ثقيل فقطعته الليدى هنرى بضحكتها الصبيانية الفجائية وقالت :

- لا بد أن أنصرف الآن ، فقد وعدت الدوقة أن أرافقها فى نزهتها . إلى اللقاء يا مستر جراى ، وأنت يا هارى ، إلى اللقاء . وأعتقد أنك ستتناول العشاء خارج المنزل ، فإذا كان الأمر كذلك فقد أراك فى بيت الليدى ثورنبرى .

قال اللورد هنرى :

- أرجح ذلك يا حبيبتى .

وخرجت الليدى هنرى على عجل ، وتركت وراءها عطراً خفيفًا فى جو الغرفة ، فبدت كعصفور من عصافير الجنة هجر عشه طول الليل وبلّله المطر ، وأغلق اللورد هنرى الباب وراءها ثم أشعل سيجارة وارتمى على إحدى الأرائك ، وقال وهو ينفخ الدخان فى الهواء :

- أنصحك يا دوريان ألا تتزوج من شقراء .

- لماذا ؟

- لأن النساء الشقراوات عاطفيات .

- ولكنى أحب النساء العاطفيات .

- إذاً فلا تتزوج أبداً يا دوريان ، فالرجال يتزوجون حين يقتلهم الملل ، والنساء يتزوجن من باب الفضول ، ولكنهم جميعًا يندمون على ذلك .

- لا أعتقد أنى سأتزوج يا هنرى ، فأنا أحب ، وحبى عاصف مدمر ، ومن كان حبه عاصفًا مدمراً لا يحق له أن يتزوج . هذه حكمة أخذتها عنك يا هنرى ، وها أنذا أطبقها تطبيقًا عمليا كما أفعل بكل ما تقول .

وبعد صمت قليل سأله اللورد هنرى قائلا :

- ومن تكون هذه المحبوبة ؟

فأجاب دوريان جراى فى خجل :

- إنها ممثلة .

فهز اللورد هنرى كتفيه استخفافًا وقال :

- هذه بداية مبتذلة ، وقد كنت أحسب أنك ستأتى بجديد .

- لا شك أن حكمك كان يختلف لو أنك رأيتها يا هارى .

وما اسمها ؟

- سيبيل فين .

- ما سمعت هذا الاسم قط .

- إنها الآن نكرة من نكرات المسرح ، ولكنها ستصبح علمًا من أعلامه يومًا ما ، فهى فتاة نابغة .

- أنت تبالغ يا صديقى ، فالنبوغ ليس من صفات النساء ، إنما النساء تحف تزين الحياة ، فأدمغتهن لا تشتمل على فكرة واحدة ، ولكن حديثهن ساحر . المرأة تمثل انتصار المادة على العقل ، والرجل يمثل انتصار العقل على الضمير .

- ما أقسى أحكامك يا دوريان !

- أنا أقدر ما أقول يا صديقى ، فأنا أشتغل الآن بتحليل نفسية النساء ، وقد وجدت الموضوع أوضح مما كنت أتوقع ، فتحليلى دلنى على أن هناك نوعين لا ثالث لهما من النساء : المرأة الطبيعية والمرأة المزججة . أما المرأة الطبيعية فلها فوائد جمة ، ويكفى أن يراك هناك الناس تتعشى مع امرأة طبيعية

حتى يصفوك بالوقار ، أما المرأة المزججة فسحرها عظيم ولكن لها عيبًا واحدًا ، وهو أنها تستعمل المساحيق لتغير من سنها . لقد كانت جداتنا يستعملن المساحيق ليجدن فن الحديث ، لأن أحمر الشفاه يلهب الذكاء ، وقد انتهى ذلك العصر ، أما اليوم فالمرأة لا يرتاح لها بال حتى تبدو أصغر من بنتها بعشر سنوات على الأقل ، أما عن فن الحديث فقد فقدته نساؤنا ، ولن نجد الآن فى لندن كلها أكثر من خمس سيدات حديثهن يَشُوق ، منهن اثنتان لا يسمح لهما بدخول الأوساط الشريفة،ولكن حدثنى عن فتاتك النابغة هذه . متى عرفتها ؟

- إن آراءك تخيفنى يا هارى .

- دعنا من هذا الآن . متى عرفتها ؟

- منذ ثلاثة أسابيع تقريبًا .

- وأين عرفتها ؟

- سأروى لك حكايتها كاملة يا هارى ، ولكنى أطلب منك أن تكون منصفًا ، وتذكَّرْ أنك السبب فى كل ما حدث؛ لأن حياتى تبدلت منذ عرفتك ، لقد أثرت فى رغبة جامحة لمعرفة كل شىء ، وظللت أيامًا بعد لقائنا الأول يعذبنى فضول شديد ، فما من مرة جلست فى هايدبارك أو مشيت متسكعًا فى بيكاديلى إلا وكنت أتفحص الغادين والرائحين ، وأفكر فى حياتهم الخاصة كيف تكون ، وكنت أستريح إلى بعضهم ، وكان بعضهم يملؤنى جزعًا ، وهكذا انتشر فى جو حياتى سم لذيذ ، وتفتحت حواسى لكل ما يرضيها ، وحدث ذات مساء أن خرجت نحو الساعة الخامسة أنشد المغامرة ، وأحسست أن لندن ، مدينتنا البشعة الغبراء هذه بخلائقها الحاشدة وخطاياها الجميلة وخطاتها الأشقياء كما وصفتها أنت مرة يا هارى ، أحسست أن هذه المدينة قد خبأت لى فى مجاهلها شيئًا ، وجاء ببالى ألف خاطر وخاطر ، وأحسست بالخطر يدنو فأذكى إحساسى بالخطر إحساسى بالحياة ، وتذكرت قولك لى يوم تعشينا معًا أول مرة إن سر الحياة الحقيقى هو البحث عن الجمال ، ولم أكن

أطلب شيئًا بعينه ، بل مضيت أتجـول شرقًا ، ثم ضللت طريقى فى تيه معقد من الشـوارع المظلمة والميـادين السوداء الجـرداء ، فلما بلغت السـاعة الثـامنة والنصف وجدتنى أمام مسرح مهمل صغير مـصابيحه عالية وإعلاناته خالية من الذوق ، ورأيت ببـابه يهـوديًا يلبس صـداراً لم أر مـثله فى حيـاتى ويدخن سيجاراً قذراً ، وعلى صدره تدلت سلسلة كـستها المواد الدهنية ، ولمعت ماسة ضخـمة وسط قمـيصه ، وحين وقع بصـره علىّ رفع قبعـته فى تذلل عظيم ، وهتف بى قائلا : « أترغب فى مـقصورة يا سيدى اللورد ؟ » فـجذبنى منظره لأنه بدا كالوحش الضـارى ، ونقدته جنيـها كامـلا ، ثم وجدت طريقى إلى المقصورة الأمامية ، ولعلك تسـخر من مسلكى العجيب هذا ، ولكنى لا أعلم ماذا حملنى على الدخول ، ومع ذلك فلـو لم أدخل يا صديقى لفاتنى أجمل تجربة مرت بى فى حياتى . ها أنت تضحك سخرية منى ، فما أقساك يا هارى .

- لست أضحـك ، أقصد لست أضـحك سخـرية منك ، ولكن لا تقل أجمل تجـربة مرت بك ، بل قل أول تجربة ، فـسوف تجد دائمًـا من تحبك ، وسـوف نطلب الحب لذاته دائمًـا ، فالعـواطف الصاخبـة حكر لأمثـالنا من المتبطلين ، وهى المبـرر الأوحـد لوجـود أرستقراطية خاملـة . فلا تَخْشَ شيئًا يا دوريان ، لأن المستقبل يخبىء لك السعادة التى تنشدها ، وما هذه إلا البداية .

فقال دوريان جراى غاضبًا :

- أتحسبنى تافه العاطفة إلى هذا الحد ؟

- كلا . بل أحسبك قوى العاطفة إلى حد كبير .

- ماذا تعنى ؟

- اسـمع يا بنىّ إنمـا يـؤمـن بالتخصص أصـحاب العـقـول التفاهـة ، وما يسمونه بالوفاء أسميه أنا الكسل الناجم عن العادة ، أو أسميه فقراً فى الخيال حسب الحالة . إن الإخلاص فى الحياة العاطفيـة يشبه انتظام التفكير فى الحياة

العقلية ، كلاهما أمارة الفشل . ما هذا الوفاء الذى يتحدث عنه الناس ! لابد أن أحلـلـه يومًا مـن الأيـام . إنه يقوم علـى غريزة الملكية ، وكم من شيء لا نجد بأسًـا من لفظه لولا خـوفنا من أن يلتقطه الآخـرون ، ولكن امض فى روايتك فأنا لا أحب أن أقاطعك .

- أقول وجـدتنى جالسًا فى مقـصورة صغيـرة قبيحـة المنظر ، ووجدت أمامى على المرسح مـباشرة سـتاراً عليه نقـوش مبتـذلة ، وأجلت بصرى فى جنبات الدار من وراء ستار مقصورتى فوجدتها داراً حقيرة تزينها رسوم سخيفة لكوبيد ومـا شاكل ذلك ، وكانت الصـالة والشرفات مـلأى بالنظارة ، ولكن المقاعـد الأمامية كـانت خالية تمامًـا ، وكنت ترى بائعات البرتقـال ، وشراب الليمون يجلن بين الحضور ، وكنت تسمـع الحضور يقشرون الفـول فى جـلبة لا حد لها .

- ما أشبه هذا المسرح بمسرح شكسبير !

- أعتقـد أنـه يشبهـه من كل الوجوه ، ولكن نفسى ضاقت به ، ولم أدر ما يجب علىّ أن أفعله ، ثم لمحت فجأة لوحة كُتب عليها اسم الرواية . فماذا تظنها كانت يا هارى ؟

- لعلها كـانت رواية « الأبله » أو رواية « المغفلة البـريئة » فـآباؤنا كانوا يحبـون هذا النوع من المسرحيـات ، وأنا فى كل يوم أزداد اقتناعًا بأن مـا كان يصلح لآبائنا لم يعد يصـلح لنا ، سواء أكان ذلك فى الفن أم فى السيـاسة . والمثل الفرنسى يقول : « الأجداد دائمًا مخطئون » .

- ولكن الرواية كانت « روميو وجوليت » وهى من الروايات التى تصلح لنا يا هارى ، وأعـترف لك بأن فكرة تمزيق شكسـبيـر فى ذلك الجحـر القذر ضايقنى كثيراً ، بيد أنى قررت أن أشاهد الفصل الأول ، وسبقت التمثيل قطع موسيـقية عزفتـها فرقة مزعـجة على رأسها شاب يهـودى ظل يدق على بيانو مهشم حتى كدت أنصرف من فـرط غيظى ، ولكن الستار ارتفع أخيراً ، وبدأ

التمثيل ، وخطر روميو على المسرح فإذا به كهل بدين يشبه برميل البيرة ، له حاجبان مضحكان وصوت أجش يصلح فعلا لتمثيل المآسى ، ولم يكن مركوشيو بأحسن حالا من روميو ، فقد كان يقوم بدور مركوشيو مضحك رخيص كثيراً ما زجّ بين سطور شكسبير فكاهات من عنده ، كما أنه كان يعطل التمثيل أحيانًا ليتبادل الفكاهات مع الجمهور . نعم ، كان روميو ومركوشيو جديرين بالسخرية ، كما كان المنظر ذاته جديراً بالسخرية ، فقد بدا بيت السيد كابيوليت بفيرونا كأنه بيت من بيوت الفلاحين ، ولكن چولييت كانت آية عجبًا يا هارى ! كانت دون السابعة عشرة ، يشبه وجهها الصبوح المستدير الزهرة المتفتحة ، ويشبه رأسها الصغير الدقيق إلهة من آلهة اليونان ذات ضفائر ، لا هى بالسوداء ، ولا هى بالشقراء ، أما عيناها فقد كانتا ينبوعين يفيضان بالعواطف السخية ، بل كانتا بنفسجتين يترجرج فيهما قطر الندى ، وأما شفتاها فهما أوراق الورد . نعم ، كانت چولييت آية عجبًا .
وأنت القائل إن مشهد الأسى لا يحرك فيك ساكنًا ، وإن مرأى الجمال وحده هو الذى يزلزل كيانك ويجمع فى عينيك العبرات ، فلتصدقنى إذاً يا هارى حين أقول إنى ما كدت أرى هذه الفتاة حتى استعبرت عيناى فحجبها عنى ضباب المقل ، كذلك كان صوتها آية عجبا ، بدأت خفيضًا حنونًا ، رخيم النبرات يكاد كل من يسمعه يخال أنها تتكلم له وحده ، ثم ارتفع قليلا فحسبته صوت ناى شجى بعيد ، فلما جاء مشهد الحديقة ، وما دار فيها من مناجيات الغرام البرىء ارتعش صوتها من فرط السعادة ، فجاءنى كأغاريد البلابل فى مطلع الصباح ، ولكنه علا واضطرب حتى بلغ طبقة الجنون .
وأنت تعلم يا هارى ما للصوت من وقع فى النفس ، فصوتك وصوت سيبيل فين لا سبيل إلى نسيانهما ، وكلما أغمضت جفنى سمعتك تتكلم وسمعتها تتكلم ، ولكن شتّان بين ما تقولان ، ولست أدرى أىَّ الصوتين أتبع ! لست أرى ما يمنعنى عن حبها ، وإنى لأحبها من أعماق قلبى ، فهى كل ما بقى لى فى الحياة ، وأنا أسعى لرؤيتها كل ليلة ، فهى آنًا تلعب روزاليند ، وآنًا تلعب

إيموجن ، ولقد رأيتها تموت فى قبـر دامس بإيطاليا ، وترشف السم من شفتى حبيبها ، ولقـد رأيتها تجوس خلال غابة آردين مستخفـية فى زى صبى جميل يلبس تزلك وصداراً وقـبعة أنيقـة . رأيتها وقـد جئت فى حضرة ملك فـاجر تهديه إكليلاً من الأشواك يحز فى جبينه ، وباقة من الأعشاب المرة تنغص عليه مذاق الحـياة . كـذلك رأيتها فى ثيـاب ديديمونة الطاهرة ، وقد أطبـقت على جيدها البض يد الغيرة السوداء . نعم ، لقد رأيتها فى كل زى وفى كل عصر . إن النساء التافـاهات لا يلهبن الخيال؛ لأنهن مشـدودات إلى جيلهن بوثاق من حديد ، ومـهمـا أضفـيت عليهن من السـحر فلن يتـبدل فيـهن شىء ، لأن طبيعـتهن خالية من الأسرار ، لأن ابتـسامتهن مدروسة ثابتـة لا تتجدد ، لأن حياتهن بركـة ضحلة آسنة ، فصباحهن نزهة فى هايد بارك ، وعـصرهن لغو حول فنـاجين الشاى ، لأنهن يتـبعن أحاديـث النماذج فى الزى وفى قـواعد السلوك ، لأنهن دائمًا فى انتظارك ، فأى لغز فى كل هذا يجذبنا ويثير فضولنا ؟ أما المـثلات فهن من جـبلّة مختلفـة . أى هارى ! لماذا لم تعلمنى أن حب الممثلات هو أقيم ما فى الحياة ؟

- لم أعلمك ذلك يا دوريان لأنى أحببت منهن عددًا كبيرًا .

- أظنك أحببت ذلك النوع ذا الشعر المصبوغ والوجه المدهون .

- وما ضـرر الشعر المـصبوغ والوجـه المدهون ؟ إن سحرهمـا عظيم فى بعض الأحيان .

- ليتنى لم أحدثك فى موضوع سيبيل فين .

- هذا مستحيل يا دوريان ، فلن تستطيع أن تكتم عنى شيئاً بعد الآن .

- هذا صـحيح يـا هارى ، فسلطـانك علىّ عظيم ، وهو يرغـمنى على الإفـضاء لك بكل شىء ، ولو أنى ارتكبـت جريمة لقـصدتك واعـترفت بهـا أمامك ؛ لأنك تفهمنى وتقدر عواطفى .

- إن أمثالك من الناس يا دوريان هم النور الذى يجلو ظلام الحياة ، وأنتم لا ترتكبون الجرائم ، ومع ذلك فأنا سعيد بهذه المجاملة . إلىّ بعلبة الكبريت . والآن إلى أى حد وصلت مع سيبيل فين ؟

فنهض دوريان جراى غاضبًا وقال :

- هذا اجتراء منك يا هارى . إن سيبيل فين قدس حرام !

أجاب اللورد هنرى فى حنان غريب :

- وهل غير الأقداس المحرمة يستحق أن نلمسه ؟ ثم إنى لا أفهم معنى لغضبك ، فسيبيل فين ستكون ملكًا لك عاجلاً أو آجلا ، وإن العاشق ليبدأ غرامه بخداع نفسه ، ويختمه بخداع الآخرين ، وهذا هو ما يسمونه الحب . أعتقد أنك على الأقل تعرفت بها .

- طبعًا تعرفت بها ، فبعد انتهاء التمثيل فى الليلة الأولى جاءنى اليهودى ، وعرض أن يستصحبنى إلى غرف الممثلين ليعرفنى بچولييت ، فثارت ثائرتى وزجرته قائلا إن چولييت قد ماتت منذ قرون ، وأن جثتها مدفونة فى قبر من المرمر بفيرونا . ولما أن سمع هذا الكلام بدت على وجهه أمارات الحيرة ، ولعله حسب أنى كنت ثملاً .

- هذا طبيعى .

- قال : « أتكتب فى الصحف ؟ » قلت : « بل لا أكتب فيها ولا أقرؤها » فبدا عليه غم شديد ، وأسر إلى قائلا إن جميع نقاد المسرح يتآمرون عليه ، وأنهم بلا استثناء قوم مرتشون .

- أعتقد أن رأيه فيهم صحيحًا ، ولكن مظهرهم الرث يدل على أن ثمنهم ليس كبيرًا .

فضحك دوريان جراى وقال :

– ولكن فهمت من كلامه أن ثمنهم أبهظه . مهما يكن من شيء فقد رأيت أنوار المسرح تنطفيء حين بلغنا هذه المرحلة من الحديث ، وكان لا بد لى من الانصراف ، فألحّ علىّ فى أن أدخن سيجاراً كان يعتقد فى جودة نوعه ولكنى أبيت ، وفى الليلة التالية قصدت المسرح ثانية فلما رآنى انحنى حتى كاد أن يقبل الأرض بين يدى ، وأنشأ يؤكد لى أنى حامٍ من حماة الفنون كبير . وكنت أتأذى من منظر هذا الرجل ، ولم يشفع له عندى إلا تفانيه فى حب شكسبير ، فقد قال لى ذات مرة فى شيء من الزهو إن إفلاسه أشهر خمس مرات ، وفى كل مرة كان شكسبير هو السبب كأن فى ذلك شرفًا له .

– نعم ، إنه شرف مؤكد يا صديقى ، بل شرف عظيم ، فعامة الناس يفلسون طمعًا فى نشر الحياة ، ومن جر الشعر عليه الخراب فهو بطل كريم ، ولكن متى كان أول لقاء بينك وبين الآنسة سيبيل فين ؟

– كان ذلك فى الليلة الثالثة ، وكانت تلعب دور روزاليند ، فألقيت إليها بعض الأزهار لأظهر إعجابى بها ، واختصتنى بنظرة أو خيِّل إلى أنها اختصتنى بنظرة ، وأخيراً لم يسعنى إزاء إصرار اليهودى إلا أن أرافقه إلى غرف الممثلين . ألا ترى أن رغبتى عن لقائها كانت غريبة حقّاً ؟

– كلا ، لست أرى ذلك ؟

– وما السبب ؟

– فلننس هذا الآن ولنؤجله إلى وقت آخر . إنما أحب أن أسمع بقية حديثك عن هذه الفتاة .

– كانت خجولا لا حد لخجلها ، رقيقة لا حد لرقتها ، تشبه الأطفال فى براءتها ، أما عيناها فقد استجابتا لإطرائى فى دهشة ساحرة حين ذكرت لها رأيى فى مواهبها الفنية ، فعلمت أنها لم تكن تعرف قدر نفسها ، وكنا ثلاثنا

مضطربين يرنو أحدنا إلى الآخر فى سذاجة كأنه طفل غرير ، على حين وقف اليهودى العجوز بباب الغرفة يتمدح بشمائلى ويتمدح بشمائلها ، ولا ينفك يلقبى بسيده اللورد حتى اضطرنى أن أؤكد لسيبيل فين أنى لست من أهل الألقاب ، فقالت فى سذاجة « أنت عندى أشبه بأمير منك بلورد ، وسأسميك الأمير الساحر » .

- أقسم لم يا دوريان أن الآنسة فين تحسن المجاملة .

- إنك تسيء فهمها يا هارى ، فما أنا فى نظرها إلا بطل من أبطال المسرحيات . إنها تجهل الحياة جهلاً تامًا ، فهى تعيش مع أمها ، وهى عجوز فاتنة رأيتها أول ليلة تلعب دور الليدى كابيولويت فى « روميو وجولييت » ويبدو لى أنها كانت أحسن حالا فيما مضى من الأيام .

قال اللورد هنرى وهو يعبث بخواتمه :

- نعم ، هذا الطراز من النساء ليس غريبًا عنى .

- لقد أراد اليهودى أن يقص علىّ ماضيها ، ولكنى أفهمته أن هذا لا يهمنى .

- حسنًا فعلت ، فمآسى الآخرين فيها دائمًا ما يثير فى النفس الامتعاض.

- إن سيبيل فين هى كل ما يهمنى فى الموضوع ، أما نشأتها فلا تعنينى ، وهى عندى ملك هبط من السماء ، وأنا أسعى إليها كل ليلة لأراها على المسرح فيزداد كل ليلة بهاؤها .

- وهذا بالطبع يفسر انقطاعك عن العشاء معى فى هذه الأيام . لقد جال ببالى أنك تمر فى اختبار جديد ، ولكنى أتصوره من نوع آخر .

- نحن نتغدى معًا كل يوم يا هارى ، فإن فاتنا ذلك جئتك فى أعجاز الليل ، وقد رافقتك مرارًا إلى دار الأوبرا .

- ولكنك تتأخر فى المجيء كثيراً .

- وما حيلتى فى ذلك ؟ إنى أذهب كل ليلة لأراها تمثل ، ولقد أنصرف بعد فصل واحد ، ولكنى لا أتخلف ، لأنى أظمأ إلى رؤيتها كل مساء ، وكلما فكرت فى الروح الصافية التى تسكن جسدها العاجى الجميل ارتجفت رهبة .

- أتستطيع أن تتعشى معى الليلة يا دوريان ؟

فهز دوريان رأسه وأجاب :

- كلا ، فهى الليلة أيموچين ، وهى غداً چولييت .

- ومتى ستكون سيبيل فين ؟

- هذا لا يحدث مطلقًا .

- إذاً ، فاقبل تهانئى .

- ما أقساك يا هارى ! إنها ليست شخصًا واحداً ، بل هى جميع بطلات الخيال تركزن فى شخص واحد . إنك تسخر منى ، ولكنى أؤكد لك أنها فتاة موهوبة ، وأنا أحبها ولا بد أن أجعلها تبادلنى حبى . وأنت يا من قرأت رموز الحياة وطالعت أسرارها لا تنهنى عن حبها ، بل علمنى رقية أستطيع أن آسر بها فؤاد سيبيل فين . أريد أن أثير الغيرة فى قلب روميو . أريد أن أهنأ معها ليشقى شهداء الغرام بهنائنا . أريد أن أهنأ معها لتحرق أنفاسنا الملتهبة رميمهم البارد المتآكل . اللهم غفرانك ! إن حبى لها قد بلغ مبلغ الوثنية .

وفيما هو يقول ذلك كان شديد الاضطراب يقطع أرض الغرفة جيئة وذهابًا ، وقد اشتعلت فى خديه نار حامية .

وكان اللورد هنرى يتأمله فى سرور خفى ، فقد رأى الصبى الخجول المنكمش الذى عرفه فى استديو بازيل هولوورد يتحول إلى فتى ذى شخصية

وإرادة . لقد نمت روحـه كما تنمو الزهرة ، وتفـتحت أوراقها حمـراء كألسنة اللهيب . نعم . لقد أطلت روحـه من مخبئها العمـيق حيث لا يراها أحد ، واندمجت فى الجسد الملتهب بالأشواق فأصلتها أشواق الجسد ناراً .

قال اللورد هنرى أخيراً :

- وعلام أزمعت ؟

- تعال معـى إلى المسرح أنت وبازيل هولوورد ، لتشاهدا تمـثيلها ، وأنا واثق من النتيجة تمامًـا ، فما من شك فى أنكما ستقنعان بأنهـا فتاة موهوبة ، وبعد ذلك لا يبقى إلا أن نتشلها من براثن اليهـودى ، فهى مرتبطة معه بعقد مدته ثلاث سنوات بقيت منها سنتان وثمانية شهور ، ولا بد أن أعوضه بالمـال عن فسـخ العقد ، وحـين يتم لى ذلك أستـأجر لها مـسرحًـا فى الوست إند وأظهرها للناس بما يتناسب مع كفايتها ، ولسوف يجن بها الناس جنونى بها .

- هذا محال يا دوريان .

- نعم . سوف يجن الناس بها ، فهى تملك الشخصية الناجحة فضلاً عن استـعدادها الفني وتمكنهـا من أصول التـمثيل ، ولقد قلت لى فى أكـثر من مناسبة إن عصرنا تسيره الشخصيات لا المبادىء .

- إذا كان الأمر كذلك فمتى نذهب ؟

- اليوم يوم الثلاثاء ، فليكن موعدنا ليلة الغد فهى تمثل جوليت .

- اتفـقنـا إذاً ، وليكن لقـاؤنـا بمطعم بريسـتـول فى السـاعـة الثـامنة ، وسآتيك ببازيل .

- بل فى السـادسة والنصف يا هـارى ، فلا بد أن نكون هناك قـبل رفع الستار . نعم ، لا بد أن تراها فى الفصل الأول حين تقابل روميو .

- ماذا دهـاك يا هـذا ؟ إن شـهـود التمثيل فى السادسة والنصف عمل لا تستسيغة النفس كأكل اللحم مع الشاى أو قراءة القصص الإنجليزية ، فلنلتق

فى الساعــة السابعــة وإلا فلا ، فمــا من چنتلمان يتعــشى قبل الســابعة . أيُّنا يتصل ببازيل ؟

- مسكين بازيل ، فأنا أعامــله أسوأ معاملة ، وقد احتجــبت عنه أسبوعًا كاملاً ، وهذا جحود منى شديد لأنه أرسل إلىّ صورتى بعد أن وضعها داخل إطار جميل صممه بنفسه ، وأنا جد سعيد بهذه الصورة برغم أنى أغار منها ، فهى تصغرنى بشهــر كامل ، ولعله حانق علىّ ، فمن الأصوب أن تكتب أنت إليه بهذا الموعــد ، وأنا أكره أن أواجهه وحدى ، وأضيق بــكثير مــن حــديثه لأنه لا ينفك يسدى إلىّ نصائحه الأخلاقية .

فابتسم اللورد هنرى وقال :

- إن الناس يجودون للغير بما هم فى أمسّ الحاجــة إليه ، وهذا ما أسميه الكرم الذى زاد عن حده فانقلب إلى ضده .

- ولكن بازيل خير من عرفت من الــرجال برغم أنه محدود الأفق بعض الشىء ، وقد أدركت ذلك فيه منذ أن عرفتك يا هارى .

- إن بازيل يضــع كل صفاتــه الجــذابــة فى عمله ، وبذلك لا يبقى لنا منه إلا أحكامه الفاسدة ومبادئه القومــية ومنطقه السليم . وما عرفت فنانًا قط جذاب الشخــصية إلا وكان تافــه الفن ، أما كبار الفنــانين فأشخاصــهم تفنى تمامًا فى عملهم ، فلا يبقى للعالم من أشخاصهم ما يثير اهتمام أحد . والشاعر الفذ، أقصد الشاعر الفذ بمعنى الكلمة ، رجل خلت حياته من الشاعرية ، أما صغار الشعراء فيسخرون الدنيا بشخصياتهم العجيبة ، وكلما انحطت قوافيهم ارتفعوا فى عيون الناس ، حتــى لتجد أن مجرد نشر ديوان من الشعــر الركيك يجعل من صاحبــه شخصيــة تأسر القلوب ، فصغــار الشعراء يمارسون الــشعر الذى عجزوا عن قوله ، وكبارهم يقولون الشعر الذى خافوا من ممارسته فى الحياة .

قال دوريــان جراى وهو يصب شــيئًــا من العطر على منديله من زجــاجة كبيرة على المــائدة غطاؤها ذهب خالص :

- أصحيح ما تقوله يا هارى ؟ لا بد أنه صحيح لأن كل ما تقوله صحيح. والآن يجب أن أنصرف ؛ فأيموچين فى انتظارى . وداعًا ، ولا تنس موعد الغد .

ولما انصرف دوريان جراى أغمض اللورد هنرى جفنيه الثقيلين واسترسل فى التفكير ، وكانت الصلة بينهما موضوع تفكيره . وجد اللورد هنرى أن اهتمامه بدوريان جراى أكيد لا شك فيه ، ومع ذلك فإن اهتمام دوريان جراى بشخص آخر لم يثر فى نفسه لواعج الغيرة كما أثار من قبل فى نفس بازيل هولوورد ، بل أثار فيها الغبطة والسرور ، وكان يجد لذة فى دراسته فازدادت بذلك لذته . لقد كان اللورد هنرى شديد الإعجاب بمنهج التاريخ الطبيعى ، ولكنه كان يجد أن مادة هذا العلم مادة تافهة لا قيمة لها ، لم يكفه تشريح الحشرات ، فبدأ بتشريح نفسه ، وانتهى بتشريح الآخرين ،وامتلأ إيمانًا بأن الحياة الإنسانية هى كل ما يستحق الدراسة على وجه الأرض ، وأن كل ما عداها ثانوى إذا قيس بها ، ولكن دراسة الحياة الإنسانية لا ريب تؤثر فى صاحبها ، ولقد تعصف به عصفًا شديدًا ، فمن يتأمل النفس الإنسانية تنصهر فى البوتقة بنار الألم آنًا ، وبسعير اللذة آنا ؛ لا يستطيع أن يحتفظ بهدوئه كأن على وجهه قناعًا من زجاج جامد ، ولا يستطيع أن يمنع دخان العواطف المتأججة من أن يملأ شعاب رأسه بالأحلام البشعة المزعجة والأوهام الكدرة السوداء . إن فى الحياة سمومًا عجيبة لا سبيل إلى معرفة خواصها إلا أن تتسمم بها النفس ، وإن فى الحياة أمراضًا غريبة لن يفهمها بنو الإنسان إلا إذا نزلت بهم ثم خرجوا منها ناقهين ، ولكن ثمرة الاختبار شهية ، والحياة حلو مذاقها لمن عرف حقيقتها ، وما ألذ أن يتأمل الإنسان العاطفة الرقيقة تقسو حتى تصير كالصارم المشحوذ ، والعقل الغليظ يرق وتضفى عليه العاطفة جميل الألوان ، ويرى كيف يلتقيان وكيف يفترقان ! إن الثمن الذى ندفعه لنظفر بهذه التجربة بخس مهما علا ولوجدنا بالحياة ذاتها ، فالإحساس أثمن ما فى الوجود ، وفى سبيل الإحساس يهون كل شىء .

كان اللورد هنرى يعلم أن كلماته المختارة ذات الجرس الجميل هى التى جعلت روح دوريان تتجه إلى هذه الفتاة الصغيرة ، وتمثل أمامها فى خشوع ، وحين فكر فى ذلك أضاء فى عينيه بريق السرور ، فكان يحس بأنه خلق هذا الفتى خلقًا جديدًا بعد أن كان محض حلية أنيقة تكمّل جمال الصالونات ، وأنه أنضجه قبل الأوان . إن عامة الناس ينتظرون حتى تكشف الحياة لهم عن خباياها ، أما الأقلون ، وهم الأصفياء ، فيرون خبايا الحياة قبل أن يسقط عنها الحجاب . وما هذه وظيفة الفن، بل وظيفة الأدب على وجه التخصيص لأنه يتصل بالعقل وبالعاطفة ، ولكن الحياة تجود من آن لآخر بشخصية فذة معقدة تؤدى وظيفة الفن ، وهذه الشخصية الفذة المعقدة هى فى ذاتها أثر فنى صاغته يد « الحياة » وما الحياة بأقل قدرة على الخلق من الشعراء أو الرسامين أو المثالين ، فلا عجب أن تخلق الحياة النماذج البشرية الرائعة .

نعم ، إن الفتى قد نضج قبل الأوان ، وها هو ذا يجنى الثمار وهو بعد فى باكورة الربيع ، تضطرم فيه حرارة الشباب ويجرى دمه الدفاق ، ولكن دوريان جراى قد بدأ يعى ما يحدث له ، ولذا كان تطوره متعة كبرى لمن يتبعه عن كثب ، فهو جميل المحيا ، جميل الروح ، وهو فتنة للناس ، فسيان أن تطيب نهايته أو تسوء ، فما كان أشبهه بشخص سحرى فى مسرحية سحرية نرى أبطالها يرفلون فى حلل السعادة فلا نهتز لأفراحهم ، ثم تنزل بهم الكروب فتشجينا أحزانهم وتبدو لنا جراحهم كالورود الحمراء .

عجبًا للروح وعجبًا للبدن ! عجبًا للبدن وعجبًا للروح ! إن الروح لا تخلو من المادية ، والمادة تعرف لحظات الوجد الروحى . ولقد تسمو الحواس وتصفو ، ولقد يظلم العقل ويكفهر ! هل منا من يعلم أين تنتهى نوازع الجسد ، وأين تبتدئ نوازع الروح ؟ إن التعاريف التى يتفضل بها علينا علماء النفس تعاريف أولية لا تنهض على أسس مكينة ، ونحن مع ذلك

لا نستطيع أن ننتصر لفريق منهم على فريق . والسؤال الذى سأله الإنسان منذ القدم لا يزال بلا جواب : ترُى الروح شبح يسكن الجسد ، بيت الخطيئة ؟ ترُى الجسد كائن فى الروح كما قال چيوردانو برونو ؟ إن فصل الروح عن المادة لغز قد حير ألبابنا ، كما أن زواج الروح بالمادة لغز بلبل أفهامنا .

ثم بدأ يتساءل عما إذا كان فى وسع الإنسانية حقًا أن تجعل من علم النفس علمًا بالمعنى الموضوعى الكامل ، علمًا يفسر لنا كل نبضة من نبضات الكائن الحى ، فنحن إلى هذه اللحظة نخطىء فى فهم أنفسنا ولا نصيب فى فهم الآخرين إلا قليلا ، وليس للاختبار أية قيمة أخلاقية بيننا ، فهو لا يتجاوز أن يكون كلمة نطلقها على ما نرتكبه من أخطاء . أما علماء الأخلاق فقد دأبو على تصوير الاختبار على أنه تحذير للمستقبل من أغلاط الماضى ، وتقويم لا بد منه فى تكوين الشخصية ، وتنويه لنا بما يجب أن نتبعه وما يجب أن نتجنبه فى الحياة ، ولكن الاختبار ليست له قوة غائبة ، فهو عمل سلبى يوجد دون أن نسعى إليه كالضمير الذى يتكون فينا سواء بسواء ، وكل ما تعلمناه من هذا الدرس هو أن مستقبلنا لا يختلف البتة عن ماضينا ، وأن الخطيئة التى ارتكبناها مرة على مضض نرتكبها مرارًا فى شوق وإقبال .

وكان اللورد هنرى يؤمن بأن المنهج التجريبى هو المنهج الوحيد الذى نستطيع أن نحلل به العواطف تحليلا علميًا . ولا شك أن دوريان جراى كان موضوعًا صالحًا للتجربة ، فهو رهن إشارته فى كل وقت ، وهو يتوقع من هذه التجربة التى يجريها عليه أغنى الثمار ، فحب دوريان جراى لسيبيل فين كان ظاهرة نفسية لها خطرها ، ولا جدال فى أن دافع الفضول كان عنصرًا هامًا فى هذا الغرام الغريب ، وأن الشوق إلى اختبار الحياة ساقه إليه سوقًا ، ولكن الاكتفاء بهذا الوصف تبسيط لهذه العاطفة المركبة، لقد تحولت بفعل الخيال أشواق الجسد التى تعذب يفاعته إلى شىء لا أثر للجسد فيه ، فهو إذًا

يتوهم هذه الـروحانية توهمًـا ، وهذا يجعلهـا أبلغ خطراً . كذلك تولدت فـيه عواطف ، عواطف كم استبدت بنا ، وكم خاتلنا أنفسنا فى حـقيقتها ومنشئها فإن أتفــه العوامـل التى تحركنا لهن العوامل التى نعيها ونسـتقصيها ، وما أكثر ما يحدث أننا نجزى التجارب على أنفسنا حين نظن أننا نجريها على الآخرين .

وفيمـا كان اللورد هنرى سابحًا فى تأملاته هذه طرق خـادمه الباب ، ثم دخل ليذكره بأن وقـت العشاء قد أزف ، وأن عليه أن يسـتبدل ثيابه اسـتعداداً لحيـاة المساء . فنهض وأجال بصره فى الشـارع ، فوجد أن الشفق قـد ضرّج النوافذ العليا فى المنازل المقابلة بذهب أحمر ، فـتوهج زجاجها كأنه ألواح من معدن مصهـور ، وبدت السماء حمراء كالوردة الذابلة ، فتذكـر الحياة الحمراء التى يحياها صديقه ، وعجب للنهاية كيف تكون .

وحين عـاد إلى بيتـه بعد منـتصف الليل وجـد برقيـة تنتظره على مـائدة القاعة، ففضها وقرأها ، فإذا بها من دوريان جراى ، وإذا بها تنبئه بأن دوريان جراى قد عقد خطبته على سيبيل ڤين .

الفصل الخامس

دفنت سيبيل فين وجهها فى حجر أمها العجوز الفانية ، وكانت أمها العجوز الفانية تجلس فى مقعد كبير لم يكن بالغرفة مقعد سواه ، ظهرها لبصيص النور الذى تسلل كالمتطفل فى تلك الغرفة الموحشة ، وهمست الفتاة قائلة :

- ما أسعدنى يا أماه ! إنى سعيدة ، وينبغى أن تقاسمينى سعادتى .

فأفاقت مسز فين ، ومسحت بيدها البيضاء على رأس ابنتها وقالت :

- أنا لا أذق السعادة يا سيبيل إلا حين أراك تمثلين ، فلا تفكرى فى شىء خارج عملك ، لأن مستر إيزاك رجل من أهل المروءة وقد أقرضنا مالا كثيراً .

فتجهم وجه الفتاة ورفعت رأسها قائلة :

- ولكن ما قيمة المال يا أماه ؟ إن الحب أهم من المال .

- لا تنسى أن مستر إيزاك أقراضنا خمسين جنيهًا لنسدد بها ديوننا ، ولنشترى الكساء اللازم لأخيك چيمس ، وهذا ليس بالمبلغ الهين . إن مستر إيزاك شهم كريم .

فنهضت الفتاة ومشت نحو النافذة وقالت :

- لست أرى فيه صفات الچنتلمان ، وهو يحدثنى بأسلوب بغيض .

قالت العجوز فى تذمر :

- وما يكون حالنا بدونه ؟

فهزت سيبيل فين رأسها وقالت ضاحكة :

- لم تعد بنا حاجة إليه يا أماه ، فالأمير الساحر سيدبر لنا أمرنا بعد اليوم .

ثم سكتت ،وتورّد خداها واضطربت أنفاسها وارتعشت شفتاها وانفرجتا ، لقد هبت عليها ريح الجنوب الساخنة فألهبتها وعبثت بطيات ثوبها الجميل . قالت فى بساطة :

- أنا أهواه !

فأجابتها أمها فى إصرار الببغاء :

- يا لك من طفلة حمقاء ! يا لك من طفلة حمقاء !

وتحركت أصابعها المعوجة الناحلة ، وتحركت معها خواتمها ذات الفصوص الزائفة ، وكانت إشارتها مضحكة لغرابتها فضحكت الفتاة ثانية ، وكان صوتها الغرد يشبه صوت عصفور حبيس ، وضحكت عيناها كذلك وعبرتا عن سعادتها ببريق ، ثم غضت الفتاة طرفها كأنها تريد أن تخفى عن أمها سرّاً ، ثم فتحت عينيها فإذا هما مخضلتان بندى خفيف هو ندى حلم عبر .

وتكلمت أمها العجوز بشفتين باليتين من مكانها فى المقعد البالى فجاء صوتها كصوت ربة الحكمة ، وذهبت تنصح بألا تجازف بشىء وتُعدّد لها الأقوال المأثورة التى تحض على طلب السلامة من كل ما نتعلمه فى كتاب الجبن ويقرّه المجتمع باسم التفكير السليم ، فلم تلق الفتاة بالاً لشىء مما سمعت ، فقد كانت فى شغل بغرامها القوى ، وانطلقت روحها فى كل مكان تبحث عن الأمير الساحر لتعود به وتسكنه أبراج خيالها ، وقد عادت به ، وقد سكن أبراج خيالها ، وقد أحرقت قبلاته شفتيها ، وقد أدفأت أنفاسه جفنيها .

ولكن ربة الحكمة لم تلبث أن غيرت نهجها فى التفكير ، وشرعت تتحدث عن وجوب التعرف على حقيقة هذا الفتى ؛ فلئن كان من أهل اليسار وجب تدبير الزواج . واستمعت سيبيل طويلا إلى حديث المادية السافرة ، ورأت المثل العليا تمزق فى غير رحمة ، ولكنها برغم ذلك ابتسمت وهى ترقب شفتى أمها الباليتين تتلوان عليها هذا الحديث .

وكان صمتها مزدحمًا بالخواطر فأحست فجأة بحاجة إلى الكلام ، ولما أن ضاق صدرها بما يضطرب فيه من عواطف قالت :

- أماه ! لِمَ يحبنى كل هذا الحب يا أماه ؟ أما أنا فأعلم لم أحبه ، فهو إيروس رب الغرام تجسد لى . فماذا يحمل فتى مثله أن يحب فتاة مثلى ؟ كلا يا أماه ، أنا لا أستحق أن أكون موضع حبه ، ومع ذلك فأنا لا أحس بأنى مخلوق تافه برغم رفعة مكانته فى المجتمع وضعة مكانتى ، وإنى لفخور بنفسى ، جد فخور . حدثينى يا أماه ، هل أحببت أبى كما أحب أنا الأمير الساحر ؟

فشحب وجه العجوز الذى لطخته المساحيق ، ونزل بها الألم فجأة وارتجفت شفتاها ، فبادرت سيبيل إليها ، وطوقت جيدها بذراعيها وقبلتها قائلة :

- اصفحى عنى يا أماه ، فأنا أعلم كم يوجعك ذكر أبى ، ولكنك تتعذبين من فرط إعزازك لذاكراه . لا تبتئسى فأنا اليوم سعيدة كما كنت أنت منذ عشرين سنة ، فليت سعادتى تدوم !

- أنت يا بنيتى مازلت صغيرة ، ولا تفهمين معنى الحب ، ثم إنك لا تعرفين عن هذا الفتى كثيراً أو قليلاً ، بل أنت لا تعرفين ما اسمه ومن يكون ، فالمسألة من ألفها إلى يائها محزنة ، وقد كان خليقًا بك أن تظهرى بعض العطف لى ، فأخوك چيمس راحل إلى استراليا ، ونفسى مثقلة بالهموم .

ومع كل ، فإذا كان صاحبك هذا من أهل اليسار كما تزعمين . .

- أناشدك ألا تحطمى سعادتى يا أماه .

فنظرت إليها مسز فين وعانقتها عناقًا مسرحيًا ، وهى عادة لازمتها فى حياتها الخاصة كما تلازم عامة الممثلين . وفيما كانا على هذا النحو انفتح الباب ودخل منه فتى ممتلىء البنية ذو شعر خشن أصفر ثقيل عيناه ويداه على شىء من الضخامة ، وفى حركاته غلظة واضحة ، ولم يكن هذا الفتى قد نال

من التهذيب ما نالته أخته سيبيل ، حتى إن المرء لا يتصور أن بينهما صلة دم . وتفحصته مسز فين بنظراتها فازداد وجهها إشراقًا فقد تخيلت أنه يمثل جمهور النظارة ، وارتاح فؤادها إلى المشهد . قال الفتى فى مزيج من العطف والتذمر :

- هلا ادخرت بعض قبلاتك لى يا سيبيل ؟

فأجابت الفتاة :

- ولكنك تكره أن يقبلك الناس يا چيم . ما أشبهك بدب عجوز !

ثم أسرعت إليه وعانقته . فنظر چيمس فين فى وجه أخته فى حنان وقال :

- هيا بنا للنزهة معًا يا سيبيل ، فلعل هذه آخر مرة أرى فيها هذه المدينة القبيحة لندن ، ولست براغب فى العودة إليها بعد رحيلى .

وتنهدت مسز فين وهى تمسك بثوب من أثواب المسرح مهلهل ، وبدأت ترقع الثوب . لقد ساءها أن ابنها لم ينضم إلى المشهد ليتمم ماله من طابع مسرحى .

- لا تقل مثل هذا الكلام المفزع يا ولدى .

- هذه هى الحقيقة وأنا أعنى ما أقول .

- هذا الكلام يوجعنى يا ولدى ، وأعتقد أنك سوف تعود من أستراليا بعد أن تجمع مالاً كثيراً ، فالحياة فى المستعمرات ليس فيها حياة اجتماعية أو شىء يستحق أن يوصف بهذا الوصف على ما أعتقد ؛ ولذا ستعود إلى لندن بعد أن تجمع المال الكثير ، وتجد لنفسك فيها مكانًا .

قال الفتى :

- وما قيمة الحياة الاجتماعية ؟ أنا لا أحب أن أعرف عن هذه الحياة شيئًا ، وكل ما أبغيه هو أن أجمع بعض المال حتى أبعدكما عن المسرح ، فإنى أبغضه بغضًا شديدًا .

فضحكت سيبيل وقالت :

- ويحنا منك يا چيم ! ما أقساك علينا ! ولكن أتحب حقّاً أن نخرج معًا للنزهة ؟ إن فعلت ذلك أدخلت السرور على قلبى . لـقد كنت أحسبك تنوى توديع بعض أصـدقائك كـتـوم هاردى الذى أهداك تلك البيـبـة القبـيحـة ، وندلانجتون الذى يسخر منك كلمـا رآك تدخنها ، وإنى أشكر لك قضاءك آخر ساعاتك معى ، فأين تحب أن نذهب ؟

هيا بنا إلى هايد بارك .

- كلا يا سيبيل ، فأنا زرى المنظر ولا يتنزه فى هايد بارك إلا الوجهاء .

قالت سيبيل وهى تمسح سترته :

- دعك من هذا الكلام الفارغ يا چيم .

فتردد لحظة ثم قال فى النهاية :

- هيا بنا إذًا ، ولكن عجلى بارتداء ملابسك .

فخرجت من الغرفـة وهى ترقص وصعدت إلى الطابق العلوى وهى تغنى فملأ صـوتها أرجاء البيت ، وسـمع چيم قدميهـا الصغيرتين تضـربان سقف الغرفة ، وطفق يمشى جيئه وذهابًا ، ثم التفت إلى أمه الجالسة فى المقعد الكبير لا تبدى حراكًا وسألها قائلاً :

- هل أعددت أمتعتى يا أماه ؟

كانت مسـز فين تصلح من الثوب فلم تتوقف عن العمل ، وأجـابته بأنها قد أعدت كل شىء . وكانت الأم فى الشهـور الأخيرة تضطرب كلما وجدت نفسها وحيدة مع ولدها الحازم الخـشن الطباع ،وكلما تلاقت عيونهما اضطربت نفسـها وجلا لأنها كـانت تشك أحيانًا فى أنه يعـرف شيئًا عن سـرها . وكان چيمس فين كثيـر الصمت فزاد ذلك الموقف حرجًا ، وبدأت تتذمـر من صمته كعـادة النسـاء اللاتى يجدن فى الهـجوم خـير وسـيلة للدفاع ، ويجـدن فى الاستسلام أضمن وسيلة للانتصار . قالت الأم :

- أرجو أن تجد السعادة التى تنشدها فى حياتك الجديدة هذه ، حياة الملاحة والأسفار ، وتذكر دائمًا أنك اخترت لنفسك هذا المصير ، فقد كان فى إمكانك أن تلتحق بمكتب محام ، والمحامون طبقة لها مكانة فى المجتمع عالية ، ومن كان منهم يعمل فى الريف يختلط بأرقى الأسر .

فأجاب الفتى قائلاً :

- ولكنى أمقت المكتب وأمقت الكتبة ، ولقد أصبت فيما قلت من أننى اخترت هذا المصير بنفسى ، وكل ما أرجوه منك أن تسهرى على سيبيل ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، وأن تدفعى عنها الشرور . نعم يا أماه ، اسهرى على سيبيل وادفعى عنها الشرور .

- هذا كلام عجيب يا ولدى ، فأنا ساهرة على سيبيل فعلا ، ولا محل لمخاوفك .

- بلغنى أن سيداً يزور المسرح كل ليلة ويقصد إلى غرف الممثلين ليراها . ألا ترين فى هذا ضرراً ؟

- هذه أشياء لا تفهمها يا چيمس ، فقد جرت العادة فى مهنة التمثيل أن نجد من الجمهور كل رعاية ، ونحن نسر بهذه الرعاية ونعدها مقياس النجاح ، ولقد كنت فى صباى أقبل باقات الزهر من المعجبين ، ولكن تلك الأيام انقضت ولم يعد الناس يقدرون التمثيل حق قدره . أما سيبيل فأنا أجهل الآن إذا كانت جادة فى صلتها بهذا الشاب أم غير جادة ، ولكنى لا أرتاب فى أن هذا الشاب چنتلمان لا غبار على سلوكه ، فهو جم الأدب معى ، ومظهره يدل على أنه من أهل اليسار ، والأزهار التى يرسلها إلى أختك جميلة حقّاً .

قال الفتى فى خشونة :

- ولكنك تجهلين اسمه .

فأجابت الأم فى هدوء :

- هذا صحيح ، فهو لم يبح باسمه الحقيقى لها ، وأنا أرى أن هذا يضيف إلى جمال الموقف ، فلعله من أبناء الطبقة الأرستقراطية .

فغمض چيمس فين شفته وصاح بأمه قائلا :

- اسهرى على سيبيل يا أماه ، اسهرى على سيبيل .

- أنت تحزننى كثيراً بهذا الكلام يا ولدى ، فما انقطعت قط عن العناية بسيبيل ، ولكنى لا أرى ما يمنع أن ترتبط سيبيل بهذا السيد برباط الزواج ، إذا كان من أهل اليسار ، وأغلب ظنى أنه من أبناء البيوتات ومظهره يدل على ذلك ، ولقد يكون فى هذا الزواج فرصة ذهبية لسيبيل ، وأرى أن زواجهما سيكون غاية فى الانسجام فجمال هذا الفتى نادر حقًا ، يَبْدَه كل من رآه .

أخذ الفتى يتحدث إلى نفسه بصوت خافت ، وينقر زجاج النافذة بأصابعه الغليظة ، فلما التفت ليقول لأمه شيئًا انفتح الباب ودخلت منه سيبيل، قالت :

- مالى أراكما واجمين ؟ ماذا حدث ؟

فأجاب الفتى قائلا :

- لم يحدث شىء إطلاقًا ، وسؤالك لا معنى له ، فمن الطبيعى أن يعمد الإنسان إلى الجد من وقت إلى آخر . إلى اللقاء يا أماه ، وسأعود للعشاء فى الساعة الخامسة . لا تهتمى بأمتعتى فكل ملابسى مرتبة ما عدا القمصان .

فانحنت الأم فى وقار أنهكته الشيخوخة وقالت :

- إلى اللقاء يا ولدى .

ولكن لهجته أحنقتها ، فما كان له أن يحدث أخته بهذا الجفاف ، كما أن نظراته أخافتها . واقتربت شفتا الفتاة الورديتان من خدها الذابل وطبعتا عليه قبلة أرسلت فيه الدفء ، فجالت الأم بنظرها فى سقف الغرفة كأنها تبحث عن جمهور من النظارة ، وقالت فى لهجة مسرحية مضطربة :

- بنتاه يا بنتاه !

وكان الفتى يبغض الأسلوب المتكلف الذى تصطنعه أمه فى الحديث فنفد صبره وقال يستعجل أخته :

- هيا بنا يا سيبيل .

وخرجا إلى الشارع فوجدا النسيم يداعب ضوء الشمس ، وسارا فى طريق بوستون الموحش ، وكان المارة يعجبون لمرأى هذا الفتى العابس الغليظ البنيان الرث الثياب الذى يرافق غادة رشيقة مهذبة رقيقة ، وبدا چيمس فين لعيون المارة كبستانى جلف فى يده باقة من أجمل الورود .

وكان وجه چيم يتجهم بين حين وآخر لفضول المارة ، فقد كان يكره أن يحملق الناس فيه كرهًا لا مزيد عليه ، كرهًا كالكره الذى يتملك أوساط الناس لأنظار المتطفلين ، كرهًا كالكره الذى يتملك العباقرة فى نهاية حياتهم لأنظار المعجبين . على أن سيبيل لم تحس بالأثر الذى كانت تحدثه فى نفوس العابرين ؛ لأن قلبها كان متيمًا معمودًا ، وكان الحب الذى يملأ قلبها يشيع فى شفتيها بشرًا وإشراقًا . لقد كانت تفكر فى أميرها الساحر ، ولم تشأ أن تطرد عنها خياله الجميل فلم تجعله موضوع الحديث، بل طفقت تلغو عن السفينة التى سيبحر عليها چيم ، وعن الذهب الذى سيجده چيم فى انتظاره حين يصل إلى استراليا ، وعن سيدة القصور الجميلة التى سينقذها چيم من براثن حراس الأحراش ، فچيمس لن يبقى بحارًا طول حياته . كلا ! لن يبقى چيمس بحارًا طول حياته ، لأن همته لن تسمح له بذلك . لن تسمح له همته أن يبقى طول حياته حبيسًا على ظهر سفينة قبيحة تتقاذفها الأمواج العاتية وتمزق قلوعها الرياح المسطرة السوداء وتهشم صواريها الأنواء ! إن چيمس سوف يقصد ربان السفينة حين تبلغ ملبورن ويستودعه الله فى أدب كثير ، ثم يترك السفينة وربانها ، ويقصد فورًا إلى مناجم الذهب ، وقبل أن ينتهى الأسبوع سيعثر ولا شك على سبيكة ضخمة من الذهب الخالص ، سبيكة لم يعثر

إنسان على مثلها من قبل ، ويحملها إلى الساحل فى عربة يحرسها ستة من رجال الشرطة ، ولسوف يهاجمهم حراس الأحراش ثلاث مرات فيردوا عنها ثلاث مرات بين قتيل وجريح ولائذ بالفرار ، أو لعل چيمس لا يقصد إلى مناجم الذهب أصلا ، فهى بقاع مقفرة يسكنها السكارى ، ويقتل الناس فيها بعضهم بعضًا فى الحانات ، ويستخدمون أفحش الألفاظ . لعله يصبح راعيًا أنيسًا من رعاة الأغنام ، وفيما هو عائد إلى بيته ذات مساء يرى رجلا من قطاع الطرق يختطف سيدة جميلة من سيدات القصور ، ويطير بها على جواده الأسود فيطارده حتى ينقذ السيدة ، ويعود بها إلى آلها سالمة ، ولسوف تحبه سيدة القصور من أعماق قلبها ، ولسوف يحبها هو من أعماق قلبه ، ولسوف يتزوجان ثم يعودان إلى لندن حيث يقيمان فى دار فخمة هى بهجة الناظرين ، ولكن ينبغى عليه أن يكون حسن السلوك ، وألا يدع للغضب سلطانًا على نفسه ، أو يبدد ما جمعه من المال فى حماقة ، ولسوف تكون السيدة أكبر منه بعام واحد ، ولكنها تعرف عن الحياة الكثير، فتحميه بتجاريبها وتقيه بحكمتها . كذلك سوف يكتب لها چيمس خطابًا مع كل عربة بريد ، وكذلك سوف يذكر أن يتلو صلواته كل مساء قبل أن ينام ، ولسوف يحرسه الله لأن الله يحب الناس ، ولسوف تصلى هى من أجله كذلك ليحرسه بدل المرة مرتين ، وبعد أن تنقضى سنوات قليلة سيعود إليها هنىء النفس واسع الثراء .

كان الفتى يستمع إلى حديثها فى وجوم دون أن يجيب عليها بشىء ، فقد كان حزين النفس لفراق أهله .

ولم يكن هذا كل ما أحزن نفسه . لقد كان يحس برغم قلة تجاريبه فى الحياة بالخطر الذى يتهدد سيبيل ، فهذا الوجيه الشاب الذى يناجى أخته بغرامه لا يمكن أن يكون سليم الطوية . لقد كان من طبقة السادة وهو لهذا يمقته ، وهو يحقد عليه بالغريزة دون أن يجد مبرراً لذلك ، يحقد عليه حقداً طبيعيًا متأصلاً قويًا ، كذلك كان يعرف ما فطرت عليه أمه من الغرور وحب المظاهر ، وهذا ما جسّم خوفه على سيبيل ومستقبلها . إن الأطفال يبدءون حياتهم

بإعـزار الوالدين ، ثم يكبـرون فيـزنون فضـائل الوالدين ورذائلهـما ، ولقـد يغفرون لهم ذنوبهم أحيانًا .

لقد فكر فى أمـه كثيـراً ! وكان يقلقه شىء أراد أن يسـألها عنه . نعم ، شىء أقضّ مضجعه الليالى الطوال ، لقد سمع قومًا ذات ليلة يتهامسون عنهما فى سـخرية وهو فى انتظارهمـا ببـاب المسرح الخلفى ، فـتلاطمت فى رأسـه الأفكار السوداء ، وعادت تلك الهمـسات الساخرة إلى ذاكرته فأوجعـته كأنها السياط هوت علـى وجهه دون رحمة ، وعـبس من جديد ، وعضتـه البُرحاء فعض شفته السفلى . قالت سيبيل :

- لقد كنت منصرفًا عنى يا چيم ، فلم تسمع كلمة واحدة مما قلت، على حين كنت أنا أضع أجمل المشروعات لحياتك المستقبلة . تكلم يا فتى وقل شيئًا .

- وماذا تنتظرين منى أن أقول ؟

فابتسمت وقالت :

- قل مثلا إنك ستكون فتى باراً ، وأنك لن تنسانا .

لكنه هز كتفيه استخفافًا وأجاب :

- بل نسيانك إياى أقوى احتمالا من نسيانى إياك .

فصعد الدم إلى وجهها وسألته قائلة :

- ماذا تعنى يا چيم ؟

- لقـد بلغنى أن لك صـاحبًـا جديـداً . من يكون هذا الرجل ، ولماذا أخفيت علىّ أمره ؟ أعتقد أنه لا يضمر لك خيراً .

فصاحت به :

- كفى يا چيم ! لا تقل فيه كلمة سوء فأنا أحبه .

قال الفتى :

– وكيف تحبين رجلا تجهلين اسـمه ؟ من يكون هذا الفتى ؟ إن من حقى أن أعرف .

– اسمـه الأمير السـاحر ، ألا يعجـبك هذا الاسم ؟ أنت لا تعرفـه أيها الولد الطائش ، ولو أنك رأيتـه لوجدت فيـه صورة الكمال ، ولسـوف تقابله يومًا ما بعد عودتك من استراليا ولسوف تولع به . إن كل من يعرفه يولع به، أما أنا فأحبه . ليـتك تأتى إلى المسرح هذا المساء ، فلسوف يكون هناك ، وأنا الليلة چوليـيت ، ولسوف أجيـد التمـثيل إجادة مـا بعدها إجـادة ، ولسوف يجلس قبالتى ، وأمثل لأرضيه وحده . لسوف أجيد حتى أسحر أعضاء الفرقة أو أخيفـهم منى ، فالحب سبيل الكمال ، ولسـوف يصيح ذلك البائس إيزاك بصعاليكه ومتسكعيه فى الحان قـائلا : « تعالوا واشهدوا ! إن سيبيل فين ممثلة من ممثـلات الجيل ! » لقـد آمن مسـتر إيزاك بمواهبى إيمانًا أعـمى حتى الـيوم ، ولسوف يرى مـواهبى تتكشف أمـامه كرؤيا من رؤى الـفردوس ! إنى لأحس بذلك من أعماقى ، وكل ما أنـا فيه قبس منه فهو ضيـائى ، قبس من أميرى الساحر ، أميرى وحبيـبى وملهمى بمعانى الجمال . إنه غنى بكل شىء ، وأنا فقيرة فى كل شىء ، ولكن الفقر لن يغير من أمرنا شيئًا ، يقولون إن الفقر إذا دخل من الباب خرج الحب من الـشباك ، أما أنا فأقـول إن الفقر إذا دخل من الباب دخل الحب من الشباك . إن أمثالنا تحـتاج إلى تنقيح يا چيم . إن أمثالنا وضعت فى زمهرير الشتاء ونحن الآن فى صيف الحياة ، بل أنا الآن فى الربيع ذى البراعم والعطور والسماء الضحوك .

قال الفتى فى وجوم :

– إن صديقك هذا من طبقة الأشراف ، أليس كذلك ؟

فقالت بصوت عذب :

– بل هو أمير كريم .

– إنه يريد أن يستعبدك .

– وأنا أقبل هذه العبودية طائعة مختارة .

- احذريه يا سيبيل .

- كيف أحذره وأنا أثق فيه ثقة عمياء ، وكيف أتخوف منه بعد أن اتخذت منه صنمى .

- هذا الحب جنون يا سيبيل .

فضحكت سيبيل وأمسكت بذراعه قائلة :

- چيم ، يا حبيبى ، إنك تتكلم كأنك شيخ طاعن فى السن وما أنت إلا حدث صغير ، وسوف يأتى يوم تذوق فيه الهوى بنفسك فتعرفه على حقيقته ، فدع عنك هذا الوجوم يا چيم . ألا يسعدك وأنت راحل إلى استراليا أن تعرف بأنك ستتركنى أسعد نفسًا منى فى أى زمن مضى ؟ لقد قست الحياة علينا معًا ، بل حطمتنا تحطيمًا ، أما الآن فالأمور على خير ما يرام ، فأنت نازح إلى عالم جديد ، وأنا قد وجدت عالمًا جديداً . هيا بنا نجلس على هذين المقعدين ونتأمل سراة الناس غادين رائحين .

وجلسا ترقبهما أنظار الناس ، وكانت أزهار التوليب فى الجانب الآخر من الطريق تهتز فى الهواء وتضىء كالجمر الملتهب ، واهتزت فى الهواء كذلك سحابة معلقة بيضاء وبدت الشمسيات الزاهية الألوان التى يحملها السادة كأنها فراش جسيم .

وحملت سيبيل أخاها على أن يتحدث عن نفسه وعن آماله وأمانيه ، وكان يتكلم فى مشقة وأناة ، وتبادل الأخ والأخت الكلام فى عناية كأنهما لاعبان يتبادلان الكرة . أما سيبيل فقد اختنقت بأفراحها ولم تستطع الإفصاح عما بها ، وكان كل ما ظفرت به من أخيها ابتسامة ارتسمت على فمه الحزين . ومرت بهما عربة مكشوفة ، وفجأة لمحت سيبيل الأمير الساحر ذا الشعر الذهبى والفم البسَّام داخل العربة . لقد كان دوريان جراى يتنزه مع سيدتين .

ونهضت سيبيل من مكانها وصاحت قائلة :

- هو ذا ! هو ذا !

قال چيم فين :

- من ؟

أجابت وهى تتبع العربة ببصرها :

- الأمير الساحر .

فنهض الفتى وأمسك بذراعها فى خشونة وقال :

- أين هو ؟ أين هو ؟ لا بد أن أراه !

ولكن مركبة الدوق بيرويك مرت أمامهما فى تلك اللحظة وحجبته عنهما ، فلما أخلت أمامهما الطريق كانت عربة دوريان قد انطلقت خارج هايد بارك .

قالت سيبيل فى أسف :

- لقد خرج ، فليتك رأيته يا چيم .

- نعم ، ليتنى رأيته ، فإنى أقسم أمام الله أنى قاتله لو مسَّك بسوء .

فارتاعت الفتاة ، ولكن الفتى أعاد عليها كلماته فنفذت كالمدى إلى قلبها ، وبدأ الناس يحملقون فيهما ، وكانت على مقربة منهما سيدة أخذت تضحك منهما كالأطفال . قالت الفتاة :

- هيا بنا يا چيم . هيا بنا .

وشقت طريقها بين المتنزهين يتبعها أخوها ، وأحس چيم بالراحة بعد أن أسمعها وعيده ، وحين بلغا تمثال آخيل التفتت إلى أخيها تكلمه وقد زخر قلبها بالعطف فضحكت وهزت رأسها وقالت له :

- إنك لا زلت صبياً أحمق يا چيم . إنك لا زلت صبيًا شرسًا أحمق لا أكثر ولا أقل ، وأنت لا تفهم معنى ما تقوله . كل ما هنالك أنك تغار منه وهذا سر سخطك عليه ، فليتك تجرب الحب يا چيم ، إن الحب يهذب طبائع الناس ، وما قلته الآن يدل على سواد قلبك .

فأجاب چيم :

- بل أنا أفهم معنى ما أقول ، فأنا فى السادسة عشرة من عمرى ، ولقد لاحظت أن أمنا لا تسهر على سلامتك . إنها لا تفهم كيف تكون التربية الصالحة ، وإنى لأفضل العدول عن السفر إلى استراليا لأضع حدّاً لهذا الخطر وأحميك من الغواية ، ولولا أن أوراقى قد تم توقيعها فعلاً لبقيت معكما .

- لا تغتم كل هذا الاغتمام يا چيم ، فالخطر الذى تتحدث عنه وهم من نسج خيالك ، وأنت الآن تبدو كبطل من أبطال تلك المسرحيات العنيفة السخيفة التى كانت أمنا مولعة بتمثيلها ، فلن أحاسبك على ما قلت ، ولن أفسد بالشجار هنائى الآن بعد أن رأيت الأمير الساحر ، وأنا أعلم أنك لن تؤذى إنسانًا أعزه أنا ، أليس كذلك يا چيم ؟

فأجابها قائلاً :

- نعم ، فلن أمسه بسوء طالما أنك تحبينه .

قالت :

- سأحبه حتى الموت .

- وإلام سيحبك هو ؟

- سيحبنى حتى الموت كذلك .

- من الخير له أن يخلص لك دائمًا .

فنفرت منه خوفًا ، ولكنها عادت فضحكت وأمسكت بذراعه ، فقد تذكرت أن چيم لم يكن سوى صبى غرير .

وبلغا ماربل آرتش فى ركن هايد بارك ولوحا لأمنيبوس فوقف الأمنيبوس وحملهما إلى نقطة قريبة من بيتهما المتواضع فى طريق بوستون ، وكانت الساعة قد تجاوزت الخامسة ، وكان على سيبيل أن تستريح نحو الساعتين قبل أن تبدأ التمثيل ، وألح چيم عليها فى أن تستريح وأراد أن يودعها قائلا إن

تلك اللحظة كانت أنسب لحظة للوداع ، فأمهما لم تكن حاضرة ، ولو قد كانت لجعلت من الوداع مشهداً مؤثراً كعادتها فى كل شىء ،وهو يمقت المشاهد المؤثرة مقتًا شديداً . وتوادع الأخ والأخت فى غرفة سيبيل ، وكان قلب الفتى يلتهب بالغيرة ، وكانت عيناه تومضان بشر مستطير، فقد توهم جيم أن هذا الدخيل ما جاء إلا ليفرق بينهما فثار فى نفسه حقد قاتل ، ولكنه ضعف أخيراً حين عانقته أخته وذهبت تعبث بأصابعها فى شعره ، ورق فؤاده فقبلها قبلة الحنان الصادق ، وحين نزل على الدرج كانت الدموع تترقرق فى عينيه .

وكانت أمه تنتظره فى الطابق الأرضى ، فلما رأته بدأت تلومه على تأخره فلم يجبها بشىء ، بل جلس إلى المائدة ليتناول زاده القليل ، وطن الذباب حول المائدة ، ودب على المفرش الملوَّث ، وكان يسمع عجيج الأمنيبوس وضجيج العربات الرائحات الغاديات فى الخارج فيزداد إحساسه بفوات الزمن ، وعلم أنه لا بد راحل بعد قليل .

وبعد لحظة دفع بالطبق بعيداً عنه ووضع رأسه بين يديه ، وأحس أن من حقه أن يعرف الحقيقة . لقد كان الشك يأكله أكلا ، ولو أن شكه كان فى موضعه لوجب على أمه أن تطلعه على الحقيقة من قبل .

وكانت أمه ترقبه فى خوف عظيم . كانت تتحدث إليه على نحو آلى دون أن تفقه كثيراً مما تقول ، وكانت أصابعها تعبث طيلة الوقت بمنديل ممزق حتى دقت الساعة السادسة فنهض ومشى إلى الباب ، لكنه التفت إليها وأنشأ يتأملها وتلاقت عيونهما فقرأ فى عينيها معانى الاستعطاف الشديد فغضب غضبًا شديداً وقال :

- لدى سؤال أود أن أطرحه عليك يا أماه .

فتاهت عيناها فى أنحاء الغرفة لا تستقران على شىء ولم تجب بكلمة . فاستأنف الفتى حديثه قائلا :

- صارحينى بالحقيقة ، فمن حقى أن أعرف كل شىء . أكنت متزوجة من أبى ؟

فتنهدت فى ارتياح . ها قد جاءت اللحظة العصيبة التى كانت تخشاها الأيام والليالى . جاءت أخيراً ، ولكنها لم تشعر بالرعب القاتل الذى كانت تنتظره . حقًا لقد خاب أملها شيئًا ما ، فقد كانت تتوقع موقفًا حرجًا كمواقف المسرح ، وهى ولوع بمواقف المسرح ، ولكن السؤال جاء بسيطًا لا تنميق فيه ، بسيطًا إلى حد الابتذال ، وكان لا بد من جواب بسيط كذلك . نعم ، لقد كان السؤال خشنًا لا يدل على لباقة ، جاء بلا تمهيد فذكرها ببروفة غير موفقة . أجابت فى بساطة :

- كلا .

وعجبت لبساطة الحياة ، وعجبت لما فى هذه البساطة من غلظة .

قال الفتى وهو يجمع قبضتيه :

- إذاً فقد كان أبى وغداً .

فهزت رأسها وأجابت :

- لقد كان مقيداً بامرأة أخرى ، وكنت أعلم ذلك عنه ، ولكننا تبادلنا الحب ، ولو أنه عاش لجعل لنا معاشًا منتظمًا . لا تقُل فيه سوءاً يا بنى فهو أبوك على كل حال ، ولقد كان فوق ذلك سيداً كريمًا . نعم ، لقد كان أبوك من أسرة كريمة .

فخرجت من فمه اللعنات وقال :

- أنا لا أفكر فى أمرى ، ولكن أفكر فى أمر سيبيل ، فهذا الذى يحبها أو يزعم أنه يحبها سيد كريم كذلك ، ولعله من أسرة كريمة . فما أشبه اليوم بالبارحة .

ومرت لحظات أحست فيها المرأة العجوز بذل عظيم ، فطأطأت رأسها ومسحت دموعها بيد ترتجف وقالت :

- إن لسيبيل أمًّا تحميها ، أما أنا فلم تكن لى أم .

فتأثر الفتى أيما تأثر ، واقترب منها وقبلها ثم قال :

- لقد آلمتك يا أماه بالكلام عن أبى فاصفحى عنى ، وأرجو أن تعتقدى أنى اضطررت إلى ذلك اضطراراً . والآن ينبغى أن أرحل فوداعًا ، ولا تنسى أنه لم يعد لديك الآن إلا شخص واحد تسهرين عليه ، وثقى أنه لو أصاب سيبيل مكروه بسبب هذا الرجل فإنى لمطارده فى أركان المعمورة الأربع وإنى لقاتله أشنع قتلة . أقسم بذلك أمام السماء .

وانتعش الجو حول مسز فين فقد كانت ترتاح إلى المواقف المسرحية ، وها هو ذا ولدها يرغى ويزبد ويهدد ويتوعد ويشير بيديه إشارات حانقة . لقد ألفت هذا الجو على المسرح وكانت تختنق كلما خرجت منه ، فلما سمعت ولدها يتحدث على هذا المنوال عادت إلى حالتها الطبيعية وأحست نحوه بإعجاب شديد لم تحس به من قبل ، ولقد كانت تود أن يستمر الموقف على هذه الدرجة من التوتر لولا أن ابنها وضع له حدًّا ، فالحقائب لا بد من حملها إلى الخارج ، والكوفيات والمناديل وما أشبه ذلك لا بد من البحث عنها ، والوقت ضيق ، وقد تم كل ذلك فعلا وأعقبته مساومة الحوذى على أجره . ولقد منيت مسز فين بخيبة أمل أخيرة ، فقد كانت ترجو أن تكون لحظة الوداع عنيفة بدموعها ، عنيفة بالحسرات ، ولكنها وجدت نفسها تلوّح لابنها فى النافذة بمنديلها الممزق والعربة تبتعد به رويداً رويداً ، نعم . لقد أفلتت منها فرصة كبرى كانت تستطيع أن تعرض فيها ملكاتها ، ولكنها استعاضت عما فاتها بأن شرحت لسيبيل مبلغ وحشتها المستقبلة بعد أن رحل چيمس ، فالآن لم يعد لها سوى شخص واحد تسهر عليه ، ويا لوحشتها المستقبلة . وأعجبتها الفكرة ، فاستظهرت العبارة استظهاراً ، لعل الحاجة تدعو إليها فى

مناسبة أخرى ، ولكنها لم تشر بكلمة إلى ما سمعته من وعيد . لقد كان الوعيد واضحًا لا ريب فيه ، قويًا ، أكيدًا ، ولكنها لم تجد ما يبرره وأحست بأنه سيكون موضع سمرهم فى يوم من الأيام .

الفصل السادس

كـان بين اللورد هـنرى وبازيل هولوورد ودوريان جـراى مـوعـد بمطعم برستول فى ذلك المسـاء ، فلما دخل هولوورد إلى الحجرة الصغـيرة التى أعد فيها الطعام لثلاثتهم قال اللورد هنرى :

- لعلك سمعت آخر الأنباء يا بازيل .

فأجاب الفنان وهو يسلم معطفه وقبعته لخادم المطعم الذى انحنى أدبًا :

- كلا يا هارى ، مـا سمعت شيئًـا ، فما الخبـر ؟ أرجو ألا تروى علىّ أخبـار السيـاسة فـأنا لا أهتم بها ، ولست أجـد بين أعضـاء مجلس العـموم شخصًا واحـدًا يسـتحق أن أرسـمه ، وإن كانت كثـرتهم المطلقـة تحتاج إلى ترميم كثير .

قال اللورد هنرى وهو يتأمل صاحبه ليرى فعل كلماته فى نفسه :

- إن دوريان جراى قد عقد خطبته على فتاة .

ففزع هولوورد وأظلم وجهه وقال :

- هذا مستحيل !

- بل هذا صحيح .

- ومن تكون هذه الفتاة ؟

- ممثلة .

- هذا كـلام غيـر معـقول ، وعـهدى بدوريان أنه أرشـد من أن يرتكب حماقة كهذه .

- أليس من الرشد أن نرتكب الحماقات بين حين وآخر يا بازيل ؟

- ولكن الزواج ليس من الحماقات التى نستطيع أن نرتكبها بين حين وآخر ، يا هارى .

أجاب اللورد هنرى فى تراخ :

- هذا صحيح ، ولكنه لا ينطبق على أمريكا . على أنى لم أقل إنه قد تزوج فعلا ، كل ما قلته إنه عقد خطبته على هذه الفتاة ، والفرق عظيم بين أن تخطب الفتاة وأن تتزوج منها ، فأنا لن أنسى أنى متزوج مع أنى نسيت أيام الخطبة ، بل إنه ليخيل إلىّ أنى لم أمر فى دور الخطبة كسائر الناس .

- ولكن ألا يروعك أن يتزوج دوريان على نبل محتده وعلو مكانته وسعة جاهه من فتاة أقل منه فى كل شىء ؟

- إذ سمع دوريان منك هذا الكلام فهو لا بد ماض فى عزمه ، فالحماقة التى نرتكبها تأتى عادة من الدوافع النبيلة فينا .

- أرجو أن تكون هذه الفتاة طيبة القلب ، ويسوءنى أن أرى دوريان مشدوداً بوثاق من حديد إلى مخلوق بغيض يهوى به إلى الحضيض العقلى والخلقى .

فقال اللورد هنرى وهو يشرب بعض الفرموت وعصير البرتقال :

- إنها جميلة ، والجمال أعلى من طيبة القلب . نعم ، لقد قال لى دوريان إنها جميلة ، وهو قلما يخطىء فى تقدير هذه الأمور ، إن الصورة التى رسمتها له كان لها أثر عجيب فى تنمية إحساسه بالجمال لا يقل عن أثر تعاليمى ، ونحن الليلة ذاهبون لرؤيتها ، هذا إذا لم يخلف دوريان ميعاده .

- أأنت جاد فيما تقول ؟

- طبعًا يا بازيل . لم أكن أكثر جداً فى أى وقت منى الآن .

وشرع الرسام يقطع الغرفة جيئة وذهابًا ، ثم عض شفته ألمًا وقال :

- ولكن أموافق أنت على هذا الزواج يا هارى ؟ محـال أن توافق فما هو إلا نزوة عارضة .

- لم أعد أوافق أو أعترض فى هذه الأيام يا بازيل ، فقد وجدت أن هذه فلسفة سخيفة نواجـه بها الحياة . نحن لم نأت إلى هذا العالم لنطلع الآخرين على أحكامنا الأخلاقـية صحيحة كـانت أم فاسدة ، فأنا لا أكـترث لما يقوله الدهمـاء ، وأنا لا أتدخــل فيمـا يفعله الخاصة ، فإن جذبتنى شخصية إنسان ما وجدت ما يستهوينى فى كل عـمل يعمله ، وفى كل كلمة يقولها ، أيًا كانا . فمـثلا إذا أحب دوريان فتـاة جمـيلة تمثل دور چولييت ورأى أن يخطبـها إلى أهلها ، فلست أجد على ذلك اعتراضًا ، ولو قد تزوج الأمبراطورة مسالينا لما ارتفع فى نظرى عـمـا هو الآن . أنت تعـرف أنى لست من أنصـار الزواج ، فالنكبة الحقيقة فى الزواج هو أنه يزيل أثرة الإنسان ، والأثرة شىء لازم يضفى على الشخصيـة قوة وسحراً ، ومن خلوا منها خلوا من الشخصـية المستقلة ، ومع ذلك فإنى أقـول إن من الشخصيـات ما يزداد بالزواج تعقدًا ، فـيستعـيد أثرته المفقودة ، بل تصبح الأثرة جملة أنوات ، فلا يكتفى بحياة واحدة يحياها وإنما تتعدد فيه الشخصية وتصـبح حياته منظمة متماسكة ، وأحسب أن النظام والتمـاسك هما هدف الاختبـار الإنسانى ، وأضيف إلى ذلك أن لكل اخـتبار قيمتـه فى الحياة ، ومهما ساء ظننا فى الزواج فلن نسـتطيع أن ننكر أنه اختبار من اختبـارات الحياة ، وأرجو أن يتزوج دوريان جراى من هذه الفـتاة ويحرق لها الشمـوع ستة أشهر أو نحو ذلك ، ثم يـزهد فيها ويتحول عنهـا فجأة إلى غانية أخرى ، فإن فعل ذلك كان موضوعًا للدراسة شائقًا .

- أنت لا تعنى كلمـة واحدة ممـا تقول يا هارى ، وأنت أول من يعـرف ذلك ، ولو أن مكروهـًا نزل بدوريان جـراى لكنت أول مـن يأسف لحـاله ؛ فأنت كريم النفس وإن تكلفت القسوة تكلفًا .

فضحك اللورد هنرى وقال :

- إن منشــأ احتــرامنا للآخرين هــو خوفنا من ألا يحــترمنا الآخــرون ، وأساس التــفاؤل هو فــزعنا من الكوارث لا أكثر ولا أقل ، وإذا أحــسنا الظن بجارنا نســبنا إليه من الفضائل مــا قد يعود بالفائدة علينا ، فنحن نــقرظ مدير البنك لعله يقرضــنا بعض المال ، ونصف قاطع الطريق بالبطولة لعله يتــجاوز عما فى جــيوبنا . إنما قصدت كل كلمة قــلتها يا بازيل ، وأنا أحتقــر التفاؤل احتقاراً لا مزيد عليه . أما ما تذكره من أن حياة دوريان قد تتحطم فيدخل فى باب الهراء ، لأن الحــياة لا تتــحطم إلا إذا توقفت عن النمــو ، وإذا ما أردت إفساد نفس فعليك بإصلاحها . أمــا الرباط المقدس فغلطة حمقاء ، وهو بديل ســيىء لروابط أخرى بين الرجــال والنساء أجــدى عليــهم وأعظم سلطانًا على نفوسهم ، روابط أؤيدها أنا بكل ما بى من قوة ، لأنهــا تعبر عن روح العصر الذى نعــيش فيــه ، ولكن كــفى لغواً فــهــا هو ذا دوريان قادم بنــفســه علينا وسيزودك بما أجهل من أخباره .

قال الفتى وهو يصافح صديقيه الواحد بعد الآخر :

- أمطرا على التــهــانى يا عــزيزى هارى وأنت يا عــزيزى بازيل ، فــمــا أسعــدنى الآن . لقد تمت المســألة كلها فــجأة ، ولــكن هــذه سُنّــة الحيــاة ، فــكل ما فيها من متع حقيقة تأتينا عل غرة منا ، ومع ذلك فإنها تبدو لى كأنها الشىء الوحيد الذى كنت أبحث عنه طول حياتى .

وفيما كان يتكلم كان الدم يجــرى فى وجنتيه من فرط السرور فزاده ذلك جمالاً على جمال .

قال هولوورد :

- أتمنى لك الســعادة المتــصلة يا دوريان ، ولكنى لا أغــتفــر لك إخفــاء خطبتك عنى مع أنك أطلعت هارى عليها .

ووضع اللورد هنرى يده على كتف الفتى وقال : .

– وأنا لا أغتفر لك تأخرك فى العشاء . فلنجلس لنرى ماذا أعد لنا الطاهى الجديد ، وفى هذه الأثناء تسرد أنت علينا كيف تم كل شىء .

قال دوريان ، وهم يجلسون إلى المائدة الصغيرة المستديرة :

– ليس عندى ما يستحق السرد ، وكل ما حدث هو أنى حين تركتك بالأمس يا هارى ، عدت إلى منزلى وارتديت ملابس السهرة، ثم تناولت عشائى فى ذلك المطعم الإيطالى بشارع روبرت الذى دللتنى عليه ، ولما بلغت الساعة الثامنة قصدت إلى المسرح ، وكانت سيبيل تمثل روزاليند ، وبطبيعة الحال كانت المناظر بشعة ، بل كان كل شىء بشعًا ما خلا سيبيل فقد تجلت فى أبهى حال ، ولما خطرت أمامى فى زى صبى بدت آية من آيات الإبداع . كانت سترتها مخملا أخضر ذا أكمام صفراء ، وكانت تلبس تزلكًا رقيقًا داكن الصفرة وقبعة خضراء رشيقة عليها رياش مثبتة فى جوهرة كريمة ، وكان يغطى كتفيها معطف نصفى مخطط بالأحمر الداكن ، فبدت لى أجمل ما تكون ، وأشبهت فى دقة تكوينها ذلك التمثال الإيطالى الصغير الذى يحلى أستوديو بازيل ، وبدا وجهها وسط شعرها كوردة بيضاء وسط أوراق الشجر الكثيفة ، ثم مثلت فأبدعت ، ولسوف تريانها الليلة فيتحقق لكما ما أقول . إنها فنانة موهوبة ملكت علىّ حواسى وأنا جالس فى المقصورة الحقيرة ، فأنستنى أنى كنت فى لندن ، وأنى أعيش فى منتصف القرن التاسع عشر ، وحملتنى على جناح الخيال مع محبوبتى إلى غابة نائية لم ترها عين بشر . وبعد انتهاء التمثيل قصدت إلى غرف الممثلين وتحدثت إليها ، وفيما نحن جالسان رأيت فى عينيها بريقًا جديداً لم أعهده فيهما ، واقتربت شفتاى من شفتيها وقبلتها . أما إحساسى فى تلك اللحظة فلا سبيل إلى وصفه ، لقد خيل إلىّ أن حياتى كلها قد تركزت فى ذرة واحدة من السعادة التى ما بعدها سعادة ، وأخذت تنتفض بين يدى كأنها نرجسة بيضاء تنتفض أمام ريح خفية ، ثم جثت على ركبتيها وقبلت يدى . ما كان ينبغى أن أقول لكما ذلك ، ولكن قوة قاهرة

تسوقنى إلى الإفضاء بكل شىء . ومهما يكن من أمر فخطبتنا لا تزال سراً لا يعرفه أحد ، حتى أمها ذاتها ، ولست أدرى كيف يستقبل أوصيائى هذا النبأ ، ولكن مما لا شكل فيه أن اللورد رادلى سوف يغضب غضباً شديداً ، فإن غضب فلست مقيماً لغضبه وزناً ، لأنى سأبلغ سن الرشد بعد عام واحد على كل حال . ألا ترى أنى قد أحسنت صنعاً حين التمست فتاة أحلامى من عرائس الشعر ، واخترت شريكة حياتى من بين بطلات شكسبير ؟ إن هاتين الشفتين اللتين علمهما شكسبير فن الحديث قد همستا فى أذنى أسرار قلبها العميق ، ولقد طوقتنى روزاليند بذراعيها الجميلتين ، ولقد قبلت ثغر چولييت فسكرت على الرحيق .

قال هولوورد فى تؤدة :

- نعم يا دوريان أعتقد أنك أحسنت صنعاً .

وسأل اللورد هنرى دوريان جراى قائلا :

- رأيتها اليوم يا دوريان ؟

فأجاب الفتى وهو يهز رأسه دلالة النفى :

- كلا . فقد تركتها فى غابة آردين ، وسأجدها فى بستان بفيرونا .

قال اللورد هنرى وهو يشرب كأس الشمبانيا فى تدبر عميق :

- قل لي يادوريان ، متى أشرت إلى الزواج صراحة ؟ وماذا أجابت حين عرضت عليها الزواج ؟ أظنك قد نسيت كل ما جرى .

- كلا يا صديقى هارى ، ولكنى لم أبحث الزواج معها كما يبحث تاجر صفقة ، بل إنى لم أطلب الزواج بصورة رسمية ، كل ما حدث هو أنى ذكرت لها أنى أحبها ، فأجابت بأنها لا تستحق أن تكون زوجاً لى ، فما أشد تواضعها يا هارى ! إن العالم كله لا يساوى عندى خردلة إذا قيس بها .

فقال اللورد هنرى بصوت خافت :

– إن النساء عمليات إلى حد بعيد . نعم . إن تفكيرهن أكثر عملية من تفكير الرجال ، ففي مثل هذه المواقف كثيراً ما ننسى أن نشير إلى الزواج ، ولكنهن يذكرننا دائمًا به .

فأمسك هولوورد بذراعه قائلا :

– كفى يا هارى . لا تحرض دوريان على الغدر ، فهو يختلف عن سائر الناس . إن طبيعته الصافية تأبى عليه أن ينزل بأحد ضرّاً ، وإنك لتغضبه بهذا الكلام .

فأجاب اللورد هنرى بقوله :

– إن دوريان لا يغضب منى أبداً . لقد سألته هذا السؤال بدافع الفضول ، وهو الدافع الوحيد الذى يجيز لنا أن نسأل الأسئلة ، ومن رأيى أن النساء هن اللاتى يخطبننا ، اللهم إلا عند أبناء الطبقة المتوسطة ، وتفسير ذلك أن الطبقة المتوسطة طبقة رجعية .

فضحك دوريان جراى وهز رأسه قائلا :

– لا سبيل إلى إصلاحك يا هارى ، ولكن قل ما تشاء فلن يغضبنى كلامك ، ولو أنى أردت أن أغضب منك لما استطعت ذلك . إن الرجل الذى يمس سيبيل فين بسوء جبان دنىء ، ولسوف تشاركنى رأيى حين تراها ، ثم إنى لا أفهم كيف يلوث إنسان الشىء الذى يحبه ، فأنا أحب سيبيل ، ولذلك ترانى أود أن أضعها على قاعدة من ذهب سبيك ، وأن أشاهد العالم يتعبد للمرأة التى أملكها . وما الزواج ؟ أليس الزواج عهداً لا ينقض ؟ إنك تسخر من الزواج يا هارى ، ولكن موقفك موقف خاطىء ، أما أنا فأريد أن آخذ على نفسى عهداً لا ينقض ، ولسوف تجعلنى ثقتها فىّ وفيّا على الميثاق ، ولسوف يجعلنى إيمانها بى أصفى نفسًا وأنقى ضميراً ، لقد بدلنى حبها من حال إلى حال ، فإن مست يدها يدى ألهتنى عن كل ما فى الدنيا ، ألهتنى عنك وعن نظرياتك الجميلة السامة .

قال اللورد هنرى وهو يتناول قليلا من السلطة :

- أى نظريات تعنى ؟

- أعنى نظرياتك فى الحياة ، وفى الحب ، وفى اللذة ، بل أعنى كل نظرياتك يا هارى .

فأجاب اللورد هنرى بصوت عذب بطىء :

- اللذة هى الشىء الوحيد الذى يستحق أن توجد فيه النظريات ، ومع كلّ فأنا لا أدعى أن نظرياتى من عملى فهى من عمل الطبيعة . إن اللذة مقياس الطبيعة ودليل رضاها ، فالسعداء دائمًا أخيار ، ولكن الأخيار ليسوا دائمًا سعداء .

قال بازيل هولوورد :

- ولكن ماذا تفهم من كلمة الخير ؟

وقال دوريان جراى وهو يغوص فى مقعده وينظر إلى اللورد هنرى من وراء الأزهار الحمراء التى تزين المائدة :

- نعم . ماذا تفهم من كلمة الخير يا هارى ؟

فأجاب اللورد هنرى وهو يقبض على كأسه بأصابعه الشاحبة النحيلة :

- الخير هو انسجام الإنسان مع نفسه ، والفوضى هى اضطرار الإنسان للانسجام مع الغير . إن حياة الإنسان هى كل ماله فى هذا الوجود ، أما حياة الجيران فليست من اختصاصنا ، وإن كنا نظهر الاهتمام بها من باب النفاق الاجتماعى، أو من باب التدين الشديد ، ثم إن للفردية غاية سامية هى ضمان التقدم ، ولقد أصبح المقياس الحديث فى الأخلاق قبول مقاييس العصر الذى نعيش فيه ، أما أنا فأقول إن قبول مقاييس العصر الذى نعيش فيه عمل مناف للأخلاق ، وخطأ لا يغتفر لأى رجل مثقف .

قال الرسام :

- ولكن من عاش لنفسه فقط دفع الثمن غاليًا يا هارى .

- نعم،فنحن الآن ندفع ثمن كل شيء غاليًا ،حتى السلع التى نشتريها ، وإنـى أعتقد أن المـأسـاة الحقيـقيـة فـى حيـاة الـفـقراء هـى أنهم لا يملكون إلا تضحياتهم يجودون بها للمجتمع ، أما الخطايا فهى ترف لا يملكه إلا الأغبياء .

- لم أقصد أننا ندفع الثمن نقداً يا هارى .

- إذاً ! فكيف ندفعه يا بازيل ؟

- قصـدت أن الثمن الذى ندفعه هـو تأنيب الضمير والآلام والإحـساس بالانحطاط .

فهز اللورد هنرى كتفيه وقال :

- إن فن العصـور الوسطى جميل حقّـا ، ولكن أفكار العـصور الوسطى أفكار بالية ، وعواطف العـصور الوسطى لا مجال لها فى العـصر الحديث . نحن بالطبع نستطيع أن نستفيـد منها فى القصص الذى نكتبه ، ولكن هذا من خصائص القصص ، فكل ما ننبذه فى الحياة نجد له مكانًا فى القصص . أؤكد لك أنه ما من مـتحضر يأسف على لـذة جناها ، وما من رجل متبـربر يعرف اللذة كيف تكون .

قال دوريان جراى :

- اللذة عندى هى أن أتعبَّد لكائن ما .

فقال اللورد هنرى وهو يعبث ببعض الفواكه الموضوعة على المـائدة :

- هذا أفضل من أن يـتعبـد الغير لك ، لأن ذلك مـدعاة للضـجر . إن النساء يعـاملننا كما نعـامل نحن الآلهة ، فهن يـحرقن لنا البخـور ويضايقننا بمطالبهن التى لا تنتهى .

وبدا الجد على وجه الفتى وقال :

- يخيل إلىّ أنـهن يأخذن ما أعطين لا أكـثر ولا أقل . لقـد غرسن فى قلوبنا الحب ، وأعتقد أن من حقهن أن يطلبن استرداد هذا الحب .

فقال هولوورد :

- أنا من رأيك يا دوريان ، فهذا صحيح تمامًا .

قال اللورد هنرى :

- ليس فى الوجود ما هو صحيح تمامًا .

فقاطعه دوريان قائلا :

- ولكن لابد أن تعترف يا هارى بأن النساء يعطين الرجال أنفس شىء فى حياتهن ألا وهو ذهب الشباب .

فأجاب اللورد هنرى :

- هذا جائز ، ولكنهن بلا استثناء يردن استرداد هذا الذهب منا مفكوكًا ، وهذا ما يحزن الإنسان . إن النساء كما وصفهن ذكى من أذكياء فرنسا يلهبن فينا الرغبة فى القيام بروائع الأعمال ، ثم يمنعننا عن تنفيذ هذه الرغبة .

- أنت شخص لا يطاق يا هارى ، ولست أدرى فيم تعلقى بك .

فأجاب اللورد هنرى :

- إنك ستتعلق بى دائمًا . ألكما فى قليل من القهوة ؟ هات لنا بعض القهوة وبعض الشمبانيا وبعض السجائر يا چون . كلا يا چون ، لا تأت بسجائر لأن معى منها ما يكفى . لن أسمح لك يا بازيل بأن تدخن السيجار فخذ سيجارة ؛ إن السيجارة هى أحسن مثل لأحسن متعة ، فهى لذيذة وهى لا تشبع حواسك تمامًا ، وهل بين متع الحياة ما هو خير من ذلك ؟ نعم يا دوريان ، إن حبك لى لن يفترا أبدًا ، فأنا أمثل لك جميع الرذائل التى لا تجرؤ على الانغماس فيها .

فقال الفتى وهو يشعل سيجارته من نار قدمها خادم المطعم له تخرج من فم تنين صنع من الفضة :

- ما هذا الهراء يا هارى ! هيا بنا إلى المسـرح ، ولسوف تتغير أراؤك فى الحيـاة حين تشاهد سيـبيل تخطر أمـامك على الخشبـة ، فهى تمثل جـانبًا من الوجود لم يصل بعد إلى علمك .

أجاب اللورد هنرى :

- هذا مـسـتـحـيل لأن علمى أحـاط بكل شىء ، ولكـنى نهم إلى كل إحســاس جديد ، وإن كـانت نفسى كـذلك لا تتسع لإحـساس جديـد لأنها جـربت كل شىء . مهـما يكن من شىء فـمن الجـائز أن تثيـرنى صديقـتك الصغيرة الفـاتنة ، فأنا أحب التمثيل وأجده أقـرب إلى الواقع من الحياة . هيا بنا . اركب معى يا دوريان فى عربتى ، أمـا أنت يا بازيل فيؤسفنى أن أطلب إليك أن تستأجر عربة وتلحق بنا لأن عربتى لا تتسع إلا لشخصين .

ونهض ثلاثتهم وارتـدوا معاطفـهم وشربوا قهـوتهم وقوفًا ، أمـا الرسام فكان صامـتًا منشغل البال عليـه وجوم . لقد كـان يجد فى هذا الزواج غلطة كبـرى ، ومع ذلك فقـد أحس أنه أهون شرًا من سـواه . وبعد دقـائق كانوا جميعًا خارج المطعم ، وسعت به العربة التى استأجرها تتبع عربة اللورد هنرى فأنشأ يتأمل أنوارها الباهرة ، وغمره شـعور بأنه أضاع شيئًا ثمينًا ، أحس بأن دوريان جراى قد خرج من حـياته ، ولم يعد يلهمه بشىء كمـا كان يفعل فى المـاضى . لقد حـالت بينهمـا الحياة ، وأظلمت الدنيـا فى عينيه ، وسـبحت أمامه المصـابيح الثاقبة ، ولم يعد يرى المـــارة فى وضوح ، فلما أن بلغ باب المسرح أحس بأنه قد نما أعوامًا وأعوامًا .

الفصل السابع

كانت دار التمثيل فى تلك الليلة تعج بالنظارة لسبب لا يعلمه أحد ، ووقف اليهودى البدين بباب الدار يستقبلهم وهو منشرح الصدر طافح بالبشر، وقاد ثلاثتهم إلى المقصورة الخاصة بهم فى احتشاد عظيم وفى خيلاء معاً ، مشيراً بيديه الغليظتين المرصعتين بالجواهر فى كل اتجاه متحدثاً إليهم فى صوت مرتفع كأنهم صم لا يسمعون ، فأحس دوريان جراى نحوه ببغض شديد ، أحس بأنه قدم ليرى ميراندا فلم ير إلا كاليبان . أما اللورد هنرى فقد ارتاح إليه ، أو على الأقل زعم أنه ارتاح إليه ، ولم ينس أن يصافحه بحرارة ، وأكد له أنه فخور بمعرفة رجل مثله أفقره الشعر ، واستطاع أن يستكشف عبقرية مدفونة كسيبيل فين ، على حين كان هولوورد يسلى نفسه بتصفح وجوه الرعاع المحتشدين فى المقاعد الرخيصة ، وكان الحر قائظاً ، وتدفق فى المسرح شعاع عظيم بقى من الشمس الغائبة، شعاع بدا كزهرة جسيمة صفراء أوراقها لهب هائلة ، وخلع الشبان الذين ملأوا شرفات الدار ستراتهم ووضعوها بجانبهم ، وأنشأ بعضهم فى طرف المسرح يتحدث إلى بعضهم فى الطرف الآخر ، ويقتسمون ما معهم من البرتقال مع الفتيات ذوات الهيئة الرثة الجالسات إلى جوارهم ، ورن ضحك النسوة من أسفل القاعة فجاء حاداً مزعجًا ، ومن البار ارتفع صوت الفلين يخرج من زجاجات الشراب . قال اللورد هنرى :

- يا لها من مباءة بخسة هذه التى وجدت فيها قدسك !

فأجاب دوريان جراى :

- نعم إنها لمباءة بخسة ، ولقد وجدت فيها قدسى . إن سيبيل فين قبس من الله لم يحل بعد فى بشر ،ولكنك ستنسى هذه المباءة حين تراها تمثل ،

ولسوف تبصر هذه الوحوش الآدمية الغليظة الملامح الخشنة الطباع تستأنس حين تخطر سيبيل أمامها على المسرح ، ولسوف تراها تجلس فى صمت شاخصة العيون ، تضحك وتبكى بإيماءة منها . إن قلوبهم تستجيب لها استجابة الكمان للقوس ، إنها تبث فيهم من عندها روحًا وتسمو بهم عن صدأ المادة ، وحين أراهم فى هذه الحالة أحس بأنهم خلقوا حقًا من طينتنا ، نحن النبلاء .

فقال اللورد هنرى وهو يتفحص الأوباش فى الشرفات بمنظاره المكبر :

- هذه قسوة منك يا دوريان ، فكيف تقول إنهم خلقوا من طينتنا .

قال الرسام :

- لا تلق إليه بالا يا دوريان ، وأنا أفهم بالضبط معنى ما تقول ، وأشاركك إيمانك بهذه الفتاة . إن فتاة تختصها أنت بحبك لابد أن تكون درة بين النساء ، وإن فتاة تترك فى نفسك كل هذا الأثر لابد أن تكون مخلوقًا ساميًا نبيلاً . نعم ، إن فتاة تنفخ الروح فى هذه الجمادات المتحركة ، وتودع الإحساس بالجمال فى نفوس ممسوخة مظلمة ، وتنزع الأثرة من قلوبهم فتستدر دموعهم لفجائع لا تمسهم شخصيًا لخليقة بحبك العظيم ، بل لخليفة بأن تقدسها الدنيا بأسرها ، لقد عدلت عن رأيى السابق وإنى لأوافق على هذا الزواج من كل قلبى . إن الآلهة خلقت سيبيل فين من أجلك يا دوريان ، ولن تكتمل نفسك إلا بها .

فأمسك دوريان جراى بيده وضغط عليها فى حرارة وقال :

- شكرًا لك يا بازيل ، لقد كنت أعرف أنك ستفهمنى ، أما هارى فهو ساخر بكل شىء ، وهذا يرعبنى ،ولكن كفى حديثًا الآن فقد بدأت الموسيقى تمهد للتمثيل ، وأرجو أن تحتملاها فى صبر لأن هذه الألحان المزعجة ستنتهى فى دقائق حين يرتفع الستار ، وعندئذ ستريان الفتاة التى سأكرس حياتى لإسعادها ، نعم ، ستريان الفتاة التى وهبتها خلاصة نفسى .

وبعد ربع ساعة ظهرت سيبيل فين على المسرح بين دوى من التصفيق يصم الآذان ، وقد نجحت فى الامتحان الأول نجاحًا باهرًا ، فقد رأى الرجلان جمالها الرائع وأخذا به ، بل إن اللورد هنرى رأى أنها نادرة بين النساء ، وبدت كحورية خجول جفلى ، وحين وقع بصرها على الحشد الحاشد المتحمس فى جنبات الدار أحمر خدها حياء فبدا كخيال وردة فى صفحة فضية ، وتراجعت خطوات وارتجفت شفتاها فنهض بازيل هولوورد وأنشأ يصفق تحية لها ، واسترسل دوريان جراى فى حلم طويل محملقًا فيها كالمحلق فى رؤيا عجيبة ، أما اللورد هنرى فكان يتأملها بمنظاره ويردد قوله : « ما أبدعها حقًا! ما أبدعها ! ».

وكان المشهد صحن دار كابيوليت ، ودخل روميو مع مركشيو وأترابه فى زى زائر الحرم وعزفت الفرقة بعض الألحان الإيقاعية ، وبدأ الرقص ، ومشت سيبيل فين بين جمهرة الممثلين ذوى الثياب البالية كأنها مخلوق علوى موفد من عالم الأحلام ، وتثنى جسدها أثناء الرقص كعود الخيزران ، ولاحت تجاعيد جيدها كطيات السوسن الأبيض ، وبدت يداها الناعمتان كأنهما قدتا من العاج الأملس المنعش .

ولكن فتورها كان ملحوظًا ، وحين وقع بصرها على روميو لم يبد عليها الفرح لمرآه ، وحين بدأت تقول : « أيها الزائر الحرم ، ألا رفقًا بيدك . . » وما أعقب ذلك من كلمات قليلة بدا حديثها متكلفًا للسامعين ، كان صوتها جميلاً حقًا ،ولكنه كان زائف التلوين لا إحساس فيه ، فأفسد طعم الشعر الجميل ، وجعل من عاطفة جولييت الصادقة عاطفة باردة مصطنعة .

وشحب وجه دوريان جراى وهو يتبع كلماتها واستبد به القلق وحار فى أمرها ، ولم يجسر صديقاه على مكاشفته بحقيقة الأمر ، بأن سيبيل فين ممثلة ساقطة ، بأن سيبيل فين خيبت ظنهما إلى أبعد حد .

ومع ذلك فقد أحسا بأن منظر الشرفة فى الفصل الثانى هو المقياس الحقيقى لكن جولييت ، فأزمعا على الانتظار ليصدرا فيها حكمًا نهائيًا .

وجاء منظر الشرفة فأطلت منها وغمرها نور القمر فكانت آية فى الفتنة ، ولكن تمثيلها كان مفتعـلا إلى حد لا يطاق ، بل كان يزداد افتعالاً باطراد حتى أمست إشاراتهـا مضحكة ، وكانت تؤكـد كل عبارة تقولها بلا داع فـمسخت جمال الأبيات التالية :

وإن مـا سـمـعت من كـلامى

ألهب فـى خـفـر العـذارى

لكن كف الـليل يا حـبـيـبى

لثم بخـمـار نكس وجـهى

فلم تعـد ترى ضـرام خـدى

ورنت فى آذان سامعيها كقطعة من المحفوظات تلقيها تلميذة تولى تدريبها مدرس فى الإلقاء لايتقن فنه ، وحين اتكأت على الشرفة وقالت :

أنت ملكت القلب ، بيـد أنى

أضـرع لك لا تستـعـجلنى

باغـتنـا الغـرام يا غـرامى

كالسيل ، أو كالبرق فى الجوزاء ،

تأكله الظـلمـاء قـبل قـوى :

« انظر لقد ابرقت السـماء ! »

إلى الغـد المأمول يا حـبيـبى

عـسـى براعم الهـوى بـقلبى

تزهر عند الصبح ، فـوداعا !

خرجت الكلمات من فمـها ميتة كأنها لا تعنى شـيئًا ،ولم يكن بها أدنى اضطراب ، بل كانت تمـلك زمام نفسـها بيدها مما زاد المـوقف سوءاً . نعم ،

لم يكن هناك موضع للاعتذار لها ، فلقد كـانت تجهل أصول فنها وهذه خلاصة القول ، ولقد كان فشلها ذريعًا ، حتى السوقة الذين غصت بهم شرفات الدار ومقاعدها الرخـيصة تململوا فى أماكنهم ، وبدءوا يتحدثون بأصوات مـسموعة ويصفرون اسـتنكاراً . كل ذلك واليهودى مـدير الدار واقف فى منتصف الدار يضرب الأرض بقـدمه ويفوه بالألفـاظ النابية ، وكـانت سيبـيل فين الشخص الوحـيد الذى لم يهـتز لشىء مما يجـرى ، ولما انتهى الفـصل الثانى ارتفـعت صيحات التهكم من كل جانب .

ونهض اللورد هنرى وارتدى معطفه وقال :

- إنها فاتنة حقًا يا دوريان ، ولكنها لا تعرف عن فن التمثيل . لننصرف الآن ، فهيا بنا .

فأجاب الفتى فى مرارة شديدة .

- سأبقى أنا لأشـاهد الرواية حتى نهايتـها ، ولكم يؤسفنى أنى أفـسدت عليك المساء يا هارى . أرجو أن تقبلا اعتذارى .

فقاطعه هولوورد بقوله .

- لا جناح عليك يا صديقى دوريان ، فلعل الآنسة فين مريضة ، وسوف نأتى لشهودها فى ليلة أخرى .

قال دوريان جراى .

- ليتها كانت مريضة ، ولكن الحـقيقة تخالف ذلك ، فقد بدت لى باردة خلت من كل شعـور ، وأؤكد لك أنها لم تكن كذلك من قـبل . لقد كانت بالأمـس فنـانة من الطراز الأول ، وهى اليـوم ممثلة فـاشلـة لا تعـرف عن صناعتها شيئا .

قال هولوورد :

- لا تتكلم بهذه اللهـجة عمن تحب يا دوريان ، فـالحب أسمى من الفن بدرجات .

فقال اللورى هنرى :

- إنما الحب والفن أسلوبان فى التقليد ، ولكن هيا بنا يا بازيل . أما أنت يا دوريان فلست أنصح لك بـالبقـاء ، لأن مشـاهدة التـمثـيل الزائف تفسـد الأخلاق ، ثم إن المسألة ليست ذات بال ، فأعتقد أنك لن تسمح لزوجتك أن تظهر على المسرح . إنها جـميلة حقًا ، ولو أن خبرتهـا بالحياة كـانت قليلة كخبرتها بالتمثيل لكانت لك فيها دراسة ممتعة، ففى الناس نوعان يخلبان لبى، الناس الذين يعرفـون كل شىء والناس الذين لا يعرفون شـيئـًا ، إن من يراك الآن يا دوريان يحـسب أنك فـجعت فـى أعز عـزيز لديك ،فـدع عنك هذا الوجوم لأن الأمر لا يسـتحق كل هذه اللوعة ، ولأذكرك بأن سـر الشباب هو المرح الدائم ، تعال مـعنا إلى النادى حيث نشرب نخـب جمال سيـبيل فين . هى جميلة ما فى ذلك ريب ، فماذا تطلب أكثر من هذا ؟

قال الفتى :

- اتركانى وحيداً ، فـإنى أريد أن أخلو بنفسى . هيا انصرف يا هارى ، وأنت يا بازيل انصرف . ألا تريان أن قلبى يتمـزق . واغرورقت عيناه بالدمع السخين ، وارتجفت شفتاه ، وعاد إلى مـقصورته على عجل ، وهناك مستنداً إلى الحائط وقد دفن وجهه فى راحتيه .

قال اللورد هنرى فى حنان ليس من طبعه :

- هيا بنا يا بازيل .

وانصرف الرجلان .

وبعد لحظات أضاءت أنوار المسرح ، وارتفع الستار ، وبدأ الفصل الثالث ، وأخذ دوريان جراى مكانه من المقصورة شاحب الوجه بادى الفتور وقد استعاد كبـرياءه المجروح ، ومرت الرواية ثقـيلة كأنهـا بغير نهـاية ، وانصرف نصف الحاضرين وهم يضربون الأرض بأقدامهم الثقيلة ويضحكون ساخرين ، وحين جاء الفـصل الأخير كـانت الدار خاوية عدا رجل هـنا ورجل هناك ، وانسدل الستار فضحك قوم وتأوه آخرون . لقد سقطت الرواية .

وما إن انتهى التمثيل حتى باد دوريان جراى بالذهاب إلى غرف الممثلين ، وكانت الفتاة واقفة بمفردها هناك ، وعلى محـياها إمارات الانتصار وفى عينيها بريق جميل ، وكانت تشع نوراً كأنها ملك من السماء ، وقد انفرجت شفتاها الباسمتان فلاح أن لديها سراً تخفيه ، وحين دخل دوريان جراى تأملته فسرت فى فؤادها نشوة عظمى . قالت :

- ما كان أقبح تمثيلى الليلة يا دوريان !

فأجاب وهو يحملق فيها عاجبًا :

- لا حد لشناعتـه . لا حد لشناعته . أمريضة أنت ؟ لا حـد لشناعته . لقد أشقيتنى شقاء لا مزيد عليه .

ابتسمت الفتاة وقالت وهى تترنم باسمه :

- لقد كان ينبغى أن تفهم يا دوريان ، ولكنك تفهم الآن ، أليس كذلك ؟

فأجابها غاضبًا :

- أفهم ماذا ؟

- تفهم السـر فى سقوطى الليلـة ، بل تفهم السر فى سـقوطى من الآن فصاعداً ، لن أستطيع الإجادة بعد اليوم يا دوريان .

هز كتفيه وقال فى استخفاف :

- أعتقد أنك مريضة ، وحين تكونين تجنبى التمثيل لأنك تضحكين الناس منك . لقد كان معى صديقان فقتلهما الملل ، ولقد قتلنى الملل كذلك .

وبدا عليها أنها منصرفة عنه . لقد غمرتها سعادة عظمى ألهتها عن كل شىء . قالت :

- لقد كـانت التمثيل عندى شـغل الحياة قـبل أن أعرفك يا دوريان ، بل لقد أصبـحـت الحياة عندى تمثيلا وأصـبح التمثيل الحيـاة ، فأنا الليلة روزاليند وغداً بورشيا ، وكان أفراح بياتريس أفراحى وأحزان كورديليا أحزانى ، وكنت

أرضى بكل شىء فهؤلاء الممثلون التافهون كانوا موضع إعجابى ، وكانت مناظر المسرح هى الدينا التى أعيش فيها . هذه الظلال ملأت حياتى فخلتها حقائق حتى جئت أنت يا حبيبى ، واعتقت روحى من هذا الإسار وعلمتنى الحقيقة ما تكون ، وهذه أول ليلة فى حياتى أحس فيها بأن هذا الموكب الذى أسير فيه زائف أجوف سقيم . هذه أول ليلة أحس فيها بأن روميو الذى يشخص على المسرح أمامى رجل قبيح مزوّق بالطلاء ، وبأن نور القمر والحديقة زائفان جميعًا ، وأن الكلمات التى أتفوه كذلك ، لأنها لم تكن كلماتى ولم تعبر عن الشعور الذى يخالجنى ، أما أنت فقد منحتنى شيئًا لا زيف فيه ، شيئًا أسمى من الفن ، شيئًا ما وجد الفن إلا ليعبر عنه ، لقد جعلتنى أفهم معنى الحب الحقيقى ، أنت حبيبى ومولاى وأميرى الساحر ، ولقد سئمت الظلال يا حبيبى ، وإنك عندى لأثمن من فنون العالم جميًعا ، فما بقائى بين هذه الدمى التى لا حياة فيها ؟ لم أفهم فى البدء كيف تبدل حالى وخلت أنى سأوفق الليلة توفيقًا عظيمًا ، فلما بدأت أتكلم عرفت أن كل شىء قد ضاع منى وأنى الآن مخلوق جديد ، ثم أدركت فجأة أن هواك هو الذى بدل نفسى فطربت طربًا شديدًا ، وحين سمعت الناس يتهكمون بى لم أغضب ، بل ابتسمت لأنى أعرف مالا يعرفون ، وكيف يعرف هؤلاء السوقة معنى غرامنا العظيم ، إنى أمقت المسرح يا دوريان فخذنى معك حيث تشاء ،لنعيش فى عزلة عن الناس . وكيف أمثل بعد اليوم ؟ إنى إن استطعت أن اصطنع عاطفة لا أحس بها فلن أستطيع أن اصطنع عاطفة تكوى قلبى وتفرى كبدى . أنت تفهم الآن سر سقوطى الليلة يا دوريان ، ولو أنى استطعت أن أجيد بعد اليوم لكان تدنيسًا لحبنا أن أمثل دور المحبة وأنا محبة . لقد تعلمت هذا منك يا دوريان .

فارتمى على أريكة بالغرفة وأشاح بوجه قائلا :

– لقد قتلت حبى لك .

فنظرت إليه عـاجبة وضحكت ، ولكنـه لم يقل شيئًا فـدنت منه وأنشأت تعبث بشعره ثم جئت إلى جـواره وأمسكت بيديه وضمتها إلى شفتـيها فسرت فى جسده رعشة قوية وجذب يديه بعيداً ، ثم نهض وسعى إلى الباب وقال :

– لقد قتلت حـبى لك ، فقد كنت تحركين خيالى ، أمـا الآن فأنت لا تحركين فى شيئًا حتى فضولى . لقد ضاع أثرك فى نفسى ، ولم يعد لك عليها سلطان ، لقد أحـببتك لأنـك كنت صاحـبة فن عظيم ، لأنك أوتيت الفطنة والـنبوغ ، لأنك حققـت أحلام الشعراء وجسـدت ظلال الفن ، ولكنك تخليت عن كل هذه الأشياء فـما أغباك وما أتفـهك . يا إلهى ! لقد كان حبى لك جنـونًا مطبقًا فمـا كان أغبانى ، ولكنـك خرجت من قلبى تمامًا ، فلن أسـعى لرؤيتك بعد اليوم ، ولن يرد اسمك على فمى . لقد كـنت لى بهجة الحياة ، بل كنت لى قوت الروح فما أشقانى الآن . لقد أفسـدت علىّ جمال الحياة فليتنى لم أعرفك مطلقًا ، فإن كنت تحسبين أن الحب يفسد الفن فما أجهلك بالحب ! وأنت بغير الفن لا تساوين شيئًا ، ولكنك اخـترت سبيل الضلال ، ولو أنك آمنت بالفن لا تسـاوين شيـئًا ، ولكنك اخـترت سـبيل الضـلال ، ولو أنك آمنت بالفن لجعلتك قبلة الأنظار ، ورفعتك على سـائر النساء ، ووهبتك اسمى ، وسموت بك حتى يراك كل من فى الدنيا ، ولكنك ركلت كل هذا بـقدمك فماذا جنيت من ذلك ؟ وما أنت الآن إلا ممثلة تافهة لها وجه صبوح .

فشحب لون الفتاة وارتعت فرائصـها وانطبقت يداها واحتبس الصوت فى حلقها وقالت :

– أأنت جاد فيما تقول يا دوريان ؟ إنك تمثل دور الحانق لتخيفنى .

قال الفتى فى مرارة :

– بل أترك التمثيل لك لأنك تحذقينه كل الحذق .

فنهضت الفـتاة ومشت إلـيـه فى ألم بالغ وأمكست بذراعه وأنشأت تقرأ ما تقوله عيناه ، فدفعها بعيدًا عنه وقال :

– لا تمسينى .

وجثت الفتاة عند قـدميه ، وانبعث منها أنين مكتوم فبـدت كزهرة جميلة سحقتها الأقدام ، وأخيراً همست قائلة :

- لا تتركنى يا دوريـان ، لا تتركنى . لقد كنت أفكـر فيك طول الوقت فألهانى ذلك عن إجادة عملى ، فاغـفر لى ذلك ، وإنى لأعدك بأنى سأجتهد فى المستقبل أن أتقن دورى ما استطعت إلى ذلك سبيلاً . لقد ملأ حبك نفسى فجأة ، ولولا أنك قبلتنى لما عرفت الحب . أجل . لولا تلك القبلة لما استيقظ حبى ولظل نائمًا فى صـدرى ، فقبلنى يا حبيبى مـرة أخرى لتطفىء شوقى إليك . أضرع إليك لا تتركنى ، إن أخى توعد بأن . . ولكنه لم يكن جادا فى وعيده . الا تسـتطـيع أن تغـفر لـى مـا حـدث الليلة ؟ لا تنـس أن هـذه أول مـرة أقصر فيـها ، وسوف أجتهد لأتقن عملى ما وسـعنى الاجتهاد . لا تقس فى عقـابى لأنى أحمل لك كل هذا الحب ، ولكنى أرى الآن أنك على حق فيـما تقول ، فقد كان خسة فىّ أن أستخف بالفن لأنى عرفت الحب ، أو أن أجد فى الحب مايصرفنى عن الفن ، أعترف لك بـأن هذا كان حماقة منى ، ولكنى لم أكن مختارة فيما فعلت ، فأرجو منك الصفح على ما مضى ولا تتركنى ، أواه ! لا تتركنى !

وخنقتها العبرات فلم تقو على الكلام ، وظلت طريحة على الأرض كأنها حيوان جـريح ، فأخذ دوريان ينظر إليها فى احـتقار قاتل ارتسم على شفـتيه الجميلتين واضحًا قويًا ، وسخر من فيض العاطفة الذى غمرها لأنك كف عن حبها ، فبـدت سيبيل فين له مسرحية تسرف فى عرض حـبها إلى درجة تدعو إلى السخـرية ،ولم يهتز لدمـوعها الجارية بل ضـاق بها ذرعًا ، وأخيـراً قال بصوت هادئ واضح :

- سأنصرف الآن فى غير رجعة ، ومـا أقصد بهذا إيلامك ولكنك خيَّبت أملى فيك .

فبكت فى صـمت ولم تجب بشىء ،ولكنها زحـفت نحوه وامـتدت يدها كأنها تريد أن تستوقفه ، ولكنـها أولاها ظهره وخرج من الغرفة ، وفى دقائق معدودات كان خارج الدار .

وسار على غير هدى لا يعرف لنفسه وجهة أو طريقًا ، كل ما ذكره أنه جاب فى شوارع قليلة الأنوار ، ومر بأقباء متهاوية قاتمة الظلال ، وبمنازل مقبضة كأنها أوكار الغدر والجريمة .

كذلك ذكر أنه صادف فى سيره نسوة استوقفنه بأصوات خشنة وأرسلن وراءه ضحكات خشنة ، وأنه مر بسكارى يترنحون فى مشيتهم ويتفوهون بأقذع الألفاظ ويحدثون أنفسهم كأنهم قردة ممسوخة ،وأنه رأى أطفالا لا كالأطفال تحملهم أمهاتهم على عتبات المنازل ، وسمع صرخات تنبعث من أفنية مظلمة يصاحبها سباب شنيع .

وعندما انبلج الفجر وجد نفسه قرب كوفنت جاردن ، ورأى الظلام ينقشع والسماء تبدو كالدرة الصافية وقد خضبتها حمرة خفيفة ، وسمع ضجيج العربات وهى تسير ببطء فى الشارع النظيف الخاوى ، وملأ الهواء أريج الأزهار فاستَشفت بجمالها نفسه المتعبة ، وتبع العربات حتى بلغت السوق وشاهد الحمالين يفرغون حمولتها ، وتقدم إليه أحدهم بقليل من الكريز فأخذه شاكراً وهو يعجب لأن الرجل رفض أن يقبل ثمن ما أعطى ، وانشأ بأكل فاكهة فى غير شهية ،وكانت الفاكهة قد قطفت عند منتصف الليل وكان ملمسها رطبيًا كأن نور القمر البارد قد نفذ فيها ،ومر أمامه صف طويل من الصبيان يحملون صناديق بها شتى أنواع الأزهار ، وشقوا طريقهم بين أكداس الخضر على حين وقفت بباب دار الأوبرا ذى الأعمدة الشهباء التى لفحتها الشمس جماعة من البنات متسكعات عاريات الرؤوس ينتظرن انتهاء المزاد ، ووقفت جماعة أخرى عند أبواب المقهى فى البياتزا ، كل هذا والخيل الضخمة التى تجر العربات تضرب الأرض الخشنة بحوافرها وتهز الأجراس المعلقة فى أعناقها ، والحمائم ذات الرقاب البيضاء والأقدام الحمراء تسعى هنا وهناك تلتقط الحب .

وبعد قليل مرت عربة فاستوقفها وعاد بها إلى بيته ، وحين بلغ البيت لم يدخل بل وقف ببابه قليلاً يتطلع إلى الميدان الساكن وما به من نوافذ خشبية جرداء وما به من نوافذ كستها الستائر ، وبدت له السماء فى تلك اللحظة كفيروزة كبرى نقية من كل وشب ولمعت تحتها سطوح المنازل كما تلمع الفضة ، ورأى الدخان يتصاعد فى ذوائب خفيفة من مدخنة بيت مقابل فيلوح لرائيه كالشرائط البنفسجية المتطايرة فى الهواء الذى تألق كالصدف المصقول .

ثم دخل الحجرة الأولى ذات الجدران المحلاة بخشب البلوط ، فوجد الأنوار لا تزال تضيء من ثلاث عيون مشتعلة داخل مصباح كبير مذهب جيء به قديمًا من البندقية حيث كان يحلى جندول حاكم تلك المدينة ، وكان المصباح يتدلى من سقف الحجرة ، فأطفأ العيون ، وبعد أن قذف بقبعته وعباءته على المائدة دخل إلى مكتبته ووقف بباب حجرة النوم وهى مثمنة الأضلاع فى الدور الأرضى زين جدرانها حين نما فيه حبه الجديد للبذخ ببسط من عصر النهضة غريبة التصميم ، وجدها بين مجموعة مهملة فى غرفة مهملة بمتحف سلبى فابتاعها ، وفيما هو يدير مقبض الباب وقعت عينه على الصورة التى رسمها له بازيل هولوورد فأخذه عجب شديد ، ثم دخل حجرة النوم قلق الخاطر ، وبعد أن فك أزرار سترته تردد قليلا ثم رجع إلى الصورة وتأملها مليًا ، فخيل إليه أن الوجه قد تغير قليلا ، فقد كان التعبير المرتسم عليه مختلفًا عما كان فى الماضى ، خيل إليه وهو ينظر إلى الصورة فى الضوء المكبوت الذى تسرب من بين الستائر الحريرية الصفراء أن شيئاً من القسوة قد ارتسم فى موضع الفم فعجب لذلك أيما عجب .

ثم سعى إلى النافذة ، وأزاح عنها الستار فتدفق فى الحجرة نور الفجر الوضاء ونسخ الظلال المديدة وجمعها فى أركان الحجرة القاتمة وهناك رقدت الظلال منكمشة ترتعش ، ولكن الضوء الغامر الذى ملأ المكان لم يمح ذلك التعبير الغريب الذى شاهده فى صورته بل أكّده ، وسقط ضوء الشمس على

موضع الفم فأظهره له فى وضوح أمارات القسوة ، وخيل إليه أنه يرى وجهه فى مرآة بعد أن ارتكب إثماً فاحشاً وترك آثاره فى محياه .

فتجهم وجهه وكانت على المائدة مرآة بيضاوية الشكل ذات إطار عاجى زينتها نقوش لكوبيد كثيرة كان اللورد هنرى قد أعطاه إياها بين ما أعطاه من هدايا كثيرة ، فأمسك بها ونظر إلى خياله على عجل فلم يجد أثراً لذلك الخط الذى شوه جمال شفتيه فى الصورة ، فحار فى الأمر .

وظن أن ما به خداع حسى ،ففرك عينيه واقترب من الصورة ليدرسها من جديد فلم يجد بها أى تبدل ، ولكنه لم يشك فى أن الوجه بأكمله يحمل معنى جديداً . نعم . إن ما يراه حقيقة لا ريب فيها ، وهى تنطبق فى معالم الوجه بجلاء تام أثار الرعب فى قلبه .

وارتمى على مقعد وبدأ يفكر ، وفجأة تذكر عبارة قالها وهو فى استوديو بازيل هولوورد يوم أن فرغ الرسام من الصورة ، وعادت تلك العبارة إلى ذهنه كأنه قالها بالأمس .

لقد صارح صديقيه يومها بأنه يتمنى لو أن شبابه يدوم له وتحمل الصورة عنه عبء السنين ، لو أن جماله الناضر يظل ناضراً ويتحمل الوجه المرسوم على اللوحة وزر آثامه وشهواته ، لو أن آثار الهم والشقاء تنتقل من محياه إلى الخطوط والألوان فتسكن فيها وتمزقها تمزيقاً ، حتى يبقى لمحياه غضارة النرجس فى مطلع الربيع ، فهل تحققت له هذه الأمنية ؟ هذا محال لأن مثل هذه الأمانى محال أن تتحقق ، بل أن مجرد التفكير فى هذه الأمانى بدا له جرم رهيب ، ومع ذلك ، فها هى ذى الصورة أمامه تحمل معانى القسوة بعد أن كانت آية فى الصفاء .

ولكن كيف كان هجره لسيبيل فين قسوة منه عليها . إنها خيبت آماله فنالت ما تستحق من عقاب ، لقد كان يحب فيه الفنانة الموهوبة لا الفتاة صاحبة الوجه المليح . إلا أن الندم عض قلبه حين تذكرها وهى جاثية عند قدميه تذرف العبرات ، وتذكر بروده الشديد وهو يتأملها تستجدى عطفه ،

فبدأ يلوم نفسه على جموده تارة ويعتذر لنفسه بأنه قد ذاق مثل ما ذاقت من عذاب . لقد مرت به الساعات الثلاث التى استغرقتها الرواية كأنها ثلاثة قرون ، وشقى أثناءها شقاء لا مزيد عليه وإن حياته لأثمن من حياتها ، فإذا كان قد أشقاها دهراً فما ذلك إلا لأنها أشقته لحظات ، وهذا عدل ، ثم إن النساء أقدر من الرجال على تحمل الآلام ، فالعواطف قوام حياتهن ، والعواطف قوام تفكيرهن ، ولقد قال له اللورد هنرى إن النساء يعشقن الرجال ليتسنى لهن خلق المواقف المؤثرة ، واللورد هنرى عليم بأسرار النساء ، ثم ما كل هذا التفكير فى سيبيل فين ؟ ألم ينته كل شىء بينه وبينها ؟

نعم ، ولكن هناك الصورة . فما العمل فى هذه الصورة التى تعلن مكنونات نفسه وتسرد قصة حياته دون حاجة إلى ألفاظ ؟ لقد علمته الصورة أن يتعشق جمال تكوينه ، أفتراها تعلمه الآن أن يمقت بشاعة روحه ؟ وهل من الخير له أن يتتبع التغيير الجارى فيها فى مستقبل الأيام .

ما هذا إلا هوس انتابه فهو محطم الأعصاب تخدعه حواس . ما هذا إلا أثر الليلة السالفة العصيبة التى انقضت وتركت ورائها أشباحها ، لقد كادت الخواطر المتضاربة أن تصرعه ، لقد كادت الشكوك أن تذهب بلبه . كلا . إن الصورة لم تتغير وجنون أن يظن أنها تغيرت . نعم . إن الصورة قد تغيرت ، وها هو ذا الوجه الجميل قد أصابه كدر خفيف ، وها هو ذا الفم الباسم قد أفسدته قسوة واضحة . ها هو ذا الشعر الذهبى يلمع تحت شمس الصباح الباكر ، والتقت عيناه بعينيها فكاد يبكى رحمة بها ورثاء ؛ فلقد تغيرت معالمها فعلا ، ولسوف تتغير كل يوم فالشعر الذهبى ، سوف ينطفىء مع الأيام ويتحول إلى فضة شهباء ، والورد الأحمر فى شفتيها والورد الأبيض فى خديها سوف يذبل ثم يموت ، وكلما اقترف إثمًا من الآثام سجلته على صفحة وجهها غضونًا عميقة وخطوطًا ملتوية تشوه جمالها ،لسوف تكون هذه الصورة مرآة نفسه وصفحة ضميره ، وهو لهذا سيقاوم الغواية ما أمكنه ذلك ،

ويقتلع من نفسه جذور الخطيئة ، ولسوف يتجنب رؤية اللورد هنرى بعد اليوم ، فإن رآه لم يستمع إلى نظرياته السامة التى تتسرب إلى عقله كالشراب السحرى ، تلك النظريات التى سمعها فى حديقة بازيل هولوورد حركت فى نفسه لأول مرة ، رغبة مدمرة فى أن يأتى بعجائب الأمور ، ولسوف يرجع إلى سيبيل فين ويطلب رضاها ويتزوجها ويجتهد فى أن يعيد حبها إلى قلبه . نعم . إن هذا واجبه ولا مفر من أداء الواجب ، لابد أنها شقيت أكثر مما شقى ، فيالها من فتاة تاعسة . لقد كان لايفكر إلا فى نفسه فيقسو فى حكمه عليها ، وهذه منه أثره لا تغتفر وهو لابد مكفر عنها ، ولا شك أن سلطانها عليه سيعود ، وأنهما سيعيشان فى سعادة مثل سعادة الملائكة الأطهار .

ونهض من مقعده وأسدل على الصورة ستاراً كبيراً أخضر ، فيما هو يفعل ذلك نظر إلى الصورة فسرت من جسده رعشة ، فقال محدثاً نفسه « يا للشناعة » ثم مشى إلى النافذة وفتحها ، وخرج إلى حديقة بيته وسار على الحشائش وملأ رئتيه بنسيم الصبح فطرد نسيم الصبح عنه هواجسه وبقيت فى خياله صورة واحدة هى صورة سيبيل ، وعاوده قليل من حنانه القديم إليها ، وسمع الأطيار تغرد فى الحديقة المبللة بالندى ، فخيل إليه أن الأطيار تقص على الأزهار قصتها .

الفصل الثامن

وصحا من نومه بعد الظهر بوقت طويل ، وقد دخل عليه خادمه الخاص فكتور أثناء نومه أكثر من مرة على أطراف أصابعه ليرى أكان قد استيقظ أم لا ، وعجب من أمر سيده الشاب الذى لم يعتد أن يأوى إلى فراشه فى مطلع الفجر ، وأخيراً دق دوريان جراى الجرس فدخل فكتور يحمل الشاى وبعض الخطابات على صينية سيفر قديمة ، وأزاح عن النوافذ الثلاث العالية ستائرها الخضراء ذات الحوافى اللامعة الزرقاء ، وقال فكتور مبتسمًا :

- أرجو أن يكون سيدى قد نام هذا الصباح نومًا هنيئًا .

فسأله دوريان جراى ، هو نصف نائم :

- كم الساعة الآن يا فكتور ؟

أجابه الخادم بلكنة فرنسية :

- الواحدة والربع يا سيدى .

عرف أنه نام طويلاً فجلس فى فراشه ، وبعد أن شرب قليل من الشاى انصرف إلى خطاباته يقلبها فوجد بينها خطاباً من اللورد هنرى جاء به رسول ، فتردد لحظة ثم وضعه جانباً ، وفتح الخطابات الأخرى فى ضيق واضح ، فوجدها كالعادة تحتوى على دعوات الغداء ودعوات لزيارة أماكن خاصة ، وبرامج الجمعيات الخيرية ، وبرامج الحفلات الموسيقية وما شابه ذلك من رقاع تصل الشباب من الوجهاء خلال الموسم ، وكان بين بريده فاتورة ضخمة بمجموعة من أدوات الزينة من طراز لويس الرابع عشر لم يجرؤ بعد على إرسالها إلى أوصيائه العامة بأنهم من أصحاب الآراء البالية الذين لا يفهمون أن

ألزم الأشياء لنا هى الأشياء التى لا لزوم لهـا ، كما كان بينهم بعض خطابات من مرابى چرمين ستريت صيغت فى لباقـة شديدة وأدب جم يعرضون فـيها خدماتهم العاجلة مقابل فائدة معقولة .

وبعد عشر دقائق كان يرتدى الروب دى شـامبر الصوفى المطرز بالحرير ، ودخل الحمام المرصـوف بالفسيفسـاء ، وأنعشه الماء البارد فـأحس كأن تباريح الأمس لم تكن ، وبين وقت وآخـر جاءه هاتف بأنه كـان بطل مـأساة غريـبة ولكنه أشبه ذكـرى حلم بعيد ، وحين فرغ من ارتداء ثيـابه دخل المكتبة وهناك وجد فطوره الخفـيف معداً له على مائدة مـستديرة بالقرب من النـافذة فجلس يتناوله ،وأحس بجـمال الصبـاح ، وبدا له أن الهواء الدافىء مـحمل بروائح الطيوب ، ودخلت من النافـذة نحلة طنت حول إناء أمامه وضـعت فيه أزهار صفراء بلون الكبيرت فغمرته السعادة .

ووقعت عينه فجأة على الستار الذى حجب به الصورة فتملكه الاضطراب ، ولاحظ خادمه اضطرابه ، فقال وهو يضع أمامه طبقاً من العجة :

- أيشعر سيدى بالبرد ؟

قال دوريان جراى هو يهز رأسه :

- كلا ، لست أشعر بالبرد .

وعادت إليه شكوكه الأولى فحار فى أمر الصورة ، ولم يدر أتغيرت حقًا أم تغيـرت فى خيـاله ، وها هو ذا الآن ينطق بشر دفين ، ولـكن من قال إن القمـاش يتغـير والألوان تتـبدل ؟ إن هذه لسـفاهة فى التـفكير ، وهى أشـبه بالأساطير التى ينسجها الخيال . نعم . إنها لأسطورة سوف يقصها على بازيل هلوورد يومًا من الأيام ليدخل على فـؤاده السرور ،ولكن كيف تكون أسطورة وهو قد رآها بعينه ؟ إنه تذكـر بجلاء أمارات القسوة الى أبصرها تـشوه جمال الشفـتين عندما تمعـن فى الصورة قبل مـطلع الفجـر ، وبعد مطلع الفـجر ، واستبد به الخـوف حتى لقد أحب أن يستبقى خادمه مـعه فى المكتبة ، فلو أنه

وجـد نفسـه وحـيداً لما تردد فى كـشف الغطاء عن الـصورة ؛ ودخل فكتـور بالقهوة والسجائر ثم هَمّ بالانصراف فأحس دوريان جراى برغبة شديدة فى أن يأمره بالبقـاء ،ولكنه ضبط شعوره ، فلما أن خرج الخـادم من الحجرة وأغلق الباب وراءه استـدعاه ، فـوقف الرجل ينتظر أوامره ولكن دوريان رمـقه بنظرة طويلة ثم تنهد وقال :

- اصرف كل زائر يجيئنى اليوم يا فكتور .

فانحنى الرجل وانسحب من الحجرة .

ثم ترك دوريان جـراى المائدة وأشعل سـيجـارة وألقى بنفسـه على أريكة فاخرة أمام الستـار ،وكان الستار ستاراً قـديماً صنع من الجلد الإسبانى المذهب عليه رسـومات من طراز لويس الرابع عشر فـيها شىء من الإسراف ، فـأنشأ يتأمل ويسأل نفسه كم من الأسرار حجبها ذلك الستار قبل أن يصل إلى يديه .

وبدأ يفكر جديًا فى إزاحة الستار عن الصورة ، ولكنه لم ير فائدة يجنيها من وراء ذلك ، فلو أن الصورة قد تـغيرت حقيقـة لكان ذلك كارثة عظمى ، ولو أنها لم تتغير لما كان هناك ما يدعوه إلى القلق ، ولكن للمسألة وجهاً آخر ، فماذا يكون الأمر لو أن شخـصاً آخر استطاع أن يصل إلى الصورة ويطلع على ما جـرى فيـها من تغيـر شنيع ؟ بل كيف يكون الأمـر لو أن بازيل هولوورد طلب أن يرى الصورة التـى رسمها ؟ مـا من شك فى أن بازيل سيـفعل ذلك يوماً من الأيام ، وعلى ذلك فالواجب يقضى بفحص الصورة دون تردد كيفما تكون النتيجة ، فالنتيجة مهما كانت خير من هذا الشك المضنى .

ونهض وأقفل باب الحجرة بالمفتـاح ، فليس من الخير أن يطلع سواه على سجل آثامه ، ثم أزاح الستار ووقف يتأمل صورته فلم يعد لديه أدنى ريب فى أن الصورة قد تغيرت .

كانت موقفـاً رهيباً حقًا انطبع فى ذاكرته فلم ينسـه زمناً طويلاً ، فقد بدأ يفحص الصورة أولاً كـما يفحص عالم أثراً من الآثار كأن الأمـر لا يخصه ،

فعجب لنفسه أشد العجب . لقد كان التغير مستحيلا فى نظره ولكن لا جدال فى أنه موجود فعلا . وذهب يفترض الفروض لتعليل ما رأى فزعم أن هناك صلة جائزة لا نعرفها بين روح الإنسان وبين دقائق الذرات التى تتألف منها الألوان والأشكال على اللوحة ، وبذلك تسجل دقائق الذرات خوالج النفس وتحقق للنفس أحلامها ، فإذا لم تكن هذه الصلة جائزة فقد يكون هناك تعليل آخر أشفق دوريان جراى أن يفكر فيه ، وارتعدت لذلك فرائصه وتملكه فزع شديد وعاد إلى الأريكة واستلقى عليها وعيناه لا تتحولان عن الصورة.

ولكنه خرج من كل هذا بمغزى واحد ، ألا وهو أن الصورة التى رسمها بازيل هولوورد له ستكون نبراساً يهتدى به فى ظلام الحياة ، وها هى ذى قد علمته أن سلوكه مع سيبيل فين كان سلوكاً قاسياً وشائناً ، ولعل فى إمكانه إصلاح ما أفسده ، فهو لا يزال يستطيع أن يتزوجها فتصفو بذلك روحه ويتجرد من أنانيته ويتحول غرامه الزائف وقت تأثيرها الصالح إلى عاطفة نبيلة. نعم . سوف يستهدى الصورة الطريق المستقيم ، فهى ضميره الحى وهي مقياس الخير والشر وهى تذكرة له من عند الله . إن الضمائر قد تنام ومقاييس الخير والشر قد تختل والتذكرة قد تغيب عن عقل الإنسان ، أما هذه الصورة فهى الشاهد القائم على دنس الخطاة ،وهى الرمز الأبدى للدمار الذى ينزله الإنسان بروحه كلما تنكب عن نهج الصالحين ، وأين يجد دوريان عذراً بعد هذا النذير ؟

ودقت الساعة الثالثة ، ثم الرابعة والنصف لكن دوريان جراى ظل ثابتاً فى مكانه من الأريكة ، وكان يسترجع ماضيه وما ملأه من أحداث عنيفة وعواطف هوجاء ويحاول أن يخرج من هذه الأحداث والعواطف بمغزى فلم يهتد إلى شىء ، وأخيراً قصد إلى المائدة وكتب لسيبيل فين خطاباً طويلاً ملتهب العبارات يفيض بالحزن والوجيعة يسألها فيه الغفران عما بدر منه ويتهم نفسه بالجنون ، فنحن نجد لتأنيب النفس لذة عظمى ، وحين نؤنب أنفسنا نحس بأن الغير لا يملك حق تأنيبنا ، فالاعتراف هو الذى يغسل خطايانا ، وليس الكاهن

الذى نعتـرف أمـامـه . وحين أتم دوريـان الخـطاب أحـس بأن زلــته قـد غفرت له فعلا .

وسمع بالباب طرقًا وجاء صوت اللورد هنرى فى الخارج يقول :

- لابد أن أراك يا دوريان فـافتح البـاب فوراً ، فـأنا لا أحتـمل أن أراك تعتزل العالم على هذا النحو .

فلم يجب بادئ الأمر ولبث صامتـاً فى مكانه ، فلما توالى الطرق واشتد نهض مسـرعاً ليفتح البـاب ، فقد وجد أن من الخـير له أن يرى اللورد هنرى ويشرح له أسلوب حـياته الجديدة ، وأن يخـتصم معـه إذا لزم الأمر ، بل أن يخاصمه إذا اقـتضت الضرورة ، وغطى الصورة بالستار ثم فـتح الباب فدخل اللورد هنرى وهو يقول :

- لقد تألمت لما حدث أشـد الألم يا دوريان ، ولكنى أوصيك بأن تصرف نفسك عن التفكير فيه .

وقال الفتى :

- أتقصد ما فعلته سيبيل فين ؟

فجلس اللورد هنرى على مقعد وأجاب وهو يخلع قفازه الأصفر :

- بالطبع . إنه لشئ مـؤلم إلى حد بعـيد ، ولكنك لست مسـئولا عـما جرى . هل ذهبت لرؤيتها فى غرف الممثلين بعد انتهاء الرواية ؟

- نعم .

- لقد كنت واثقاً من ذلك . وهل تشاجرتما ؟

- لقد عـاملتها بوحـشية لا مـزيد عليها ، ولكن نفـسى الآن قد هدأت ولست آسفاً على شىء مما حدث ؛ لأن هذا الاختبار علمنى الكثير عن نفسى .

- أحـيّى فيك هـذه الشجـاعـة يا دوريان ،وقد كـنت أخشى أن أجـدك مهموماً تعنف نفسك وتمزق شعرك الذهبى الجميل هذا .

قال دوريان وهو يبتسم ويهز رأسه :

– لقد فرغت من كل ذلك ، وأنا الآن أسعد ما أكون ، فلقد عرفت كيف يكون عذاب الضمير ، وأرجوك يا هارى ألا تسخر من الضمير بعد اليوم ، فإن كان لابد لك من أن تسخر منه فلا تسخر منه أمامى ، لأنى أريد أن أحيا حياة صالحة ، وأنا لا أحتمل أن تتلوث روحى .

– أهنئك يا دوريان على اهتدائك إلى هذا المقياس الجميل ، ولكن كيف ستبدأ حياتك الجديدة ؟

– سأبدأها بأن أتزوج من سيبيل فين .

فنهض اللورد هنرى ونظر إليه فى حيرة بالغة وصاح :

– تتزوج من سيبيل فين ؟ ألم تعرف يا دوريان . . .

– نعم يا هارى ، أعرف ما ستقوله لى . أعرف آراءك القاسية فى الزواج، فاحتفظ بها لنفسك ، ورجائى إليك هو أن تحتفظ لنفسك بجميع آرائك الشاذة ، فلست أحب أن أسمع شيئاً منها بعد الآن . لقد طلبت إلى سيبيل منذ يومين أن تتزوجنى ولن أحنث بوعدى . نعم . إن سيبيل سوف تصبح زوجتى .

– ولكن كيف تكون سيبيل زوجتك ؟ أما وصلك خطابى . لقد كتبت لك صباح اليوم رسالة حملها إليك خادمى الخاص .

– نعم . أذكر أنى تسلمت رسالة منك ، ولكنى لم أقرأها بعد يا هارى ، فقد خفت أن أجد فيها كلاماً يسوءنى ، فأنت تمزق الحياة إرباً إرباً بأقوالك الغريبة .

– إذاً فأنت تجهل ما حدث ؟

– ماذا تعنى .

فتقدم إليه اللورد هنرى وجلس إلى جواره وأمسك بيديه وشد عليها فى قوة قائلاً :

- لا تنزعج يا دوريان . كتبت لك أقول إن سيبيل فين قد ماتت .

فتأوه الفتى تأوه المطعون فنزع يديه من يدى اللورد هنرى وقال :

- أتقول إن سيبيل ماتت ؟ هذا غير صحيح ، بل هذه فرية دنيئة . كيف تجرؤ على هذا الافتراء ؟

قال اللورد هنرى مكتئبًا :

- بل ما قلت غير الحقيقة يا دوريان . لقد نشرت النبأ صحف الصباح جميعاً ، وقد كتبت لك لأطلب إليك الا تقابل أحداً حتى أجيئك ، فأنت تعرف أن التحقيق سيجرى فى الحادث ، ومن المصلحة أن تظل أنت بعيداً عن كل شيء . إن مثل هذه الأشياء تجعلك قبلة الأنظار فى باريس .

أما فى لندن فالأمر يختلف. من الخطأ أن يبدأ الإنسان هنا حياته الاجتماعية بفضيحة ، والأنسب أن يؤجلها لأيام شيخوخته حتى يظل اسمه على ألسنة الناس بعد أن يوارى من الحياة العامة . أظن أنهم لا يعرفون اسمك فى المسرح ، فإذا كان الأمر كذلك فليس هناك ما يدعو إلى الانزعاج . هل رآك أحد تدخل غرفتها ؟ اجتهد أن تتذكر فهذه نقطة مهمة .

مرت لحظات عجز فيها دوريان عن الكلام لأن الرعب قد عقد لسانه ، وأخيراً قال فى صوت متقطع يشبه الهمس :

- أتقول أن هناك تحقيقاً يجرى يا هارى ؟ ماذا تقصد بذلك ؟

أتراها - أواه ! لم أعد احتمل يا هارى ، فعجل وقص على كل ما حدث.

- أنا لا أشك فى أن وفاتها لم تكن نتيجة خطأ يا دوريان ، ولكن يجب أن تخفى الحقيقة عن الجمهور ، والمعروف أنها خرجت من المسرح فى صحبة أمها نحو الساعة الثانية عشرة والنصف ، ثم احتجت بأنها نسيت فى غرفتها شيئا ما ولما طال انتظارها صعدوا إلى غرفتها فوجدوها مسجاة على أرض الغرفة وقد فارقتها الحياة بعد أن شربت مادة سامة من تلك المواد التى

يستعملونها فى المسرح لا علم لى بها على التحقيق ، ولكنى أعرف أنها تحتوى إما علـى حامض البراسـيك أو الرصاص الأبيض ، والأرجح أنـه الأول لأنها ماتت فوراً .

فصاح الفتى قائلاً :

- يا للفجيعة ! يا للفجيعة !

- نعم يا دوريان ، إنها لمأسـاة أليمة، ولكـن يجب ألا يدخل اسمك في الحادث . إن صحـيفة الاستاندارد تقـول إنها فى السابعة عشـرة من عمرها ، وقد كنت أظنها أصغر من ذلك سناً . لقـد كانت تبدو كطفلة غريرة ، ويظهر أن علمها بأصـول التمثيل ضئيل . اسـمع يا دوريان : يجب عليك أن تحتفظ برباطة جأشك وهدوء أعـصابك . تعال لنتعشى مـعاً ، ثم نذهب إلى الأوبرا بعد ذلك . إنى أدعوك إلى مقصورة أختى ، وستجد هناك بعض مليحات لندن .

قال دوريان جراى وكأنه يحدث نفسه :

- إذاً فقـد قتلت سيـبيل فين ، ذبحتـها بيدى ذبحـاً ، ومع ذلك فورود الحديقة الجميلة لا تزال جميلة ، والأطيار تغرد فيها ألحانها الطروب كما كانت من قبل تغـرد وأنا الليلة أتعشى معك ، ثم أذهب إلى دار الأوبرا . ومـا أشبه الحياة بمأساة عنيفة ! فلو أننى قـرأت كل هذا فى كتاب لبللت الكتاب بدموعى . أما وقـد وقعت هذه الحوادث لى فعـلا فها أنت ترانى عـصى الدمع من فرط الذهول . هذا أول خطاب غرامـى أكتبـه بشعور صـادق . أفليس عجيـباً أن أكتب أول رسائل غـرامى إلى فتاة ميتة ؟ ترى أيحس سكان القـبور بما يجرى فى عالم الأحياء ؟ ويلى عليك يا سيبيل ! أتراها تحس بدخيلة نفسى أو تسمع صوتى المتهدج هذا أو تعرف ما أنا فيه من اضطراب ؟

كم أحببتها يا هارى قبـل تلك الليلة المشئومة ، ولكن هذا كله قد فات ، هو الآن جزء من تراث الماضى السـحيق . لقد ملأت أفق حيـاتى حتى كانت تلك الليلة المشـئومـة فكسر قلبى بفظاعـة تمثيلهـا . ، بالى أقـرب تلك الليلة

المشئومة كأنها ليلة من الليالى الخوالى ، وماهى إلا ليلة الأمس ؟ ولقد شرحت لى سر سقوطهـا بعبارات تفتت الحجر الأصم ، ولكنى لم أرق لنحـيبها ، بل ظننتها امرأة تافهة لا تحس شيئا فى الحياة ، ثم حدث لى شىء جعلنى أحاسب نفسى وأخاف المستقبل ، فعلمت أنى قـد أسأت إليها وعزمت أن أعـود إليها طالباً الصفح ، ولكن ها هى ذى قد ماتت فماذا أفعل يا هارى ، ماذا أفعل ؟ الرحمة يا إلهى ! الرحمة من عندك يا إلهى ! إنى لأسير على شفاه هوة عميقة ولا أجد فى الدنيا ما أستهديه سبيل الرشاد . لو أنها عاشت لكانت لى النجم الهادى والمرفـأ الحنون . إن حيـاتها لم تكن ملكاً لهـا ، فمن الخسـة أن تقتل نفسها وتتركنى هنا أضرب فى الأرض بغير رائد .

فقال اللورد هنرى هو يخرج سيجارة من علبته وعلبة كبريت مذهبة :

- إن الطريقة الوحيدة التى تستطيع بها امرأة أن تهدى رجلا هى أن تدخل الضيق فى نفسه حتى يفقد كل رغـبة فى مباهج الحياة ، ولو أنك تزوجت من هذه الفـتـاة لشقـيت عـامة عـمرك . أنا لا أشك فى أنـك كنت ستـعاملهـا مـعـاملـة حـسـنة ، ولكن هذا مـوضوع آخـر ، فنحن نسـتطيع أن نحـسن معامـلة مـن لا نكترث بهم ، وقد كان من المحقق أن تستكشف هى هذا بعد فترة وجيـزة ، وحين يتبين للمرأة أن زوجها لا يكترث بهـا تراها إما تهمل فى مظهرها إلى حد مزر ، وإما تسرف فى ارتداء الثـياب الفاخرة التى يدفع ثمنها زوج امرأة أخرى ، كـذلك لاتنس أن التفاوت الاجتمـاعى الهائل بين مكانتك ومكانتها كان كـفيلا بتعقيد الأمور ، ولقـد كنت عازماً على تجنيبك هذا الخطأ مهما كلفنى هذا الأمر . نعم ، لاشك فى أن مثل هذا الزواج كان خليقًا بالفشل .

قال الفتى وهو يقطع أرض الغـرفة جيئة وذهابا ، وقد بدا علـيه شحوب مخيف :

- أرجح أن هذا صحيح ، ولكن الواجب كان يـقضى علىّ بالوفاء بوعدى ، وأنا لا الام إذا كانت هذه المأسـاة الأليمة قـد منعتنى من أداء الواجب . إنى

لأذكر ما قلتـه لى ذات مرة من أن القدر يكيد لنا كلمـا عزمنا على فعل شىء جمـيل ، فالنوايا الطيـبة تأتى دائمـاً بعد فوات الوقت ، وهذا يـصف حالتى أحسن وصف .

– إن النوايا الطيـبـة تدخل لا جدوى منه فـى سيـر القوانـين العلميـة ، ومنشؤها الغرور لا سواه ، أما نتيجتهـا فصفر لا أكثر ولا أقل ، ونحن نستمد منها بين وقت وآخر بعض اللذه العقيمـة التى تستهوى قلوب الضعفاء ، وهذا كل ما لها من مسوغ . إن النوايا الطيبة لتشبه شيكات يسحبها الناس على بنوك ليس لهم فيها رصيد .

فقال دوريان جراى وهو يجلس إلى جواره :

– ما السر فى إنى لم أفجع لهذه المأساة إلى الحد الذى أريد ؟ لست أظن أنى شخص ميت الشعور . أتعتقد ذلك فىّ يا هارى ؟

أجاب اللورد هنرى بصوته العذب الحنون :

– كـلا . فإن تاريخك الحـافل بالحمـاقات فـى الأيـام القليلـة الماضيـة لا يؤهلك لمثل هذا الوصف .

فعبس الفتى وقال :

– أنا لا أرضى بتـفـسـيرك هذا يا هارى ، ولكنى مـغتـبط لأنك لا ترانى شخصـاً ميت الشعور ، فمـا أنا كذلك ، وإنى لواثق من هذا ، ولكنى برغم ذلك أعترف بأنى لم أحزن لفقدان سيبيل كما كان ينبغى أن أحزن ، فهو يبدو لى الآن كنهاية رائعة لرواية رائعة لا أكثر ، نعم . لقـد كانت قصتنا مأساة لها ما لمآسى الإغريق من جمال مدمر ، مأساة كنت أنا فيها البطل الأول .

– إنها لمسألة تستحق الاهتمام ، بل إنها لمسألة تستحق كل الاهتمام ، وأظن أن تفسيرها الحقيـقى هـو أن مآسى الحقيقة تحل بالناس خـالية من كل تصميم فنـى ، فتـؤذينا وحشـيتها السـاذجة وتناقـضها المطلق وقلة مدلولها وافـتقارها

التام لكل أسلوب ، فهى تؤثر فينا تأثير الأشياء المتبذلة فينا ،أى أنها تستحقنا سحقاً بمالها من قوة غشوم ، ونحن نمقت القوم الغشوم ، ولكن بين آن وآخر تقع فى حياتنا مأساة لها طابع فنى ، فإذا كانت عناصر الجمال التى نجدها فى هذه المأساة عناصر صحيحة لا زيف فيها ، تركت فينا أثراً يشبه الأثر الذى تتركه فينا مسرحية من المسرحيات ، وعندئذ يزايلنا الإحساس بأننا ممثلون فى هذه المسرحية ونعتقد أننا من النظارة ، أو على الأصح نشعر بأننا من الممثلين ومن النظارة فى وقت واحد ، بذلك نشاهد أنفسنا كل يقوم بدوره فيسحرنا هذا المشهد ،وفى حالتك أنت بالذات كل ما حدث هو أن فتاة انتحرت لأنها تحبك ، وهو اختبار ممتع ، أو لو أنه حدث لى ،فهو كفيل بأن يجعلنى من أنصار الحب بقية حياتى . إن كل من عشقنى من النساء ،وهن قليلات ، قد حرصن كل الحرص على الحياة بعد أن نضب حبى لهن أو حبهن لى ، بل لقد زاد وزنهن وأصبحن مصدر ملل دائم لى ، فكلما قابلت إحداهن اختلت بى وذهبت تبادلنى الذكريات . إن قوة ذاكرة المرأة لشىء مزعج ، وهى إن دلت على شىء فهو أن عقولهن لا تشتغل أبداً ! إن جمال الحياة فى ألوانها الخاطفة ، أما التفاصيل فجديرة بالنسيان ، فالتفاصيل أشياء مبتذلة .

قال دوريان جراى متنهداً :

– لابد أن أزرع الخشخاش فى حديقتى تحية لذاكرها .

فقال اللورد هنرى :

– لا داعى لذلك ، فالحياة تحمل أزهار الخشخاش فى يديها دائماً ، ولقد تخلو منها يداها بين الحين والحين ، فأنا أذكر أنى وضعت البنفسج فى عروتى موسماً بأكمله حداداً على غرام لا يريد أن يموت ، ولكنه مات ولله الحمد آخر الأمر ، وإن كنت لا أذكر ماذا قتله ، أعتقد أنها قالت لى مرة إنها على استعداد لتضحى بكل ما فى الدنيا من أجلى ، فأجهز هذا على ما بقى فى قلبى من الحب . إن عبارات الوفاء تنشر الرهبة فى نفوسنا ، فنحن نخاف من

والإخلاص الدائم خوفنا من الأبدية ، ولعلك لا تصدقنى إذا قلت لك أنى التقيت منذ أسبوع بهذه السيدة التى حدثتك عنها فى مأدبة عشاء أقامتها الليدى هامپشير ،وكان من نكد طالعى أن جلست بجوارها إلى المائدة ، فما كان منها إلا أن نبشت الماضى ونبشت المستقبل كذلك ، وأنشأت تذكرنى بكل ما حدث بينى وبينها ، وزكدت لى أنى قد أفسدت حياتها . لقد دفنت غرامى فى نعش من أوراق السوسن فاستخرجته من جديد . أجل . زعمت أنى قد أفسدت حياتها ، فلما رأيتها تتناول عشاءها بشهية عظيمة زال القلق الذى ساورنى بشأنها . أقول هذا لأنه دليل على فساد ذوقها . إن أجمل ما فى الماضى أنه مضى ، ولكن النساء لا يعرفن متى ينسدل الستار على كوميديا الحياة ، وهن دائماً يرغبن فى إطالتها بإضافة فصل سادس لها ، بعد أن تكون بهجتها قد نضبت ، ولو أننا تركنا الأمر لهن لانتهت كل كوميديا نهاية محزنة ، ولاستحالت كل مأساة فى النهاية إلى مهزلة . إن النساء يتكلفن فى كل شيء وهذا ما يحببهن إلينا ، ولكنهن خلون من كل ذوق فنى ، ولقد كنت أسعد حظًا منى فى سوق الغرام يا دوريان ، فأنا أؤكد لك أنه ما من امرأة ممن عرفت من النساء كانت لتقتل نفسها بسببى كما قتلت سيبيل فين نفسها بسببك ، فالنساء العاديات يجدن دائماً ما يعزيهن عن الغرام الضائع ، ومنهن من يلتمس العزاء فى ارتداء الثياب ذات الألوان المؤثرة ،وأنا أحذرك يا دوريان من كل امرأة تلبس ثياباً بنفسجية أيًا كان عمرها ، وإذا صادفت امرأة تخطت الثلاثين تتزين بالشرائط الوردية فاجتنبها كذلك ، فمثل هؤلاء لهن ماض ، ومن النساء من يتعزين عن غرامهن باكتشاف محاسن أزواجهن فجأة ، وتراهن يثرثرن فى كل مكان عن سعادتهن الزوجية كأن السعادة الزوجية ثمرة محرمة شهية قطفنها وحدهن من دون خلق الله ، ومن النساء من يلتمس العزاء فى الدين ، ولقد قالت إحداهن لى إن ألغاز الدين لها ما للغزل من سحر فى نفوسهن ، وأنا أصدقها ، ثم إن للناس يجدون فى الخطيئة مصدراً للفخر ، ومنشأة الأثرة هو ضمير الإنسان . من هذا ترى أنه لاحد لأسباب العزاء التى تجدها النساء فى هذه الأيام ، ومما ذكرت منها أهمها .

فسأله الفتى فى فتور :

- وماذا يكون هذا يا هارى ؟

- إن أول ما تفعله المرأة حين تفقد عشيقها هو أن تسلب امرأة أخرى عشيقها ،وهذا كاف فى المجتمع الراقى أن يرد للمرأة اعتبارها ، ولكن لابد أن سيبيل فين كانت تختلف عن سائر النساء اللاتى نعرفهن يا دوريان . إن موتها لفاجعة جميلة ، وإنى لسعيد بأنى أعيش فى عصر تحدث فيه مثل هذه العجائب ، فمثل هذه العجائب تثبت إيماننا بحقيقة الحب والعاطفة والخيال وسائر الأشياء التى نلهو بها فى هذه الحياة .

- ولكنك تنسى أنى قسوت عليها قسوة مرة .

- إن النساء يستطبن القسوة ، بل يستطبن القسوة التى تصل إلي حد الهمجية ، لأن غرائزهن لا تزال فى دور الفطرة ، وهذا ما يفتننى فيهن ، لقد منحناهن الحرية ولكنهن بقين كما كن عبيداً يبحثن عن سادة ، وهن يطلبن من الرجل أن يفرض سلطانه عليهن ، ولست أشك فى أنك قمت بهذا الواجب خير قيام ، وإنى وإن كنت لم أدركك قط غاضباً غضباً جارفاً فإنى لا أتصور منظرك الجميل حيث ثُرت على سيبيل فين كالبركان ، ثم إنك قلت لى منذ يومين شيئاً ظننته إسرافاً منك فى الأوهام ، ولكنى أدرك الآن أنه حقيقة لا جدال فيها وهو يفسر كل ما حدث .

- ماذا تعنى يا هارى ؟

- قلت لى إنك تجد فى سيبيل فين جميع بطلات الخيال ، فهى يومًا ديدمونة ويوماً أوفيليا وأنك تشيعها إلى مقرها الأخير فى صورة چولييت فإذا بها تعود إلى الحياة فى شخص إيموچن .

قال الفتى وهو يدفن وجهه فى راحتيه :

- ولكنها لن تعود إلى الحياة بعد الآن .

- بلى ، لن تعود إلى الحياة بعد الآن فقد لعبت دورها الأخير ، ولكن يجب عليك يا دوريان أن تتصور ميتتها الموحشة فى غرفتها بالمسرح منظراً غريباً عاصفاً من مسرحية جميلة لويستر أو فورد أو سيريل تيرنر أو أترابهم من كتاب عصر چيمس الأول الذين كلفوا بالعنف والإغراب ، فسيبيل لم تنتم يومًا إلى عالم الأحياء ،ولهذا كان خطأ منك أن تحسب أنها ماتت ، فقد كنت تراها فى وادى الأحلام فتخالها طيفاً يخطر بين مسرحيات شكسپير ويشيع فيها من سحره سحراً ، وتسمعها فتحسبها نادياً شجيًا يبثك ألحان شكسپير فتزداد به الألحان حلاوة ، وحين أرادت أن تحيا فى الحقيقة أفسدتها الحياة فكانت بذلك نهايتها . فابك شباب أوفيليا إذا أحببت ، ولطخ خديك بالتراب حزناً على كورديليا الأمينَة ، والعن السموات بأعلى صوتك لأن ديدمونة الطاهرة قد أسلمت روحها ، ولكن لا تُرِقْ دمعة واحدة على سيبيل فين ؛ لأنها طيف من نسج الأحلام ، أما هن فمن بنات الحقيقة .

ثم أعقب هذا صمت مستطيل وانتشر الظلام فى الحجرة بمجىء المساء ، ومن الباب دخلت أشباح الحديقة فى هدوء فلم يسمع أحد لأقدامها وقعاً ، أما الألوان فتقاربت وتداخلت فلم يعد أحد يميز من بينها لونها .

وبعد قليل رفع دوريان جراى رأسه وقد عاد إليه هدوءه . قال :

- لقد شرحت لى دخيلة نفسى يا هارى ، ولقد كنت أحس بكل شىء ذكرته لى ، ولكنى لم أجد الشجاعة الكافية لأصارح نفسى به . فما أصدق معرفتك بى ! ولكن دعنا من الماضى ولنسدل عليه ستاراً وكل ما أقوله فيه أنه كان اختياراً رائعاً ، أتظن أن الحياة تخبىء لى الكثير من هذا القبيل ؟

- نعم يا دوريان ، فالحياة تخبىء لك كل شىء ، فليس هناك ما يستعصى على وجهك الجميل هذا .

- ولكن ماذا يكون الحال يا هارى إذا ما ضاع شبابى وشحب لونى وتغضن وجهى ؟

فقال اللورد هنرى وهو يتأهب للانصراف :

- عندما يحدث ذلك يا عزيزى دوريان لن يأتيك نصر إلا لكفاحك ، أما الآن فأسباب المجد تساق إليك سوقاً . نعم يا دوريان ، لابد لك من الاحتفاظ بجمـالك ، فنحن نعيش فى جـيل أسرف فى الاطلاع حـتى فقـد الحكمة ، وأسرف فى التفكير حتى أضاع الجمـال ، ولن نجد ما يغنينا عنك فابق لنا كما أنت الآن ، ولكن يجدر بك أن تسرع بارتداء مـلابسك وتأتى معى إلى النادى ، فقد تأخرنا .

- سألحق بك فى الأوبرا يا هارى ، لأن التعب قد قتل شهيتى للأكل فما رقم مقصورة أختك .

- سبعة وعشرون ، وستجـد اسمها على باب المقصورة فلن يطول بحثك ، ولكن يؤسفنى أنك ترفض دعوتى للعشاء .

قال دوريان جراى فى فتور :

- اعفنى هـذه المرة ، فلن أستطيع أن آكل شـيئاً ، ولكـن يجب أن أقول لك قبل أن تنصرف إنى مدين لك بالكثير ؛ فكلماتك قد طيّبت نفسى ، ولن أجد بين الناس صـديقاً مثلك يخفف عنى الأحـمال ، فما من أحـد نفذ إلى سريرتى نفاذك أنت إليها .

فأجاب اللورد هنرى وهو يصافحه :

- ما نحن إلا فى بداية الطريق يا دوريان ، وأرجو أن تقوى صداقتنا على الأيام . آمل أن أراك قبل منـتصف الساعـة التاسعـة ، ولا تنس أن باتى يغنى الليلة فى الأوبرا ، فإلى اللقاء .

وبعد أن أغلق الباب وراءه دوريان جراى الجرس يطلب خادمه فدخل عليه فكتـور يحمل المصـابيـح وأسـدل على النوافذ ستـائرها ، وبدا لدوريان جراى

أنه يتلكأ فى عمله فنفذ صبره ، ولكن فكتـور خرج أخيراً فأسرع إلى الصورة وأزاح عنها الغطاء ليـستطلع مدى التغيـير الذى حل بها فى الفتـرة الأخيرة ، فوجـدها كما كانت قـبل أن يزوره اللورد هنرى ، فعـرفت أنها علمت بموت سيبيل فين قـبل أن يعلم هو ، وعرف أنها تستجيب لكل مـا يحدث فى الحياة وقت حدوثه ،فإذا كان الأمـر كذلك فأمارات القسوة التى طالـعها فى موضع الفم لابد ظهرت لحظة أن قتلت سيبيل فين نفسها ، ثم خطر له أن الصورة إن هى إلا مرآة روحه، فهى لا تتأثر بما ينجم عن مسلكه عن نتائج ، وإنما تسجل كل تغير ينتاب روحه ، ولم يجد جواباً شـافيا على مزاعمه المضطربة ، ولكنه تمنى أن يرى بعينيه التـغير يجرى فى الصورة يوماً من الأيام ، وفـيما هو يفكر فى هذه الأمر اقشعر بدنه من هول الفكرة .

يا لسيبيل من فتاة تعـسة ! ويا له من غرام فاجع ! كم ذاقت على المسرح كأس المنية حتى قبضت المنية روحها وخطف الموت السر من بين جنبيها . تراها أتقنت آخـر منظرٍ فى مأسـاة حياتهـا ؟ تراها لعنته وهى تموت ؟ ولـكن كيف تلعنه وهى قد ماتت فى هواه ؟ كلا . لقـد أصبح الحب طريقة للخلاص فلقد مسحت عنه بموتها آثامه ، فلينس إذا ما أنزلت به من عذاب فى ليلة الفراق ، وليذكرها كعذراء أرسلتها المقادير إلى مسرح الحياة لتثبت للناس حقيقة الحب ، ويالها من عذراء تبهر الناظرين ! وترقرقت الدموع فى عينيه حين استحضر فى خياله مـحياها البرىء وحياءها الخـلاب ، وطباعها العجـيبة ، فجففـها لفوره وعاد يتطلع إلى الصورة من جديد .

وأحس بأنه يقف فى مفـترق الطرق ليخـتار من السبل مـا يشاء ، ولكن كيف يختـار من السبل ما يشاء وقـد اختارت له الحياة السـبيل الذى يسلكه ؟ أجل ، إن الحياة قد فـصلت له فى أمره نيابة عنه لأن به شغفـاً بالحياة لا يحد بحدود ، فـالشباب دائم النضـرة ملك يديه والعواطف الجـارفات كالسـيول ، واللذات الخفية واللذات التى لم تعرفها نفس أبداً ، والأفراح المجنونة والخطايا

المجنونة ، كل هذا من نصيبه ، وما على الصورة إلا أن تحمل وزر حياته النكراء .

وعندما تصور المسخ الذى سيصيب وجهه الجميل على اللوحة اقشعر بدنه مرة أخرى . لقد أراد ذات مرة أن يقلد الإله الذى عشق نفسه فى أسطورة النرچس ، فقبل تلكما الشفتين اللتين تكايدانه فى اللوحة بما تحملان من قسوة ، ولكم جلس يوماً بعد يوم قبالة الصورة يتغزل بجمالها . أتراها الآن تسجل عليه كل ما يجرى فى دخيلة نفسه ؟ أتراها تزداد كل يوم بشاعة حتى تصبح فى النهاية مسخاً رجيماً يجب أخفاؤه عن العيون وإقصاؤه إلى حجرة محكمة الإيصاد بعد أن كانت تغتسل كل يوم فى ضوء الشمس ويبرق شعرها المتموج فيه كسبائك النضار ؟ واهًا ثم واها .

وأراد أن يسجد ضارعاً للسماد أن تضع حدًا لهذا التجاوب المقيت بينه وبين الصورة ، وبعد ، ألم تتغير الصورة إجابة لصلاته الأولى ؟ ! فليس مستحيلا إذًا أن تثبت على حالها إجابة لصلاة ثانية ، ولكنه لم يقو على ذلك الإغراء لأن الإغراء كان عظيماً ، فهل بين الأحياء الذين ذاقو طعم الحياة من يرفض أن يشترى الشباب الدائم مهما غلا ثمنه ؟ ثم من يدريه أن الصورة رهينة برغباته ؟ من يدريه أنها تغيرت لأن صلاته قد أجيبت ؟ أليس جائزاً أن هناك تفسيراً علميًا لكل ما يحدث ؟ أليس جائزاً أن الفكر الذى يؤثر فى الكائنات الحية مستطيع كذلك أن يؤثر فى الكائنات الجامدة ؟ ثم أليس جائزاً كذلك أن أشياء العالم الخارجى تستجيب لخواطرنا وأهوائنا دون فكر أو وعى فتجذب ذرة فيها ذرة بقانون الحب المخبوء فى كل شىء ، ولكن كيفما كان التعليل فهو لا يغير من الأمر شيئاً ، وهو لن يثير بعد اليوم بصلواته القوى الرهيبة فى هذا الموجود ، وكفاه ما كان . فلتتغير الصورة إذا كان مقدراً لها أن تتغير ، فما له فى ذلك حيلة ، ولا داعى للتفكير فى العلل والنتائج .

لسوف يجد لذة فى مشاهدة التطور الذى ينزل بها ، ولسوف يقف على مكنونات عقله التى لا يعرف عنها شيئاً يوماً بعد يوم . لسوف تكون الصورة مرآته السحرية التى تعكس له تلافيف نفسه كما عكست له ثنايا جسمه ، وحين يحل عليها الشتاء فيذويها ، يختال هو بين الربيع الناضر والصيف القوى ، وحين يغيض الدم فى وجنتيها ويترك وراءه صفحة شاحبة بيضاء ومقلة أطفأتها السنون يبقى له سحر الصبا . أجل . لن تذوى زهرة واحدة فى بستانه اليانع ، ولن يهمد فيه عرق ينبض الآن بالحياة ، ولسوف تبقى له فتوته أبداً وخفته أبداً ومرحه أبداً كأنه إله من آلهة الإغريق ، فماذا يهم لو تبدلت الصورة أو شاهت أو تهشمت ؟ إنه فى حصن حصين لا تصل إليه يد الزمن ، وهذا كل ما يصبو إليه .

وغطى الصورة بالستار مرة أخرى وابتسم فى رضا ، ثم دخل حجرة النوم حيث كان خادمه ينتظره ، وبعد ساعة كان دوريان جراى فى الأوبرا ، وكان اللورد هنرى يتحدث إليه بصوت مهموس .

الفصل التاسع

وفى الصباح التالى جلس دوريان جراى ليتناول فطوره ، وفيما هو كذلك دخل عليه بازيل هولوورد وقال مكتئباً :

- أنا سعيد الحظ لأنى وجدتك أخيراً يا دوريان ، وقد مرت بك ليلة الأمس فقيل لى إنك فى دار الأوبرا ، فلم أصدق ذلك ، ولقد كنت أودّ لو أنك بعثت إلى ببرقية عقب علمك بالحادث مباشرة ، أما أنا فقد طالعت النبأ فى طبعة متأخرة من صحيفة الجلوب عثرت عليها فى النادى بمحض المصادفة ، فجئتك فوراً وأحزننى أنى لم أجدك ، فقد أشفقت أن تردف أنت هذه المأساة بمأساة أخرى ، وأقتضت هذه الفكرة مضجعى طول الليل فلم أذق للنوم طعماً . كان يجدر بك يا دوريان أن تترك كلمة تعيّن فيها المكان الذى قصدت إليه ، فقد أشقانى القلق عليك شقاء ما بعده من شقاء ، كما أحزننى موت سيبيل حزناً ما بعده من حزن ، وإنى لأحس بأثر الفجيعة فيك فتجمل بالصبر ، ولكن أين كنت ليلة الأمس ؟ أذهبت لتواسى أم الفتاة ؟ لقد خطر ذلك ببالى ، وكدت أن أتبعك إلى بيتها ببوستون رود الذى قرأت عنوانه فى الصحيفة ، ولكنى خفت أن تكون زيارتى لهذا البيت الحزين فضولا يضر أكثر مما ينفع ، فهذه فجيعة فريدة لا يفيد فيها عزاء ، وكيف تتعزى من رزئت فى وحيدتها ، فيا لأمها الثكلى من امرأة منكودة الطالع . ما من ريب فى أن قلبها قد مزقته الأحزان . قل لى ، كيف تراها استقبلت الحادث يا دوريان ؟

قال الفتى وهو يرشف بعض النبيذ الأصفر من كأس دقيقة التكوين مزخرفة بالذهب صنعت من زجاج البندقية ، وقد بدأ عليه الملل الشديد :

- كيف أعلم ذلك وقد كنت فى الأوبرا ؟ليتك جئت معنا ، فقد كانت ليلة ممتعة تعرفت فيها لأول مرة على الليلدى جوندولين ، أخت هارى ، وقد كنا فى مقصورتين فوجدتها امرأة فاتنة حقًا ، وكان باتى يغنى فأجاد الغناء . لا تتحدث يا بازيل عن الموضوعات المحزنة ، فالشيء الذى لا نتحدث عنه لم يحدث البتة ، لأن التعبير كما قال هارى هو الذى يكسب الأشياء صفة الحقيقة ، ولكنى أحب أن أذكر لك عَرَضاً أنه لمسز فين ابناً لا يشتغل بالتمثيل بل يعمل كبحار ، وأعتقد أنه فتى لطيف ، والآن فلتحدثنى عن نفسك وما ترسمه فى هذه الأيام .

قال هولوورد فى بطء وكان صوته ينم عن ألم بالغ :

- أتقول إنك ذهبت إلى الأوبرا ؟ أتقول إنك ذهبت إلى الأوبرا حين كان سيبيل ين مسجاة فى بيتها المقبض ؟ أتتحدث بجمال غيرها من النساء وبروعة غناء باتى قبل أن تجد حبيبتك القبر الذى تستريح فيه ، أنسيت أن الدود ينتظر جسدها البض الصغير فى شوق ولهفة ؟

فنهض دوريان من مكانه وصاح به قائلاً :

- كفى يا بازيل ، ولا تذكر هذه الأشياء أمامى مرة أخرى ، وانس ما فات ، فليس لأحد سلطان على الماضى .

- أتسمى الأمس بالماضى ؟

- وما دخل الزمن فى كل هذا ؟ إنما يحتاج السذج إلى أعوام طويلة ليبرءوا من عاطفة ما ، أما من تعود أن يكون سيد نفسه فأحزانه تخضع لإرادته يصرفها حين يشاء ، ولذّاته طوع بنانه يخلقها متى أحب ، وأنا لا أريد أن أدع عواطفى تستبد بى ، بل أريد أن أستخدمها وأنعم بها وأسيطر عليها .

- هذه قسوة يا دوريان ، ولابد أن شيئاً قد بدل من طباعك تماماً . أنت ما زلت كما كنت دائماً ذلك الفتى الصبوح المحيا الذى كان يجيئنى فى الاستوديو يوماً بعد يوم لأرسمه ،ولكنك كنت أنقى مَنْ عرفت من الناس ،

أما الآن فأنت تتحدث حديث شخص ميت الإحساس ، وهذا لا ريب أثر هارى فيك .

فاحمر وجه الفتى ، ومشى إلى النافذة وأنشأ يتأمل حشائش الحديقة الخضراء التى تلمع فى ضوء الشمس لحظات ثم قال :

– إن دينى لهارى أثقل من دينى لك يا بازيل ، فأنت لم تعلمنى إلا أن أغتر بنفسى .

– إذا كان الأمر كذلك فقد حل بى غضب السماء أو سيحل يوماً من الأيام .

التفت الفتى إليه وقال :

– لست أفهم ما تقول يا بازيل . ماذا تريد منى ؟ أجب .

فأجاب الفنان بنفس حزينة :

– أريد منك أن أرى فيك دوريان جراى الذى اعتدت أن أرسمه .

فسعى الفتى إليه ووضع يده على منكبه قائلا:

– لقد جئت متأخراً يا بازيل ، فحين سمعت البارحة أن سيبل فين قد انتحرت . . .

فحملق هولوورد فيه فزعاً وصاح :

– انتحرت ! يا إلهى ! أهذا مقطوع به ؟

– بالطبع انتحرت . هل انطلى على ذكائك الوقاد يا عزيزى با زيل أن موتها كانت نتيجة حادثة عادية .

فدفن الرسام وجهه فى كفيه وقال وهو يرتجف :

– يا للفظاعة ؟

قال دوريان جراى :

– ليس فى الأمر فظاعـة ، فلقد كان مـصرعهـا مأساة من أجـمل مآسى العصـر ، فأنت تلاحظ أن المشتـغلين بالتمثيل يعيشون كعـامة الناس عيشة مملة لا خيال فيها برغم أنهم يتجرون بالخـيال ويبيعون الأحلام ، فتجد منهم الأزواج الأفاضل والزوجات الـوفيات ، وما شاكل ذلك من الـفضائل التى تتمـيز بها الطبقة المتـوسطة ، أما سيبيل فقـد كانت تختلف كل الاختلاف ، فـقد كانت تلعب دور البطلة فى مآسى المسـرح وفى مآسى الحياة ، وفى آخـر ليلة مثلت فيـها ، وهى ليلة أن رأيتها ، سـقطت فى التمثـيل لأنها لمست حقيـقة الحب فكشفت لهـا حقيـقة الحب عن زيف الفن ، فلمـا أدركت زيف الفن ماتت ، ولكنها لم تمت كـما تموت بنات الحيـاة ، بل ماتت كما تموت بنات الخـيال ، ماتت مـيتة چولـييت ، فدخلت حـرم الفن من جديد بعـد أن خرجت منه ، وهى فى عداد الشهداء لأن لموتها كل ما للاستشـهاد من جمال ضائع وتضحية لا طائل وراءها ، ولا تحسبـنى أنى لم أحزن لوفاتها ، فلو قد جـئتنى بالأمس نحو منتصف الساعة السـابعة لوجدتنى أبكى ، وهارى ذاته الذى حمل إلىّ نبأ وفاتها لم يعرف مبلغ شقائى ساعتها . نعم ، لقد حزنت عليها حزناً كثيراً ثم زال الحزن عنى ، ولن أستطيع أن أسـترجعه فما تعـودت أن أكرر عواطفى ، لأن هذا خليق بأصحـاب العـواطف الزائفة ، ولسـت منهم ، فأنت كما ترى يا بازيل تظلمنى ظلمـاً فاحـشاً إذ تقول بأنى مـيت الإحسـاس ، لقد جـئتنى لتعزينى وهذا جميل مـنك ، فتجدنى متعزياً فيغـضبك أن أكون كذلك ، فهل أنت من أصحـاب العواطف الزائفة ؟ أنت تذكرنى بقـصة رواها لى هارى عن رجل من أولئك الرجال الذين أتعبهم حب البشر أضاع من عمره عشرين عاماً فى إصلاح قانون ظالم ، فلما وفق أخيراً إلى ذلك وارتفع الظلم أصيب بخيبة أمل شديدة ، فقد وجـد نفسه عاطلاً تماماً لا يجد ما يـعمله حتى كاد الملل أن يقتله ، فـانقلب من محب للبشر إلى ناقم على البـشر ، ثم إنك لو أردت أن تواسيـنى يا عزيزى بازيل فلخـير لى أن تعلمنى كـيف أنسى مـا حدث من أن تذكرنى به ، لخـير أن تعلمنى كيف أستـقبل هذه المحنة استقـبال الفنان من أن

تطلب إلى أن استقبلها الإنسان العادى ، أليس جوتييه هو القائل بأن الفن يواسى النفس ؟ هذه عبارة قرأتها فى كتاب به وجدته مصادفة أيام أن كنت أزورك فى الاستوديو ،ولست كذلك الشاب الذى ذكرته لى عنه حين كنا معاً فى مارلو أنه يقول إن ملمس الأطلس الناعم ينسيه كل ما فى العالم من أحزان ، فأنا أتعشق الأشياء الجميلة ولا أقنع منها القليل . أنا أحب التماثيل البرنزية والتماثيل العاجية والقماش المزخرف القديم وأدوات الترف وأسباب البذخ ، وبالجملة أحب أن يكون كل ما تقع عليه حواسى جميلا فيه أثر الفن . مثل هذه الأشياء تجعل الحياة بهيجة ولكن قيمتها الأولى عندى هى أن تلهمنى بالخواطر الفنية أو تعرض علىّ ما فيها من فن على أقل تقدير . فاجتناب آلام الحياة لا يكون إلا بعلو الذات ، ووقوف الإنسان موقف المشاهد من نفسه كما قال هارى . أعلم أن حديثى هذا يذهلك لأنك لم تتعوده منى ولكنك تنسى أنى قد نمؤت . لقد عرفتنى حين كنت تلميذاً لا خبرة لى بالحياة أما الآن فأنا رجل كامل النمو ، وأفكارى اليوم غير أفكارى بالأمس وعواطفى اليوم غير عواطفى بالأمس ، وإذا كنت قد تغيرت فهذا لا يستتبع تخفف من حبك لى ، بل ينبغى ... ك أن تظل كما كنت دائماً صديقى الو برغم أنى قد تغيرت . وأنا أحب ... ى حباً لا شك فيه ، ولكنى أعتقد أ أطيب نفساً . نعم . أنت أطيب نفساً برغم أنه أقوى منك شخصية وأقل خ من الحياة . تذكر يا بازيل كيف كنا سعيدين معاً فى الماضى فأرج ألا تقاطعنى أو تتشاجر معى ، وإذا كنت ترجو منى أن أعود كما كنت ف مخطىء ، وواجبك أن تقبلنى على علاتى . هذه وجهة نظرى قد بسطتها لل وليس لدى ما أضيفه إليها .

وتأثر الرسام لهذا الكلام ، فقد كان يحب الفتى أيما حب ، ويعل شخصيته قد ألهمته بأسلوب فى فنه جديد ، ولهذا لم يحتمل أن يسترس لومه ، وقد كان يعرف فيه النبل وكرم النفس فظن أن فتوره فى الأيام الا ليس إلا نوبة عارضة .

فقال أخيراً وهو يبتسم ابتسامة حزينة :

- لن أحدثك مرة أخرى فى هذا الموضوع الفظيع يا دوريان ، وكل ما أرجوه ألا يرتبط اسمك بالحادث على صورة ما . إن التحقيق سيجرى عصر اليوم ، فهل استدعتك النيابة ؟

فهز دوريان رأسه دلالة النفى ، وبدا عليه الاستياء من ذكر التحقيق ، فقد كان يرى فى أشباه هذه الأشياء أنها تصلح للرعاع لا للسادة . قال :

- إنهم يجهلون اسمى .

- ولكن الفتاة كانت تعرفه بلا شك .

- كلا . إنما كانت تعرف اسمى الأول فقط ، وأنا واثق من أنها لم تبح به لمخلوق ، فقد ذكرت لى مرة أنهم كلما سألوها عنى أجابتهم بأن اسمى الأمير الساحر ، فأحسنت بذلك صنعاً . أرجوك يا بازيل أن ترسم لى صورة من سيبيل لأنى أحب أن يبقى لى منها شىء يذكرنى بها غير القبلات القليلة التى تبادلناها والكلمات الحزينة التى سمعتها منها .

- إذا كان هذا يرضيك يا دوريان فسأحاول أن أرسم صورة منها ، ولكنى أطلب إليك أن تعود إلىّ لأرسمك من جديد فقد انقطع عنى الوحى منذ أن غبت عنى .

فجفل الفتى وأجاب :

- هذا مستحيل يا بازيل ، فلن أستطيع أن أقف أمامك مرة أخرى لترسمنى .

فحملق الرسام فيه وقال :

- ما هذا الهراء يا عزيزى ؟ أأفهم من هذا أن الصورة التى رسمتها لك لم تعجبك ؟ ولماذا تحجبها بهذا الستار ؟ دعنى أرها فهى خير ما أنتجت فى

حياتى ، أرجوك أن تنزع عنها الستار يا دوريان ، واعلم أن خادمك قد تجاوز حدود الذوق حين حجب هذه الصورة عن الأنظار ، لقد لاحظت أن منظر الحجرة غير مألوف لدىّ لحظة أن دخلتها .

– إن خادمى لا صلة له بهذا الأمر يا بازيل . أتحسب أنى أسمح له بأن يتصرف فى حجرتى كما يشاء ؟ إن كل ما أسمح به لفكتور هنا هو ترتيب الأزهار من وقت إلى آخر . لقد غطيت الصورة بنفسى لأن الضوء الساقط عليها قوى فخفت أن يفسدها .

– من أين جئت بهذه النظريات يا عزيزى ؟ إن هذا أنسب مكان لها . دعنى أرها .

وسار هولوورد إلى ركن الحجرة قاصداً الصورة ، فشحب وجه دوريان جراى ، وانبعثت منه صيحة فزع وأسرع ليعترض سبيله قائلاً :

– أنا أمنعك عن رؤية هذه الصورة يا بازيل .

فقال هولوورد ضاحكاً :

– وكيف تمنعنى عن رؤية عمل من أعمالى ؟ إنك لا ريب تهزل .

– كلا ، فأنا جاد فيما أقول تماماً ، وإذا أنت حاولت رؤيتها يا بازيل فإنى أقسم لك بشرفى أنى لن أكلمك ما حييت . لا تطلب إلى إبداء أسباب ، فإن فعلت فلن تظفر منى بشىء ، ولكن تذكر أنك لو جذبت هذا الستار فإن كل صلة بيننا تنتهى .

نزلت هذه الكلمات على هولوورد نزل الصاعقة ، ونظر إلى دوريان جراى فى عجب شديد ، فرأى الدم قد غاض من وجهه غضباً ، ورأى قبضتيه معقودتين ، وفى عينيه اشتعلت نيران زرقاء ، وأبصر كل جارحة فيه تنتفض انتفاضاً . قال :

– ما لك يا دوريان ؟!

- صه .

فتركه الرسام ومضى إلى النافذة ، وقال ببرود :

- ماذا انتابك يا دوريان ؟ إذا كنت تكره أن أرى الصورة فلن أراها بطبيعة الحال ، ولكن من السخف أن يحال بينى وبين عـملى على هذا النحو وخاصة لأنى أنوى عرضها فى باريس فى الخريف القادم ، وأحـسب أنها ستحتاج إلى طبقة جـديدة من الورنيش قبل عرضها ، فـإذا كنت سأراها فى يوم من الأيام فما الفرق بين رؤيتها الآن ورؤيتها غداً .

فتملك الفزع دوريان جراى وصاح به :

- أتريد أن تعرضها ؟ أتريد أن تعرضها ؟

إذاً فسيقف العالم كله على سره ويعجب الناس لهذا اللغز العظيم .

ولكن هذا مستحـيل ، لأن دوريان جراى لن يسمح بذلك . نعم . لابد من عمل شيء أيّا كان ليحول دوريان جراى دون ذلك . قال الرسام :

- نعم ، أريد أن أعرضها ، وأحسب أنك لا تمانع فى ذلك . إن چورچ پتى سوف يجمع أجـود صورى ويرسلها إلى معرض خاص بشـارع سيز بباريس ، وهذا المعرض سيـفتح أبوابه فى الأسبوع الأول من أكتـوبر ، ولن تغيب عنك الصورة أكثر من شهر واحد ، ولن تخسر بذلك شيئاً كثيراً لأنك ستغادر لندن إبان ذلك الشهـر على أية حال ، وإذا كنت تحجب الصـورة دائماً بهذا السـتار فيستوى لديك وجودها وعدم وجودها .

ومر دوريان بيده فـوق جبينه ليمسح العـرق المتصبب منه ، وأحس بخطر هائل يحدق به . وقال :

- أما قلت لـى منذ شهر إنك لن تـعرض الصورة قط ؟ فلـم عدلت عن قـرارك هـذا ؟ إنـى لأرى أن أمـثالك من الـناس الـذين يتـمسكون بالمعـقوليـة لا يقـلون تقـلباً فى أهوائهم عن غـيرهم ، وكل ما هنالك أن نزواتكم سفـيهة

لا معنى لهـا ، أنسيت أنك أكـدت لى بكل ما تملك من قوة أنـه لن يحملك على عرضها شىء فى الوجود . ألم تقل لهارى نفس هذه الكلام ؟

ثم توقف فجـأة عن الحديث ولمع فى عينيه بريق ، فلقـد تذكر أن اللورد هنرى قال له ذات مرة بين الجد والدعابة : « إذا أردت أن تقضى ربع ساعة من أعجب مـا مر بك فـاجعل بازيل يدلى إليك بالأسـباب التى تمنعـه من عرض الصورة ، ولقد أدلى إلىّ بهذه الأسباب فعلمـتنى عنه شيئاً لم أكن أعرفه فيه » نعم . من الجائز أن لبازيل كذلك سراً يريد أن يحـتفظ به لنفسك ، فليحاول إذاً أن ينزع منه هذا السر .

ومشى الفتى إليه ثم نظر إليه نظرة ثابتة وقال :

– اسمع يا بازيل ، إن لكل منا سراً يود أن يحتفظ لنفسه به ، فلو بحت لى بسرك بحت لك بسرى . لماذا كنت ترفض عرض الصورة فى بادئ الأمر ؟ فارتجف الرسام برغم أنه حاول أن يضبط شعوره وأجاب :

– لو أننى ذكرت لك السبب يا دوريان لجاز أن ينقص ذلك من حبك لى ، ولسخرت منى بغـير شك ،وأنا حريص على حبك حـريص على احترامك ، وإنى لراض بما يرضيك ، فـإذا كان يرضيك ألا أرى الصـورة أبداً فإنى بذلك راض ، ويكفينى أن أراك دائمـاً أمامى فلا حاجة لـى إذاً بالصورة ، وإذا كان يرضيك أن تحـجب أجمل صورة رسـمتهـا عن أنظار العالم ، فهـذا يرضينى كذلك ؛ لأن صداقتك أعز عندى من كل شهرة أوصيت .

فقال دوريان ملحفاً فى سؤاله :

– بل يجب أن تذكر لى السبب فمن حقى أن أعرفه .

وزال عن دوريان جراى إحـساسه بالفـزع وحل محله الفـضول ، وصح عزمـه على انتزاع هذا السر من بازيل هـولوورد مهما كـلفه ذلك ، وبدا على الرسام القلق وهو يقول :

- فلنجلس يا دوريان ، فلنجلس . . ولكن قبل أن أعترف لك بشىء أجبنى عن هذا السؤال :

هل لاحظت فى الصورة شيئاً غريباً ، شيئاً لم تره فيها أولاً ، ثم ظهر فيها فجأة ؟

فحملق الفتى فيه فى رعب وذهول وارتجفت يداه وقبضتا على ذراعى مقعده وصاح :

- وكيف عرفت يا بازيل ؟!

- أرى أنك لاحظت فى الصورة شيئاً غريباً كما قلت . فلا تقاطعنى يا دوريان وتريث حتى تسمع أقوالى كلها . لقدكان لشخصيتك سلطان عظيم على نفسى منذ أن تقابلنا يا دوريان ، فامتلكت روحى وعقلى وسائر ملكاتى ، وصرت أرى فيك صورة المثل الأعلى الذى يأتينا معشر الفنانين من وادى الذكريات ، ولا يفتأ يلم بنا إلمام الحلم الجميل ، ولقد عبدت هذا المثل الأعلى فى شخصك حتى بت أغار من كل من تتحدث إليه ، وأحسست أنه سيصرفك عنى ، وأردت أن أستحوذ على كل ما فيك وحدى ،وكانت السعادة تجيئنى بمجيئك وتغيب عنى بغيبتك ، ولكنك كنت حاضراً فى فنى دائماً أبداً كلما غاب شخصك عنى ، ولم يكن فى استطاعتى بطبيعة الحال أن أبوح بهذا السر ، فما كنت لتفهم معناه فأنا ، صاحبه لم أكن أفهم معناه ؛ وكل ما فهمت منه أنى رأيت الكمال رؤية العين ، وأنى أحسست ببهجة الحياة بعد أن كنت شقيًا ، ولعلى أسرفت فى ابتهاجى بالحياة فقد لازمنى الإحساس بخطر محدق ، فقد كنت أخاف من فقدانك وقد كنت أخاف من إبقائك ، وهذا من خصائص الحب المدمر ، وكلما مرت الأيام زاد اندماجى فيك ، ولقد رسمتك فى صورة أدونيس حاملا رمحاً مصقولا لابساً بزة الصيادين ، ورسمتك فى زورق هادريان توجت رأسك أزهار اللوتس الثقيلة ، وامتد بصرك وراء مياه النيل المضطربة الخضراء ، ورسمتك فى صورة إله النرجس

تتأمل وجهك الجميل فى غدير صاف ساكن بين أدغال اليونان ، وقد لزمت حدود الفن الصحيح فى كل ذلك ، فكان عملى مثاليًا بعيداً عن الحياة لا دخل للوعى فيه ، ثم جاءت نقطة تحول ، عزمت ذات يوم على أن أرسم صورة منك عظيمة ، بل صورة لك كما أنت فى الواقع وفى ملابس العصر الذى تعيش فيه ، ولست أدرى ماذا دفعنى إلى ذلك ، أهو جمال الأسلوب الواقعى؟ أم جمالك أنت يا دوريان ؟ وقد ظهر شخصك لى مجرداً عن أساطير الفن . ولكنى أحسست وأنا أرسمك بأن كل خط أمده ، وكل طبقة من اللون أضعها على اللوحة تفضح سرى ، وأشفقت أن يرى الناس هذه الوثنية الجديدة فى عملى . أحسست يا دوريان بأنى قد بحت للناس بأكثر مما ينبغى لى أن أبوح به ، وأنى قد وضعت فى الصورة من نفسى أكثر مما ينبغى أن أضع ، وهذا ما جعلنى أقرر ألا أعرض الصورة ، وقد أحنقتك كلماتى قليلاً ، ولكنك لم تفهم وقتئذ معنى الصورة عندى ، أما هارى فقد صارحته بهذه الحقيقة فضحك منى ساخراً ، ولكنى لم أكترث لسخريته لأنى أفهم أسلوب تفكيره ، فلما إن تمت الصورة وجدت نفسى على انفراد معها فتبينت صدق احساسى ، ولكن الصورة انتقلت من الاستوديو إلى بيتك بعد بضعة أيام فزال سحرها فى نفسى ، وخلت أنى تركت نفسى فريسة للأوهام حين رأيت فى الصورة شيئاً غير عادى ، ولم أعد أرى فيها إلا أنها صورة شاب جميل بيد رسام ماهر ، بل أنا الآن أحس أنا من الغباوة أن يحسب إنسان أن العواطف التى تصاحب عملية الخلق عند الفنان تتجلى فى الأثر الذى يخلقه ، فالفن شىء مجرد على عكس ما نعتقد ، والقالب واللون لا يدلان إلا على القالب واللون ، وكل ما خرج عن هذا من نسج الخيال ، وكثيراً ما يجول ببالى أن الفن يطمس شخصية الفنان ولا يظهر منها إلا القليل ، وهذا ما جعلنى أقرر أن أجعل من صورتك اللوحة الأساسية فى معرضى حين وصلتنى هذه الدعوة من باريس ، ولم يخطر ببالى قط أنك سترفض ، ولكنى أرى الآن على صواب ، والصورة لا يمكن أن تعرض ، وأرجو ألا تغضب لما قلت يا دوريان ، فأنت لم تخلق إلا لتعبد ، هذا رأيى ، وقد صارحت به هارى ذات مرة .

تنفس دوريان جـراى الصعـداء ، وتوردت وجنتاه من جـديد ، وهم بأن يبتسم ، فلقد زال عنه الخطر وأحس أنه بمأمن فى تلك الساعة ، واختلج فؤاده بالرثاء للرسام الذى فرغ منذ لحظة من هذا الاعتراف الغريب ، ثم انصرف إلى التفكيـر فى نفسه ، واسـتبعـد أن يحدث له ما حـدث لبازيل هولوورد ، أن يكون لأحد عليـه كل هذا السلطان مهـما بلغ حبـه له . إن اللورد هنرى كان يفـتنه لأنه رجل خطر ، ولكن هذا كل مـا فى الأمر ، إن ذكـاء اللورد هنرى شديد إلى الحـد الذى يخيفـه ، وسخريتـه من كل شىء فى الحيـاة تقف سداً حائلاً بينهمـا ، ولهذا كان مستحـيلا أن يحب دوريان جراى اللورد هنرى كل هذا الحب العمـيق ، أهناك شخص تخبـئه له المقادير سـيفعل به مـا فعله هو بالرسام ، ويملؤه بهذه الوثنية العجيبة ؟ قال هولوورد :

- عـجيب أن ترى هذا فى الصـورة يا دوريان . أصـحيح أنك رأيتـه ؟

فأجاب الفتى :

- لقد رأيت فى الصورة شيئاً . . شيئاً بدا لى عجيباً .

- والآن وقد عرفت كل شىء أتسمح لى برؤية الصورة .

فهز دوريان رأسه قائلا :

- كلا يا بازيل ، أرجـوك ألا تسألنى ذلك مرة أخـرى ، فلن أسمح لك بأن ترى الصورة .

- ولكنك ستسمح لى بذلك فى المستقبل ، أليس كذلك ؟

- كلا ، لن أسمح لك بذلك أبداً .

- ربما كنت مصيـبـاً فى هذا يا دوريان . والآن لابد لى من الانصراف ، فإلى اللقاء ، لقد كنت الشـخص الوحيد الذى ترك فى فنى أثراً دائماً ، وإنى لمدين لك بكل ما فى إنتاجى من جمـال ،ولكنك لا تعرف كم كلفنى الإفضاء إليك بهذا الكلام .

فقال دوريان :

- ولكنك لم تفض إلى بشىء يا عـزيزى بازيل سوى أن إعجـابك بى قد استبد بك ، وهذا ليس شيئاً مذكوراً ، فهو لا يصلح حتى أن يكون مجاملة.

- أنا لم أقصد به أن يكون مجاملة ، وإنما قـصدت به أن يكون اعترافاً . والآن وقد اعترفت على يديك أرانى أحس بأنى قد فقدت شيئاً .

لعل الصلوات تفسد العبادات .

- إذا كان ذلك اعترافاً فقد خاب أملى فيه .

- وكيف كان ذلك يا دوريان ؟ أكنت تتوقع شيئاً آخر ؟

أرأيت فى الصورة شيئاً آخر ؟ أجبنى . أجبنى .

- كلا ، ولكن لِمَ تسـأل هـذا السؤال ؟ لا تتحـدث عن العبادة بعد الآن يا بازيل ، فما نحن إلا صديقان وصداقتنا يجب أن تدوم .

فقال الرسام بقلب حزين :

- ولكن ماذا يهمك من أمرى ؟ إن لك فى هارى ما يؤنس وحشتك .

فأجاب الفتى ضاحكاً :

- إن هارى يقـضى أيامـه فى قول الغـرائب ، ويقـضى ليـاليه فى فـعل العجائب ، هذا مـا يعجبنى فيه ، ولكنى لا أعتـقد أنى ألتجىء إلى هارى إذا أصابنى مكروه ، فأنت أدنى إلى منه .

- أنا أنتظر منك أن تأتينى لأرسمك مرة أخرى .

- هذا محال .

- أنت تفسد حياتى الفنية برفضك هذا يا دوريان بعد أن عثرت فيك على مثلى الأعلـى ، فقليل من الناس من يجـد المثل الأعلى ، أما أنا فـقد أوتيت مثلين : أنت وفنى ، وهذا ما لم يحظ به إنسان .

- لا تطلب مني تفسيراً يا بازيل ، ولكن محال أن أسمح لك برسمى مرة أخرى . يخيل إلىّ أن للأقدار يداً فى كل صورة ترسم ، وكأن الصور تحيا كما يحيا الإنسان . نعم ، محال أن أسمح برسمى مرة أخرى ، ولكنى سأزورك لأتناول معك الشاى وفى هذا نفس المتعة .

- ربما وجدت أنت فيه نفس المتعة أما أنا فلا . إلى اللقاء يا دوريان . كم يحزننى أنك لا تأذن لى برؤية الصورة مرة أخرى ، ولكن لابد مما ليس منه بد ، وإنى لأقدر شعورك حق قدره .

ثم انصرف ، فابتسم دوريان ابتسامة الراضى عن نفسه . إن بازيل المسكين قد مضى وهو يحسب أنه وقف على سر دوريان جراى ، وما وقف على شىء البتة ، ثم أليس عجيباً أن ينجح فى انتزاع ذلك الاعتراف من صدر بازيل بعد أن كان على أهبة الاعتراف بسره له ؟ لقد فسّر اعتراف بازيل هولوورد له الكثير مما كان خافياً عليه ، فسّر له نوبات الغيرة الحمقاء التى كانت تعترى الرسام فلا يستطيع لها كبتاً ، فسّر له تفانيه الكامل فى حبه ، فسّر له إسرافه فى إطرائه ، فسر له الصمت الطويل الغريب الذى كان يلازمه بين وقت وآخر . كل هذه الأشياء اتضحت له بعد إبهام ، فتألم لحاله ألماً عظيماً ، وأحس بأن صداقة كهذه اصطبغت بألوان الخيال تنذر بفاجعة أكيدة .

وتنهد ثم دق الجرس . لقد عزم على شىء ، وليس هناك ما يثنيه عن عزمه ، يجب أن تخفى الصورة عن الأنظار مهما كانت النتائج ، فلن يعرّض سره للافتضاح بعد الآن ، لقد كان جنوناً منه أن يترك الصورة ولو لساعة واحدة فى حجرة تطؤها كل قدم .

الفصل العاشر

دخل فكتور فنظر دوريان جراى إليه نظرة فاحصة لعله يرى إن كان قد جال بباله أن يكشف الحجاب ليرى الصورة المخبؤة خلفه ، لكن وجه الخادم بدا له كالقناع الخالى من كل تعبير ، وظل الرجل ثابتا فى مكانه ينتظر أوامره، وأشعل دوريان سيجارة ومشى حتى بلغ المرآة وأنشأ يتأمل خياله فيها ، كذلك أبصر خيال فيكتور فيها ، وبدا الخادم له كتمثال للخضوع فزال عنه خوفه عنه ولكنه لم ينزل عن رغبته فى الحذر .

وطلب دوريان من خادمه فى لهجة بطيئة أن يرسل إليه المدبرة ثم يقصد إلى النجار ويسأله أن يوفد إليه رجلين من قبله فوراً ، وحين انصرف فيكتور خليل إلى دوريان أنه ألقى نظرة على الستار ، ولكن لعله كان واهماً .

وبعد دقائق دخلت مسز ليف المكتبة فى جلبة واضحة ، وكانت تلبس ثياباً حريرية سوداء انقرض زيها منذ زمن ، وطلب دوريان منها أن تعطيه مفتاح الحجرة التى كان يستعملها أيام الدراسة ، فقالت المدبرة :

– ولكن حجرة الدراسة قذرة يكسو الغبار كل ما فيها يا مستر دوريان ، ولابد أن أتولى تنظيفها وترتيبها أولا قبل أن تدخلها، فهى فى حالة سيئة جداً .

– ولكنى لا أريد أن أراها نظيفة ومرتبة ، وكل ما أريده هو المفتاح يا مسز ليف .

– إذا دخلتها يا سيدى فسوف يتساقط عليك التراب وتتراكم العناكب ، فقد ظلت مغلقة منذ وفاة سيدى اللورد .

فعبس دويان جراى حين سمع اسم جده ؛ فقد كان يبغض ذكراه .

وقال :

- هذا لا يهم ، فكل ما أريده هو أن ألقى نظرة على المكان ، فهات المفتاح .

فأنشأت السيدة العجوز تبحث بيدين مضطربتين عن المفتاح بين مجموعة من المفاتيح مربوطة فى حلقة وهى تردد :

- ها هو ذا المفتاح يا سيدى . ها هو ذا المفتاح يا سيدى . تريث حتى أخرجه من الحلقة ، ولكن أرجوك يا سيدى ألا تنتقل إلى حجرة الدراسة فأنت هنا فى أتم راحة .

وأخذ منها المفتاح وهو يقول فى ضيق :

- كلا يا مسز ليف ، لن أنتقل إلى حجرة الدراسة ، وأشكرك على المفتاح . لن أحتاج إلى شىء آخر .

ولكنها لم تنصرف فوراً ، بل طفقت تشرح له بعض الشئون المنزلية التافهة ، فابتسم لها وأفهمها أنه قد أطلق يدها فى الأمر تتصرف فيه كما تشاء ، فانصرفت مغتبطة بهذه الثقة .

ولما أغلقت الباب خلفها وضع دوريان المفتاح فى جيبه ثم نظر فى أنحاء الحجرة فوقعت عينه على غطاء حريرى فى لون البنفسج موشى بالذهب فى كثير من أجزائه ، وكان هذا الغطاء تحفة فى فن النسيج صنع فى البندقية فى نهاية القرن السابع عشر ، وقد عثر عليه جده فى دير من أديرة النساء بالقرب من بولونيا ، ووجد دوريان فى هذا الغطاء ستاراً مناسباً يستر به الصورة البغيضة ، ولعل الغطاء كان فى الماضى كفناً يغطى به الموتى ، وهو اليوم يستر شيئاً لا يقل عن الجيف تعفناً ، شيئاً تقشعر الأبدان لمرآه ولا سبيل إلى زواله . إن خطاياه قد أصبحت تفعل باللوحة ما تفعله الديدان بالجثث ، ولسوف تذهب بجمالها وتشوه فتنتها وتدنسها تدنيساً شديداً ، ومع ذلك فلن يضع شىء لحياتها حداً لأنها خالدة .

وارتجف وعضه الندم على إخفاء الحقيقة عن بازيل ، فلو أنه فعل لساعده بازيل على التخلص من نفوذ اللورد هنرى عليه ، بل لساعده على كبح جماح نفسه التى كانت تميل بفطرتها للشر ، فالحب الذى أكنه بازيل له لم يكن مجرد إعجاب بجماله نشأ فى الحواس ، ينتظر أن ينطفىء بانطفائها ، بل كان شوقاً عقليًا ، شوقاً نبيلا ، شوقاً كذلك الشوق الذى ملأ حياة ما يكل أنجلو ومونتين وفنكلمان وشكسبير نفسه . نعم ، كان فى استطاعة بازيل أن ينقذ روحه من الهلاك الذى ينتظرها ، ولكن لقد فات الأوان وهو يستطيع أن يتنكر لماضيه ويمحقه محقاً إما بنسيانه أو بإنكاره وبالندم عليه ،ولكن المستقبل لا مفر منه فهو أسير نفسه ، ونفسه أمارة بالسوة ، وهو عبد رغباته ، وهى شريرة .

ونزع دوريان جراى من الأريكة ذلك الغطاء البنفسجى الكبير الموشى بالذهب الذى كان يكسوها وسار به حتى بلغ الستار المنشور على الصورة وجذبه عنها ، وتأمل وجهه فى اللوحة فلم يدر أكانت ملامحه قد ازدادت بشاعة . . إن مظهر الوجه يدله على أنه لم يتغير ومع ذلك فقد اشتد كرهه له ، فالشعر الذهبى والعينان الزرقاوان والشفتان الورديتان ، كل هذه كانت تطالعه فى الصورة كما كانت تفعل قبلاً ، ولكن التعبير قد تغير ، وهذا ما حز فى فؤاده حَزّاً شديداً . إن الصورة لتؤنبه على فعاله ، ولغتها الصامتة أقسى من تأنيب بازيل ألف مرة . لقد أطلّت روحه من اللوحة لتذكره بسوء المصير ، فلما أن غلبه الألم نشر الغطاء البنفسجى المزخرف على الصورة فحجبها ، وفيما هو يفعل كذلك طرق الباب طارق ، وابتعد دوريان جراى حين لمح خادمه يدخل الحجرة . قال الخادم :

- لقد حضر الرجال يا سيدى .

وأحس دوريان جراى بأن خادمه مصدر إزعاج فرأى أن يتخلص منه ، إذ ليس من الحكمة أن يعرف مقر الصورة الجديد . لقد كان فيكتور ماكراً شيئاً ما ، كما أن فى عينيه ما ينم عن الخبث ، ولذا وجب استبعاده . بذلك جلس

دوريان جراى إلى مكتبه وخط سطوراً معدودات إلى اللورد هنرى يسأله فيها أن يسعفه بكتب يقرؤها ويذكره بأن موعدهما فى الثامنة والربع من ذلك المساء ، ثم سلم الرسالة إلى خادمه قائلا :

- جئنى برد اللورد هنرى ،وقبل أن تذهب أدخل الرجال .

ومرت دقائق قليلة سمع بعدها ببابه طرقاً ، ثم دخل عليه مستر هبارد صانع الإطارات المعروف فىّ شارع سوث أودلى بشخصه ، وفى معيته مساعد له كريه المنظر ، وكان مستر هبارد رجلاً ضئيل الجسم أحمر السوالف ممتلئاً بالحيوية يحب الفن حقًا ،ولكن حماسته للفن قد خفف منها أن أغلب عملائه من الفنانين مفلسون، وهو حريص على أن يتقاضى ثمن ما يصنع من إطارات ،ولم يكن مستر هبارد لينتقل إلى بيت عميل مهما علا شأنه ، ولكنه كان يستثنى دوريان جراى من هذه القاعدة ،فلقد كان دوريان جراى يجذب كل عارفيه ، وكان مستر هبارد كسائر الناس يغتبط لرؤيته ، وقال هو يفرك يديه اللتين بدت عليهما آثار الجدرى :

- أى خدمة تريدها منى يا مستر جراى ؟ إنه ليشرفنى أن أحظى برؤيتك ولذلك ترانى جئتك بشخصى . لقد ابتعت اليوم فقط إطاراً بديعاً عثرت عليه فى مزاد وهو إطار من الطراز الفلورنسى القديم وأعتقد أنه آت من فونتهيل ، وسوف تجد أنه يناسب صورة موضوعها دينى .

- يؤسفنى أنك قد أزعجت نفسك بالحضور شخصيًا يا مستر هبارد فالمسألة ليست ذات بال ، ولا شك كثيراً أنى سأزورك لأرى الإطار بنفسى برغم أنى فى هذه الأيام لا أكترث كثيراً للفن الدينى ، وكل ما أريده الآن هو نقل صورة عندى إلى غرفة بأعلى المنزل ، وقد رأيت أن أطلب رجلين من رجالك لهذا الغرض .

- ليس فى مجيئى أى إزعاج لى يا مستر جراى ، بل إن فيه سروراً عظيماً لى ، فأية صورة تريد نقلها يا سيدى ؟

فقال دوريان وهو يزيح عن الصورة الغطاء :

- هذه الصورة يا مستر هبارد ، أتستطيع أن تنقلها كما هى بغطائها ، أرجو ألا تصاب الصورة بخدش أثناء نقلها .

فأجاب الرجل الطيب مستر هبارد :

ثم شرع يخلع السلاسل النحاسية التى كانت الصورة معلقة بها فى الحائط بمساعدة زميله ثم أردف :

- والآن يا مستر جراى إلى أين تريد نقلها ؟

- اتبعنى يا مستر هبارد إذا سمحت . إن الغرفة التى أريد نقل الصورة إليها فى أعلى البيت ، وسنستخدم السلم الأمامى فهو أعرض من السلم الآخر ، ويبدو لى أن من الأفضل أن تتقدمنى أنت . وأمسك الباب المفتوح حتى نفذ الرجلان منه إلى القاعة وشرعا فى الصعود ، ثم لحق بهما ، وكانت الصورة أضخم من المعتاد ؛ لأن إطارها المزخرف كان أضخم من المعتاد ، لذلك كان دوريان جراى من وقت لآخر يساعدهما على الرغم من اعتراضات مستر هبارد الكريم الذى كان يعز على نفسه أن يرى أى «جنتلمان» يشترك فى عمل نافع . وحين بلغوا آخر قاعدة فى السلم مسح مستر هبارد العرق المتصبب على جبينه وقال وهو يلهث :

- إنها لحمل ثقيل يا سيدى .

فأجاب دوريان قائلاً :

- نعم يا مستر هبارد ، إنها لحمل ثقيل .

ثم فتح لهما باب الغرفة التى أراد أن تحجب سره عن عيون الناس .

لم يكن دوريان قد دخل غرفة الدراسة منذ زمن طويل ، وكان آخر عهده بها أيام كان يلعب فيها طفلاً ، ثم أيام أن كان يستذكر دروسه فيها صبياً .

وكانت الحجرة واسعة متناسقة بناهـا اللورد كلسو خصيصاً لحفيده دوريان ليقصيه عنه ما أمكن ذلك ،فقد كان يشبه أمه إلى حد غريب ، واللورد كلسو كان يكره كل مايذكره بابنته التى فرت مع ذلك الصعلوك الفقير وجعلت اسمه مضغة فى أفواه الناس .وحين دخل دوريان الحـجرة وجدها على حالها القديم ، ورأس الصندوق الكبير المذهب الحواشى المصنوع فى إيطاليـا ذا الجوانب خرافية النقوش ، ذلك الصندوق الـذى اعتاد أن يختـبىء فيه أيام كـان صبيّـا يلهو . كذلك رأى حمالـة الكتب تحمل كتبه الدراسيـة ومن ورائها تدلت على الحائط رقعـة بالية من القـماش الفلمنكى المشـغول تحـمل صورة ملك وملكة يلعـبان الشطرنج فى وسط حـديقة وبجوارهـما كوكـبة من الصـيادين على أفـراسهم يحملون على معاصـمهم صقوراً رءوسها مغطاة ، وقـد انطمست على الرقعة الألوان ، وعادت إليه ذكريات الحداثة جميعاً وهو يتفحص محتويات الحجرة ، وتذكر طفولتـه الموحشة وصباه الطهور ، فـاستنكر أن يكون هذا المكان الأمين مخبأ لتلك الصورة البشعة ،وتحسر على أيامه الفائتات .

ولكنه لم يجد بالبـيت حجرة أصلح من هـذه الحجرة لإخفـاء الصورة ، فهو يحـمل مفتاحـها ولا سبيل لأحـد غيره أن يفتحـها دون علم منه ، وهنا يستطيع الوجه المختبىء وراء الغطاء البنفسجى أن يتحول كما يشاء فما من عين تراه . يستطيع أن يمتلىء بالدنس والقساوة والوحـشية ، ولن يكترث هو لذلك فهذه آخـر مرة يرى الصورة فيهـا ، فما به حاجة إلى أن يتـتبع انحطاط روحه درجة درجة . ولقـد بقى له شبابه وهذا يغنيه عن كـل شىء فى الوجود ، أما روحه التى ضاعت منه فلقد يستردها من جديد . نعم . فما أدراه أن المستقبل مظلم كالماضى ؟ أو ليس جـائزاً أن تصفو روحه وتخلص من أوشـاب الشر ؟ أليس جائزاً أن يذوق الحب من جـديد فيطهر الحب روحه ، ويقـيه من الخطايا الخفيـة التى زينها له ولعه بالعـجائب . جائز إذاً أن تختفى دلائـل القسوة من الشفتين الدقيقتين الجميلتين ، وعندئذ لن يجد حرجًا فى أن يعرض هذا العمل الفنى الخالد على أنظار الناس .

ولكنه عاد فعدل عن هذه الأوهام ، فقد تـذكر أن الصورة تكبر فى العمر كما يكبر الإنسان ، وتسجل الخطوط التى ترسـمها السنون على صفحة الوجه شهراً فـشهراً ، بل ساعـة فساعة ، ولقـد تنجو الصورة حقًا من آثـار الخطيئة ولكن هل من الزمن نجاة ؟ لسوف يغور خداه أو يتـرهلان ، لسوف يتسع فمه كمـا يتسع فم الأبله أو يسترخى ، لسـوف تذبل عيناه وينطفىء وهج شـعره الذهبى ويتجعد وجهه وتبرد يده المعروقة وتنحنى قـامته وتلتوى سائر أعضائه كما التوت أعـضاء جده القـاسى من قبل . نعم . يجب أن تحـجب الصورة عن الأنظار ، وأخيراً التفت دوريان جراى إلى الرجلين وقال فى إعياء :

- أرجوك أن تدخل الصورة يا مستر هبارد ، وإنى لآسف لإهمالى إياكما طول هذا الوقت فقد تحولت أفكارى إلى شىء آخر .

وكان مستر هبارد لا يزال يلهث من الإجهاد فأجاب :

- بل لقد أتحت لنا أن نستريح يا مستر جراى ، ونحن نشكرك على ذلك والآن أين تريدنا أن نضع هذه الصورة يا سيدى ؟

- أينما تحب . ضـعها هنا مثـلا واسندها إلى ، الحائط فلست أرغب فى أن أراها معلقة . أشكرك .

- أيأذن لى سيدى فى رؤية الصورة ؟

قال دوريان فى ارتياع :

- ليس فى الصورة ما يثير اهتمامك يا مـستر هبارد ، ولقد انتهى عملك بهذا ، وإنى لأشكرك مرة أخرى على مجيئك بشخصك .

ولم تتحول عـيناه عن الرجل ، ولو أنه اجترأ على كشف الـغطاء الجميل الذى يستر أسرار روحه لانقض عليه وأدبه تأديباً .

- لا شكر على واجب يا مـستر جـراى ، لا شكر على واجب ، وإنى رهن إشارتك دائماً يـ سيدى .

ونزل مستر هبارد يجر قدميه على السلم جراً ومن ورائه مساعده ، والتفت هذا الأخير إلى الخلق كأنه يتزود بنظرة أخيرة من دوريان جراى ، وارتسمت على وجهه الغليظ دلائل الخجل والدهشة معاً ، لأن جمال دوريان جراى قد هز أوتار قلبه .

واختفى وقع الأقدام ، فأوصد دوريان الباب ، ووضع المفتاح فى جيبه ، وأحس بالطمأنينة لأن عيون الناس لن تقع على هذا الوحش الممسوخ وتعرف منه جرائم روحه الآثمة .

ودخل المكتبة فوجدها على حالها ووجد الشاى فى انتظاره ، كذلك وجد رسالة من اللورد هنرى بجانبها كتاب أصفر الغلاف ممزق مبتل الأطراف ، وجدهما على مائدة صغيرة من الخشب الأسمر الزكى الرائحة المطعم بالصدف أهدتها إليه الليدى رادلى زوجة وصيه ، وهى امرأة وسيمة الطلعة تحترف السقم لتقضى شتاءها فى القاهرة وصيفها فى الريفيرا ،وعلى صينية الشاى رأى الطبعة الثالثة من صحيفة سانت جيمس ، فعلم أن فكتور قد عاد ، وخطر له أن يكون خادمه قد التقى بمستر هبارد وصاحبه أثناء انصرافهما ، واستخلص منهما سر مجيئهما ،ولا شك أنه سيفتقد الصورة ، بل لا شك أنه افتقدها فعلا وهو يضع آنية الشاى على المائدة ،وهذا مكانها فى الحائط ظاهر فى وضوح ، فلقد نسى دوريان أن ينشر عليه الستار ليخفيه . وبدأت الهواجس تلعب برأسه ، فتصور فكتور متسللاً ذات ليلة إلى الطابق العلوى ، ومحاولاً أن يفتح باب الحجرة عنوة .لقد كان يسمع بكثير من القوم الذين قاسوا طول حياتهم من تهديد خدمهم ، لأن خدمهم قرءوا خطاباً من خطاباتهم الخاصة ، أو عثروا على ورقة تحمل عنواناً مريباً ، أو وجدوا زهرة ذابلة أو قطعة من الدنتلا المتكسرة تحت وسادة من وسائدهم ودار بخلده أن فكتور يتجسس عليه ، فأحس بأن الحياة على هذا الشاكلة لا تحتمل .

وتنهد ثم صب لنفسه فنجاناً من الشاى ثم فض رسالة اللورد هنرى . فإذا اللورد هنرى لا يقول فيها إلا أنه قد أرسل إليه صحيفة المساء وكتاباً لعله يجد

فيــه متعة ، وأنه سيكون بالنادى فى الساعة الثامنة والنصف . وفتح دوريان الصحيفة فاستلفتت نظره فى الصفحة الخامسة جرى تحتها القلم الأحمر وقرأ فيها ما يلى :

« التحقيق فى مصرع ممثلة : أجرى مستر دانبى مأمور قسم هوكستون صباح اليوم فى بل تافرن بطريق هوكستون التحقيق فى مصرع سيبيل فين ، وهى ممثلة صغيرة السن تعاقدت أخيراً مع دار التمثيل الملكية بحى هوبورن ، وقد أسفر التحقيق عن أن الوفاة كانت نتيجة خطأ ، وقد عبر المحقق عن ألمه الشديد لوالدة القتيل التى غلبتها أحزانها إدلائها بشهادتها وعند سماعها شهادة الدكتور بيريل الذى قام بفحص الجثة » .

وبعد أن فرغ من تلاوة هذا النبأ تجهم وجهه ومزق الصحيفة إرباً ، ثم ألقاها فى ركن الغرفة . لقد عادت إليه بشاعة الموقف وأحس ببشاعة الحياة ذاتها ، واغتاظ من اللورد هنرى لأنه أرسل إليه تقرير المأمور ، ورأى فى إشارته بالقلم الأحمر إلى سطور الخبر غباوى كبرى ، لأن إلمام فكتور باللغة الإنجليزية يكفيه لفهم مضمون الفقرة ، ولعل هذه الإشارة أغرته بقراءتها فعلا ، وإذا كان فكتور قد قرأها فلا شك فى أنه بدأ يشك فى أمره ، ولكن ما أهمية شكه ودوريان جراى لا صلة به بموت سيبيل فين .

ووقع بصره على الكتاب الأصفر الذى أرسله اللورد هنرى إليه ، وأراد أن يعرف موضوعه ، فسار حتى بلغ الحامل الثمانى الأضلاع اللؤلؤى اللون الذى كان يبدو له دائماً كخلية فضية جسيمة الأطوال بنتها جماعات من النحل العجيب ، وتناول الكتاب ثم جلس فى مقعد كبير وأنشأ يتصفح المجلد ، وفى دقائق معدودة كان دوريان جراى يقرأ الصفحات فى نهم شديد ، فقد كان الكتاب أعجب كتاب وقع فى يده ، ومرت أمام عينيه الخطايا السبع فى موكب جميل راقصات على إيقاع سحرى متسربلات بأفخر الثياب ، وبدأت أحلامه الغامضة تأخذ أشكالاً محسوسة ، أما خفايا اللذة فقد طافت بعقله كالأحلام .

كان الكتاب قصة لا عقدة لها ، وليس فيها غير شخص واحد ، أو بمعنى أخر كان دراسة نفسية لشاب باريسى من أبناء القرن التاسع عشر تنكر للقرن الذى يعيش فيه ، وحاول أن يجرب العواطف التى جربتها القرون الآخرى ، ويعتنق المبادئ التى آمنت بها تلك القرون ، وبالجملة حاول أن يركز فى نفسه سائر الأطوال التى مرت بها الروح الإنسانية منذ القدم ، فهو آناً يقبل الزهد الذى يلقبه الحمقى بالفضيلة لما فيه من خروج على الطبيعة ، وهو آناً يقبل على المعاصى التى يلقبها العقلاء بالرذيلة ، وكان أسلوب الكتاب أسلوباً غريباً منمقاً واضحاً وغامضاً فى وقت واحد ، اجتمع فيه اللفظ الدارج واللفظ القديم والتعبير العقلى والتعبير العاطفى مما يميز كتّاب المدرسة الرمزية فى فرنسا ، وكانت به من الكلمات النابية واللطيفة معاً ، وظهرت فيه الشهوات فى صورة فلسفة صوفية ، فاختلط عليه الأمر حتى أمسى لا يدرى أيطالع وصفًا لرؤيا قديس من أهل العصور الوسطى ، أم يقرأ اعترافات فاسق أصيل من أهل جيله ، لقد كان كاتباً مسموماً ، ما فى ذلك شك ، ومن صفحاته صعدت عطور ثقيلة هيجت ذهن دوريان جراى ، وأخذت غيبوبة من أثر التنغيم اللفظى وإيقاعه الراتب الممل الذى كان قائماً على التكرار المدروس ، واستغرق فيما يشبه الحلم وهو يطوى فصول الكتاب فصلا فصلا فلم يشعر بزوال النهار ودنو الليل .

وفى المساء بدت قبة السماء لا هى بالخضرة ولا هى بالحمراء ، ولمع فيها نجم ثاقب واحد استضاء بنوره دوريان جراى حتى تعبت عيناه ولم يعد يستطيع أن يمضى فى القراءة ، وبعد أن دخل خادمه عليه جملة مرات ليذكره بتأخر الوقت ، ، فنهض من مكانه ودخل الغرفة المجاورة ووضع الكتاب على مائدة فلورنسية صغيرة كانت تلازم فراشه باستمرار ، ثم بدأ يستبدل ثيابه تأهباً للعشاء .

وحين بلغ النادى كانت الساعة قد بلغت التاسعة أو ما يقرب من ذلك ، وفي النادى وجد اللورد هنرى يجلس بمفرده فى صالون الصباح وقد بدت عليه أمارات الملل القتَّال فقال لهم :

- أرجـو أن تصـفح عنى يا هارى فـمـا تأخـرت إلا لأن الكتـاب الذى أرسلتنيه قد سحرنى حتى ألهانى عن الوقت .

فأجاب اللورد هنرى وهو ينهض من مكانه :

- لقد توقعت أنك؛ ستحبه .

- لم أقل إنى أحبه يا هارى ، وإنما قلت سحرنى والفرق بينهما عظيم .

قال اللورد هنرى بصوت خافت :

- أراك قد اكتشفت هذه الحقيقة بنفسك .

ثم دخل الرجلان حجرة الطعام .

الفصل الحادى عشر

كان لهذا الكتاب سلطان عظيم على دوريان جراى لازمه سنوات عديدة ، أو بتعبير أدق ، لم يسع دوريان جراى إلى التخلص من سلطان هذا الكتاب على نفسه ، وقد بلغ من افتتانه به أنه ابتاع من باريس جملة نسخ من طبعته الأولى لا تقل عن تسع ، كلها ن القطع الكبير ، وجلدها فى ألوان مختلفة تستريح إليها نفسه في أطوارها المتقلبة ، وترتاح إليها طبيعته التى باتت تحكمها الأوهام ولم يعد لإدرادته عليها سلطان ، فلقد وجد فى ذلك الشاب الباريسى العجيب بطل القصة الذى اجتمع فيه الولع بالخيال والولع بحقائق العلم مرآة لنفسه المعقدة ، بل لقد وجد زن الكتاب بأكمله ليس إلا ترجمة لحياته كتبت قبل أن يخرج هو إلى الوجود .

ولكنه كان ينعم بشئ واحد لم ينعم به بطل القصة العجيب ، ذلك أن دوريان جراى قد نجا من ذلك الرعب الشديد الذى كان يستولى على الشاب الباريسى كلما وقعت عنيه على مرآة أو لوح من المعدن المصقول أو صفحة من الماء الصافى ، ذلك الرعب الشديد الذى لازمه وهو لا يزال فى شرخ الشباب ، فقد كان فى مقتبل عمره آية من آيات الجمال ثم زال عنه جماله قبل الأوان فبات لا يقوى على مجابهة الحقيقة . وكان دوريان جراى يقرأ القسم الأخير من الكتاب ، وهو القسم الذى يصور أحزان هذا الفتى الباريسى وقد فقد جماله ، فى لذة ما بعدها لذة مصدرها الشماتة ، وهى قسوة تلازم اللدة أيا كان نوعها . إن جمال دوريان باق لا يذبل كجمال الرياحين فى شاطئ الكوثر الموعود ، وهو يلهم بازيل هولوورد بآيات الفن وهو الذى رقق لدوريان قلوب عارفيه ، ولقد يطلق فيه شانئوه هجر القول فى مجتمعات لندن ونواديها

فما إن يروه حتى يضعفوا أمام شوكةجماله ويكذبوا أنفسهم لظنها أن مثل هذا الجمال الفريد تلوثه الآثام ، فلقد بدا دوريان دائماً كمن صان نفسه من أكدار الحياة ، وكانت براءة الملائكة تنطق فى محياه ، وكان الناس يغتابونه اغتياباً فما إن يدخل عليهم حتى تخرس ألسنتهم ، ويحسوا بأن طهارة وجهه تؤنبهم تأنيباً شديداً على سوء ظنهم به ، فكأنما يذكرهم محضره بالجمال الذى دنسوا والحرمة التى انتهكوا ، ويعجبوا لهذا الشباب النضير كيف نجا من أوحال الحياة فى عصرهم ، عصر الفجور والشقاء .

وكانت له غيبات طويلة لا يعرف أحد عنها شيئاً تحمل أصدقاء وعارفيه على تفسير اختفائه بأعجب التكهنات ، وكا دوريان جراى يصعد بعد عودته من هذه الرحلات العجيبة إلى الغرفة المغلقة ، ويدخلها حاملاً فى يده مرآة ويقف أمام الصورة ناظراً تارة إلى الوجه المغضن الشرير المطل من اللوحة ، وتارة إلى الوجه الصبوح المعكوس فى المرآة ، وكان يجد فى ذلك لذة كبرى ، لأن الاختلاف الكبير بينهما كان يطمئنه على شبابه وجماله ، حتى لقد بدأ يتعشق نفسه ويرتاح إلى تدهوره الروحى ، وكان بين وقت وآخر يفحص الخطوط البغيظة التى يرسمها الزمن على الجبين بعناية عظيمة تدل على اغتباطه الشديد بهذا العمل ، ليعرف أيهما أفتك بالصورة ، آثار الزمن أن آثار الشر ، وما أكثر ما كان يضع يده الجميلتين بالقرب من يدى الصورة الشائهتين ويبتسم ابتسامة الرضا ، وما أكثر ما كان يهزأ بالجسم البشع والأعضاء الضامرة التى يراها على اللوحة .

ولكنه كان فى قليل من الأحيان يقضى الليل مؤرقا تارة فى غرفته العاطرة ، وطوراً فى غرفة قذرة بحان صغير سيىء السمعة كان يقصد إليه مستخفياً تحت اسم مستعار ؛ حيث يفكر فيما أنزله بروحه من دمار وينتحب لمصيره الأليم فى ندم صادق لا زيف فيه ، وكيف لا يكون ندمه صادقاً وهو محض أثرة فيه . على زن هذه الأوقات كانت نادرة لأن الانغماس فى اللذات زاد

فضوله للمعـرفة ، ذلك الفضول الذى كان اللورد هنرى أول من ألهـبه فيه ، وكلما زاد اختباره فى الحياة زادت رغبته فى الاختبار ، كلما أشبع نهمه للحياة اشتد جوعه إليها .

ولكنه برغم ذلك كله كـان يبالى برأى المجتـمع فيـه ، وقد دأب على أن يقيم فى كل موسم حـفلات منتظمة فى يوم الأربعاء من كل أسـبوع ، كذلك كان يقيم الحفـلات فى الشتاء مرة أو مرتين كل شهر ، وكـان يفتح أبواب بيته الجميل لأبناء البيـوتات ويستخدم العازفين ليطربوا ضيوفـه ، وكلما أقام حفلة عشاء كان اللورد هنرى يساعـده فى اختيار المدعوين ، وفى ترتيب مكانهم من المائدة ، وفى انتـقاء الأزهار التى تزين مـائدته الفاخـرة ، ولقد كـان دوريان جراى عند كثير من الايفاع النموذج الكامل لما يجب أن يكون عليه فيتان إيتون أو فتيان أكسفورد ، وهو عندهم مـزيج من الشاب الذى ثقفته الكتب والشاب الذى ثقفته الحياة ، وقـد كان دوريان جراى عندهم أحد أولئك الذين وصفهم دانتى بأنهم يسعون «لتكملة نقصهم بعبادة الجمـال» أو قال فيهم تيوفيل جوتييه : «إن العالم المحسوس قد خلق ليشبع حواسهم» .

ومهما يكن من شىء فلا جـدال فى أن أول فن تخصص فيه دوريان جراى هو فن الحيـاة ، وما كانت بقيـة الفنون المعروفة فى نظره إلا تمهيـداً لهذا الفن الجليل . لقد كـان تطور الذوق مع الأيام يفتنه حقّـا ، لأن يزين غير المعـقول لعقـول الناس ، ولو إلى أجل قصير ، كذلـك كان التأنق يفتنه لأنه وجد فيـه ما يثبت على وجه ما أن الجـمال ليس من تراث الماضى بل من عمل العصر ، وقد كـان للأزياء التى اصطنعـهما اصطناعـاً أثر ملموس فى الأيـفاع من رواد المراقص الراقيـة بحى مايفيـر وما شاكل ذلك من المجـتمعات المتـرفة ، لأنهم تأثروا خطاه فى كل ما فـعل ، واجتهـدوا فى أن ينقلوا عنه ابتكاراته الرشيـقة التى كان يلهو بـها فى أوقات فراغه برغم أنه لم ينظر إلـيها فى يوم من الأيام على أنها عمل جدى .

فدوريان جراى كـان حريصا عى المكانة التى خصصهـا المجتمع له منذ أن بلغ سن الرشـد ، وأحب أن يلعب فى لندن الحديثـة الدور الذى لعبـه مؤلف ساتيريكون فى روما القديمة أيام قيـصيرية نيرون ، ولكنه برغم ذلك كان يتمنى من صميم قلبه أن يكون شـيئاً اسمى من مجرد قائـد من قادة الأناقة ويحتكم إليه فى طرق لبس الجواهر ، ويستشار فى طرق عـقد أربطة الرقبة ، ويحتذى فى طرق حمل العـصا ، كان يحلم بأن يبـتكر أسلوباً جديداً له لفلسفـة تبرره وأسس متـماسكة تقـومـه ، أسلوباً فى الحيـاة غـايتـه العليا التـصـوف عن طريق الحواس .

فلقد وجـد دوريان جراى الناس يسـتنكرون عبادة الحـواس ، ووجد هذا فيهم أمراً طبيعيًا ، فالناس يفزعون بالغريزة من الشهوات الجارفة والإحساسات التى تضعف أمامـها نفوسهم ، وهم يدركون أنهم يشـتركون فيهـا مع الأحياء الأخرى التى تقل عنهم رقيًا وانسجاماً ، ولكنه رأى أن طبيعة الحواس لم تُفهم قط على حقيقـتها ، وأن الحواس ما بقيت على حـالها الحيوانى الأول إلا لأن المجتمع أجاعهـا وأذلها وسامها سواء العذاب ، بدلا من أن يجعـل منها سبيلا إلى روحية جديدة قوامها تذوق الجمال بالفطرة ، وكان يرى أن تاريخ الإنسانية لا يبشر بالخير ؛ فهو سلسلة من الهزائم التى أضاع الإنسان فيها إنسانيته ليظفر بأشياء لا نفع فيها ، فلقـد نزل الإنسان عن سعادته برضاه ، وأنكر ذاته برضاه ، وكان حافـزه إلى ذلك كله هو الخوف ، وما جنى من ذلك إلا الانحـلال التام الذى يقاس به ذلك الانحلال المزعوم الذى يسعى للناس جهلا منهم للنجاة منه ، فالطبيعة تسخر من سـخرية لاذعة حين تسوق الناسك إلي المفازة الجرداء ليأكل مع وحوشها وتؤلف بينه وبين بهائم الحقول .

نعم سيكون بعادة الجمال بعث قريب كما تنبأ بذلك اللورد هنرى ، وحين تبعث عـبادة الجمال من جـديد سوف تجدد الحيـاة على الأرض ، وتنشلها من التطهر المتلف الذى ينخر فى شـجرة الحياة فى عصرنا هذا ، وسـيخدم العقل

هذا المذهب الجديد بغير ريب ، ولكن فى الحدود التى تصون العاطفة ، ولسوف يكون الهدف الأول لعبادة الجمال هذه الاختبار ذاته بحلوه ومره وليس ثمرات الاختبار ، أما الزهد الذى يطفئ الحواس ، والتهتك الرخيص الذى يميتها فلن يتسع لهما هذا الدين الجديد ؛ لأنه سيذكر الناس بأن العمر برهة ، ويحثهم على اقتناص هذه البرهة .

نحن نصحو قبل انبلاج الفجر فى بعض الأحايين بعد ليلة هادئة تنقطع فيها الأحلام فتشهينا فى الموت وهدوئه ، زو بعد ليلة مزعجة تزدحم فيها الأشباح الممسوخة والرغبات المحرمة ، فتملأ كهوف الخيال وتزمزم كأنها العواصف الهوجاء وتعصف بها كأنها وحى فنان قوطى ، فما الفن القوطى إلا تجسيد هواجس الخيال المخموم ، وهذا الاختبار يمر فيه أغلب الناس ، وقلما ينجو منه أحد . نستيقظ قبل الفجر فيخيل إلينا أننا نرى أصابع شاحبة تعبث بالستائر فتهتز الستائر ، وتزحف أمامنا الظلال القاتمة الماردة الأطوال فى صمت عند أركان الحجرة وتقبع هنالك ، وفى الخارج تتحرك الطيور بين أوراق الشجر فنسمع حفيفها ، أو يدب الناس ساعتين إلى أرزاقهم فنسمع وقع أقدامهم ، أو تعوى الريح بين التلال وتنزل بمضاجعنا الساكنة بخطى خفيفة كأنها تشفق أن توقظ النيام ، ولكن عليهما أن تناشد النومك أن يخرج من كهفه الأحمر ، وترتفع الحجب رقيقة الغشاء حجاباً حجاباً ، وتعود إلى الأجسام ألوانها وأشكالها رويداً رويداً ، ونرى الفجر يبني الطبيعة على نسقها القديم ، وتمشى الحياة من جديد فى المرايا فتعكس الكائنات ، ونتلفت حولنا فنجد القنديل المطفأ كما تركناه ليلة الأمس ، وإلي جواره الكتاب الذى لم نفرغ بعد من قراءته ، أو الزهرة التى كانت فى عروتنا ونحن فى المرقص ، أو الخطاب الذى لم نجد الشجاعة لفضه وتلاوته ، أو الخطاب الذى قرأناه عشرين مرة ، ومن ظلال الليل تخرج حقائق النهار التى نعرفها فنستأنف الحياة حيث تركناها ، ويغمرنا إحساس بوجوب المضى فيما تعوناه من أعمال راتبة مملة ، أو نرجو

أن نفتح الأجفان ذات صباح فنجد عالماً جديداً يحقق أحلامنا ، أعدته لنا المقادير فى ظلام الليل ، عالماً ألوانه زاهية وأشكاله جديدة وأسراره غيرما ألفناه من أسرار ، عالماً لا أثر فيه للماضى أو لذكراه ، فواجبات الأمس وآلامها قد طمستها يد النسيان ، حتى أفراح الأمس تشقينا وسعادته تحيى فينا الأحزان .

كان دوريان جراى يرى أن الحياة لا قيمة لها إلا إذا فتحت أمام النفس هذه الدنيا الجديدة ، ولطالما خرج من طبيعته الحقيقية واستسلم لمثل هذه الأفكار لا لشئ إلا لأنه يبحث عن الإحساسات الجديدة والإحساسات السارة والإحساسات الشاذة ، وبعد أن يرضى فضوله العقلى بها تراه ينبذها فى استخفاف غير منتظر ، ولم يكن هذا الاستخفاف نتيجة نقص العواطف ، بل نتيجة اتقادها .

لقد أرجف عنه المرجفون ذات مرة أن أزمع على اعتناق الكاثوليكية ، ولم يكن هذا غريباً لأن طقوس الكنيسة الكاثوليكية كانت تلهب خياله ، فالقربان اليومى فيها كان فى نظره أشد رهبة من قوانين الوثنية الأولى ، والقربان اليومى كان عنده إنكاراً جميلا لماهيه الحواس ، وقد اهتز فؤاده لفكرته الفطرية الساذجة ، وتأثرت نفسه للمأساة البشرية التى يرمز لها ذلك القربان ، وكان يحب السجود على الدرج الرخامى البارد ليرى القسيس وهو يزيح عن الهيكل الحجاب فى أناة بيد شاحبة تكسوه مسوحه الكنيسة السميكة المزركشية ، أو يرفع وعاء السر المقدس الشبيه بالمصباح المرصع بالأحجار الكريمة ، وفيه الرقاق الذى يبدو حقّا كأنه زاد الملائكة ، أو يدق صدره ندماً على خطاياه وهو يحمل كأس الاعتراف فى زى من أزياء المسيح ، كذلك كانت المباخرة المتقدة التى يحملها صبية المقبرة ذوو الأردية الحمراء الموشاة ويطوحونها فى الهواء بين المصلين تفتن خياله ، وكان دوريان جراى كلما خرج من كنيسة كاثوليكية ينظر إلى كرسى الاعتراف الأسود عاجباً ، ويتمنى أن يختبئ خلفه ليسمع النسوة خلسة يروين تاريخ حياتهن الحقيقى من وراء القضبان .

ولكنه برغم ميله الشديد إلى هذه المراسم لم يبتر تفكيره بقبول مبادئ الكثلكة ، أو ينسى أن هذا الخان الروحانى لا يصلح للسكنى ، وإنما يصلح لقضاء ليلة أو ساعات معدودات فى جو خلت سماؤه من النجوم واكتمل القمر ، فالتصوف تسلط عليه فترة من الزمن لما فيه من غرابة ، ولما فيه من نقض خفى للأوضاع الخلقية ، والمادية الداروينية كما بشر بها الألمان تسلطت عليه فترة من الزمن لأنها فسرت له الأفكار والعواطف تفسيراً عضويًا قد سره فيها أنها تجعل النفس خاضعة لظروف الجسم ما صحّ منها وما سقم ، ولكن النظريات فى الحياة لم تلهه عن الحياة ذاتها ، وأحس بأن التفكير مجهود عقيم ما لم يقترن بالاختبار العملى ، وأدرك أن الحواس لها ما للنفس من وظيفة روحية .

ودفعه ذلك فى وقت ما إلى دراسة العطور وأسرار صناعتها ، وزخذ يجرى عليها تجاربه الخاصة ، فكان يمزج الزيوت وطيوب الشرق نفاذة الرائحة وكان يرى أن كل حالة من حالات العقل لها ما يقابلها فى عالم الحواس ، وأنشأ يبحث فى العلاقة القائمة بين الحس والتفكير ، وأراد أن يستقصى السر الذى يجعل البخور يثير التصوف فى الإنسان ، والعنبر يثير فيه الشهوات ، وأزهار البنفسج تثير فيه ذكريات الغرام الدفين ، والمسك يشوش العقل ، والشنبق يشوش الخيال ، وأراد أن يضع لفلسفة العطور أساساً علميا فيصف تأثير الأعشاب والأزهار والزيوت والأشجار زكية الرائحة وصفاً تجريبيّا صحيحاً .

كذلك دفع فى وقت آخر إلى دراسة الموسيقى ، فكان يدعو أصحابه إلى حفلات موسيقية بم يألفها أحد فى غرفة مستطيلة سقفها برتقالى وجدرانها خشراء كالزينون نوافذها ذات عوارض ، وهناك كان المدعوون يسمعون همجى الأنغام ، فكنت ترى الغجر المجانين يعزفون ألحاناً هائجة على آلات وترية صغيرة ، وكنت ترى التونسيين فى عباءاتهم الصفراء يعزفون على عيدان جسيمة قبيحة المنظر ، والزنوج العابسين يقرعون طبولاً نحاسية قرعاً راتباً يجلب النعاس إلى العيون ، على حين كان الهنود المعممون نحاف الأجسام

يجلسون على حصر حمراء ، وينفخون فى مزامير طويلة بعضها من الغاب وبعضها من النحاس ، وكأنهم يسحرون بها الثعابين الطوال والثعابين القصار الغليظة .

وكان فؤاده فى بعض الأحيان يهتز لهذه الأنغام الهمجية ولا يتحرك لعذوبة شوبرت ، أو جمال شوبان الحزين ، أو قوة بيتهوفن الدفاقة ، وألف مجموعة وافية من الآلات الموسيقية العجيبة جاءته من كل بقعة من بقاع العالم ، بعضها من مخلفات الحضارات البائدة ، وبعضها من بلاد المتوحشين الذين أبوا أن يحتكوا بالرجل الأبيض ويجربوا مدنيته ، وكان فى مجموعته آلة چوربار العجيبة التى يستعملها آل ريو المولدون من هنود وزنوج ، تلك الآلة التى حرمت على النساء رؤيتها ، وفرض الصوم ، وضرب السياط على كل فتى يريد أن يراها ، كذلك جاءته من پيرو آنية من الصلصال لها صوت حاد كصوت العصافير ، كما جاءته نايات صنعت من عظم البشر كتلك التى سمع ألفونسودى أوفالى نداءها فى پيرو ، وأحجار اليشم الخضراء حلوة الصوت التى توجد بالقرب من كوزكو ، وكانت لديه جوازات مطلية بالألوان بداخلها حصى يخشخش حين تهز ، وآلة مكسيكسة طويلة تعرف بالكلارين لا ينفخ العازف فيها بل يمص الهواء ، وأخرى خشنة من عند قبائل الأمازون تعرف بالتورا ينفخ فيها الديدبان الجالس طيلة النهار فى قمة الشجرة فيقطع نداؤها ثلاثة فراسخ كما يزعم القوم ، وثالثة هى التبونازلى لها لسانان من الخشب يترددان تردد الأوتار بضربها العازف بعصى يغطى أطرافها المطاط وهو عصارة الشجر المتجمدة ، ورابعة هى أجراس مجتمعة فى هيئة عنقود واسمها اليوتل تستخدمها قبائل الأزتيك ، ثم خامسة هى طبل عظيم الحجم أسطوانى الشكل تكسوه جلود الثعابين كالطبل الذى رآه برنال دياز حين دخل المعبد المكسيكى فى صحبة كورتيز ، ووصف لنا دقاته الحزينة أبلغ وصف . لقد كانت غرابة هذه الآلات تفتنه وجعلته يعتقد أن للفن وحوشه ذات الخلقة الممسوخة

والأصوات المنكرة ، كما أن للطبيعة وحوشها ذات الخلقة الممسوخة والأصوات المنكرة ، ولكنه بعد أن جمع من هذه الوحوش ما جمع ، زهد فيها وعاد إلى مكانه فى الأوپرا آنا وحيداً وآنا برفقة اللورد هنرى يستمع إلى تانهاوز فى نشوة تشبه الوجد ، ويلتمس فى مقدمة هذه الأوپرا الخالدة ترجمة صادقة للمأساة التى نزلت بروحه .

وكما درس دوريان جراى العطور والموسيقى ، درس كذلك الأحجار الكريمة ، وقد ظهر مرة فى حفلة تنكرية فى زى آن چوايز إميرالة فرنسا ، وكانت ترصع ثوبه مائة وستون درة ، وقد تحكمت فيه هذه الهواية سنوات طويلة بل لازمته بقية حياته ، وكان فى بعض الأحيان يقضى اليوم بأكمله فى تصفيف ما جمع من حلى كلٌ فى علبته ، وكان لديه منها أنواع نادرة كالزبرجد الأخضر الذى يستحيل أحمر فى نور المصباح ، والزبرجد الأحمر الذى يضرب فيه خط من الفضة كأنه سلك ممدود ، والزبرجد الأصفر الذى يميل إلى لون الفستق ، والياقوت الوردى ، والياقوت الأصفر ، والياقوت الأحمر الدموى الذى يخلج نوره فى هيئة نجمة رباعية ، والأماتوس المشتعل كاللهب ، والأماتوس البنفسجى ، والأماتوس البرتقالى المطعم بالياقوت الأحمر والياقوت الأزرق ، وكان شديد الكلف بحجر الشمس وضيائه الذهبى ، وبحجر القمر وضيائه اللؤلؤى ، وبعين الهر اللبنى الذى تتجمع فيه ألوان الطيف وتتكسر ، وقد اشترى من امستردام ثلاث زمرادات جسيمة الحجم لونها يسحر الناظرين ، وكان فى مجموعته فيروزة من «الصخر القديمة» يحسده عليها هواة الأحجار الكريمة .

وقد وقع أثناء اشتغاله بجمع الأحجار الكريمة على طائفة من القصص التئ تدور حول الجواهر ، فقرأ فى كتاب «تعليم الكهنة» لألفونسو عن ثعبان له عين من الياقوت الأصفر الحقيقى ، وعرف عن ألكسندر فاتح أماثيا ذى التاريخ العجيب أنه وجد فى وادى الأردن حيات تكسو ظهرها طبقة من الزمرد

الصافى ، وقرأ فى فيلوسترات عن تنين فى فمه ذرة إن رأى رداء أحمر وحروفاً ذهبية غلبه نوم سحرى وأمكن للناس قتله ، كذلك عرف من مطالعاته فى أعمال الكيميائى العظيم الذى اشتغل بالسحر بيير دى بونيفاس أن فى الماس قوة تخفى الإنسان ، وفى عقيق الهند قوة تزيد من فصاحته ، أما عقيق كونيليا فيزيل الغضب ، والياقوت الزعفرانى يجلب النعاس ، والأماتوس يوقظ المخمور من نشوة الخمر ، والعقيق الرومانى يطرد الشياطين وجوهرة الماء تطفئ لجين القمر ، والبازهر المستخرج من قلب الظبى العربى ترياق للسم ودواء للطواعين ، وجوهرة الطير التى تضعها طيور العرب الأصيلة فى أعشاشها وقاء لحاملها من النيران كما روى ديموقريط الحكيم .

ودرس الأساطير التى تتواتر عن الأحجار الكريمة وفعلها العجيب ، فقرأ أن ملك سيلا طاف فى موكب حافل يوم تتويجه بأرجاء مدينته حاملا فى يده ياقوتة حمراء ، وأن أبواب قصر يوحنا الراهب «مصنوعة من حجرة السرد ، وقد نحت فيها قرن الثعبان ذى القرن المسموم حتى لا يدخل القصر رجل يحمل السم» وفوق سطح القصر «تفاحتان من ذهب ، وفى التفاحتين ياقوتتان بلون الجمر» ، فالذهب يضئ نهاراً ، والياقوت يضئ ليلا ، وفى رواية لودج الغريبة «مرغريت الأمريكية» قرأ أن فى غرفة الملكة «تماثيل من فضة لملكات العفاف فى التاريخ يتأملن وجوههن فى مرايا من الياقوت الأحمر والياقوت الجمرى والياقوت الأزرق والزمرد الأخضر» . كذلك عرف عن ماركو پولو أنه رأى سكان زيبانجو يحشون أفواه موتاهم بدرّ وردى اللون ، وقرأ عن وحش من وحوش البحر تعشق درة استخرجها غراص من بطن الماء وأعطاها للملك پيروز ، ففتك الوحش بالغواص الغاصب وبات فى حداد على معشوقته حتى غاب القمر السابع ، وفى رواية پروكوپيوس أن الملك بيروز ، قذف بالدرة حين استدرجه أمراء الهون إلى الهوة الكبرى فضاعت الدرة ولم يعثر عليها أحد ، برغم أن إمبراطور إنستاس وعد من يجدها بخمسمائة سبيكة من الذهب ، كذلك قرأ عن ملك ملبار أنه كشف لتاجر من تجار البندقية عن

مجموعة من اللآلىء تبلغ الثلثمـائة والأربع عدداً ، كل لؤلؤة منها تمثل معبوداً من معبوداته .

وفى رواية برانتـوم أنه لما زار الدوق فالنتـينو ولد إسكندر السـادس ملك فرنسا لويس الثانى عـشر كان جواده محملاً بأوراق الذهب ، وكان فى قـبعته يومئـذ صفان من الياقـوت يسطع منهما بريق هائل ، كـذلك روى عن شارل الأول ملك إنجلتـرا أنه كان يملك جواداً تـدلت من مهمـازه واحدة وعـشرون وأربعمائة قطعـة من الماس ، روى عن ريتشارد الثانى أنه كان يملك سـترة قدر ثمنها بثلاثين ألف مارك عليها عدد عظيم من اليواقيت ، وفى كتابات هول أن هنرى الثـامن ذهب قبل تتـويجه إلى لندن «عليـه سـترة من صفـائح الذهب صدرها محلى بالألماس وغـيره من الأحجار الكريمة ، وحول عنقه بنيـقة عالية مزينة بضخم اليواقيت » وكـانت خليلة چيمس الأول تلبس قرطاً من زمرد فى إطار من سلوك الذهب ، وقـد أهدى إدوارد الثانى إلى جـافسـتون درعـاً من الذهب الأحمـر مرصعـاً بالياقـوت وبنيقة نقـشت عليهـا ورود ذهبية مطعـمة بالفيروز وخوذة مزينة بالدر ، وكان هنرى الثامن يلبس قفازاً يبلغ المرفقين تحليه الجواهر ، ويملك قفازاً آخـر عليه اثنتا عشرة ياقوتة ! واثنتـان وخمسون لؤلؤة من لآلىء المشرق يرتديه كلما أراد حمل صقوره ، أما شارل السور ، آخر من تقلد دوقيـة بورغونيا من أسرته المجـيدة ، فقد كـانت قبعتـه التى يرتديها فى المراسم تزدان بالياقوت الأزرق فيتدلى منها دور تشبه الكمثرى فى هيئتها .

كل هذا حبّبَ إلى دوريان جراى الحياة فى تلك العـصور ، ولقد كان يجد فى قراءة تلك الحقائق والأساطير عن ترف الملوك الغابرين لذة ما بعدها لذة .

لكنه لم يكتف بدراسة العطور والموسيقى والأحجار الكريمة ، بل انصرف كذلك لدراسة الأقمـشة الموشاة والأقمشة المنقوشة التى يكسـو أهل الشمال بها جـدران منازلهم الباردة ، كـما يكسـو أهل الجنوب جـدران منازلهم المشرقـة بالرسوم الملونة ، وخـصص دوريان جراى كل وقته كعـادته حين ينصرف إلى

هواية ما لجمع بدائع النسيج هذه ، وأحزنه أن يرى يد الزمن تعبث بكل شيء جميل ، ولكنه وجد بعض العزاء في أن شخصه أفلت من هذا المصير ، فها هو ذا الصيف يتلو الصيف ، والنسرين يتفتح ثم يذبل حولاً بعد حول ، وليالي الفسق تأتي وتروح فليس فيها خزي جديد ، ولكنه باق على حاله مُبقٍ على جماله ، فلا رياح الخريف عصفت بعوده البض ، ولا ثلوج الشتاء شوهت وجهه النضير ، ولكنه حتى يتمتع بنعمة الحياة ، أما الجماد فيذهب مع الريح . ترى أين يذهب ؟ أين ذلك الثوب الذى نسجته الفتيات السمراوات ليترضين الربة أثينا ، فأخذه الآلهة واستخدموه ليقاتلوا عليه العمالقة ؟ أين الخيمة الكبرى التى ضربها نيرون فوق لكوليزيوم بروما ، تلك الخيمة الأرجوانية التى رسمت عليها السماء ذات النجوم الثواقب ، وفيها أپولو يسرع بعربته ذات الجياد البيضاء ، بجياده ذات الأعنة المذهبة ؟ أين المناديل العجيبة التى نسجت لكاهن الشمس ورسمت عليها أطايب المائدة جميعاً فكأن رائيها فى وليمة زاخرة ؟ أين أكفان الملك شليريك التى رسمت عليها ثلثمائة نحلة ذهبية ؟ أين تلك الثياب التى أثارت غضب أسقف بونت «بسباعها وفهودها ودببتها وكلابها وغاباتها وصخورها وصياديها وكل ما يمكن لرسام أن ينقله عن الطبيعة» ؟ أين سترة شارل دوق أورليان التى نقش على أكمامها أغنية مطلعها «لقد غمرنى الفرح يا سيدتى» ومع الألفاظ علاماتها الموسيقية مكتوبة بسلوك من ذهب رءوسها در ؟ لقد قرأ دوريان جراى عن تلك الغرفة التى أعدت بقصر رينس خصيصاً لجنة ملكة بورغونيا وزينت «بأقمشة مطرزة رسم عليها بالخيوط ألف وثلثمائة وواحد وعشرون ببغاء تحمل جميعاً شعار الملك منقوشاً بالذهب وخمسمائة وإحدى وستون فراشة تتحلى أجنحتها جميعاً بشعار الملكة منقوشاً بالذهب كذلك» ، كذلك قرأ عن كاترين دى مدسيس أنها كانت تملك سريراً يعرف بسرير الأحزان صنع مخمل أسود رسمت عليه أهلة وشموس ، وكانت للفراش أستار من الدمقس موشاة بأكاليل الزهر رسمت على أرض مذهبة وأرض مفضضة ، والأستار تنتهى بأطراف تتدلى منها اللآلئ ،

والسرير قائم فى غرفة جدرانها مكسوة برقاع من النسيج مصفقة تحمل شعار الملكة مرسوماً على القماش المفضفض بالمخمل الأسود المقصوص ، وقرأ أن لويس الرابع عشر كانت لدية أعمدة عالية مرسومة على بسط صنعت على هيئة النساء ارتفاعها خمسة عشر قدماً كلها موشاة بالذهب ، وقرأ عن سوبيسكى ملك پولندا أن فراشه الملكى كان مغطى بحربر وذهب من أزمير خطت عليه آيات من القرآن بالفيروز ، أما عمدة فكانت قشرتها من فضة عليها نقوش ماهرة ركبت فيها أوسمه لا عد لها مرصعة بالجواهر مطعمة بالخزف ، وقد كان هذا الفراش قبلا فى معسكر الترك خارج فيينا ترفرف عليه راية المسلمين .

وظل دوريان جراى يسير على هذا النهج عاماً بأكمله يكدس أجمل ما تقع عليه من الأقمشة المطرزة والأقمشة ذا الرسوم ، فمن موسلين دلهى البديع المُفوّف بالخيوط الذهبية المكسو بأجنحة الجعلان البراقة ، إلى غلائل داكل التى بلغ من شفوفها أن عرفت بين أهل المشرق بالهواء المنسوج ، وبالماء الصافى وبندى المساء ، إلى أقمشة من جاوة عليها رسوم غريبة ، إلى أستار صينية صفراء دقيقة الصنع ، إلى كتب مجلدة بالحرير الأسمر النحاسى اللون أو الحرير الأزرق الجميل محلاة بالزنبق والطير وما أشبه ذلك من الصور ، إلى أقنعة من الحرير موشاة علي طريقة المجر ، إلى دمقس صقلية وأثواب المخمل الإسبانى السميك ، إلى منسوجات چورچيا ذات الأركان المذهبة ، إلى حرائر اليابان الخضراء ذات العصافير البديعة الأجنحة .

كذلك استهواه جمع الأياء الكنسية ، وقد كان هذا مظهراً من مظاهر كلفه بالكنيسة وكل ما يتعلق بها ، وفى الصناديق المستطيلة المصنوعة من خشب الشربين التى اصطفت فى شرفة بيته الفريدة ، كدس دوريان جراى عدداً عظيماً من الثياب الجميلة النادرة التى تلبسها الكنيسة «عروس المسيح» كما يسميها الكاثوليك ، وهى ثياب فاخرة تحليها الجواهر قصد بها أن تخفى جسد هذه العروس الشاحب الذابل الذى برته البرحاء وأدمته الآلام ، وما أنزل أحد بها هذه البرجاء ولا تلك الآلام ولكنها سعت إليها اختبارا ، كذلك كان فى

مجمـوعته معطف كـبير من الحرير القـرمزى ، والدمقس ذى الخيـوط الذهبية نسجت فيه حليـة متكررة على صورة رمان كثيـر نبتت كل رمانة منه فى زهرة سـداسيـة الأوراق ، وعلى يمين الرمـان وعلى يسـاره رسـمت ثمـار الأناناس بالدرر الصغيـرة ، وكانت تصور مناظر عن حياة مريم العـذراء من بينها تتويج مريم ، وقد رسم تاجـها بالحرير الملون فوق الإزار الذى يغـطى رأسها ، وهو من عمل فنان إيطالـى عاش فى القرن الخامـس عشر ، وكان فى مـجموعـته معطف أخـر من المخمل الأخضـر موشى بباقات مـن أوراق الأكانتا الشوكـية رسـمت على هيئـة قلوب ، ومن هذه الأوراق خـرجت أزهار بيضـاء طويلة السيقـان رسم تصميمهـا الداخلى بالخيوط الفضـية والبلورات الملونة ، وعلى الأبزيم رأس ملاك منسوجة بخيوط ذهبية بارزة ، أما الشرائط فكانت منسوجة من الحريـر الأحمر والحـرير الذهبى ومرصـعة بالأياقين الـتى تصور الشـهداء والقديسين ، ومن بـينهم القديس سبـاستيـان ، كذلك كانـت فى حوزته حلة كنسية من حرير لونه عنبر وحرير لونه أزرق وحرير لونه ذهبى ، ودمقس لونه أصفر ، ونسيج من ذهب ، على الحلة الكنسـية صور تمثل آلام المسيح وصلبه ، ثم صور تمثل السـباع والطواويس وغيـرها من الرموز ، وكانت لديه عـباءات كنسـية من الحـرير الأبيض والدمقس الوردى مـحلاة بأزهار التـوليب وأزهار الزنبق وحور الماء ، وكـان لديه عدد من كسـىّ الهياكل المصنوعـة من المخمل والكتان الأزرق ، وعدد من أغطية القربان وأقنعة الكأس المقدسة والمناديل التى تحمل صورة المسيح ، وكان يجمع هذه الأشـياء لأنها ترمز لطقوس دينية تذكى فيه الخيال .

وكان يتخـذ من هذه النفائس التى جمعهـا فى بيته الجميل وسـيلة لنسيان مخاريه والهرب ولو إلى حين من مخاوفه القاتلة ، وفي داخل الغرفة الموحشة الموصدة التى قضى فـيها الشطر الأكبر مـن صباه كانت الصورة الرهيـبة تستند إلى أحد الجـدران حيث وضعـها هناك بنفـسه ، وأسدل عليـها السـتار الملون

بأرجوان وذهب ، ومعالمها المحجوبة تتغير يوماً بعد يوم وتسجل التدهور الذى ينزل بحياته ، وكان يحجم الأسابيع الطويلة عن دخول الغرفة ، بل ينسى الصورة الممسوخة وينسى معها العذاب الذى يفتك بروحه ويسترد مرحه الأول وشوقه إلى الحياة ، ثم يخرج من داره فجأة ذات مساء ، ويقصد إلى وكر من تلك الأوكار الموبوءة ، وهناك يقضى أياماً متصلة حتى يقصيه أهلوها فيعود إلى داره ويجلس قبالة الصورة حزيناً كاسف البال يمتلئ قلبه بالمقت للصورة ولنفسه معاً ، أو يجلس قبالتها مغتبطاً بخطاياه الفريدة لأنها فريدة ، راضيا بالمسخ الذى يحيق بخياله الشائه لأن المقادير كتبت عليه أن يحمل أوزار حياته النجسة .

وبعد أن مرت أعوام شق عليه أن يطيل من أسفاره إلي الخارج فنزل عن الفيلا التى كان قد كراها ببلدة توفيل مع اللورد هنرى ، كما نزل عن البيت العربى الأبيض الذى كان قد كراه كذلك بمدينة لجزائر مع اللورد هنرى ، وقضى فيه الشتاء بعد الشتاء ، شق عليه أن ينفصل عن الصورة طويلاً لأن الصورة صارت جزءاً متمماً لحياته ، واستبد به الخوف من أن يقتحم الغرفة أحد أثناء غيبته برغم أن أحكم إيصادها بالقضبان .

وكان يعلم أن سره الرهيب لن يطلع عليه إنسان لأن ملامحه قد أوشكت أن تنطمس من الصورة ، ولم يبق منه فيها إلا شبه ضئيل لا يزال ملحوظاً نتحت الوجه القبيح الممسوخ ، ولكن هذا لن يدل أحداً على شئ مما جرى ، ولن يغيّره أحد بأنه صاحب الوجه قبيحاً وممسوخاً ، بل أن يكون الوجه آية فى القبح والمسخ ، لو أنه صارح الناس بالحقيقة لكذبوه .

ومع ذلك فقد كان فزعًا واجافاً ، تراه فى بيته الكبير بمقاطعة نوتجهام يؤنس أصفياءه من الشباب الوجهاء ، ويعرض عليهم ما يذهلهم ويذهل جميع الناس من ألوان البذخ ومظاهر السخاء ، وفيما هو كذلك تراه يترك أضيافه فجأة ويعود إلى لندن على استعجال ليتحقق من أن باب الغرفة ما زال سليماً

والصورة ما زالت فى موضعها ، وكان العرق البارد يتصبب من جسده كلما تصور أن الصورة قد سرقت ، فقد كان يخشى أن يطلع الناس على سره الرهيب ، بل لقد كان يحس أحيانا أن الناس قد بدءوا يشكون فى حقيقة أمره .

لقد كان معجبوه كثيرين ، ولكنه نجح كذلك فى إثارة الريب فى قلوب البعض ، وهو يذكر كيف أنه أراد ذات مرة أن يلتحق بناد من نوادى لندن يؤهله نسبه الكريم ومكانته فى المجتمع للعضوية فيه فأوشك طلبه إن يرفض ، وقد قيل عنه إن صديقاً له استصحبه مرة إلى نادى تشرشل فما إن دخل قاعة التدخين حتى نهض الدوق بيرويك وسيد آخر فى استياء واضح وانصرفا ، وحين تجاوز الخامسة والعشرين من عمره كثرت عنه الأقاويل الغريبة ، قيل عنه إنه رؤى فى شجار مع بعض الملاحين من الأجانب فى بؤرة قذرة بمجاهل حى هوايت تشابل الوضيع ، وقيل عنه إنه كان متصلا بعصابة من اللصوص ومزيفى النقود ، وأنه درس عليهم فنون اللصوصية والتزييف ، وكان فى كل مرة يختفى لا يعلم أحد مقره أو علة غيابه فتكثر الشائعات على ألسنة الناس ، وما إن يظهر فى المجتمع من جديد حتى يتهامس عنه الناس فى أركان الغرفات أو يتجاهلونه فى احتقار أو يلقون عليه نظرات باردة فاحصة لعلهم ينفذون إلى سره الخبئ .

ولكنه كان ثابت الجأش لا يعبأ بشئ من هذه الإهانات ، وكان أكثر الناس يعتقدون أن حاسديه ينفسون عليه مرحه الدائم الذى لم تعكره الأحزان يوماً ، وابتسامته الساحرة الساذجة وشبابه الناضر الذى تحدد الزمن فيطلقون عنه هذه التهم النكراء التى ترددها الألسنة ، ولكن الناس كانوا يلحظون أن بعض أخصائه يجافونه من وقت إلى آخر ، وأن بعض اللائى عشقنه عشقاً لا مزيد عليه وكسرن من أجله أقدس التقاليد ، وتعرض فى هواه لأفحش أنواع النقد كن يشحبن لوناً من فرط الخزى أو من فرط الرعب كلما حل دوريان جراى .

غيـر إن هذه الفضائح ذادتـه فتنة فى نظر الكثيـرين ، وأحاطتـه بجو من الرهبة والـغموض ، وقـد صانت له ثروة الطائلة مكـانته الاجتـماعـية ، لأن المجتمع ، المتـحضر على الأقل ، لا يبادر إلى قبول الأوقـاويل التى من شأنها أن تحطم من اجتـمـعت لهم الفـتنة والجـاه ، وهو يرى بغـريزته أن السلوك الاجتـماعى أهم شأناً من الأخلاق ، فـخير للمـرء ألف مرة أن يكون له طاه ماهر من أن يكون له وقار المحافظين ، فلو قدم لك رجل عـشاء مؤلماً أو نبيذاً تافهاً فكيف يعـزيك أن تعرف أن حياة مضيـفك الخاصة نقية لا غبـار عليها ؟ لقد قال اللورد هنرى مـرة إن أسمى ما فى العالم من فـضائل لن تعوض على الإنسان خسارته إن هو أكل لحـماً لم يتم تسخينه ، ولعل فى قوله شيئـاً كثيراً مـن الصــواب ، فمـقاييس المجتمع السليم هـى مـقـاييس الفن السليم ، فإن لم تكن واجب أن تكون كذلك ، لأن الشكليات جوهرية في كل مجتمع راق ، والواجب يقضى بأن تنال منا ما تستحقه من حفاوة واحتفال ، وأن نسرف فيها حتـى تبتـعد بنا عن الواقع ، والواجب يقـضى بأن يجتـمع فيـها كل مـا فى التمـثليات الغرامـية من نفاق ، وكـل ما فى هذه التمـثليات من سحـر وذكاء يحبـبانها إلى قلـوبنا ، فما النفـاق برذيلة ، وما النفـاق إلا وسيلة تتعـدد بها شخصياتنا .

مهما يكن من شيء فقد كانت هذه فلسـفة دوريان جراى ، وكثيراً ما كان يعجب لتفاهة القائلين بأن الأنا شيء بسـيط ثابت جوهرى يصح الاعتماد عليه ، لأنه كـان يرى أن الإنسان مـخلوق مـركب متـعدد الشـخـصيـات لا حصـر لإحســاساته ، وتراكم فى نفـسه تراث من الأفكار والعـواطف على تراث من الأفكار والعواطف ، ودنست جسـده أسقام الموتى وهى محزنة بشـعة ، وكان يشتاق كثيراً إلى استعراض صور أسـلافه فى القاعة الموحشة الباردة ببيته الريفى ، ويتفحص وجوه أولئك الذين جرت في عـروقه دماؤهم ، فهذا فيليب هربرت الذى وصفه فـرنسيس أوزبورن فى مؤلفه «مذكرات عن عـهدى الملكة إليزابيث والملك چيمس» بأنه «كان صفى رجال البـلاط لحسن طلعته وجماله الذى ذوى

قبل الأوان» لقـد كان يخيل لدوريان جراى أحـياناً أن حياته مـا هى إلا صورة من حياة هربرت الشاب ، وأن سم الرذيلة انتقل هكذا من جسد إلي جسد عبر القرون حتى مـشى فى عروقه . أترى صلاته الـعجيبة إلى الآلهـة أن تبقى له على شبابه ، وتفـعل ما بدا لها بالصورة ، صـلاة المخبول كما وصـفها بازيل هولوورد ، أترى تلك الصلاة التى غـيرت مجرى حيـاته تماماً نبتت دون وعى منه من حسرته الغامضة على أطلال هذا الجـمال القديمة ؟ ثم هذا السير أنتونى شيرارد يقف أمامـه مرتدياً صداره الأحمر الموشى بالذهب ، وسـترته المرصعة بكريم الجواهر ، فـذهب الكمين حول المعـصمين ، وقد ارتاح درعـه الأسود المفضض عند قدميه ، ترى ماذا ورث عن هـذا الرجل ؟ لقد كان السير أنتونى شيـرارد خليل چيوفانا غانيـة نابولى : أفتراه زورثة الميل إلى الفـجور ؟ أليس جائزاً أن مغامرات دوريان جـراى إن هى إلا الأحلام التى لم يجسر هذا الميت على تحقيقها ؟ ثم هذه الليدى إليـزابيث ديفيرو تطل عليه من اللوحة الباهتة فى إشراق وقد كست رأسها بغلالة شفافة وزينت وسطها باللآلى وجرت فى كميها عروق خضراء ، إنهـا تحمل بيمناها زهرة وتمسك بيسراها إناء مطـعماً بالخزف فيه ورود حريرية ، بيضاء وبجـوارها مائدة ، وعلى المائدة تفاحة وماندولين ، وعلى خدائيهـا الدقيقين وردتان كبيـرتان خضراوان متنسيج ، لقـد كان يعرف قصـة حيـاتها والأقاويل التى تروى عن عـشاقـها الكثريـن ، أتراه ورث عنها طبعهـا ؟ إن عينيهـا البيضاوين عليـهما جفنـان ثقيلان وهما ينظران إليه نظرة لا يفهم لها معنى ، ثم هذا چورچ ويلوبى يلبس شعره المستعار المغطى بالمسحوق وثيابه العجيبة الألوان ، لقد كان منظره جهنميًا ، فوجهه قاتم عابس حزين ، وشفتاه الشهـوانيتان قد ارتسم عليهما احتـقار الناس ، وعلى يديه الصفراوين سقط سواران من حرير دقيق الصنع فإوشكا أن يخفيا الخواتم الكثيرة التى تزين أصابعه ، لقـد كان أميراً من أمـراء الأناقة فى القرن الثامن عـشر ، وكان فى شبابه من اصفياء اللورد فيرارز ، وغـير هؤلاء جميعاً كان هناك اللورد بيكنهام صديق چورچ الرابع أيام أن كان وصيّـا على عرش إنجلترا ، ونديمه أيام دعارته

وأحد شهود زواجه بمسز فتـزهربرت ، لقد بدا آية فى الملاحة بشعره الكستنائى المجعد ووقفـته التى تنبئ بالصلف ، ترى ماذا ورث عنه ؟ لقد سـاءت سمعة اللورد بيكنهـام فى كل مكان ، وكان يترأس الحـفلات البوهيـمية الحـمراء فى كارلتون هاوس ، ومع ذلك فقد رصعت صدره نجمة وسام ربطة الساق ، وهو الوسام الأول فى المملكة كـإنه بطل قومى ، وها هى ذى صورة زوجتـه قائمة إلى جوار صورته ، وهى امرأة صفراء الوجه رقيقـة الشفتين متشحة بالسواد ، إن دمها يجرى كذلك فى عروق دوريان جراى ، فيا للعجب لهذا الخليط ! ثم ها هى ذى أمه تطل عليه من لوحتها بوجه يشـبه وجه الليدى هاملتون محبوبة نلسون ، وكأن شفـتيها مبللتان بالنبيذ . إن دوريان جـراى يعرف ما أخذه عن هذه المرأة ، لقد أخذ عنها جماله وعـشقه لجمال الآخرين . وها هى ذى تنظر إليه فى إشراق وهى فى ثوبها المحلول الـذى يشبه أثواب العذارى السكارى فى أساطير اليونان ، وعلى شعـرها انتشرت أوراق العنب ، وفى يدها كأس سال منه النبيذ الأرجوانى . لقد ذبلت أزهار القـرنفل التى زين بها الرسام صورتها ، ولكن بريق عينيها لا يزال قويًا وصفاء عينيها لا يزال عميقاً . نعم ، إن عينيها تتبعانه أينما توجه .

لكن دوريان جـراى لم يكن له أسـلاف فى الدم فـحسب ، بل كـان له أسلاف فى الأدب كذلك ، أسلاف لعلهم أوثق به رباطاً من أصلابه ، وأقرب إليه منهم في الطبع والشخصية ، وهؤلاء تأثيرهم واضح فى النفس لاخفاء فيه ، بل لقـد كان يتـوهم أحـياناً أن تـاريخ الرنسانية ليس إلا ترجمـة لحياته هو ، لا حياته الواقعة بأحداثها وظروفها ، ولكن حـياته كما رسمها له وصورتها له عـواطفه ، وكـان يحس بأنه يعرف الأبطال الـذين زينوا الرذيلة لعيـون الناس وتفننـوا فى الشر ، يـعـرفهم واحداً واحـداً ، وبـدا له أن حـياتهم لم تكن إلا نسخاً متكررة من حياته .

فبطل القصة العـجيبة الذي كان له سلطان عظيم على نفسـه كان يشاركه هذا الإحساس بأن الدنيـا قد اجتمعت فيه ، وهو يقـول فى الفصل السابع إنه

جلس جلسة الإمبراطور تايبريوس فى حديقة بجزيرة كابرى تغطى رأسه أوراق الغار لتمنع عنه الصـواعق مطالعاً كتاب إليفانتـيس المخزى ، على حين كانت الأقزام والطواويس تخـال من حوله ، ويرقص أمامه عازف النـاى كما يرقص حامل المبـخرة ، وهو يقول إنه ثـمل وعربد مع ساسـة الخيل ذوى القمـصان الخضراء فى مزاودهم ، ثم أكل فى صحفة عـاجية مع جواد على صدره كسوة رصعتـها الجواهر ، كما فعل القنصـل كاليجولا وهو يقول إنه جال كـما جال دوميـتياس شاحب الوجـه فى دهليز على جانبـيه مرايا من رخام ، باحـثاً فى صفحتها عن خيال الخنجر الذى اعتزم أن يقضى به على نفسه وقد أتلف روحه الملل ، ذلك الداء الذى يصيب من حـبتهم الحياة بكل شىء ولم تـبخل عليهم بشىء ، وهو يقول إنه نظر إلى حوانيت القصابين فى سوق المدينة خلال زمرده شفافة صافـية ثم وجد نفسه محمولاً فى عـربة من أرجوان ودر ، تجرها بغال فضـية الحدى ، والعـربة تجرى فى شارع الرمـان قاصدة إلى قـصر الذهب ، وسمع الـناس بطول الطريق ينادون : يا نيرون ، يا نـيرون ! كذلك يـقول أنه صبغ وجـهه بالألوان كمـا فعل الأجابال وجلس بين النسـاء يغزل كمـا يغزلن وأتى بالقمر من قرطاجنة وزوجة بالشمس وزواج الروح بالروح .

كم قـرأ دوريان جراى هذا الفـصل وما بعـده من فصـول ! لقد قـرأ فى الفصل الثـامن والفصل التاسع وصفـاً عجيبـاً ساحراً لأولئك الأشقـياء الذين هامـوا بالرذيلة وكلفـوا بالدمـاء وضاقـوا بالضجر فاستحـالوا وحوشاً ضارية أو ضاع صوابهم فدخلوا فى زمرة المجانين . قرأ عن فيليپو ، دوق ميلان الذى ذبح زوجته وبلل بالسـم شفتيهـا لعل عشيقهـا يلعقه فيمـوت ، قرأ عن پيارو باربى عاهل البندقية الذى عرف باسم لوبس الثـانى ، وكيف دفعه الغرور إلى أن يلقب نفسه ببولس الجميل ، وكيف بـاع تاجه بشهوة أثيمة نكراء وهو يقدر بمائتى ألف فلورين ، كذلك قـرأ عن چان ماريا فسكونتى الذى كان يسـتخدم كلاب الصيـد لتطارد الأدميين ، وكيف وجدت جـثته بعد قـتله مغطاة بأزهار نثرتها عليه بغى كـانت متيمة بحبه ، وقرأ عن بورچيـا قاتل أخيه وعن جواده

الأبيض وعن معطفه الملطخ بدم بيروتو ، وقرأ عن بيترور ياريو كاردينال فلورنسا الصغير وولد البابا سيكستوس الرابع المفضل لديه ، وهو الذى أذهل الناس بجماله وفجوره معاً ، وهو الذى استقبل ليونورا ملكة أرجوان فى خيمة من الحرير الأبيض القرمزى ملأى بالحور ووحوش الأساطير وطلا صبيًا من الصبيان يقوم بخدمته فى هذه الوليمة بماء الذهب لغله يبدو كهيلاس أو كغانيميد ساقى الآلهة ، وقرأ عن الطاغية عزلين الذى أصيب بداء الكآبة ولم يفرج عنه إلا مرأى القتلى وطعم الدماء حتى لقد قيل عنه إنه ولد شيطان من الشياطين راهن أباه على روحه وغشه فى اللعب ، وقرأ عن چان باتستا تشيبو الذى لقب نفسه بتشيبو البرئ وهو الذى حقنه طبيب يهودى بدم ثلاثة من الصبية ، وقرأ عن سيجيسموندو مالاتستا عاشق إيزوتا وسيدريمينى وهو الذى أحرقت فى روما صورته ولقبه الناس بعدو الله والناس لأنه خنق بوليسينا بمنديل كبير ووضع السم لچيزفا ديستى فى كأس من الزمرد وبنى كنيسة وثنية ليتعبد فيها المسيحيون تخليداً لجريمة من جرائمه المخزية ، وقرأ عن شارل السادس الذى عشق زوجة أخيه عشقاً قويًا مدمراً حتى لقد تنبأ له رجل أبرص بالجنون ، فلما أن ذهب عقله لم يكن يُهَدِّئ من هياجه إلا مرأى رقاع غريبة رسمت عليها صور ترمز للحب والموت والجنون ، وكذلك قرأ عن جريفونيتو باليونى ذى الشعر المجعد والقبعة المرصعة باللآلى والسترة المحبوكة وهو الذى فتك بأستورّى وبعروسه وبسيمونيتو وخادمه فلما أن حضرته الوفاة بقصر بيروچيا الأصفر بكاه أعداؤه لفرط جماله وباركته اتالانتا بعد أن صبت عليه اللعنات .

كل هؤلاء قرأ دوريان جراى عنهم فسحرته فظاعتهم ، وكان يراهم فى اليقظة والمنام . حقًا لقد رأى عصر النهضة الأوربية من فنون السم عجباً . عرف الخوذة المسمومة والمشعل المسموم والقفاز المسموم والمروحة المسمومة والمسبحة المسمومة والمعطرة المسمومة

أما دوريان جراى فقد فتك بروحه كتاب مسموم ، فلقد كان يجد فى الشر أحيانًا ما يحقق فكرته عن الجمال .

الفصل الثانى عشر

فى ليلة التاسع من نوفمبر وهو اليوم السابق لعيد ميلاده الثامن والثلاثين حدثت أحداث جسام جعلت دوريان جراى يذكر ذلك اليوم طويلاً .

خرج دوريان جراى حوالى الساعة الحادية عشرة من بيت اللورد هنرى ، بعد أن تناول معه العشاء وسار قاصداً بيته ، وكان يلبس الفراء السميكة ليتقى بها شر تلك الليلة الباردة التى انتشر فيها الضباب وفى منعطف ميدات جروفنور وساوث أودلى ستريت خرج من الضباب رجل يسرع فى المسير وقد رفع ياقة سترته الرمادية وكان يحمل فى يده حقيبة ، ومر هذا الرجل بدوريان جراى فإذا به بازيل هولوورد ، واعترى دوريان فزع غريب لم يفهم له سببًا ، فتجاهله واستأنف المسير نحو بيته على استعجال ، ولكن بازيل هولوورد تبينه فتوقف عن المسير أولاً ثم استدر وأسرع ليلحق به وقد كان ، وبعد لحظات قليلة كان الرسام قابضاً على ذراعه يقول

- ما أعجب هذه الصدفة يا دوريان لقد انتظرتك فى مكتبك منذ الساعة التاسعة ، فلما طالت غيبتك أشفقت على خادمك الذى أنهكه السهر ، فطلبت إليه أن يأوى إلى فراشه ثم انصرفت ، إنى ذاهب إلى باريس بقطار منتصف الليل ، ولقد كان يهمنى أن أراك قبل رحيلي ، فلما أن لمحتك فى الضباب عرفتك ، أو على الأصح خيل إلى أن هذا الفراء فراؤك . ألم تعرفنى يا دوريان ؟

- وكيف أعرفك فى هذا الضباب يا عزيزى ! إنى لا أستطيع أن أتبين ميدان جروفنور نفسه فكيف تنتظر ذلك منى ؟ بل إنى أحس بأن بيتى فى هذه المنطقة ، ولكنى لا أعرف مكانه على التعيين . يؤسفنى أن أسمح برحيلك يا بازيل ، فلقد مضى زمن طويل لم نلتق فيه ، ولعلك لن تغيب طويلاً .

بلى سوف أقيم فى الخارج ستة أشهر ، وقد صحح عزمى على استئجار استوديو بباريس أعتزل العالم فيه حتى أفرغ من رسم صورة عظيمة تصميمها يملأ رأسى ، ولكن دعنا من هذا الآن فما جئتك لأتحدث عن نفسى . ها قد وصلنا إلى بابك فهلا أذنت لى بالدخول حتى أفضى إليك بحديث هام ؟

قال دوريان جراى فى تكاسل وهو يصعد الدرج ويدير المفتاح فى ثقب الباب :

- يسرنى أت أدعوك يا بازيل ، ولكن ألا يعطلك هذا عن قطارك ؟

فنظر هولوورد إلى ساعته على نور المصباح الذى خنقه الضباب ثم قال :

- لا تزال أمامى فسحة من الوقت ، فالقطار لا يغادر المحطة إلا فى الثانية عشرة والربع ، والساعة الآن لا تزال الحادية عشرة ، والواقع أنى حين لقيتك كنت فى طريقى إلى النادى لأبحث عنك ، ومن هذا ترى أنى لن أحتاج إلي وقت لجمع أمتعتى ، فقد سبقتنى القطع الثقيلة منها إلى المحطة وكل ما سأحمله هو هذه الحقيبة ، ومحطة فكتوريا لن تحتاج إلى أكثر من عشرين دقيقة .

فابتسم له دوريان وقال :

- ما أعجب منظرك فى هذه السترة عريضة الياقة وبهذه الحقيبةالمنتفخة ! هيا ادخل وإلا دخل قبلك الضباب ، ولكنى أنهاك عن الكلام فى أى شىء ذى بال ، فنحن نعيش فى عصر خلا من كل شىء ذى بال ، أو على الأقل يجب أن يخلو .

تبع هولوورد دوريان إلى المكتبة وهز رأسه حين سمع هذا الكلام ، وكانت النار تتقد بشدة فى المدفئة المكشوفة ، والمصابيح تشتعل ، وفى الغرفة مائدة صغيرة عليها صندوق مفتوح من الفضة الهولندية اصطفت فيه زجاجات الشراب وبجوارها بعض زجاجات الصودا وأكواب زجاجية ضخمة .

قال هولوورد مشيراً إلى الخمر :

من هذا ترى يا دوريان أن خادمك قد جعلنى أحس بأنى فى بيتى ، وأعطانى كل ما طلبته بما فى ذلك سجائرك المذهبة ، فهو رجل كريم وهو يفضل خادمك الأول الفرنسى ألف مرة ، وبهذه المناسبة قل لى : ماذا حدث لخادمك الفرنسى ؟

فهز دوريان كتفيه قائلا :

- أعتقد أنه تزوج بوصيفة الليدى رادلى ، وفتح لها محلا بباريس لتفصيل الملابس على الأزياء الإنجليزية ، وقد بلغنى أن التطور الأخير فى الذوق الفرنسى هو الجنون بكل ما هو إنجليزى . أليس هذه غباوة من الفرنسيين ؟ ولكن فكتور كان خادماً مرضياً على عكس ما تظن . صحيح أنى كنت أنفر منه شخصيًا ، ولكنه لم يدع لى مجالا للشكوى حين كان فى خدمتى ، ،وكم شككت فيه ولكن شكوكى كانت على غير أساس ، فقد كان فى الواقع شديد الإخلاص لى ، وبدا عليه التأثر العميق حين ترك خدمتى . أترغب فى كأس آخر من الكونياك مع الصودا يا بازيل أم تفضل نبيذ الرين مع الغازوزة ؟ إن نبيذ الرين مع الغازوزة هو شرابى المفضل ، ولابد أن لدىّ ، منه بقية فى الغرفة المجاورة .

أجاب الرسام وهو يخلع عنه قبعته ومعطفه ويلقيهما فوق الحقيبة التى وضعها فى ركن الغرفة :

- أشكرك ، وكفانى ما شربت ، والآن فإنى أرغب فى أن أحدثك حديثاً جديًا يا دوريان ، وأرجوك ألا تعبس هذا العبوس فهو لا يشجعنى على المضى فى الحديث .

فقال دوريان فى جفافه المعهود وهو يرتمى على الأريكة .

- عم تريد أن تحدثنى ؟ أرجو ألا تحدثنى عن نفسى فأنا برم بنفسى هذه الليلة ، وأود أن أكون شخصا آخر .

فأجاب الرسام بصوت حاد عميق :

بل أريد أن أحدثك عن نفسك يا دوريان ، ولابد لى من الإفضاء إليك بهذا الحديث ، لن أقتطع من وقتك أكثر من نصف ساعة .

تنهد دوريان ثم أشعل سيجارة وقال :

- نصف ساعة بأكملها ؟

- أنا لم أطلب منك شيئا مذكورا يا دوريان ، ثم إنى أتوخى مصلحتك بهذا الكلام ، فأعتقد أن من الصائب أن تعرب أن الناس فى لندن يتناقلون عنك أشنع الأقاويل .

- لست أحب أن أعرف شيئاً مما يقال فىّ ، فأنا أحب الفضائح إذا رويت عن الآخرين ، أما الفضائح التى تروى عنى فلا يهمنى أمرها ، لأنها لا تأتى بجديد ، وهى كذلك خالية من الطلاوة .

- ولكن الواجب يقضى عليك بأن تهتم لها ، فأنت جنتلمان ، والجنتلمان تهمه سمعته . أنت بالطبع لا تحب أن يبسط الناس ألسنتهم فيك ويصوروك فى صورة المجرم الآثم . لست أشك فى أن مكانتك عالية وثروتك ضخمة ، ولكن المكانة والثروة لا تغنيان عن المرء شيئاً إن هو ساءت سمعته . وأنا أؤكد لك أنى لا أصدق من وشايتهم شيئاً ، أو على الأقل أرانى أرفض تصديقها كلما رأيتك ، فالرذيلة تطبع على وجوه الناس أثراً لا يمحى ولا يخفى ، ووجهك مثال الطهر والنقاء . أسمع الناس يتحدثون أحيانا عن الرذائل المستورة وفى رأيى أن الرذيلة المستورة شىء لا وجود له ، فإذا ما ابتلى أحد الرذيلة رأيت آثارها واضحة فى خطوط فمه ، وفى تهدل جفنيه ، بل فى هيئة يديه كذلك . لقد اءنى فى العام الماضى رجل من معارفك لن أذكر لك اسمه يطلب إلىّ أن أرسم صورته ، ولم أكن قد رأيته أو سمعت به من قبل ، ولكنى عرفت عنه الكثير بعد ذلك ، وقد عرض علىّ أجراً سخيّا مسرفاً فى السخاء ، ولكنى رفضت لأنى شاهدت فى هيئة أصابعه ما كرهت ، وقد تحقق لى الآن أنى كنت على صواب فى ظنونى ، وعلمت أن حياته دنسة إلى حد مفجع . أما أنت يا دوريان فلست أصدق كلمة واحدة مما يقال فيك ؛ لأن

وجهك الناضر ينطق بالبراءة ، ولكنى لا ألقاك إلا غراراً ، وأنت لم تعد تأتى إلى الأستوديو ، وحين أسمع الناس يتهامسون عنك بهجر القول لا أعرف ماذا أقول . مـاذا جعل الدوق بيرويك ينصرف من الـنادى حيث حللت به أنت يا دوريان ؟ ما الذى حـمل عدداً كبـيراً من وجهـاء لندن على مقاطعـتك . لقد كنت صديقـاً للورد ستافلى ولكنى لقيـته في حفلة عشاء فـى الأسبوع الماضى وانتهى بنا الحـديث إليك بمناسبة الصـور المصغرة التى أعرتهـا لمعرض ددلى ، فلوى ستـافلى شفتـه امتعاضـاً وقال إنك قد تكون من أصـحاب الذوق الفنى النادر ، ولكنك رجل لايجوز لفـتاة طاهرة أن تتعرف إليـه ، ولايجوز لامرأة عفة أن تجلس فى مكان أنت فيه جالس ، فلـما نبهته إلى أن صديقك وطلبت إليه أن يفسر كل شىء سرد لى عنك الأعاجيب أمام جميع الحاضرين ، ويالها من تهم شنعاء تلـك التى كالها لك يا دوريان . قـال إنك تحطم حياة الشـبان بتأثيرك السيئ فيهم ، فمنهم ذلـك الفتى التاعس ضابط الحرس الذى انتحر ، وقد كنت من أخلص أصـدقائه ، ومنهم السير هنرى آشـتون الذى اضطر إلى الرحيل عن إنجلترا ملوث الشرف ، وقد كنتما متلازمين ، ومنهم السير آدريان سنجلتـون الذى انتهت حـياته نهـاية فـاجعـة ، ومنهم ولد اللورد كنت الذى أضعت مستقبله .

لقد قابلت أباه المسكين أمس في شارع سانت چيمس فرأيت الحزن والعار قد هدّا بنيانه ، ثم دوق پيرث ؟ إن حـياته آلان جحيم لا يطاق ، ولن يرضى أحد يحترم نفسه أن يخالطه .

عض الألم دوريـان فـعض دوريـان شـفتـه ، وقـال بصـــوت ينم عن الاحتقار البالغ :

- كفى كلامـاً يا بازيل ! إنك تلغو عن أشياء لا تعرف عنها شـيئاً ، إنك تسألنى عـما يحمل بيرويك علـى ترك النادى حين أحل أنا به ، وأنا أقول إنه يفعل ذلك لأنى أعـرف كل شىء عن حياته لا لأنه يعرف أى شئ عن حـياتى إن الـدم الذى يجرى فـى روق بيرويك لهو دم الإثم والجـريمة ، فكيف ينتظر

من مثله أن يحيـا حياة صالحة ! إنك تسألنى عن هنرى آشـتون ودوق پيرث ، فهل أنا الذى لقنتها مبادئ الرذيلة ؟ ثم إذا كان ولد كنت يؤثر أن يتصيد لنفسه زوجة من الشارع ، فكيف ألام أنا على كان ذلك ؟ وإذا كان أدريان سنجلتون يوقع على الصكوك بأسماء أصدقائه فما أنا بالواصى عليه المسئول عن فعاله . أنا أعرف ميل الإنجليـز إلى الولوغ فى أعراض الناس ، فأبناء الطبـقة المتوسطة يعرضون أخلاقياتهم العتيقـة على موائدهم الخالية من الذوق ، ويتهامسون عن فضـائح سادتهم النبـلاء ليحـسوا بأنهم داخل المجـتمع الراقى لا خـارجه ، وليوهم بعضهم بعضاً بأنهم من أصفياء أبناء البيوتات الذين يلوثون أراضهم ، وفى إنجلترا يكفى أن يجـتمع لك شرف المولد والذكاء معـاً لكى يطلق أوساط الناس ألسنتهـم فيك غيرة وكـمداً ، ثم أين هذه الحـياة الفاضلة التى يحـياها أولئك الذين يتـشـــدقون عن الفضـيلة ؟ أنت تنسى يا عزيزى أننـا نعيش فى وطن النفاق .

فقال هولوورد :

– هذا خارج عن الموضوع يا دوريان ، فأنا أعرف أن إنجلترا بلد منحط ، وأن المجتـمع الإنجليزى مـجتـمع فاسـد من أساسه ، ولهـذا أردتك أن تكون نموذجاً للكمال يـحتذى ، ولكنك خيبت ظنى فـيك . إن من حقى أن أحكم على أى إنسـان بالأثر الذى يتـركـه فى أصـدقائه ، وأصـدقـاؤك قـد فقـدوا إحساسهم بالشـرف وقدرتهم على الخير ورغبتهم فى النقاء . لقـد نقشت فيهم الكلف باللذات إلى حـد الجنون فـهووا بذلـك إلى الحضـيض ، وأنت الذى سقتهم إلى هذا المصير . نعم ، أنت الـذى سقتهم إلى هذا المصير ، وها أنت ذا تبتسم كـأنك لم تأت وزراً ، وما ذكرت لك إلا القليل عن فـعالك ، فأنت وهارى أخوان لا يفترقـان ، ومع ذلك فقد جعلت اسم اخته مـضغة فى أفواه الناس ، وقد كان يجمل بك أن ترعى للأخوة حقها .

– أفهم ما تقوله يا بازيل ، فقد تجاوزت حدودك .

- بل لابد أن أقول كل شيء ، وعليك أن تسمع ما أقول . نعم . لسوف تسمع ما أقول . إن الليدى جويندولين كانت حين قابلتها أول مرة سيدة فضلى لا يمسها لسان بسوء ، فهل بقيت فى لندن سيدة كريمة واحدة ترضى بأن تخرج معها للنزهة فى هايدپارك ؟ لقد بلغ من سوء سمعتها أن أطفالها قد نزعوا منها ، ثم هناك روايات شتى ، روايات تقول أن الناس رأوك تتسلل عند الفجر خارجاً من دور الفحش ، وتتردد مستخفياً على أقذر مباءات لندن .

أصحيح هذا يا دوريان ؟ بل أيجوز أن يكون ذلك صحيحاً ؟ لقد كنت أضحك حين أسمع عنك هذه الأقاويل ، أما الآن فإنى أرتجف كلما سمعتها . إن بيتك الريفى قد أضحى بيت دعارة . إنك لا تعرف ما يقال عنك يا دوريان ، أنا لا أقول لك إنى سأتجنب المواعظ ، فإنى أذكر أن هارى قال مرة إن هواة الوعظ يبدءون وعظهم بقولهم إنهم لا يحبون الوعظ ، ثم يثبت عكس ذلك ، أما أنا فأعترف لك بأنى أريد أن ألقى عليك موعظة لعلك تتعظ .

أسألك يا دوريان أن تحيا حياة شريفة تلزم الناس لاحترامك . أسألك يا دوريان أن تتخلى عن رفاق السوء . أسألك يا دوريان أن تغسل عن اسمك الأقذار التى علقت به ، وأن تكون صفحتك بيضاء ، ولا تتكلف عدم الأكتراث كما تفعل الآن ، فإن لك تأثيرا قوياً فى أقرانك ، فليكن هذا التأثير تأثيراً حميداً لا تأثيراً هداماً . يقولون إنك تفسد كل من تخالطه ، وإنك ما دخلت بيتاً إلا وحررت له العار فى أعقابك ، ولست أدرى أصحيح هذا القول أم كاذب ، وأنى لى أن أعرف وأنا لا أراك إلا نادراً . يقولون عنك أشياء لها قوة الحقائق ، فاللورد جلوستر مثلا ، وهو صديق من أوفى أصدقائى الذين عرفتهم أيام كنت أدرس فى أكسفورد ، أطلعنى على خطاب كتبته زوجته إليه وهى على فراش الموت بمنتون حيث تخلى عنها الجميع ، وفى الخطاب قرأت اسمك مقترناً بأشنع اعتراف مر بى حتى هذه اللحظة ، فقلت له إن هذا غير معقول لأنى أعرفك معرفة تامة ، وأعرف منك أنك تستطيع إتيان شىء مما نسب إليك ، ولكننى الآن فى حيرة من أمرى ومن أمرك ، ولم أعد واثقاً من أنى أعرفك حقّا ، ولن تتبدد شكوكى إلا إذا رأيت روحك .

فنهض دوريان جراى من الأريكة وجلاً ، وشحب لونه أيما شحوب وقال :

- إلا إذا رأيت روحى !

أجاب هولووررد فى تؤده بصوت عميق يرن بالأسى :

- أجل . إلا إذا رأيت روحك . ولكن الله وحده يستطيع أن يرى روحك .

فارتفعت من دوريان جراى ضحكة تشوبها المرارة والسخرية معاً ، وحمل مصباحاً من فوق المائدة وقال :

- بل سوف تراها أنت هذه الليلة ، فيهـا بنا إليها فهى من صنع يديك . لست أجد مـا يمنع أن تراها ، وبعد رؤيتهـا أنت فى حل من أن تصفهـا أمام العالم كله فلن يصدقك أحد ، وإن صدّقك الناس فسيزداد إعجابهم بى ؛ فأنا قلت هيا بنا ، فـقد قلت ما فـيه الكفاية عن انحـاط الروح ، والآن فلتر هذا الانحطاط وجهاً لوجه .

وكانت كل كلمة فـاه بها تحمل معانى الكبـرياء الشديد ، وضرب الأرض بكعبه بطريقتـه الصبيانية الوقحة ، وشاع فى نفـسه فرح عظيم لأن سره الذى أضناه كتـمانه سيخـرج الآن إلى النور ، ولأن الرجل الذى رسم الصورة التى خلّدت عاره سوف يقضى بقية حياته شقيّا بذكر ما جنت يداه .

واقترب منه وتفرس فى عينيه الثابتتين واستأنف كلامه قائلا :

- نعم ، سوف أريك روحى . سوف ترى مالا يراه إلا الله كما تقول !

فجفل هولوورد وارتد قليلا وصاح به :

- هذا كفـر يا دوريان ! فلا تقل مثل هذه الأشـياء لأنها شـائنة ، ولأنها خلت من كل معنى .

وضحك دوريان ثانية وقال :

- أتظن ذلك ؟

بل أعرفه . أما قلته لك الليلة فما كنت أبغى به إلا نفعك ، فأنت تعرف أنى كنت دائمًا صديقاً لك وفيّا .

- ابتعد عنى ، وأتم حديثك إذا شئت .

فتقلص وجه الرسام كأنه طعن بمدية وسكت لحظة ثم شاع فى قلبه إحساس عميق بالرثاء لحال دوريان جراى ، وأنّب نفسه لتطفله على حياته الخاصة ، وهى ملك له وحده يفعل بها ما يشاء ، وأن عذاب ضميره ليغنيه عن كل تقريع ، فلو أنه ارتكب عشر معشار ما نسبه المرجفون إليه من آثام لوجب أن يعيش فى جحيم مقيم ! واعتدل بازيل هولوورد ، ثم سار نحو المدفأة وانشأ يتزمل الخشب المحترق فيها والرماد الأبيض الذى يكسو الجمر المتأجج ، وأخيراً قال الشاب بصوت واضح قاس :

- أنا فى انتظارك يا بازيل .

- كل ما أريد أن أقوله هو هذا : أسألك أن تجيب عن هذه التهم الشنيعة التى يلصقها الناس بك ، ولو أنك قلت لى أنها نهاية فرية عظمى من ألفها إلى يائها لصدقتك ، أنكر هذه التهم يا دوريان ، أجل ، أنكرها أكن سعيداً ، ألا ترى ما أعانيه من عذاب ؟ يا إلهى ! لست أحتمل أن تعترف لى . . . بأنك حقّا ممسوخ النفس ، منحط الخلق ، وتعيش فى العار .

فابتسم دوريان جراى وبدت عليه فى شفتيه أمارات الازدراء ، وقال فى هدوء :

- تعالى معى إلى الطابق العلوى يا بازيل ، فهناك أكتب يومياتى بانتظام ولا أسمح لأحد أن ينقلها من مكانها ، فتعال معى أطلعك عليها .

- سأذهب معك إذا كان هذا يرضيك ، لقد فاتنى القطار ، ولكن هذا لا يهم ففى استطاعتى أن أرحل غداً إلى باريس ، ولا تطلب إلى أن أقرأ الليلة شيئاً ، فكل ما أبغيه جواب صريح عن سؤال صريح .

- ستجد هذا الجواب الصريح فى الطابق العلوى ، أما هنا فلن أجيب عن شئ ، تعالى معى لتقرأ الجواب ، ولن تقرأ طويلا .

الفصل الثالث عشر

خرج دوريان جراى من الغرفة وبدأ يصعد السلم ومن ورائه بازيل هولوورد ، وكانت خطواتهما رقيقة ؛ فالإنسان ترق خطاه بحكم الغريزة ليلا .

وألقى المصباح ظلالاً ماردة على السلم وعلى الحائط ، وهبت نفحة من الريح هزت نوافذ الدار فقعقعت ، وحين وصلا إلى نهاية السلم وضع دوريان جراى المصباح على الأرض ، وأخرج من جيبه المفتاح وأدار فى الباب ثم قال بصوت خفيض :

- ألا تزال تصر على جواب يا بازيل ؟

- نعم .

- فأجاب الفتى مبتسماً :

- هذا يدعونى إلى الاغتباط .

ثم أضاف فى قليل من الخشونة :

- أنت الشخص الوحيد الذى يحق لها أن يعرف عنى شيئاً ، فقد تركت فى حياتى أثرا لا تعرف أنت مداه .

ثم رفع المصباح وفتحالباب ودخل ، فلطمه تيار من الهواء البارد وارتفع نور المصباح برهة واشتد لهبه البرتقالى ، وارتجف دوريان جراى وهمس لصاحبه وهو يضع المصباح على المائدة .

- اقفل الباب وراءك .

ونظر هولوورد حواليه فى كل صوب يتفقد الغرفة وبدلت عليه الحيرة . رأى أن الغرفة لم يستعملها أحد لسنوات ، ورأى على الحائط قطعة من

القمـاش الفلمنكى عليها رسوم نسـخها الزمن ، ورأي صـورة يحجبهـا ستار ورأى صندوقاً إيطاليّا قديماً وحمالة كتب تكاد أن تكون فارغة ومائدة وكرسيّا ، وفيما عدا ذلك لم ير فى الغرفة شيئاً ، وعندما كان دوريان جراى يوقد شمعة فوق المـدفأة نصفـهـا مستهلك ، لاحظ بازيل هولوورد أن التراب يكسو كل ما بالغرفة وأن البساط ممزق ، ورأى فأرا يجرى وراء ألواح الحائط ، وشم رائحة عفنة نقلتها رطوبة الهواء ، وقال دوريان بصوت قاس ينم عن عاطفة ميتة :

- إذاً فـأنت تحسب يا بازيل أن الله وحـده يرى أرواح الناس ، أزح هذا الستار تر روحى .

فأجاب هولوورد عابساً :

- أنت تهذى كـالمجنون يا دوريان ، فإن لم تكن مجـنوناً فلابد أنك تمثل دوراً لا أفهمه .

قال الشاب :

- ألا تريد أن تزيح الستار ؟ إذاً فسأزيحه أنا نيابة عنك .

ونزع الستار من القضيب المعلق فيه وألقى به على الأرض .

فلما أبصـر الرسام الوجه الشـائه يتهجم له من الصـورة فى النور الخافت صدرت منه صيـحة فزع وأحس بالمقت والتقزز مما رآه ، لقد كـان الوجه وجه دوريان جراى حقّا ، وبرغم من نزل به من مـسخ وبيل بقيت له معالمه الأولى وشيء من جماله القهار ، حـتى قرمز شفتيه الشهوانيـتين وذهب شعره الجميل بقى منهما أثر ، وزرقة عينيه السـاحرتين وخطوط أنفه المنحوت وجيده الوضاء بقى منها دليل على ماكان ، أجـل ، إنه دوريان لا سواه ولكنه مسخ رجيم ، فـمن يا ترى رسم هذا المسخ الرجـيم ؟ أنه يرى ريشـته وألـوانه واضحـة فى الصورة ، وكـذلك استطاع أن يتمـيز الإطار فهو واضـح تصميمـه ، وأمسك بالشمعة واقتـرب بها من الصورة فقرأ أسمه فى ركنها الأيسـر منقوشاً بحروف مديدة برتقالية لامعة .

وظـن برهـة أنهـا دعابة سمجة من مـقلد بذئ أراد أن يسخر منه ، فهو لم يرسم هذا الوجه الشائه قط ، ومع ذلك فقد كان يعرف فى قرارة النفس أن الصورة صورته ، وجمـد الدم فى عروقه ، إنها صورته ! إنهـا صورته ! فما معنى هذا ؟ وكـيف أصابها هذا الـتغير ؟ والـتفت إلى دوريان ورمقـه بعينين ذابلتين ، وارتجف فمه ، وانعقد لسانه ، وارتفعت يده إلى جبينه كمن يريد أن يجمع أشتات خواطره فوجد جبينه ينضج بالعرق المتلبك الكثيف .

وكان الشاب متكئاً على سطح المدفأة وقد بدا على وجهه الاهتمام الكامل كأنه مسـتغرق فى مشاهدة تمثل عظيم ، فلا الحـزن يملأ فؤاده ولا الفرح ، بل كل ما هنالك إحـساس بأنه يشـاهد أمراً جللاً ، وفى عينيـه ما يشبـه وميض الانتصار ، وخلع الزهرة من عروته وذهب يشمها أو يتظاهر بشمها .

وأخيراً صاح دوريان قائلاً :

- ما معنى هذا ؟

وكانت نبرات صوته حادة فأنكرتها أذناه .

ومزق دوريان جراى الزهرة بين أنامله وقال :

- منذ سنوات طويلة لقيتنى وكنت يومئذ صبيًا ، واطريتنى وعلمتنى كيف أغتـر بجمالى ، وذات يوم عرفـتنى بصديق من أصدقـائك فشرح لى فلسـفة الشبـاب ، وأتممت أنت صورة كنت يرسمـها لى فعـرفت منها الجمـال كيف يكون ، فمرت بى لحظـة جنـون تمنيت فيها أمنيـة تشبـه صلاة المصلين ، أمنية لا أدرى حتى هذه الساعة أأندم عليها أم لا .

- أنا أذكر هذه الأمنية ، وهى مطبوعة فى خلدى كـأنى سمعتها بالأمس . كلا يا دوريان ، محـال أن تكون الزمنية قد تحققـت ، إن الرطوبة تملأ الغرفة وقد دب التعفن فى خـيش اللوحة ، ولابد أن الألوان الزيتية التى استخـدمتها كانت تحوى بعض العناصر السامة ، أقول لك إن هذا محال .

فمـضى الشاب إلى النافذة ، وأسند جـبهتـه إلى زجاجهـا البارد المغطى بالضباب وقال :

- ما هو هذا المحال ؟

- ألم تقل لى إنك قد دمرت الصورة ؟

- أجل ، ولكنى كنت مخطئاً ، لأن الصورة قد دمرتنى .

- محال أن تكون هذه الصورة التى رسمها .

فقال دوريان بمرارة :

- ألا تستطيع أن تتبين فيها مثلك الأعلى كما كنت تفعل فى الماضى ؟

- مثلى الأعلى كما تسميه .

- بل كما سمعته أنت .

- مثلى الأعلى لم يكن فيه شر ولا عار ، لقد كنت لى نموذجاً فريداً لكل شىء سامٍ فى الحياة ، أما هذه فوجه شيطان .

- إنه صورة روحى .

- رحماك أيها السيد المخلص ! أفهذا هو الصم الذى عبدت ! إن له عينى شيطان .

قال دوريان فى يأس قاتل :

- لقد اجتمعت فى كل منا الجنة والجحيم يا بازيل .

وانصرف هولوورد إلى الصورة وذهب يتأملها ثم صاح قائلاً :

- الرحمة يا الله ! لون أن هذا كان صحيحاً ، فإن ما ظهر للناس من حقيقتك لا يقاس بما خفى عليهم منها .

وأمسك بالمصباح ثانية وطفق يتفحص الصورة من جديد ، فوجد أن سطحها لم يتغير قط وأن مخايل الدنس والإجرام تطل عليه من داخل الصورة ، فعرف أن قوة باطنية قد جعلت آثار الخطيئة تفتك بالوجه الجميل شيئاً فشيئاً ، ورأى فى الصورة جيفة حية دونها الرمم التى تبلى فى بطون القبور .

وارتعشت يده فسقطت الشمعة من مقبضها إلى الأرض ، وظلت هناك تحترق فداسها بقدمه وأطفألها ، ثم ألقى بنفسه على الكرسى المتهدم القائم بجوار المائدة ودفن وجهه فى كفيه وأخذ يقول :

- الله يا غفور ! ما أقسى هذا الدرس يا دوريان .

ولكن دوريان لم يجب ، بل ظل ينتحب بجوار النافذة بصوت مسموع .

- صل إلى الله يا دوريان ، صل إليـه ، ماذا تعلمنا أن نقـول ونحن بعد أطفال ؟ «أبنان الذي فى السـموات ، لا تدخلنا فى تجربة ، اغـفر لنا ذنوبنا ، امسح خطايانـا » . فلنصل معاً يا دوريان ، إن السـماء قـد استجـابت لصلاة دوريان المستكبر ، وهى الآن تسـتجيب لصلاة دوريان المستغفـر ، لقد عبدتك من دون الله فنلت جزائى ، ولقـد عبدت نفـسك من دون الله فنلت جزاءك ، فلنصل معاً يا دوريان .

فالتفت دوريان جراى إليه فى بطء والدموع تنهمر من عينيه وقال :

- لقد فات الأوان يا بازيل .

- كلا يا دوريان ، إن باب السمـاء مفتوح للطارقين ، فلنسـجد ولنحاول أن نرتجل صلاة إذا كنا نسـينا الصلوات ، ألا تذكر ترنيمـة تقول : « خطاياك حمراء بلون ، ولكنى سأجعلها بيضاء بلون الثلوج؟» .

- هذه الكلمات لم تعد عندى ذات مغزى .

- صمـتـا ! لا تكفر ، وكفـاك ما ارتكـبت فى حيـاتك من آثام . رباه ! ألا ترى ذلك الوحش اللعين ينظر إلينا فى شماتة .

والتفت دوريان جراى إلى الصورة وفجأة مـشت فى صدره كراهية لبازيل هولوورد قوية لا سبـيل إلى كبتهـا ، وكأنما استوحاها مـن مرأى صورته على اللوحة ، أو همست بها فى أذنه تلكما الشفتان الحاقدتان ، وتحرك فيه إحساس كإحسـاس الحيوان المطارد ، واضطرب فى قلبه بغض جـهنمى للرجل الجالس بجوار المائدة ، بغض لم يحمله لأحد قبل ، وتلفت حوله مـهتاجاً فرأى شيئاً يلمع فوق الصندوق المدهون القائم قبالته ، ولما استـقر بصره عليه عرفه ، فإذا به مدية كان قد جاء بهـا من قبل ليقطع بها حبلاً ، ثم نسيهـا فى موضعها ، وتقدم منهـا على مهل وهولوورد جالس فى منتصف الطريق ، فـلما أن وجد نفسه خلف هولوورد أمـسك بالمدية ودب إليه ، وأبصر به يتململ فى كـرسيه كأنـه يريد أن ينهض عليه وغـرس المدية فى عنقه فـمزق الوريد الجـارى تحت الأذن ، وتحامل على رأسه حتى ارتطمت بالمائدة ، وانهال عليه طعناً .

وصعدت فى الغرفة أنّه مكتـومة ، ثم صوت رجل يختنق بدمه ، وارتفع ذراعا الرجل ثلاث مرات بـقوة عصبيـة ، وتحركت أصابعه الجـامدة فى الهواء فطعنه مثنى ، فكف عن الحراك ، وبدأ يسـمع قطرات الدم تتساقط على أرض الغرفـة ، وانتظر لحظات ضـاغطاً بيده على رأس فـريستـه ثم ألقى المدية على المائدة وأرهف أذنيه .

لكنه لم يسمع شـيئاً إلا صوت القطرات المتـساقطة على البساط ، فـفتح الباب وخرج إلى أعلى السلم ، فـوجد البيت ساكناً كأنه قـبر موحش ، ولم يكن به أحد ، ومـرت ثوان ظل يحملق أثناءها فى بئـر الظلمات مـتكئاً علي مسند السلم ، ثم استـخرج المفتاح من جيبه وعـاد إلي الغرفة وأغلق الباب ، وأحدب الظهر ووجد الجثة لا تزال جالسة على المقعد وقد انكفأ منها الرأس على المائدة وتهدل الذراعان الطويلان ، ولولا فـتحة حمراء غـير منتظمة في العنق وبركة من الدم المتجمد على المائدة تتسع قليـلاً قليلاً لبدا الرجل وكأنه يستغرق فى نوم عميق .

لقد تمت الجريمة فى دقائق ، وأحس بهـدوء عجيب ، ومضى إلى النافذة وفتحـها وخرج منهـا إلى الشرفة ، وكانت الريح قـد اكتسحت ضـباب الليل فبدت السماء صافية كـذيل طاووس عائل عجيب مزدانة بألف ألف عين ذهبية وأطل فى الشارع فـوجد الشرطى يعس فى تطوافـه ويسلط نور مصبـاحه على أبواب المنازل الهادئة ، وفي مـختلف الشارع رأى عربة ذات ضـجيج لمعت فى الظلام كالبقـعة القرمزية ثم توارث عن بصره ، كذلك رأى امـرأة على رأسها شال يرفرف فى الهواء تمشى الهوينا بجـوار أسوار المنازل وكأنها تترنح ، وبين وقت وآخر تتوقف عن المسير وتلتفت إلي الوراء ، وسمعها تبدأ الغناء بصوت قبيح أجش وأبصر الشـرطى يتقدم نحوها ويقول شيئاً ثم رآها تتـعثر بعيداً عنه وتقهـقه ، وهبت فى الميـدان ريح صرصر باردة فـاضطربت مصـابيح الشارع وأضت زرقاء اللهب واهتـزت فروع الأشجار الجـرداء وبدت كقضبـان الحديد الأسود ، وارتجف دوريان جراى وعاد من حيث جاء وأغلق النافذة وراءه .

وبلغ الباب ، وأدار المفتاح وفتحه ، ولم يلق على القتيل نظرة لأنه وجد أن من الخير له ألا يفهم الموقف على حقيقته ، واكتفي من كل ذلك بأن الصديق الذى رسم الصورة هادمة سعادته قد خرج من حياته نهائيّا .

ثم تذكر المصباح ، وعنّ له أن الخادم قد يفتقده فيبحث عنه ، فهو مصباح مراكشى ثمين صنع من فضة غبشاء اللوون مطعمة بنقوش عربية صنعت من الفولاذ اللامع ومرصّعة بقطع الفيروز الخشنة ، وتردد لحظة ثم عاد وأخذه من المائدة ، وفيما هو يفعل ذلك وقع بصره على الجثة على الرغم منه ، يا لهدوء الموتى ! ثم تلكما اليدان الطويلتان البيضاوان ما كان أفظع شحوبهما ! ما أشبه الجثة بتمثال من الشمع !

وبعد أن أغلق الباب وراءه نزل على السلم فى احتراس ، ولكن الدرج الخشبى قعقع تحت قدميه فيهئ له أنه يستغيث ، وتوقف مراراً عن السير وانتظر فلم يسمع شيئاً . كان كل شئ هادئاً ولم يسمع إلا وقع قدميه .

وحين دخل المكتبة رأى المعطف والحقيبة قابعين في ركنها ، ولم يكن بد من إخفائهما ففتح كوة يسترها خشب الحائط ، كوة كان يضع فيها أدوات تخيفه ولا يعلم عنها أحد شيئاً ، وفى الكوة وضع المعطف والحقيبة ، حتى يجد متسعاً من الوقت ليوقد فيها ناراً ، ثم أخرج ساعته فإذا بها الثانية إلا ثلثاً .

وارتاح على مقعد وبدأ يفكر . المشنقة ! نعم ، المشنقة ! ففى كل عام بل فى كل شهر من شهور السنة يشنق من إنجلترا أناس لأنهم فعلوا فعلته . إن الجريمة تملأ جو إنجلترا ، فلعل نجماً أحمر اقترب من مسار الأرض فألهب فى الناس الشهوة إلى الدماء ، ومع ذلك فمم يخاف ؟ أى دليل هناك ضده ؟ إن بازيل هولوورد خرج من دار دوريان جراى فى الساعة الحادية عشرة ، ولم يره أحد حين عاد إليه ، فأغلب الخدم فى سلبى وخادمه الخاص يغط فى فراشه . ألم يقل بازيل إنه يقصد إلى باريس ؟ نعم . إن بازيل قد رحل إلى باريس بقطار منتصف الليل ، تماماً كما أزمع أن يفعل . إن بازيل رجل غريب الأطوار لا يطلع أحداً على كثير من شئونه ، فلن تستيقظ الشكوك قبل أن تمضى شهور ، وقبل أن تمضى شهور لن يصعب عليه محو كل دليل .

ثم لمعت فى خاطره فكرة فارتدى قبعته ومعطفه الذى تكسوه الفراء وانتقل إلى القاعة ، وفى القاعة وقف حين سمع خطوات الشرطى الثقيلة البطيئة وهو يسير على إفريز الشارع ورأي شعاع مصباحه معكوساً على زجاج النافذة فانتظر معلق الأنفاس .

وبعد لحظات أزاح المزلاج وخرج وأغلق الباب فى رفق شديد ، ثم شرع يدق الجرس ، وبعد خمس دقائق فتح له الباب خادمه الخاص نعسان ناقص الملبس وقال وهو يدخل البيت :

- يؤسفنى أنى أيقظتك من نومك يا فرانسيس ، ولكنى نسيت المفتاح . كم الساعة الآن يا ترى ؟

فنظر الرجل إلى ساعة الحائط مختلج الجفنين وقال :

- الساعة الثانية وعشر دقائق يا سيدى .

- الثانية وعشرة دقائق ! لقد تأخرت ولابد أن توقظنى غداً فى الساعة التاسعة لأن لدى بعض الأعمال .

- حسناً يا سيدى .

- أجاءنى أحد هذه الليلة ؟

- نعم با سيدى ، جاءك مستر هولوورد وانتظرك هنا حتى بلغت الساعة الحادية عشرة ثم انصرف ليلحق بقطارة .

- يؤسفنى أنى لم أره . وهل حملك أى رسالة لىّ ؟

- كلا يا سيدى . لم يقل إلا أنه سيكتب إليك من باريس إن لم يجدك فى النادى .

- شكراً يا فرانسيس ، ولا تنس أن توقظنى غداً فى الساعة التاسعة .

- لن أنسى يا سيدى .

ومشى الرجل متثاقلا فى الدهليز يجر خفيه جراً .

ووضع دوريان جراى قبعته ومعطفه على المائدة ودخل المكتبة ، وظل يقطع أرض الغرفة جيئة وذهاباً نحو ربع ساعة ، يفكر فى أمره ويعض شفته بين لحظة وأخرى ، ثم تناول «الدليل العام» من أحد الرفوف وبدأ يقلب صفحاته باحثاً عن عنوان ، وأخيراً وجده : «ألان كامبل ١٥٢ شارع هرتفورد ، مايفير» . نعم . هذا هو الرجل المنشود .

الفصل الرابع عشر

فى الساعة التاسعة من صباح اليوم التـالى دخل عليه خادمه حاملاً صينية عليها فنجـان من الكاكاو وفتح النافذة ، وكان دوريان نائمـاً على جانبه الأيمن يغمره هدوء الملائكة وقد طوى يده تحت خـده فبدا كصبى أنهكه طوال الدرس أو طول اللعب .

واضطر الخادم إلي أن يمسـه على كتفـه برفق ليوقظه ، وحين فتح عـينيه ارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة ، وكأن يستمتع بحلم لذيذ ولكنه لم يحلم بشـئ أثنـاء نومـه ، بل قضى ليـلة صافـية لم تعكرها أطيـاف السبات جميلها أو رهيبها ، إنما يبتسم بغير داع ، وهذه آية من آيات سحره .

وتقلب فى فـراشه ثم اتكأ على مرفـقه وشـرع يشرب فنجـان الكاكاو ، وشمس نوفمبر تدفقت أشعتها الرقـيقة فى الغرفة ، والسماء كانت ضحوكاً ، وفى الجو دفء لذيذ ، والبشر يملأ الآفاق فيعيد ذكرى الربيع .

ثم عادت إلى ذاكـرته حوادث الليلة الماضـية شيـئاً فشـيئـاً ، ومشت فى خاطره بأقدام خضبتها الدماء لا يسمع لها حفيف ، فاسترجع كل ما جرى فى وضوح مخيف ، وعبس حين ذكر ما مر به من شقاء فى الليلة السابقة ، وعاد إليه ذلك البغض الشديد نحـو بازيل هولوورد ، وذلك البغض الذى دفعه إلى الفـتك به وهو جالس على المقــعد ، فـشحب لونــه من فـرط الانفعـال ، فالرجل لا يزال جـالساً على المقعد بأعلى الدار ، بل فى وضح الـنهار ، وقد كان خليقاً به أن يحتجب فى رداء الظلمات ، فما أبشع هذه الحقيقة .

وأحس بأن التفكير المتـصل فيما جرى لابد متلف صحـتـه أو مود بعقله . لقـد دله اختـباره على أن من الجـرائم ما ترتاح النفس لذكـراه أكثـر مما ترتاح لاتيانه ، ويرضى الغـرور أكـثـر مما يرضى الشهوات ، ويسعد بـه العقل أكثر مما تسـعد به الحـواس ، ولكن هذه الجـريمة لم تكن من تلك الجـرائم ، هذه الجريمة كابـوس لا مناص من إبعاده عن مسكن الذكريات ، هذه الجـريمة شبح مزعج قائم لابد أن ينام نومـاً أكيداً أو يخنق بحبل النسيان وإلا خنق صاحبه .

ودقت الساعة التاسعة والنصف ومر بأصـابعه على جبينه ثم نهض مسرعاً وارتدى ملابسه بعناية فائقة تجاوزت كل ما عهد فيه من عناية ، وأضاع الوقت الطويل فى اختـيار ربطة رقبته والدبوس الذى يحلـى صدره به ، وبدل خواتمه مـراراً ، ثم تناول فطوره وقـضى فـى ذلك الوقت الطويل كـذلك مـتـذوقـاً الصحـاف ، متحدثاً إلى خـادمه فى إطناب عن حلل الخدم الجـديدة التى كان يفكر فى شرائها لخدمه من سلبى ، قارئاً رسـائل اليوم آنًا فى ضجر ، وآنًا فى متعة ، وكانت بينهـا رسالة تلاها جملة مـرات ثم مزقهـا فى شىء من الغيظ وهو يردد كلمة اللورد هنرى «يا للرجل من ذاكره المرأة!» .

وبعد أن شرب فنجاناً من القهوة التركـية مسح شفتيه فى الفوطة فى تؤدة وأشار إلى خادمه بالانتظار ، ثم تحول إلى مكتبه وسطر خطابين وضع أحدهما فى جيبه وسلم الآخر للخادم قائلا :

– احمل هذا الخطاب إلى ١٥٢ شارع هرتفورد يا فرانسيس ، فإن وجدت أن مستر كامبل قد غادر لندن فأحصل على عنوانه .

وانصرف الخادم فبقى فى الغرفة وحـيداً ، وأشعل سيجارة وذهب يخطط الرسـوم على قطعة من الورق فـبدأ أولاً برسم الأزهار ، ثم انتـقل إلى رسم قطاعات من العمـائر ، ثم انتقل إلى رسم الوجوه الآدميـة ، وفجأة لاحظ أن كل وجه يخططه على الورق يحمل شبهـاً قوياً لملامح بازيل هولوورد ، فتجهم وجهه ونهض من مكانه وسـعى إلى حمالة الكتب وانتزع منها كتـاباً على غير تحديد . لقد كـان صادقاً العزف على أن ينسى ما حدث حـتى تلزمه الضرورة

القصـوى بتذكره ولما تمدد على الأريكة نـظر إلى عنوان الكتاب فإذا به كـتاب تيوفيل جوتييـه «إمو وكاميه» فى طبعة شرپانتيـيه على ورق يابانى وعليه رسوم چاكمار ، وكانت جلدة الكتاب خضراء ليمونية عليها تصميم من خطوط ذهبية متـقاطعة ورمان منقـوط ، وكان الكتاب هدية أهداها إليـه أدريان سنجلتون .
وفيمـا هو يقلب صفحاته وقـعت عينه على القصيـد التى تصف يد لاسنير ، تلك اليـد الباردة الشـاحبـة «ذات الآلام التى لم تغسل بعـد» ، ذات الشـعر الأحمر الناعم كالرياش و «أصابع الوحوش» ونظر إلى إصابعـه الدقيقة البيضاء فارتجف بالرغم منه ، وما زال يطالع حتى بلغ هذه الفقرات الجميلة التى تصف مدينة البندقية :

«خرجت زهراء الأدرياتيك من الماء بيضاء الجسد
وردية ومن ثدييها تساقط الدر على بساط تدرجت
فيه الألوان تدرج الأنغام فى السلم الموسيقى» .
«والقباب وارتفعت كصدر حسناء ناهد تتنهد حسرة على
غرامها ، وارتفعت القباب على الأمواج
اللازوردية التى تترجرج فى لين كأنها بيت شعر
بديع التكوين» .
«ورسا بى الجندول وشده الملاح بالحبل إلى
العمود فوجدت نفسى على الدرج الرخامى أمام
واجهة قصر وردى» .

واضطربت نفسه لجمال هذه السطور ، وأحس وهو يقرؤها أنه طاف على وجه الميـاه الخضراء فى قنوات تلك المدينة الدرية الوردية يحـمله جندول أسود ذو مقـدمة فضـية وأستار تـرفرف فى مهب النسـيم ، وترجرجت أمام عـينيه السطور ذاتهـا فبدت له كـالأمواج الفـيروزية الزرقاء التى تتـسلسل وراءه حين

يسبح فى جندوله إلى قصر الليدو ، والألوان فيها تلمع أمام ناظريه فتذكره ببريق الطيور ذات الرقاب الصفراء التى ترفرف بالقرب من برج الكامپانيل العالى الذى يشبه خلايا النحل ، أو تخطر فى خيلاء تطرب لها النفوس فى الشوارع المقبية المظلمة التى حط عليها غبار القرون ، وكان يغوص فى مكانه من الأريكة ويرخى جفنيه ويردد قول الشاعر :

على الدرج الرخامى واجهة قشر وردى

فترتسم أمامه صورة البندقية فى هذين البيتين ، وتذكر الخريف الذى قضاه فى تلك المدينة والغرام الجميل الذى ذاقه فى مغانيها فدفعه إلي ارتكاب الحماقات اللذيذة التى لا يقدم عليها إلا المجانين . لقد قرأ فى كل حجر من أحجار المدينة قصة وكل ما فيها أقار الأحلام يعيشون على الحلم المستور ، وللحلم المستور . لقد افقه بازيل شطراً من الرحلة وفتنه جمال تنتوريت فياله من رجل تاعس وياليتته من ميتة شنعاء !

وتنهد وفتح الكتاب مرة أخرى والتمس النسيان فى المطالعة ، وفى الكتاب قرأ عن مقهى صغير بأزمير فيه طيور تخرج منه وتدخل فيه فى غير حرج ، والحجاج جالسون يعدون أسماء الله الحسنى على مسابحهم ، والتجار ذوو العمائم يدخنون الشيشة ويتحادثون فى وقار ، وقرأ عن المسلة القائمة بميدان الكونكورد بپاريس وهى تبكى بدموع من الجرانيت تندب وحدتها فى منفاها الدائم الغيوم ، وتحن إلى ضفاف النيل القائظ الذى غطته أزهار اللوتس ، حيث تماثيل أبى الهول وعجول آبيس الحمراء والنسور البيضاء ذات المخالب الذهبية والتماسيح ذات العيون الصغيرة الزبرجدية التى تزحف فوق الطين الأخضر المتبخر ، وطفق يفكر فى قريض جوتييه الذى شبه فيه الشاعر تمثالا من التماثيل رآه بقاعة في متحف اللوفر بالصوت الكونترالتو واستوحى رخامه الذى لطخته القبل ، ولكن الكتاب سقط من يده أخيراً وبدأ يتململ تململ من

فقد السيطرة علـى أعضائه ثم غمره إحساس بالفـزع الشديد . ترى ماذا يكون مصيره لون أن آلان كامبل كان خـارج إنجلترا ؟ ستمضى إذاً الأيام الطوال قبل أن يتمكن من العودة إليهـا ، ثم أليس من الجائز أن يرفض الرجوع ؟ ماذا تراه يفعل لو أن آلان كامبل رفض أن يستـجيب لدعوته ؟ إن كل ثانية تمر تدق فى سمعـه كناقوس القدر . إن آلان كامـبل حقّا صديقـه الأوفى الذى لازمه منذ خمس سنوات ثم فـترت الصلة بينهما فـجأة ، وهما الآن يلتقـيان فى الأندية والحفلات فـلا يتبادلان الحديث . حقّـا إن دوريان يحييه بابتســامة كلما رآه ، ولكن آلان كامبل لا يرد له تحيته .

كان آلان كامـبل شاباً ذكى الفؤاد ولكنه خلا من إحســاس بجمال الفنون التصويرية ، والقليـــل الذى اكتسبه من تذوق الشـعر جاءه من دوريان جــراى لا من سواه ، أما فـضوله العقلى فكان يتجه نحـو العلم ، وقد قضى الشطر الأكير من وقـته أيام الطلب بكامبـريدج فى المعمل ، ونجح بامتيـاز فى التاريخ الطبيعى ، ولكن ميله الـشديد إلى الكيمياء لم ينته بإنتهـاء فترة الدراسة ، بل لازمه بعد ذلك فـأنشأ معمـلاً خاصّاً به فى لندن كان ينقطع فـيه للبحث طول النهار مما أحنق أمه عليه ، فقد كانت تأمـل فى أن يتقدم لعضوية البرلمان ، ويخجل من اهتمام ولديها بالكيمياء لظنها أن الكيميائي رجل يركل الأدوية التى يوصى بها الأطباء ، كذلك كـان آلان كامبل عازفاً من أمهـر العازفين يتقن اللعب على البـيانو والكمـان على حـد سواء ويبـز فى ذلك أكـثر الهـواة ، ولقد كـانت الموسـيقى فـى الواقع هى التى ألفت بينه وبين دوريان جـراى ، وبالطبع كـان لقاؤهما فى دار الليدى بيركشاير ليـلة أن كان روبنشتاين يعزف فى صالونها ، ثم بات يترددان على دار الأوبرا مـعاً فى كل مناسبـة ، ويقصدان كل مـحفل تلتمس فيه الموسيقى الحية ، ودامت صلتهـما القوية هذه ثمانية عشر شهراً كان كامبل إبانها يتردد بـلا انقطاع على ميدان جروفنور حين يكون دوريان فى لندن ، وعلى قصـر سلبى حين يكون دوريان فى الريف ، أما شغف كـامبل بدوريان

جراى فقد كان عظيما لأنه يرى فيه النموذج الحي لكل ما هو جميل في الحياة ، شأنه في ذلك شأن أنداده من الشبان ، ثم لاحظ الناس فجأة أنهما يلتقيان فلا يتبادلان الحديث إلا نادراً ، كما لاحظوا أن كامبل يتعمد التبكير في الانصراف كلما وجد نفسه مع دوريان جراى في حفل واحد ، ولم يعرف أحد سر هذه القطيعة ، كذلك انتاب كامبل تغير يلفت الأنظار ، فقد فَقَدَ الكثير من مرحه وبات يتململ كلما سمع الموسيقى كأنه لا يستسيغها ويرفض أن يعزف كلما طلب إليه ذلك ، معتذراً بأن أبحاثه في المعمل قد شغلته عن مواصلة المران ، وقد كان صادقاً فيما يقول ، واشتد كلفه بعلم الحياة يوماً بعد يوم حتى لقد ظهر اسمه في أكثر من مناسبة في بعض الدوريات العلمية مقترناً ببعض التجارب العجيبة التي كان يجريها .

هذا هو آلان كامبل الذى كان دوريان جراى ينتظر قدومه ، وكان دوريان يرفع بصره إلى ساعة الحائط كل ثانية ، ولما طال انتظاره ازداد جزعه ، وأخيراً نهض وذهب يقطع أرض الغرفة جيئة وذهاباً ، كأنه حيوان جميل أسير ، واتسعت خطواته ولم يعد لها دبيب وبردت يداه إلى درجة غير مألوفة .

وأصبح الانتظار لا يطاق ، وبدا له أن الزمن يزحف بأقدام من رصاص ثقيل ، وأحس بأن ريحاً هوجاء تدفع به إلى حافة هاوية مظلمة ، وكأنه يعرف ما ينتظره في قاع الهوة من دمار أكيد ، بل لقد رأى الدمار رؤية العين فاضطرب اضطراباً عظيماً وضغط بكلتا يديه على عينيه في غير إشفاق كأنه يريد أن يمحو منهما الرؤيا ، ولكن عبثاً كان ما حاول ، فالرؤيا في عقله جاثمة وخياله المريض الذى نهشته الآلام تراقصت فيه الأشباح كأنها الدمى الممسوخة ، وراحت تكايده من وراء أقنعتها الشيطانية ، وفجأة أحس بأن الزمن يقف . أجل . أحس بأن هذا المخلوق الأعمى بطئ الأنفاس يكف عن الزحف ، لقد مات الزمن وبموته تسابقت في عقل دوريان جراى الأفكار ، وأخرجت له صورة مروعة للمستقبل كانت من قبل مستورة وراء الحجب ، وعرضتها أمام عينيه عرضاً ، وحملق فيها فجد كأنه كتلة من صوان .

ولكن البـــاب انفتح أخيراً ، ودخل منه خـــادمه ، فنظر إليه نـظرة جامدة لا حياة فيها . قال الخادم :

- مستر كامبل يل سيدى .

فتنفس دوريان فـى ارتياح ، وعاد الدم إلى شـفتيـه اليابسـتين وإلى خده الشاحب . قال :

- أدخله حالا يا فرانسيس .

وعاد إليه هدوءه الأول وزال عنه الجزع .

وانحنى الرجل وانســحب وبعـد لحظات دخل آلان كامـبل عـابساً عليـه اصفرار ، وقد زاد شعره الفاحم وحاجباه الناعمان من شحوب لونه .

قال كامبل :

- لقد كان عزمى ألا أدخل بيتك مرة أخرى يا جراى ، ولكنك تقول إنها مسألة حياة أو موت .

وكان صوته جافّـا ينم عن الاحتقار ، وجاءت كلماته بطـيئة خرجت من روية ، وألقى على دوريان نـظرة فاحـصـة ثابتـة فـيـهـا زراية ، وظلت يداه مدفونتين فى جيبيه ، كأنه لم ير الإشارة التى حياه بها رب الدار .

- نعم يا آلان ، إنها مسألة حياة أو موت ، وهى كذلك بالنسبة لأكثر من شخص واحد . هلا جلست .

وجلس كـامبل على مـقعـد بالقرب من المائدة وجلس دوريـان قبالـته ، والتفت عيـونهما ، فقرأ كـامبل فى عينى دوريان معانى الألم الصـادق ، فقد كان يعلم أنه مقدم على فعلة رهيبة .

ومرت لحظة من الصمت الثـقيل ، وأخيراً مال دوريان نحو كـامبل وقال فى هدوء بالغ متتبعاً أثر كلماته :

- اسمع يا آلان ، فى غرفة بأعلى هذا البيت مغلقة لا يدخلها أحد إلا أنا جثة رجل ميت جالسة على مقعد ، وقد مات الرجل منذ عشر ساعات ، الزم مكانك يا آلان ولا تنظر إلىّ هذه النظرة ، أما هوية هذا الرجل ، ولم مات ؟ وكيف مات ، فأمور لا شأن لك بها . وكل ما عليك أن تفعله هو أن . . .

- هذا يكفى يا جراى ، فلست أريد أن أعرف بقية قصتك ، وسواء أكان ما قلته صحيحاً أم كاذباً فهو لايهمنى ، فأنا أبغض أن يكون لى بك شأن ، ولتحتفظ بأسرارك الجهنمية لنفسك فهى لم تعد تهمنى الآن .

- بل هى تهمك يا آلان ، وهذا السر بالذات يخصك ، إنى لأرثى لحالك ولكن لابد مما ليس منه بد ، فأنت الشخص الوحيد الذى يستطيع أن ينقذنى وهذا يلزمنى بأن أشركك معى فى هذا الأمر ، ولا اختيار لى فى ذلك ، فأنت تدرس العلوم يا آلان وتعرف الكيمياء والأحماض وما شاكل ذلك ، وقد أجريت التجارب المختلفة ، وكل ما عليك أن تفعله هو أن تفنى الجثة الموجودة بالطابق العلوى إفناء حتى لا يتبقى منها أثر ، وليس هناك من رأى هذا الشخص يدخل بيتى ، بل إن الناس يعتقدون أنه فى باريس فى هذه اللحظة ، فلن يبحث أحد عنه إلا بعد أن تنقضى شهور ، وحين يبدأ البحث عنه يجب ألا يسكون فى هذا البيت أثر من آثاره ، ولابد أن تحيله يا آلان إلى قبضة من رماد أذروها فى الهواء ، وتحيل معه متاعه كذلك .

- أنت مجنون يا دوريان .

- لقد كنت أنتظر اللحظة التى تسمينى فيها دوريان .

- أنت مجنون لأنك حسبت أنى أتحرك لأنقذك من ورطتك ، وأنت مجنون لأنك أدليت بهذا الاعتراف الشائن . أنا لا دخل لى بهذه المسألة أيّا كانت ظروفها ، أو تحسب أنى سأجازف بسمعتى من أجلك ؟ ماذا يهمنى من أعمالك الشيطانية .

- إن الرجل قد انتحر يا آلان .

- هذا يخفف من المسألة ، ولكن من ذا الذى دفعه إلي الانتحار ؟ أنت بكل تأكيد .

- ألا تزال مصراّ على الرفض ؟

- بالطبع . أنا لا شأن لى بشئ من هذا القبيل ، ولن يثير إشفاقى أن تجر على نفسك كل ما فى العالم من عار ، فإنت أهل لذلك . لن يؤسفنى أن يفتضح أمرك أمام جميع الناس فتسقط فى نظر المجتمع . كيف تجسر على أن تسألنى أن أقحم بنفسى فى هذه الجريمة الشنعاء ، وأنا آخر من يحق لك أن تطلب العون منه بعد ما أنزلت بى من خراب . لقد كنت أحسب أنك تعلم ما يكفى عن طبائع الناس ، ولعل صديقك اللورد هنرى وتون علمك شيئاً كثيراً ولكنه لم يعلمك بسائط النفس الإنسانية فيما علمك . كلا . لن يحركنى شئ لإنقاذك من محنتك ، فابحث عن غيرى لأنك قد أسأت الاختيار ، دعنى وشأنى وابحث عن صديق من أصدقائك .

- أن الرجل مات مقتولاً يا آلان . قتلته أنا بيدى ، قتلته لما أنزل بى من شقاء ، فهو الذى شكل لى كيانى وأفسد على حياتى . إن أثر هارى المسكين فىّ لا يقاس بإأثر هذا الرجل ، ولعله لم يقصد سوءاً ، ولكن النتيجة كانت واحدة .

- أنت قتلته ؟ يا إلهى ! أهذا ما آلت إليه يا دوريان ؟ لن أبلغ أمرك إلى الشرطة فليس هذا من شأنى ، وهم لا شك قابضون عليك إذا لم أساعدك أنا ، فما من أحد ارتكب جريمة وإلا وارتكب معها حماقة تدل عليها ، ولكن هذا لا يعنينى .

- بل هو يعنيك يا آلان . لحظة واحدة يا آلان . انتظر . إسمع ما أقول ، ثم أحكم بنفسك . كل ما أسألك أن تفعله هو أن تجرى تجربة من تجاربك العلمية . أنت تعمل فى المستشفيات وفى حجرات التشريح فلا يؤثر فيك ما تفعله من تقطيع وعبث بجثث الموتى ، ولو أنك وجدت هذا الرجل طريحاً

على مائدة فى معمل أو في حجرة من حجرات التشريح المقبضة ، وفي المائدة أحواض حفرت ليسيل فيها دمه الجارى لنظرت إلى هذا الرجل نظرك إلى موضوع لذيذ للتجربة ، فلا تضطرب نفسك ، ولا يجول بخاطرك أنك تأتى أمراً تلام عليه ، بل على العكس من ذلك قد تشعر بأنك تسدى إلى النوع الإنسانى خدمة جليلة ، أو أنك تضيف إلى التراث العلمى الذى يحرص عليه البشر كل هذا الحرص ، أو أنك ترضى فضولك العقلى ، أو أى شىء يدخل فى حكم ذلك ، وكل ما أطلبه إليك هو أن تقوم بهذا الذى تقوم به كل يوم ، بل إن فناء جثة لا يقاس فى بشاعته بما ألفته من أعمال ، واذكر أن وجود هذه الجثة هو الدليل الوحيد على أنى قاتل هذا الرجل ، فإذا افتضح أمرها هلكت ، وأمرها لا شك مفتضح إلا أن تساعدنى يا آلان .

- ولكنك تنسى أنى لا أرغب فى مساعدتك . أنا لا أكترث بك أو بقصتك أو بمصيرك ، ولا علاقة لى أصلا بهذا الموضوع .

- أضرع إليك يا آلان أن تساعدنى ، فكر فى حرج مركزى ، لقد كاد أن يصيبنى إغماء من فرط هلعى قبل مجيئك بدقائق ، ولقد تعرف معنى الهلع فى يوم من الأيام لو أصابك بعض ما أصابنى ، ولكن دعنا من هذه الأفكار السوداء ، دعنا من الهلع ، ولتفكر فى الأمر تفكيرك فى تجربة عملية لاغير ، وأنت لا تستقصى عن الأموات الذى تجرى تجاربك عليهم ، فلا تستقص الآن عن هذا الميت ، لقد بحت لك لما كان لا ينغى أن أبوح به ، ولكنى أضرع إليك أن تنقذنى ، وتذكر يا آلان أننا كنا فى الماضى صديقين .

- لا تذكر تلك الأيام يا دوريان ، فلقد ماتت .

- إن بعض الموتى باقون ، فالرجل الميت بأعلى البيت باق ، وهو جالس بجوار المائدة محنى الرأس ممدود الذراعين ، استحلفك يا آلان أن تساعدنى ، فلو لم تساعدنى لكانت فى ذلك نهايتى . المشنقة يا آلان . ألا تفهم ؟ سوف أشنق جزاء ما فعلت .

- لست أرى ما يدعو لإطالة هذا المشهد فلنقصر القول . أنا أرفض رفضاً باتًا أن تكون لى صلة بهذه المسألة ، وقد كان خبلا منكَ أن تطلب هذا منى .

- أترفض .

- نعم .

- أضرع إليك يا آلان .

- لا تتعب نفسك .

فعادت دوريان جراى معانى الألم العميق ، ومد يده وتناول قطعة من الورق وخط عليها بعض الكلمات ثم قرأها مرتين وطواها بعناية وأزاحها على المائدة حتى استقرت أمام آلان كامبل ، ونهض من مكانه وسار إلى النافذة .

وأخذ كامبل يتأمله عاجباً ثم تناول الورقة وقرأ ما فيها فشحب وجهه حتى أضحى يحكى وجوه الأموات وتخاذل فى مقعده ، وأحس بدوار شديد وسمع قلبه يدق عنيفاً عالياً كأنه يدق فى صندوق فارغ .

ومرت دقائق من الصمت المروع ثم التفت إليه دوريان ومشى نحوه ووقف خلفه ووضع يده على كتفه وقال :

- يؤسفنى أن أفعل يا آلان ، ولكنك لم تترك لى فرصة للاختيار ، وها هو خطاب قد كتبته فعلا وتستطيع أن تقرأ عنوانه بنفسك ، فإذا أنت لم تساعدنى وجدتنى مضطراً إلى إرساله ، وأنت أدرى الناس بنتيجته ، ولكنك ستساعدنى ، فمحال أن ترفض ذلك الآن . لقد كنت أود أن أعفيك من كل ذلك ولكنك ألزمتنى به إلزاماً ، ومن الإنصاف أن تشهد لىَ بذلك ، وكنت أنت معى عنيداً خشناً جارحاً فى القول ، وما عاملنى أحد قط معاملتك إياى ، على الأقل ممن لا يزالون أحياء يرزقون ، فاحتملت كل ذلك على مضض والآن جاء دورى لأملى عليك شروطى .

فدفن كامبل وجهه فى كفيه وارتجف .

- نعم يا آلان . الآن جاء دورى لأملى عليك شروطى ، وأنت تعرف هذه الشروط ، والأمر ليس فيه تعقيد تشجع ولا تقتل نفسك بالحسرات فلا محيد عما أنت قادم عليه ، فأقدم عليه دون تفكير .

وصعدت من صدر كامبل أنه واهتز من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وسمع الساعة القائمة على سطح المدفأة تدق ، فبدا له أن دقاتها تقسم الزمن إلى جزيئات من العذاب الذى لا سبيل إلى احتماله، وأحس كأنما حلقة حديدية قد احتوى رأسه وأخذت تضيق تدريجاً وهيئ له أن الفضيحة التى يهدده دوريان جراى بها قد نزلت به فعلا ، أما اليد التى ارتاحت على كتفه فقد خال أنها يد من الرصاص تبهظ كاهله وتوشك أن تسحقه سحقاً .

- وآلان يا آلان ، لابد أن تصل إلى قرار سريع .

فأجاب كامبل على صورة آلية كأن الكلام يغير الحقائق :

- لا أستطيع أن أفعل ما تطلبه منى .

- بل لابد أن تفعله ، ولا خيار لك فى ذلك . احزم أمرك ولا تضيع الوقت .

فتردد كامبل لحظة ثم قال :

- أفى الغرفة العليا نار ؟

نعم ، فيها مدفأة بغاز الاستصباح والاسبستوس .

- سأذهب إذاً إلى المعمل لإحضار بعض الأدوات التى تلزم للعملية .

- كلا يا آلان ، لن تبرح هذا المكان ، فاكتب ما يلزمك من أشياء على ورقة ، وسيذهب خادمى فى عربة لإحضارها .

فكتب كامبل كلمة إلى مساعده وجفف الحبر ، وتناول دوريان الرسالة وقرأها بإمعان ، ثم دق الجرس وناول الورقة لخادمه الخاص وسأله ألا يضيع وقتاً فى إحضار محتويات الرسالة .

وما إن خـرج الخادم وأقـفل الباب وراءه حـتى نهض كـامبل فى سـرعة عصبية مـشى إلى المائدة وكانت فرائصه ترتعد كأنه محـموم ، ومرت عشرون دقيقة كان الصمت فيها كـاملا لم تقطعه كلمة واحدة ، وطنت فى الغرفة ذبابة تسبح فى كل مكان ، وارتفعت دقات الساعة فخالها الرجلان ضربات مطرقة.

ودقت الساعة الواحدة ، والتفت كـامبل إلى دوريان جراى فوجد الدموع تنهمر من عينيـه ، وتأمـل وجهـه الرقيـق الحـزين فوجـد فى رقتـه وحزنه ما أغضبه.

قال كامبل :

- أنت مخلوق منحط ، ما فى ذلك شك .

فأجاب دوريان :

- صمتاً يا آلان . لقد أنقذت حياتى .

- وما قيـمة حياتـك ؟ لقد تدهورت من سيئ إلى أسوأ حـتى انتهى بك الأمر إلى الإجرام ، وأنا إذ أقدم على هذه الفـعلة التى تضطرنى إليها اضطراراً لا أفكر فى إنقاذ حياتك .

فتنهد دوريان وقال :

- ليتك ترثى لحالى عشر معشار ما أرثى لحالك .

وفيما هو يقـول ذلك انصرف إلى التأمل فى حديقـة بيتـه ، أما كامبـل فلم يجب بشىء .

وبعد عـشر دقائق طرق الخـادم الباب ودخل حاملاً صنـدوقاً جسيـماً من خشب الموجنة يحوى العـقاقير المطلوبة ولفة طـويلة من الأسلاك المصنوعة من صلب ، وبلاتين ، وكلابتين من الحديد هيئتهما غريبة ، وقال مخاطباً كامبل :

- أأترك هذه الأشياء هنا يا سيدى .

فقال دوريان :

- نعم يا فرانسيس ، ويؤسفنى أن سأطلب منك شـيئاً آخر . أتذكر اسم بائع الأزهار فى رتشموند المتعهد بتوريد زهر الأوركيد إلى قصر سلبى .

- اسمه هاردن يا سيدى .

- نعم ، هاردن . اذهب بلا توان إلى رتشموند ، وقابل هـاردن شخصيّاً وسله أن يرسل إلى سلبى ضـعف الكميـة التى يرسلها عـادة ، وأن يقلل من عدد الأوركـيد الأبيض بقـدر المستطاع ، بل إذ أمكن تجنب الأوركـيد الأبيض تماماً كان ذلك أنسب . إن اليوم صاف جميل يا فرنسيس ورتشموند حى أنيق، ولولا علمى بأنك ستستمتع بالذهاب إليه لما أزعجتك بهذا الطلب .

- ليس فى الأمر إزعاج يا سيدى . متى تريدنى أن أعود ؟

فنظر دوريان إلى كامبل وسأله فى هدوء تام ، فقـد أكسبه وجود شخص ثالث بالغرفة شجاعة عظمى .

- كم ساعة ستستغرق التجربة يا آلان ؟

فعبس كامبل وعض شفته وأجاب :

- نحو الخمس ساعات .

- إذا عـدت فى السابعـة والنصف نكون قد فـرغنا من التجربة . اسمع يا فرانسيس . أعد لى ملابس السهرة واتركها فى غرفتى ، وبعد ذلك تستطيع أن تكون مطلق الحـرية فى المساء فلن أحتـاج إليك لأنى سأتعـشى فى الخارج هذه الليلة .

قال الرجل وهو ينصرف :

- شكراً يا سيدى .

والتفت دوريان إلى آلان كامـبل ، وقال يستعجله بلهـجة الآمر الناهى مما جعل كامبل يحس بأنه آلة مسيرة :

- والآن يا آلان يجب أن نعـجل بالعـمل فـالوقت ثمين . مـا أثقل هذا الصندوق . سأحمله أنا ، أما أنت فلتحمل الأشياء الأخرى .

وخرج الرجلان من الغرفة معاً ، ولما بلغا قمة السلم أخرج دوريان المفتاح من جيبه وأداره فى الباب ثم توقف واعتراه الجزع ، واضطرب أيما اضطراب .

وقال متخاذلاً :

- أعتقد أنى لن أقوى على الدخول يا آلان .

فقال كامبل ببرود :

- هذا لا يهمنى ، فلن أحتاج إليك .

وفتح دوريان الباب قليلاً ، فرأى وجهه فى الصورة تحت ضوء الشمس ينطق بالخبث والشهوة الصريحة ، ورأس الستار الممزق ملقى على الأرض أمام الصورة ، فتذكر أنه فى الليلة السابقة قد نسى للمرة الأولى فى حياته أن يحجب اللوحة النكراء ، وكاد أن يندفع إليه لينشر عليها الستار ولكنه ارتد واجف القلب فزعاً .

لقد رأى على إحدى يديه فى الصورة بقعة حمراء قبيحة المنظر تلمع كقطرات الدم البليل فمن أين للصورة هذه البقعة الحمراء ؟ كأنما اللوحة قد نضحت دمًا ؟ وأرعبه هذا أكثر مما قد يرعبه منظر الجثة الصامتة التى تنتظره داخل الحجرة مسترخية على المائدة لو أنه رآها، ورأى ظلها الممسوخ ملقى على البساط الملطخ بالدم فعرف أنها لاتزال فى مكانها حيث تركها ليلة الأمس .

وملأ رئتيه بالهواء لعله يتشجع ، ودفع الباب قليلاً واندفع فى الغرفة مغمض العينين يكاد لا يرى شيئًا ، وانصرف بوجهه عن جثة القتيل جاهداً ألا يراه ، وانحنى ورفع الستار الملون بالذهب والأرجوان ونشره على الصورة فأخفاها .

ثم توقف لحظة ، وخشى أن تقع عيناه على الجثة إن هوحاول العودة ، فذهب يتأمل الوشى المرسوم على الستار ، كل ذلك وكامبل يدخل الصندوق الثقيل والأشياء الأخرى فى جلبة مسموعة . وبدأ دوريان يفكر ، ترى هل

يعرف كامبل بازيل هولوورد ؟ فرضًا هو يعرفه ، ولكن كيف كانت صلته به، وأخيراً سمع الصوت الجاف يقول له :

- والآن ، فلتخرج .

فاستـدار دوريان وخرج مسرعـاً ، وفيما هو يفـعل ذلك وقع بصره على وجه القتيل بعد أن رده كامبل إلى موضعه الطبيعى على المقعد ، ورأى كامبل يتفـرس فى وجهه الأصفـر اللامع ، وفيما هو ينزل على السلم سـمع صوت المفتاح يدار فى قفل الباب .

وبعد الساعة السابعة بفترة طويلة دخل كامبل المكتبة ، وكان وجهه شاحبًا ولكنه كان مثالاً للهدوء . قال :

- لقـد أنجزت مـا طلبـته منى ، والآن وداعًـا ، وأرجـو ألا نلتقى مـرة أخرى.

فقال دوريان فى بساطة :

- أنت أنقذتنى من موت محقق يا آلان ، ولن أنسى لك هذا الصنيع .

وبعد أن خرج كامبل صعد دوريان إلى الغـرفة العليا ، فملأت أنفه رائحة قبيـحة هى رائحة حامض النتـريك ، ولكنه لم يجد الجثة التى كـانت جالسة بجوار المـائدة .

الفصل الخامس عشر

في الساعة الثامنة والنصف من تلك الليله كان خدم الليدى ناربورو يعلنون قدوم دوريان جراى وينحنون تحية له ، وكان دوريان جراى آية فى الأناقة ، يحلى عروته بمجموعة من بنفسج بارما ، وكانت عروق جبهته تدق دقًا متواصلا وكانت نفسه شديدة الاضطراب ، ولكنه ظهر على سجيته الجميلة حين انحنى ليقبل يد ربة البيت ولم تخنه رشاقته المعهودة ، فلعل الإنسان لا يحس بأنه على سجيته إلا حين يمثل دوراً ، ومهما يكن من شئ فما من أحد رأى دوريان جراى فى تلك الليلة كان يتوهم أنه مر بأساة فاجعة دونها كبار المآسى ، فتلك الأصابع الدقيقة ما كانت لتمسك مدية السفاح ، وتلكما الشفتان الباسمتان ما كانتا لتدنسا اسم الله أو تكفرا بخيره العميم ، ولقد روعه ما رآه فى نفسه من هدوء من المظهر واتزان فى السوك ومرت به لحظة تمنى فيها لو يحيا بشخصية مزدوجة .

وكان الحفل صغيراً يضم عدداً قليلا من الناس دعتهم الليدى ناربورو على وجه السرعة ، والليدى ناربور امرأة نادرة الذكاء عليها ، بلغة اللورد هنرى - بقايا قبح قديم ، وقد كانت زوجة فضلى لسفير من سفرائنا الثقلاء ، وبعد أن دفنت زوجها بما يقضى به الواجب فى قبر من المرمر وضعت هى تصميمه بنفسها ، وبعد أن زوجت بناتها لبعض الأثرياء المتقدمين فى السن ، بعد أن فعلت هذا وذاك تفرغت للاستمتاع بالقصص الفرنسى ، وبالمطبخ الفرنسى ، وبالذكاء الفرنسى كلما وجدت إليه سبيلا .

وكان دوريان من المقربين إليها ، وكانت تقول له فى كل مناسبة إنها سعيدة الحظ لأنها لم تقابله وهى فى شبابها . كانت تقول « لو أننى عرفتك

فى تلك الأيام ياصديقى دوريان لكان من المحقق أن أجن بحبك ، ولكان من المحقق أن أفسد كل شئ فى سبيلك ، فمن حسن حظى أنك لم تكن قد جئت بعد إلى الوجود ، ولكن الحياة فى تلك الأيام لم تكن كالحياة في هذه الأيام ، وهكذا ضاع شبابى دون أن أغازل رجلا ولو على البعد ، فمن أين لى فرصة الحب ؟ لقد كان زوجى اللورد ناربورو قصير النظر إلى درجة كبيرة ، وأية لذة تجدها أمرأه فى الزواج من رجل لا يرى شيئًا أصلا .

على أن هذا كان عيبه الوحيد » .

لكن الضيوف كانوا ثقلاء إلى حد كبير ، وقد شرحت لدوريان حقيقة الأمر ، فقالت من وراء مروحتها الزرية المهلهلة إن إحدى بناتها قد هبطت عليها فجأة بنية الإقامة واصطحبت معها زوجها من ضيقها ، ثم همست فى أذنه قائلة : « أعتقد يا عزيزى أن هذه وحشية منها لا تغتفر . صحيح أنى أهبط عليهما كل سنة وأقيم بينهما طول الصيف بعد عودتى من هومبرج ، لكن هذه مسألة أخرى ، فسيدة عجوز مثلى تحتاج إلى تغيير الهواء من وقت إلى وقت، ثم إنى أمنعها من النوم المبكر ، وهذه خدمة عظيمة أسديها لهما ، فأنت لا تستطيع أن تتصور كم الحياة مملة عندهما . هى حياة ريفية بكل ما فى الكلمة من معنى ، فهما يستيقظان مبكراً لكثرة الأعمال ، وهما ينامان مبكراً لقلة الأفكار ، وناحيتهما لم تحدث فيها فضيحة منذ عصر الملكة اليصابات ، ولهذا فهما ينامان بعد الظهر . سوف أنقذك يا دوريان من حديثهما الثقيل ، فمكانك من المائدة بجانبى لتفتح نفسى بحديثك الشهى ».

فرد عليها دوريان بمجاملة رقيقة وتلفت فى أنحاء الغرفة فلم يجد إلا جمعًا من ثقلاء القوم ، وكان بينهم شخصان لا يعرفهما ، أما الباقون فقد تبين منهم إرنست هارودن وهو كهل تافة من أولئك الكهول التافهين الذين يملأون نوادى لندن ، ممن لا أعداء لهم ولكن أصدقاءهم يكرهونهم كرهًا تامًا، ثم الليدى ركستون وهى امرأة فى السابعة والأربعين من عمرها مقوسة الأنف تتزين بلا حساب ، اجتهدت ما وسعها الاجتهاد أن تثير الغبار حول سمعتها ،

ولكن أحزنها أن الناس لا يصدقون ما يقال عنها لفرط دمامتها ، ثم مسز إرلين وهى امرأة لا قيمة لها ، كثيرة الجلبة ، فى كلامها لثغة جذابة وشعرها أحمر ، ثم الليدى آليس تشايمان ابنة الليدى ناربورو ربة البيت ، وهى امرأة رثة الهيئة ملامحها فى تلك الملامح الشائعة فى بريطانيا ، إن رأيتها مرة لم تذكرها بعد ذلك ، ثم زوجها اللورد رتشايمان وهو رجل أحمر الخدين أبيض السوالف ، يحسب أن الإفراط فى التظرف يعوضه عن فقره الكامل فى الأفكار .

وأحس دوريان بالندم على قبول الدعوة ، ثم رأى الليدى ناربورو تنظر إلى الساعة المذهبة القائمة على قمة المدفأة المكسوة بقطعة من القماش البنفسجى وسمعها تقول :

- آليس توحشًا من اللورد هنرى أن يتأخر كل هذا التأخير ؟ لقد أرسلت إليه دعوة هذا الصباح دون اتفاق سابق ، ولكنه وعد أن يقبل جميع دعواتى .

فلما عرف دوريان أن هارى قادم وجد فى هذا العزاء الكافى ، فلما أن سمع الباب يفتح وصوته الرخيم الهادئ يرتفع بالاعتذار على طريقته الجذابة ونفاقه المتقن هدأ باله وزال ما به من الضيق .

ولكنه لم يأكل إلا قليلا فى العشاء ، وجاءته الصحاف واحدة بعد أخرى دون أن يمسها ، وأخذت الليدى ناربورو تعنفه على عزوفه هذا ، ووصفت امتناعه عن الأكل بأنه إهانة لطاهيها « أدولف المسكين الذى اختار قائمة الطعام خاصة ليناسب ذوق دوريان بالذات » ، أما اللورد هنرى فقد كان ينظر إليه من وقت إلى آخر عاجبًا لصمته وشرود فكره ، على حين كان رئيس الخدم يمر به فى فترات متقطعة ويملأ كأسه بالشمبانيا فيشربها كالظمآن وما ارتوى ، بل زادته الخمر ظمأ إلى الخمر .

وأخيراً قال اللورد هنرى قرب انتهاء العشاء :

- ماذا دهاك الليلة يا دوريان ؟ يبدو أنك متوعك المزاج تمامًا .

قالت الليدى ناربورو :

- أعتقد أنه عاشق ، وهو يخشى أن يطـلعنى على أمره فتثور فى صدرى الغيرة ، وله العذر فى ذلك ، فأنا امرأة شديدة الغيرة .

فقال دوريان مبتسمًا :

- يا سيدتى الليدى ناربورو . أنا لم أذق الحب أسبوعا كاملا ، أى منذ أن تركت مدام فيرول لندن .

فصاحت به السيدة العجوز قائلة :

- عجبًا لكم يا مـعشر الرجال ، كيف تستطيعون أن تحـبوا امرأة كهذه . هذا ما يحيرنى فيكم .

قال اللورد هنرى :

- السبب بسـيط ، وهو أنها تتذكـرك حين كنت تلبسين فسـتاتين قصـيرة ياليدى ناربورو، فهى حلقة الوصل الوحيدة الباقية بيننا وبين فساتينك القصيرة.

- هذا غير صحـيح ، فهى لا تستطيع أن تتذكر فساتينى القـصيرة مطلقًا يالورد هنرى ، أما أن فأستطيع أن أتذكرها تمامًا حين كانت فى فيينا منذ ثلاثين عامًا وقد كانت عندئذ تسرف فى كشف صدرها .

قال اللورد هنرى وهو يتناول زيتونة بأصابعه الطويلة :

- وهى لا تزال تسرف فى كشف صدرها ، وحين تهل علينا بفستان أنيق تبدو كطبـعة فاخـرة من قطعة فرنسـية تافهة . إنهـا لسيدة العـجائب ، وإنى لمعجب بهـا كل الإعجاب ، فهى تسـتطيع مثلا أن تحب أهلهـا إلى حد يلفت الأنظار ، وحين مات زوجها الثالث اصفر شعرها من فرط الحزن .

فصحا به دوريان قائلا :

- هذا اجتراء منك يا هارى !

وضحكت ربة البيت وقالت :

- هذا تفسير ممتع ، ولكن كيف تقول إن زوجها الثالث مات ؟
أتعنى أن السيد فيرول هو الرابع ؟

- بالتأكيد ياليدى ناربورو .

- هذا مستحيل .

- سلي مستر جراى إذًا ، فهو من أقرب المقربين إليها .

- أصحيح ما يقوله اللورد هنرى يامستر جراى ؟

فأجاب دوريان قائلا :

- هذا ما أكـدته لى بنفسهـا ياليدى ناربورو ، وقـد سألتهـا أكانت تحنط قلوب أزواجـها وتعلقـها فى زنارها كـما كـانت تفعل مـرغريت دى بـافار ، فأجابتنى بالنفى لأن أزواجها لم تكن لهم قلوب .

- أربعة أزواج ! يالها من شهية عظيمة !

قال دوريان :

- بل يالها من جرأة عظيمة ! هذا ما أقوله لها دائما .

- إن جرأتها تتسع لكل شئ يا عزيـزى ، ولكن حدثنى عن فيرول ، فأنا لم أره حتى هذه اللحظة .

قال اللورد هنرى وهو يشرب بعض النبيذ :

- إن أزواج النساء رائعات الحسن ينتمون عادة لطبقة المجرمين .

فضربته الليدى ناربورو بمروحتها وقالت :

- لا غرو أن يصفك كل من فى العالم بأنك رجل شرير .

قال اللورد هنرى متكلفًا الدهشة :

- ولكن أى عالـم يصفنى بهذا الـوصف ؟: إن علاقاتى مع هـذا العالم على أحسن ما يرام ، فلابد أن يكون العالم الآخر .

فهزت السيدة العجوز رأسها وقالت :

- كل من أعرفهم يصفونك بأنك رجل شرير .

بدا الجد على وجه اللورد هنرى لحظة أو لحظتين ثم قال :

- هذه خسة من الناس أن يغتابوا المرأ بالحقائق الصادقة ، وأنا أستنكرها.

ومال دوريان فى مقعده إلى الأمام وقال :

- إن اللورد هنرى لا رجاء فى إصلاحه . ألا توافقين يا ليدى ناربورو ؟

أجابت ربة البيت ضاحكة :

- ليته يبقى على حاله ، ولكن إذا ظل الرجال يهيمون بمدام دى فيرول على هذا النحو المضحك ، فسوف أتزوج من جديد لأستفيد من ذوق العصر .

فقاطعها اللورد هنرى قائلا :

- كلا يا ليدى ناروبورو . إن مثلك لا يتزوج مرتين ، فأنت فى سعادة تحميك من هذا الخطأ ، إن المرأة تتزوج مرتين إذا كانت تمقت زوجها الأول ، أما الرجل فيتزوج مرتين إذا كان يعبد زوجته الأول . فى الزواج تجرب النساء حظهن ، أما الرجال فيقامرون بحظهم .

قالت السيدة العجوز :

- إن زوجى لم يكن كاملا .

فأجاب اللورد هنرى :

- هذا من حسن حظه ، فلو أنه كان كاملا لضقت به ياسيدتى العزيزة ؛ إن النساء يعشقننا لعيوبنا ، فكلما زادت عيوبنا اغتفرن لنا أخطاءنا حتى جريمة التفكير يغتفرنها ، وأنا أخشى يا ليدى ناربورو أن تكفى عن دعوتى للعشاء بسبب ما قلت ، ولكنى ما قلت غير الحق .

- بالطبع أنت لم تقل غير الحق يا لورد هنرى ، ولو أننا معشر النساء لم نعشق فيكم عيوبكم فكيف يكون حالكم إذاً ؟ لولا ذلك لما وجد رجل واحد امرأة تقبل أن تتزوجه . لولا ذلك لبقيتم جماعة من العزاب التعساء .

- ولكن هذا لن يغير من الأمر شيئا ، ففى هذه الأيام نجد أكثر المتزوجين يعيشون عيشة العزاب ، وأكثر العزاب يعيشون عيشة المتزوجين .

قال اللورد هنرى :

- هذه نهاية القرن .

فأجابت ربة البيت :

- بل هذه نهاية العالم .

وتنهد دوريان جراى وقال :

- ليتها كانت نهاية العالم . إن الحياة قد خيبت أملى فيها .

فصاحت الليدى ناربورو وهى تلبس قفازها قائلة :

- لا تقل لا صديقى إنك قد أتيت على كل ما فى الحياة من أسباب السعادة ، فحين أسمع رجلا يقول هذا الكلام أعرف أن الحياة قد أتت عليه . إن اللورد هنرى رجل شرير وإنى لأغبطه على ذلك أحيانا ، أما أنت فقد خلقت لتكون نموذجًا للخلق الجميل ، ووجهك الجميل يدل على ذلك . دعنى أبحث لك عن زوجة صالحة . ألا تعتقد يا لورد هنرى أن مستر جراى قد بلغ سن الزواج ؟

انحنى اللورد هنرى بأدب وأجاب :

- هذا رأيى الثابت يا ليدى ناربورو ، وطالما ذكرته له .

- إذًا ، فلنبدأ فى البحث له عن زوجة تناسبه . سأحصر الليلة الفتيات اللاتى يصلحن لذلك بعناية وأعد له قائمة بأسمائهن .

فسألها دوريان قائلا :

- وبأعمارهن كذلك ياليدى ناربورو !

- بطبيعة الحال ، ولكن أعمارهن ستكون محرفة تحريفًا طفيفًا .

ولا داعى للعجلة فأنا أحب أن أتوسط له فى زواج تصفه «المورننج بوست» بأنه زواج مناسب ، كما أحب له ولزوجته أن يسعدا بهذا الزواج .

فقال اللورد هنرى :

- إن الناس يكثرون من الكلام الفارغ فى موضوع السعادة الزوجية ، فالرجل يستطيع أن يسعد مع أى امرأة فى العالم إن كان لا يحبها .

قالت السدة العجوز وهى تدفع مقعدها إلى الوراء وتحنى رأسها تحية لليدى ركستون :

- ياللك من خاسر قاس . لابد أن تأتى للعشاء ثانية فى المستقبل القريب فأنت خير دواء يزيل عنى الصداع ، بل أنت أنفع من الدواء المقوى الذى أوصانى به السير توماس أندروز ، ولكن أشر على بمن تحب أن تقابلهم من الضيوف حتى يكون الحفل بهيجًا .

فأجاب :

- أحب أن أقابل من الرجال من لهم مستقبل ، ومن النساء من لهن ماضٍ ، ولكن أخشى أن تقتصر حفلتك بهذا على النساء فقط .

فضحكت الليدى ناربورو ثم نهضت وهى تقول :

- هذا ما أخشاه أنا أيضًا .

ثم أضافت تعتذر على تركها المائدة :

- عفواً يا عزيزتى الليدى ركستون فقد حسبت أنك فرغت من التدخين .

- لا داعى للاعتزار ياليدى ناربورو ، فالواقع أنى أدخن أكثر مما يجب ، وقد قررت أن أحدد الكمية التى أدخنها فى المستقبل .

قال اللورد هنرى :

- أرجو ألا تنفذى هذا القرار ياليدى ركستون ، فالاعتدال يقضى على بهجة الحياة . الاعتدال يذكرنى بحياتنا اليومية ، أما الإفراط فيذكرنى بالولائم والأعراس .

فنظرت إليه الليدى ركستون عاجبة وقالت وهى تنصرف :

- أرجوك أن تزورنى ذات مساء يا لورد هنرى لتشرح لى هذه النظرية .

وصاحت الليدى ناربورو وهى تقف بالباب :

- سنصعد نحن إلى الصالون العلوى ونترككم لتتحدثوا فى السياسية وفى أعراض الناس ، ولكن لا تطيلوا البقاء وإلا وجدتمونا فى معركة شديدة .

فضحك الرجال ، وانتقل مستر تشابمان من نهاية المائدة إلى رأسها ، وانتقل دوريان جراى إلى جوار اللورد هنرى ، وبدأ مستر تشابمان يتكلم بصوت عال عما يحدث في مجلس العموم ، وأخذه الحماس فى الرد على معارضيه حتى أنساه آداب المناقشة ، وأكثر من استعمال عبارة «أفكار نظرية» وهى الأفكار التى تخيف العقل البريطانى الضيق ، ولم ينس أن يفوّف أقواله بالتراكيب البلاغية ، ولم ينس أن يضع العلم البريطانى على قمم التفكير الإنسانى ، ولم ينس أن يسمى غباوة الشعب البريطانى الموروثة بالذوق العام ، ويمتدحها ويزعم أنها درع المجتمع الراقى .

وابتسم اللورد هنرى حين سمع هذا الكلام ثم انصرف إلى درويان وسأله:

- أتحسنت حالتك الآن يا دوريان ؟ لقد بدا عليك الأعياء أثناء العشاء .

- أنا على خير ما يرام ، وكل ما فى الأمر أنى متعب .

- لقد سحرت جميع الحاضرين فى حفلة الأمس يا دوريان ، والدوقة العجوز تحبك حبا جما ، وقد قالت لى إنها ستزورك فى سلبى .

- نعم ، وعدت بأن تأتى فى العشرين من هذا الشهر .

- وهل سيزورك مونماوث كذلك .

- نعم يا هارى .

- إنه شخص ثقيل على نفسى ثقيل على نفس الدوقة ، ورأيى فى الدوقة أنها نادرة الذكاء ، بل إنها أذكى مما يجوز لامرأة أن تكون ، ولكن ينقصها

ذلك السحر الذى يكمن فى ضعف النساء . يقولون إن المعبودات ذاتها لها أقدام من الصلصال ، وإن الصلصال يصلها بالأرض مما يفسد ألوهيتها ، ولكنى أقول إن الصلصال يزيد من ألوهية المعبودات ، وقدما الدوقة تفتن الناسكين ، ولكنها ليست من الصلصال بل من الصينى الأبيض إذا أحببت ، وقد احترقنا بنيران الحياة ، والنيران كما تعلم تقوى مالا تستطيع أن تتلفه ، إنها من صاحبات الاختبار الواسع .

فسأله دوريان قائلا :

- هل مضت على زواجها فترة طويلة ؟

- هى تقول إنه مرت على زواجها آباد ، ولكنى أقد هذه الآباد بعشر سنوات ، لأن زوجها لم يرث اللقب إلا منذ عشر سنوات ، وعشر سنوات فى عشرة رجل كمونماوث لابد تبدو آباداً وآباداً ، فتقديرها لا يدهشنى . ولكن حدثنى عن ضيوفك الآخرين .

- سيكون بينهم آل ويلبى واللورد رجبى وزوجته ، والليدى ناربورو ، وجفرى كلاوستون وبقية الرهط الذى تعرفه ، وكذلك دعوت اللورد جروتريان.

قال اللورد هنرى :

- أنا أحب اللورد جروتريان وإن كان أكثر الناس لا يحبونه ، فهو فى نظرى رجل جذاب ، وإذا كان من رذائله الإسراف فى التزين فهو يكفر عن ذلك بالإسراف فى الاطلاع . إنه نموذج للرجل العصرى .

- لست واثقا من أن ظروفه ستسمح له بقبول الدعوة يا هارى ،

فقد يضطر إلى السفر مع أبيه إلى مونت كارلو .

قال اللورد هنرى :

- ما أثقل الآباء يادوريان ؟ أرجوك أن تلح عليه فى المجئ ، ولكن خبرنى يا دوريان ، لقد تركتنى فى وقت مبكر ليلة الأمس ، تركتنى قبل الساعة الحادية عشرة ، فماذا ببقية الليلة ؟ أعدت إلى بيتك مباشرة ؟

فنظر إليه دوريان نظرة سريعة وأجاب عبسًا :

- كلا ياهارى ، لم أعد إلى بيتى إلا قرب الساعة الثالثة .

- أذهبت إلى النادى ؟

- نعم .

ولكنه عض شفته وصحح كلامه قائلا :

- كلا . أقصد أنى لم أذهب إلى النادى ، بل تجولت فى الطرقات . لقد نسيت الآن ما فعلته ليلة أمس . ما أشد فضولك يا هارى ! إنك تحب دائما أن تعرف ما كنت أفعله ، وأنا أحب دائما أن أنسى ما كنت أفعله . لقد عدت إلى بيتى في الثانية والنصف بالضبط إذا كان تحديد الزمن يهمك ، ثم تبين لى أنى قد نسيت المفتاح فى البيت ففتح الباب لى خادمى ، وإذا شئت أن تتحقق من صدق هذه الرواية فعليك به ، سله كما تشتهى .

فقال اللورد هنرى مظهراً عدم الاكتراث :

- وما شأنى بكل هذا ؟ هيا بنا إلى الصالون يا دوريان . أشكرك يا مستر تشابمان ، فلست أريد المزيد من النبيذ . لقد حدث لك حادث يا دوريان فقص على ما جرى ، إنك هذه الليلة لست على عهدى بك .

- لا تهتم بأمرى يا هارى ، فأنا الآن منحرف المزاج شديد التهيج وسأزورك غدا أو بعد غد على أكثر تقدير ، وأرجوك أن تعتذر عن انصرافى إلى الليدى ناربورو نيابة عنى فأنا راجع إلى دارى . نعم . لابد أن أرجع إلى دارى .

- حسنا يا دوريان . أرجو أن أراك غدا في وقت الشاى ، ولسوف تجد الدوقة عندى .

- وسأبذل كل المستطاع يا هارى .

وانصرف ، وفيما كانت عربته تخب به صوب بيته عاوده شعور الفزع الذى أظن أنه قد كبت فى نفسه ، فالأسئلة العارضة التى ألقاها عليه اللورد

هنرى قد أفقدته السيطرة على أعصابه ولو إلى حين ، وهو لا يزال بحاجة إلى اتزان الأعصاب ، ففى بيته أشياء قد تجره إلى المشنقة ، ولابد من القضاء عليها تماما ، وكان مجرد التفكير فى أنه سيمسها يقبض نفسه ، ولكنه كان يعلم أنه لا مفر له من تدمير أمتعة بازيل هولوورد ، فما إن دخل المكتبة وأقفل بابها بالمفتاح حتى فتح الكوة الخفية واستخرج منها معطف بازيل هولوورد وحقيبته ، وكانت فى المدفأة نار مشبوبة ، فألقى فيها قطعة أخرى من الخشب ليذكيها وامتلات الغرفة برائحة الملابس المحترقة والجلد المحترق ، ولم يفرغ من تدمير كل شىء إلا بعد ثلاثة أرباع الساعة ، وبعد أن انتهى كل شئ أحس بدوار شديد وإعياء موجع ، ثم أحرق بعض الطيوب المغربية فى إناء نحاسى محروق ، وغسل يديه وجبهته فى خل بارد معطر بالمسك .

وفجأة اضطرب قلبه ولمع فى عينيه بريق غريب وأنشأ يعض شفته السفلى بقوة عصبية ، وكان بين النافذتين خزانة ضخمة من فلورنسا صنعت من أبنوس مطعم بالعاج وحجر أزرق كريم . وشخص بصره إلى الخزانة كأن بها قوة سحرية أو قوة رهيبة ، وكأن بها شيئاً تتوق نفسه إليه وتبغضه فى آن واحد . وتلاحقت أنفاسه فى سرعة وتملكه نهم شديد ، وأشعل سيجارة ، ثم قذفها بعيدا عنه ، وارتخى جفناه حتى كادت أهدابه الطويلة أن تمس خديه ولكن بصره لم يتحول على الخزانة ، وأخيرا نهض ومشى إليها وأدار فيها مفتاحًا ، ثم ضغط على زر خفى فبرز منها درج مثلث الشكل قليلا قليلا ، وامتدت أصابعه إلى الدرج على غير وعى منه وغاصت فيها وأمسكت بشئ ما ، أمسكت بصندوق صينى صغير دهانه أسود وذهبى دقيق الصنع جوانبه محلاة بخطوط تشبه الأمواج ، وقد ركبت فيه خيوط من حرير تدلت منها بلورات مستديرة وأسلاك معدنية كأنها الشعر المضفور ، وفتح الصندوق ، فوجد بداخله معجونًا أخضر يلمع لمعان الشمع له رائحة نفاذة لا تستهلك .

وتردد بضع لحظات ، وكانت على شفتيه ابتسامة ثابتة غريبة ، ثم مشت فى أوصاله رعدة برغم الحرارة الخانقة التى تملأ الغرفة ، وجمع أشتات قوته

ونظر إلى الساعـة فوجدهـا قرب منتصف الليل ، وأعـاد الصندوق إلى مكانه وأغلق الخزانة ، وآوى إلى غرفة النوم .

ودقت الساعـة تؤذن بانتصاف الليل ، وكـان دوريان جراى قد استـبدل ثياب السهرة بثـياب أخرى عادية ، ولف حول عنقه كوفـية وانسل خارجًا من داره . وفى بوند سـتريت وجـد عربة فـاسـتـوقفـها وهمس فى أذن الحـوذى بالعنوان الذى يبغيه ، وهز الحوذى رأسه قائلا :

- هذا مكان بعيد يا سيدى ولا أستطيع أن أحملك إليه .

فنفحه دوريان بجنيه وقال :

- أعدك بمثله إن أسرعت فى الطريق .

فأجاب الرجل :

- حسنًا يا سيدى . سوف تبلغ المنزل فى أقل من ساعة .

وبعد أن وضع أجره فى جيبه لوى أعنة جياده ، وركضت العربة فى اتجاه نهر التيمس .

الفصل السادس عشر

بدأت الأمطار الباردة تهطل وبدت مصابيح الشارع كالأشباح المخيفة بعد أن ابتلت بالماء واختنق نورها ، وكانت الحانات لا تزال تغلق أبوابها ، وعند أبوابها تكاثر الناس فى جامعات متفرقة ، وقد أخفى الظلام معالمهم ، ومن بعض الحانات ارتفعت ضحكات مؤذية للسمع ، ومن حانات أخرى كان السكارى يتشارجرون ويصرخون .

وفى العربة استلقى دوريان وقد جذب قبعته إلى الأمام حتى أوشكت أن تغطى عينيه ، وطفق يتأمل المدينة العظيمة ومخازيها فى أعجاز الليل ، وتذكر قول اللورد هنرى له يوم لقائهما الأول : « إن سر الحياة هو شفاء النفس عن طريق الحواس ، وشفاء الحواس عن طريق النفس » ، وتذكر أن هذا السر سره الذى جربه المرة بعد المرة فلم يخيب ظنه ، وها هو ذا يجربه من جديد فى هذه الليلة ويجربه فى أوكار الأفيون حيث النسيان يباع ويشترى ، ويجر به فى بؤر الفساد تمحو ذنوب اليوم الصارخة ذنوب الماضى القديم .

وتدلى القمر الشاحب حتى كاد أن يمس قمم المنازل ، وبدأ فى السماء كالجمجمة الصفراء ، وبين وقت وآخر مرت غيمة هائلة لا شكل لها ولا حدود وحجبته عن الأرض ، وكلما تقدمت العربة فى المسير ضاقت الشوارع أمامها وقلت المصابيح وازدادت المدينة كآبة ، وضل الحوذى طريقه مرة فاضطر إلى أن يعود ما يقرب من نصف ميل ، وكلما خاض الجواد فى المياه المتخلفة من الأمطار ارتفع من حوله رشاش يشبه بالبخار ، أما نوافذ العربة فقد اكتست بالضباب الأغبر .

وترددت عبارة اللورد هنرى فى أنيه طول الطريق . أجل . شفاء النفس عن طريق الحواس ، وشفاء الحواس عن طريق النفس . وهذه روحه مريضة تدب فيها المنية ، وكيف تشفى روحه الحواس وقد سفك الدم البرى ؟ وأى كفارة تغسل عنه هذا الذنب العظيم ؟ لا كفارة ؛ فمثل هذا الذنب لا تغسله أنهار الدموع ، ولكن إذا عز الغفران ، فالنسيان لا يزال مفتوحا سبيله ، وقد وطد العزم على أن ينسى ، على زن يسحق غضة الألم فى نفسه كما يسحق الأفعى بعد أن لدغته ، فبأى حق استحل بازيل لنفسه أن يقف منه موقف المعنف ؟ ومن ذا الذى أقامه من الناس قاضيًا ؟ إن بازيل قد فاه بعبارات مفزعة ، عبارات لا تحتمل .

والعربة فى ركضها دائبة ، وخيل إليه أنها تقلل من سرعتها فى كل شبر تجتازه ، فرفع الكبود وهتف بالحوذى أن يلهب جواده بالسوط ، وبدأ شوقه إلى الأفيون يأكله أكلا ، والتهب حلقه وانقبضت يداه الدقيقتان بحركة عصبية، وضرب الجواد بعصاه بالمجنون وضحك الحوذى وضرب الجواد بسوطه فضحك دوريان جراى ، وتلا ذلك صمت .

وأحس بأن الطريق لا ينتهى ، وبدت له الشوارع المظلمة المتشعبة كأنها نسيج عنكبوت وضاق بالرحلة المملة ، ورأى الضباب يتكاثف من حوله فأحس بالخوف .

ثم مر بخلوات يصنع فيها الطوب ، وفى هذه الخلوات كان الضباب أقل كثافة منه فى المدينة ، واستطاع أن يرى محارق الطوب التى تشبه الزجاجات فى هيئتها ، وأصبر ألسنة اللهب البرتقالية تصعد منها فى صورة مروحة من النار ، وسمع فى طريقه كلباً ينبح ، وسمع طائرا تائهاً يصرخ على البعد ، وكبا الجواد فى حفرة ثم انثنى وأسرع فى الركض .

وبعد قليل خرجت العربة من الطريق الريفى ، وبدأت عجلاتها تجلجل على طريق معبد خشن ، وكانت أكثر النوافذ مظلمة ، ولكن من وقت إلى آخر انبعث النور من غرفة مضاءة وظهرت على ستائرها أشباح عجيبة ، وطفق

دوريان جراى يتأمل هذه الأشباح فى فضول فوجدها تتحرك كدمى الأراجوز ، وتشيـر بأيديها كـما يشيـر الأحياء ، وانقـبضت نفسـه لما رأى ، ومتـلأ قلبه بغضب مكتوم ، ودارت العربة فى منعصف فـسمع امرأة تصرخ به من مكانها فى أحـد الأبواب ورأى رجلين يعـدوان وراء العربة نحـو مـائة ياردة ، ولكن الحوذى أعمل سوطه فيهما .

يقولون إن الانفـعال يجعل العـقل يفكر بطريقة دائرية ، وهذا مـا حدث لدوريان جراى وهو يعض شفته ويكرر قول اللورد هنرى ويستخرج منه المعانى الدقيقة ، حتى وجـد فى نظرية استشفاء الروح بالحواس خير مـعبر عن حالته وخير مـبرر لما هو مقدم عليـه ، ولو لم يجد المعبر أو المبرر لمـا غير هذا من أمره شيئاً . وانتقلت هذه الفكرة بين خلايا مخه واحدة إثر واحدة وطردت من رأسه كل ما عداها ، وشحذت أعصابه المضـطربة وألياف جسده الراجفة رغبة عارمـة فى الحياة ، وإرادة الحيـاة فى الإنسان تكتسح أمامـها كل إرادة ، وبدأ يتذوق القـبيح لأنه يقـترب بالإنسان من الواقع بعـد أن كان ينكر القـبيح لأنه يقترب بالإنسن من الواقع ، بل وجد أن القبح هو الحقيقة الوحيدة فى الحياة ، فالألفاظ النابية الـتى يسمعها فى كل شجار ، والبـؤر النكراء ، وفظاظة الحياة المضطربة وقسـوتها ،وخسـة اللصوص وضعـة الأوباش والمنبوذين ، كل هذه بدت له أصدق تعبيراً عن الحياة الواقعـة من النماذج الجميلة التى يختلقها الفن اختلافاً ، والظلال الحالمة التى تملأ قريض الشعراء ، وإذا كـانت الحقيقة مرة شائهة فهو بحـاجة إلى مرارتها وجوهرها الشـائه فهما تلهمانـه النسيان . فلينزل إلى الدرك السافل ، وبعد أيام ثلاثة سوف تبرأ روحه من جراحها .

ثم توقف الحـوذى فجأة عنـد مبدأ زقـاق مظلم فارتجت الـعربة ، ورأى دوريان جراى صوارى السفن ترتفع سـوداء من وراء سطوح المنازل الصغيرة ، ومن وراء مداخنها ، وفى الميناء رأى قطع الضـباب الأبيض تحوّم فى كل مكان كأنها قلوع خرافية ، وسمع الحوذى يسأله بصوت أجش :

– العنوان فى هذه المنطقة . أليس كذلك ؟

وتنبه دوريان وبدأ يتلفت حوله ثم أجاب :

- هذا يكفى .

وخرج من العربة مسرعاً ونقد الحوذى بما وعده به من مال ثم سار مستعجلا فى اتجاه رصيف الميناء ، وكانت المصابيح تلمع هنا وهناك فى مقدمة السفن التجارية الضمة ، واهتز النور وتفتت فى الماء المتخلف من المطر ، وجاء ضوءٌ أحمر من باخرة خارجة من الميناء كانت تتزود بنصيبها من الفحم ، أما إفريز الشارع المغطى بالأوحال فبدأ كمعطف من الجلد مبتل .

وانعطف إلى اليسار وأسرع فى المسير وكان يتلفت إلى الوراء بين لحظة وأخرى ليرى من يقتفى أثره فلم يجد أحد ، وبعد سبع دقائق أو تزيد بلغ بيتاً حقيراً محشوراً بين مصنعين ضيقين ، ورأى مصباحاً منيراً فى أحد النوافذ العليا ، فتوقف ، ثم طرق الباب طرقاً غير مألوف .

وبعد وقت قصير سمع دبيب أقدام فى الدهليز ، وسمع سلسلة الباب ترفع ، وانفتح الباب بهدوء فدخل دون أن يقول شيئاً للشخص الممسوخ وقصير القامة الذى فتح له الباب ، ثم توارى فى الظلام ، وفى نهاية القاعة تدلى ستار أخضر مهلهل أخذ يتأرجح يمنة ويسرة أمام الريح التى اقتحمت الباب أثناء دخوله ، وجذب الستار ، ثم دخل فى غرفة مستطيلة منخفضة السقف لعلها كانت فى يوم من الأيام قاعة رقص من الدرجة الثالثة ، واصطفت على جدران الغرفة مصابيح الغاز الموقدة التى تئز أزيزاً عالياً ، وقد طمست نورها وشوهته المرايا القذرة المصطفة قبالتها ، ومن خلف المصابيح كانت هناك ألواح من الصفيح المضلع تعكس أنوارها فى هيئة أقراص من النور المرتجف ، وكانت الأرض مغطاة بنشارة الخشب الصفراء معجونة في مواضع عدة بأوحال الشارع التى حملتها أقدام الداخلين ، وملطخة فى مواضع أخرى بأثار النبيذ المسكوب ، وبالقرب من المدفأة قعد على الأرض رجال أصلهم من الملايو ذهبوا يعلبون بقطع من عظم على حين ظهرت أسنانهم بيضاء ناصعة أثناء الحديث ، وفى ركن الغرفة رقد بحار على مائدة ، وعند البار الطويل

الذى شغل جانباً كلاماً من جوانب الغرفة وقفت امرأتان شاحبتا الوجه تتهكمان بشيخ كان ينظف كمية من امتعاض واضح ، وفيما كان دوريان يمر بهما سمع إحداهما تقول ضاحكة : «إنه يتصور أن النمل قد ملأ كمية» ، ورأى الشيخ ينظر إليها فزعاً ، ثم يزمجر .

وكان فى نهاية الغرفة سلم صغرية ، وكان السلم الصغير يفضى إلى غرفة مظلمة ، وفيما كان دوريان يقفز على درجات السلم الثلاث المتهافتة صعدت فى أنفه رائحة الأفيون القوية ، فملأ رئتيه منها واختلج أنفه انشراحاً ، ودخل فوجد بالغرفة شاباً صغيراً أصفر الشعر ناعمه قد انحنى فوق مصباح ليوقد منه بيبته ، ونظر الشاب إليه ، ثم أومأ إليه بعد تردد . قال دوريان :

- لم أكن أتصور أنك هنا يا آدريان !

فأجاب الشاب فى فتور :

- وهل بقى لى غير هذا المكان ؟ إن جميع أصدقائى قد أنكرونى .

- كنت أحسب أنك خرجت فى إنجلترا .

- لم أجد داعياً لذلك لأن دارلنجتون لن يرفع الأمر إلى القضاء ، فقد سدد أخى چورج قيمة الصك ، وهو الآن يقاطعنى ، ولكنى لا أكترث ، فما بى حاجة إلى الأصدقاء طالما أنى أحصل على هذا الجوهر السحرى ناسخ الأحزان ، ثم إنى أعتقد أنى أسرفت فى اختيار الأصدقاء .

وعبس دوريان حين سمع هذا الكلام ، وتلفت حوله ليتأمل الأجسام الزرية المستلقية على المراتب الممزقة فى أوضاع عجيبة ، فرأى السيقان المنتفخة ، والأفواه المفغورة ، والعيون المنطفئة الشاخصة وسحره مرآها ، فقد كان يعلم ما يشقون به من أحلام ذهبية ، وما يسعدون به من نيران الجحيم ، وخيل إليه أنهم أسعد منه حالا فهو البائس الذى يستهلك مهجته وتذهب نفسه حسرات ، وهو التاعس الحبيس فى سجن الذكريات . الذكريات ؟ نعم . الذكريات ، ذكرياته التى تلتهم روحه كالمرض الخبيث ، لقد رأى عينى بازيل هولوورد

تحلقان فيه مراراً ، وهو بحاجة إلى النسيان ، ولكنه أحس بأنه لا يستطيع البقاء فى ذلك المكان ، لأن وجود آدريان سنجلتون قد أزعجه وهو يرغب فى أن يكون فى مكان لا يعرفه فيه إنسان ، وأراد أن يتخلص منه فقال بعد صمت قليل :

– إنى ذاهب إلى المكان الآخر .

– عند رصيف الميناء ؟

– نعم .

– سوف تجد هناك البغى المجنونة ، ما فى ذلك ريب ، فقد طردوها من هذا المكان .

قال دوريان فى استخفاف :

– إن نفسى زهدت النساء اللائى يعشقننى فليت لى نساء يكرهننى ، ومن ناحية أخرى أجد أن البضاعة هناك أجود نوعاً .

– لا أعتقد أن هناك فرقاً .

– أنا أفضلها على أية حال . تعال واشرب معى كأساً فأنا بحاجة إلى الشراب .

قال الشاب :

– لست أرغب فى شىء .

– سراء علىّ .

ونهض آديران سنجلتون فى إعياء وتبع دوريان إلى البار ، وفى البار حياهما منبوذ من منبوذى الهنود على رأسه عمامة مهلهلة وعلى كتفيه معطف جسيم ، حياهما تحية خير منها الكسوت ، ووضع أمامها زجاجة من الكونياك وقدحين ، وانتحت المرأتان مكاناً جانبيّا وبدأت تثرثران وأولاهما دوريان ظهره ، وهمس فى أذن آدريان سنجلتون ببعض الكلمات فابتسمت إحداهما ابتسامة تشبه خنجر الملايو المنحنى وقالت فى تهكم .

- شرفتنا .

ولكن دوريان نهرها قائلا وهو يضرب الأرض بقدمه :

- خير لك ألا تتكلمى . ماذا تريدين منى ؟ إن كنت تريدين مالا فها هو ذا المال ، ولكن إليك عنى وحذار أن تكلمينى بعد الآن .

فلمع الشرر فى عينى المرأة الدامعتين قدر لحظة ، ثمن انطفأت عيناها وعادتنا جامدتين لا معنى فيهما ، وهزت رأسها وخطفت النقود من الكونتوار بأصابع جشعة ، وتحركت الغيرة فى قلب صاحبتها .

وتنهد آدريان سنجلتون وقال :

- لا جدوى من التفكير فى هذا فأنا لا أرغب فى العودة ، والأمر عندي سواء لأنى سعيد هنا .

قال درريان بعد صمت قليل :

- أنا أنتظر منك أن تكتب إلىَّ كلما احتجت إلى شىء ، أليس كذلك ؟

- ربما .

- طاب مساؤك إذاً .

- طاب مساؤك .

عاد الشاب إلى السلم الصغير يصعده وهو يمسح فمه الملتهب بمنديله .

أما دوريان فاتجه إلى الباب حزين القلب ، فلما جذب الستار ليخرج إلى الدهليز سمع المرأة التى أخذت منه النقود تضحك ضحكة مفزعة ، وبلغه صوتها الخشن يقول فى تقطع :

- ها قد ولى صنعية الشيطان .

فأجاب دوريان قائلا :

- لا تسمينى صنيعة الشيطان ، أيتها اللعينة .

وطقطقت المرأة أصابعها وصاحت به :

- أنت تحب أن يسميك الناس الأمير الساحر . أليس كذلك ؟

فلما سمع البحار الراقد على المائدة كلماتها وثب من مكانه وأخذ يجول بعينيه فى أنحاء الغرفة كوحش الهائج ، وسمع باب القاعة يقفل فاندفع خارجاً من الغرفة كأنه يريد مطاردة دوريان جراى .

وأسرع دوريان جراى بالسير على رصيف الميناء والمطر ينهمر فوق رأسه . وقد أثارت رؤية آدريان سنجلتون شعور الشفقة فيه وخيل إليه أنه علة شقاء هذا الفتى والمسئول عن تحطيم حياته كما صارحه بازيل هولوورد بذلك فى عبارات مهينة ، وعض شفته ألماً وارتسم الحزن فى عينيه بضع ثوان ، ولكنه طرد عنه هذه الأفكار ، وأحس بأن حياة الإنسان أقصر من أن يبهظها بأوزار الآخرين، فلتحى كل نفس حياتها، ولتدفع كل نفس ثمن ما تجنيه من لذات . وما آله إلا أن ثمن الخطيئة يدفع مراراً وتكراراً ، فالقدر لا يرضى بأن يصفى حسابه مع الإنسان دفعة واحدة .

يخبرنا علماء النفس بأن الرغبة فى الخطيئة أو ما يسميه الناس بالخطيئة حين تتملك النفس تماماً فتملأ شعاب العقل وتملأ جنبات الجسد تقترب فى طبيعتها من النزعات الإجرامية ، فترى الناس يفقدون كل قدرة على الاختيار، ويندفعون إلى نهايتهم الأليمة مسوقين بقوة لا يملكون لها قهراً ، كأنهم آلات صماء ، وتتلاشى فيهم الإرادة ويموت فيهم الضمير ، فإن لم يمت فيهم الضمير عاش لتثور عليه الشهوات ويتمرد الجسد وهو صراع مسرحى يملأ الحياة بالحركة ويكسبها الطابع الفنى ؛ ذلك لأن جميع الخطايا جوهرها العصيان كما يحدثنا أهل اللاهوت فى كل مناسبة ، وإبليس العظيم ، إبليس نجم الشر الوضاء ، لم يسقط من كنف الله إلى الهاوية إلا لثورته على الحكم المطلق .

وأسرع دوريان جراى فى سيره ، وقد مات فيه الشعور وتركزت خواطره فى الشر وثارت فى عقله المسموم ونفسه المضطربة نوازع الثورة ، ولكن ما إن نفذ فى بعض البواكى المظلمة كما اعتاد أن يفعل ليختصر الطريق إلى ذلك

المكان الجهنمى حتى أحس بيد وحشية تقبض على عنقه من الخلف فجأة وتلصقه بالحائط قبل أن يتمكن من الدفاع عن نفسه .

وحاول أن ينجو بحياته فى قوة جنونية حتى استطاع بمجهود جبار أن يخلص عنقه من قبضة غريمه ، ولكن لم تمض ثانية حتى سمع صوت مسدس يصوب إلى رأسه ورأي خزانة المسدس المصقولة تلمع فى الظلام وتبين أمامه رجلاً بديناً قصير القامة طمس الليل معالمه . قال دوريان جراى وهو يلهث :

- ماذا تبغى يا هذا ؟

قال الرجل :

- صه . إن تحركت قتلتك .

- أنت مجنون ، كيف تقتلنى وما آذيتك .

- فأجاب الرجل :

- أنت حطمت حياة سيبيبل فين ، وهى أختى ، وأنا أعلم أنها انتحرت ولم تمت خطأ كما زعم المحقق فأنت المسئول عن موتها . لقد أقسمت أنى قاتلك عند عودتى ، وقد فتشت عنك أرجاء المدينة فلم أهتد إليك . لقد ماتت أختى ومات اليهودى فلم أجد بعدهما من يستطيع أن يصفك لى . فكيف أهتدى إليك وأنا لم أعرف عنك شيئاً إلا أن سيبيل كانت تطلق عليك اسم الأمير الساحر ، فما إن سمعت اسمك يتردد الليلة مصادفة حتى علمت أنى ظفرت ببغيتى . صلى إلى الله واطلب منه الغفران فأنت الليلة هالك .

فأصاب دوريان جراى جزع شديد وانتابه دوار وطفق يقول :

- ما عرفت أختك قط ، وما سمعت بها . إنك مجنون .

- خليق بك أن تعترف بما فعلت ، لأنك ميت لا محالة .

وتبعت ذلك لحظة صمت كلها أهوال ، ولم يجد دوريان ما يقوله أو يفعله ، وزمجر چيمس فين قائلا :

- اسجد ، وصل إلى الله . وأمامك دقيقة واحد أقبض بعدها روحك . إنى راحل الليلة إلى الهند ، ولابد أن أنجز مهمتى أولاً . أمامك دقيقة واحدة لا أكثر .

وتخاذل ذراعا دوريان من فرط الإعياء ، وسد الفزع عليه مسالك تفكيره فلم يعرف ماذا يفعل ، ولكن فكرة خطرت له فجأة فرأى بصيصاً من الأمل فى نجاته . قال :

- مهلا . متى انتحرت أختك هذه . أجبنى بسرعة !

- انتحرت منذ ثمانية عشر عاماً ، ولكن لم تسأل ، وما دخل السنين فى كل هذا ؟

فضك دوريان جراى ضحكة المنتصر وقال :

- ثمانية عشر عاماً ! أنظر إلى وجهى يا هذا واحكم بنفسك . هيا خذنى إلى المصباح .

وتردد چيمس فين برهة ولم يفهم لقوله معنى ، ثم أمسك بدوريان جراى وخرج به من البواكى ،ومضى به إلى مصباح من مصابيح الشارع ، وكانت الريح تلعب بنور المصباح ولكن النور رغم ذلك كان كافياً ، وتبين چيمس فين خطأه الفاحش ، فقد رأى أمامه وجهاً اجتمعت فيه نضارة الصباح وطهارة الشباب ، رأى أمامه فتى لا يتجاوز العشرين ربيعاً إلا بأيام قليلة ، فتى لايزيد عمره عن عمر سيبيل حين تركها وذهب يجول البحار ، فكيف يكون هذا الفتى الرجل الذى حطم حياتها ! مستحيل .

ففك عنه قبضته وتراجع بسرعة قائلاً :

- يا إلهى ! يا إلهى ! لقد كدت أن أقتل نفساً بريئة .

وتنفس دوريان الصعداء وقال له فى تحد :

- لقد كدت أن ترتكب جريمة منكرة يا هذا . فليكن هذا درساً لك رادعاً فلا تتولى قصاص الناس بنفسك .

قال چيمس فين بصوت متقطع :

- أرجو أن تصفح عني يا سيدى ، لقد خدعتنى كلمة عابرة سمعتها فى ذلك الوكر اللعين فجعلتنى أتعقب رجلاً بريئًا .

فقال دوريان وهو ينصرف عنه :

- خير لك أن تعود إلى بيتك ، وأن تخفى ذلك المسدس وإلا جرَّ عليك المتاعب .

ووقف چيمس فين على إفريز الشارع مذعوراً يرتجف كل جزء من أجزاء جسمه ، وبعد فترة قصيرة برز من الظلام ظل قاتم كان يرتجف بجوار الحائط الذى بللته الأمطار ، وخرجت إلى النور امرأة تسترق الخطى ، وأمسكت بذراعه فالتفت إليها فزعاً ، وكانت المرأة هى البغى التى كانت تحتسى الخمر عند البار .

واقترب وجهها الشاحب من وجهه وهمست فى أذنه قائلة :

- لماذا لم تقتله ؟ لقد عرفت أنك تطارده حين خرجت على عجل من بار دالى . يا لك من أحمق ! كان يجب أن تقتله فهو يحمل مالاً كثيراً وهو أشبه خطراً من إبليس نفسه .

فأجاب چيمس فين :

- ليس هذا الرجل الذى أبحث عنه ، وأنا لست قطاع طريق أسلب الناس أموالهم ، إنما أطلب الثأر ، والرجل الذى أريد قتله لابد أن يكون فى الأربعين من عمره ، أما هذا الفتى فهو حدث صغير . شكراً لله الذى جعلنى أتبين خطئى .

ولكن المرأة ضحكت ضحكة تفيض بالمرارة ، وقالت فى احتقار :

- كيف تقول إنه حدث صغير ؟ إن هذا هو الأمير الساحر الذى حطم حياتى كما ترى منذ ثمانية عشر عاماً .

صاح بها چيمس فين :

- أنت تكذبين !

فرفعت يديها إلى السماء وقالت :

- بل أقسم أمام الله أنى ما قلت إلا الصدق .

- أتقسمين أمام الله ؟

- نعم . فإذا كنت كاذبة فليخرس الله لسانى . إن الأمير الساحر أفجر رواد هذا المكان ، ولقد سمعت الناس يروون عنه أنه باع روحه للشيطان فى مقابل وجه جميل ، فحين عرفته منذ ثمانية عشر عاماً كان كما هو الآن ، وهو لم يتغير إلا قليلاً ، أما أنا فقد تغيرت .

ولمع فى عينيها بريق الشهوة وهى تقول هذه العبارة الأخيرة .

- أتقسمين على ذلك ؟

فأجابت بصوت خشن خرج من فمها القبيح :

- نعم أقسم على ذلك .

ثم قالت فى استعطاف :

- ولكن لا تشى بى عنده ، فأنا أخشى شره ، هيا اعطنى بعض المال لأدفع أجر المبيت هذه الليلة .

فنزل چيمس فين ذراعه من قبضتها وهو يلعن ، واندفع إلى منعطف الشارع باحثاً عن فريسته ، ولكنه لم يجد لدوريان جراى أثراً ، فلما تلفت وراءه وجد أن المرأة قد اختفت كذلك .

الفصل السابع عشر

بعد أسبوع كان دوريان جراى جالساً فى صالون الموسيقى بقصر سلبى ، يتحدث إلى دوقة مونماوث الجميلة التى نزلت فى ضيافته مع زوجها الدوق ، وهو رجل فى الستين من عمره بادى الإعياء . وكان الوقت وقت الشاى ، وكان المصباح الضخم المغطى بالحرير القاتم على المائدة يخرج منه نور رقيق يضىء أدوات الشاى بين أوان صينية وقطع من فضة مطروقة ، وكانت الدوقة على رأس المائدة ، وذهبت يداها البيضاوان تتنقلان برشاقة بين الفناجين ، وهمس دوريان فى أذنها بكلمة فابتسمت شفتاها الحمراوان الممتلئتان ، أما اللورد هنرى فقد كان يتأملها وهو مستلق على كرسى صنع من فروع الشجر مكسو بالحرير ، وعلى أريكة لونها كلون الخوخ جلست الليدى ناربورو وتكلفت الإصغاء إلى كلام الدوق فى وصف جعران برازيلى أضافه إلى مجموعة جعارينه ، وذهب ثلاثة من الشبان فى ملابس السهرة يقدمون الكعك إلى بعض السيدات ، وقد بلغ عدد الضيوف اثنى عشر ضيفاً ، وكان ينتظر قدوم ضيوف آخرين فى اليوم التالى .

ثم نهض اللورد هنرى وسار إلى المائدة ووضع عليها فنجانه قائلا :

- فيم تتحدثان ؟ أرجو ياجلاديس أن يكون دوريان قد حدثك عن مشروعى الذى وضعته لأغير جميع الأسماء ، فهو مشروع جميل .

فأجابت الدوقة وهى تنظر إليه بعينيها الساحرتين :

- ولكنى لا أحب أن أغير اسمى يا هارى ، فأنا راضية به وأعتقد أن مستر جراى راض باسمه كذلك .

- إن اسمك يا عزيزتى جلاديس اسم جميل ، وكذلك مستر جراى اسمه جميل ، ولن أقبل أن يدخل عليهما أى تعديل ، إنما كنت أفكر فى الأزهار خاصّة حين وضعت مشروعى لتغيير الأسماء ، فبالأمس قطفت زهرة من أزهار الأوركيد لأضعها فى عروة سترتى ، وكانت الزهرة رائعة المنظر ذات نقط ، لها فتنة الرذيلة وسحر الخطايا السبع ، وفى لحظة طيش سألت البستانى عما يسمونها فأجابنى بأنها ضرب نادر من الروبنسو نيانا ، أو ما أشبه ذلك من الأسماء المنكرة ، وقد تألمت لذلك أبلغ الألم وعرفت أننا قد فقدنا القدرة على ابتكار الأسماء الجميلة . إن الأسماء هى كل شىء يا عزيزتى جلاديس ، وأنا لا أكترث قط لأفعال الناس ، فكل ما يعنينى هو أقوالهم ، وهذا سر بغضى للابتذال الذى نجده فى الأدب الواقعى ، والإنسان الذى يسمى الأشياء بأسمائها يفسد طعم الحياة .

فسألته الدوقة قائلة :

- إذاً فماذا تحب أن نسميك يا هارى ؟

قال دوريان :

- فلنسمه أمير النقائض .

قالت الدوقة :

- هذا اسم على مسمى .

فأجاب اللورد هنرى ضاحكاً وهو يغوص فى أحد المقاعد .

- أرجو أن أعفى من هذا الاسم ، وإذا لم يكن هناك مفر من ماركة مسجلة ، فأنا أرفض هذا اللقب .

قالت الدوقة الجميلة محذرة :

- تذكر أن الملوك لا يملكون التنازل عن ألقابهم .

- تحبين أن أدافع عن عرشى ؟

- نعم .

- أنا الكاشف عن حقائق الغد .

قالت الدوقة :

- ليتك كنت الكاشف عن أخطاء اليوم .

فصاح قائلا وهو يجادلها بأسلوبها :

- أنت تجردينى من سلاحى ، ياجلاديس .

- أجردك من درعك لا من رمحك يا هارى .

قال بإشارة مؤدبة :

- أنا لا أسدد رمحى إلى الجمال .

- هذا خطأ منك يا هارى ، فأنت تبالغ فى تقدير الجمال .

- هذا غير صحيح ؛ فأنا أعترف حقّا بأنى أفضل الجمال على الخير ، ولكنى أول من يفضل الخير على القبح .

قالت الدوقة :

- إذاً فالقبح أحد الخطايا السبع القاتلة ؟ وكيف يتفق ذلك مع قولك بأن زهرة الأوركيد كانت تشبه الخطايا السبع القاتلة فى جمالها .

- بل القبح أحد الفضائل السبع القاتلة ، يا جلاديس ، وأنت وأشياعك من الأرستقراط آخر من يحق له أن يجاهل قيمة هذه الفضائل ، فالبيرة والكتاب المقدس والفضائل السبع القاتلة هى التى جعلت إنجلترا ما هى الآن .

فسألته قائلة :

- إذاً فأنت تكره إنجلترا ؟

- أنا أعيش فى إنجلترا .

- لتفضح عيوبها بأمانة ؟

فسألها قائلا :

- أتحبين أن أقبل حكم أوروبا علينا ؟

- وما حكم أوروبا علينا ؟

- أن طرطوف ملك المنافقين هاجر إلى إنجلترا ففتح فيها متجراً .

- أهذا رأيك يا هارى ؟

- قد تنازلت لك عنه .

- ولكنى لن أستطيع أن أعلن هذا الرأى بين الناس ، فهو يصف الحقيقة.

- لا تخشى شيئاً ؛ فمواطنونا الكرام لا يفهمون الأوصاف .

- لأنهم قوم عمليون .

- بل لأنهم قوم ماكرون ، وفى ميزانهم التجارى تعوض الثروة عن الغباوة ، والنفاق عن الرذيلة .

- ولكننا أتينا بالعجائب برغم كل ذلك .

- بل أوتينا العجائب ياجلاديس ، فقد فرضت علينا العجائب فرضاً .

- هذا جائز ، ولكننا حملنا عبء المجد ، وهو ثقيل .

- نعم ، حملنا عبئه حتى البورصة ، ثم تخلينا عنه .

فهزت الدوقة رأسها وقالت :

- أنا أوقن بسلالتنا .

- إن سلالتنا لا تمثل بقاء الأصلح ، بل تمثل بقاء الأقوى .

- إنها تتقدم .

- ليتها تنحل ؛ فالانحلال عندى خير من التقدم .

قالت :

- وما رأيك فى الفن .

- الفن مرض .

- وما رأيك فى الحب ؟

- الحب وهم .

- وما رأيك فى الدين ؟

- الدين هو الاسم الحديث للعقيدة .

- أنت إذاً من الشكاك ؟

- حاش لله ! فالشك مبدأ الإيمان .

- ما أنت إذاً ؟

- التعريف يفسد المعرّف .

- أريد أن أهتدى إلى شخصيتك .

- إن خيوط الشخصية تتشابك ، ولسوف تضلين فى التيه .

- أنت تحيرنى ، ومع ذلك فلتتكلم عن شخص آخر .

- نعم ، وإن مضيفنا لموضـوع شائق للحديث . منذ سنوات طويلة سمى بالأمير الساحر .

فصاح دوريان جراى قائلا :

- لا تذكرنى بذلك .

أجابت الدوقة وقد اصطبغ وجهها بالدم :

- إن مضيفنا ضيق الصدر هذا المسـاء ، وأظن أنه يعتقد أن مونماوث وقد تزوجنى لأسـباب عـمليـة ، حين وجد فىَّ أحـسن نموذج من نماذج الفـراش الحديث .

قال دوريان ضاحكاً :

- أرجو ألا يضع فيك الدبابيس يا سيـدتى الدوقة كما يضع الدبابيس فى فراشاته الأخرى .

- لا حاجـة به إلى ذلك ، فوصيـفتى تغرس فىّ الدبـابيس بنفسهـا كلما غضبت منى يا مستر جراى .

- ولم تغضب وصيفتك منك ؟

- أؤكد لك يا مسـتر جراى أنها تغـضب لأتفه الأسباب . تغـضب مثلا حين أعود إلى المنزل فى السـاعة التـاسعة ، ثم أقـول لها إن علىّ أن أستـبدل ثيابى قبل الثامنة والنصف .

- هذا تعنت منها ! ويجب أن تنذريها بالطرد إن هى عادت إلى ذلك .

- لست أجرؤ على ذلك يامستر جراى ، فـهى تبتكر لى قبعاتى . أتذكر القبعة التى لبستها فى حـفلة الليدى هيلستون ؟ طبعًا أنت لا تذكرها ، ولكنى أشكر لك ادعاءك أنك تذكـرها . تلك القبـعة صنعتـها لى من لا شىء . إن جميع القبعات الجميلة تصنع من لا شىء .

فقاطعها اللورد هنرى قائلا :

- شأنها شأن السمعة الـطيبة ياجلاديس ، فكل أثر يتركه المرء فى الوسط المحيط به يكسب المرء عدواً جديداً ،ولاسبيل إلى اكتساب قلوب الناس إلا بأن تكون من الأوساط التافهين .

قالت الدوقة وهى تهز رأسها :

- هذا الكلام لا ينطبق على النساء ، والنساء يحكمن العالم ، وأنا أؤكد لك أن أوساط الناس لا يكتسبون قلوب النساء ، وقد قال حصيف إننا معشر النساء نعشق بآذاننا كما تعشقون أنتم معشر الرجال بعيونكم ، إن كنتم تعشقون .

فقال دوريان :

- يبدو لى أن العشق هو كل عملنا فى الحياة .

أجابت الدوقة وهى تتكلف الحزن :

- إذا كانت الحال كذلك فأنتم لا تعرفون الحب .

قال اللورد هنرى :

- أنا أحتج يا عزيزتى جلاديس ، فالحب يحيا بالتكرار ، والتكرار يصقل الرغبة ويكسبها صفة الفن . إن الحب واحد مهما تعدد موضوعه ، وفى كل مرة يحب القلب لا يبقى فيه إلا حب واحد ، والتعدد لا يضعف الحب ، بل يذكيه ، فالحياة لا تتسع إلا لاختبار واحد عظيم ، وسر السعادة أن نكرر هذا الاختبار ما وجدنا إلى ذلك سبيلا .

وسألته الدوقة بعد صمت قليل :

- وإذا كان الاختبار أليماً ، فهل نسعى إلى تكراره ؟

أجاب اللورد هنرى :

- بل يجب أن نسعى إلى الاختبار الأليم قبل سواه .

وتحول نظر الدوقة إلى دوريان جراى ، وبدا فى محياها تعبير غريب وسألته قائلة :

- ما رأيك فى هذا الكلام يامستر جراى ؟

وتردد دوريان لحظة ثم دفع برأسه إلى الوراء ، وقال ضاحكاً :

أنا أوافق دائماً على ما يقوله هارى يا سيدتى الدوقة .

- حتى إذا أخطأ ؟

- هارى لا يخطىء يا سيدتى الدوقة .

- وهل جاءتك فلسفته بالسعادة التى تنشدها ؟

- أنا لم أنشد السعادة فى يوم من الأيام ، فما بى حاجة إليها ، إنما نشدت اللذة .

- وهل وجدت اللذة يامستر جراى ؟

- نعم وجدتها . وجدت منها أكثر مما أحتمل .

وتنهدت الدوقة ، ثم قالت :

- أما أنا فأنشد الهدوء ، وإذا لم أسرع باستبدال ثيابى ، فلن أذوق طعم الهدوء فى هذه الليلة .

فنهض دوريان وسار إلى أقصى الصالون قائلا :

- اسمحى لى أن آتيك ببعض أزهار الأوركيد يا عزيزتى الدوقة .

وقال اللورد هنرى لابنة عمه الدوقة :

- إنك تغازلينه مغازلة مكشوفة، وأنصحك أن تحتاطى فهو شخص فاتن.

- لو لم يكن فاتناً لما كان هناك صراع .

- إذاً فهذه معركة بين آخيل وآخيل .

- كلا ، فأنا فى جانب الطرواديين لأنهم حاربوا من أجل امرأة .

- وقد هزموا .

فأجابت :

- السبى أهون ما فى الحرب .

- إنك تركضين على جواد بلا زمام .

أجابت :

- هذا يجدد الحياة .

- سأدون هذا فى يومياتى الليلة .

- وماذا ستكتب ؟

- سأكتب أن الطفل يحب النار التى تحرق أصابعه .

- هذا غير صحيح ، فأنا لم أكتو بعد ، فكيف تقول إنى احترقت ، وهذه أجنحتى سليمة .

- أنت تستخدمين أجنحتك فى كل شىء إلا الطيران .

- إن الشجاعة قد انتقلت من الرجال إلى النساء ، وهذا اختبار لم نألفه.

- إن لك غريمة .

- ومن تكون هذه ؟

فضحك وقال :

- الليدى ناربورو .

ثم همس فى أذنها قائلا :

- إنها تحبه إلى حد العبادة .

- أخشى أن يجذبه جمال الأطلال ، فنحن الخياليين يسحرنا القدم .

- ولكنك لست من الخياليات فأنت تملكين كل معدات العلم .

- لقد تعلمنا فى مدرسة الرجال .

- نعم . لقد علّمناكنّ ، ولكننا لم نفسر من طبيعتكن شيئاً .

قالت بتحد :

- ما رأيك فينا كجنس ؟

- المرأة أبو هول بغير سر .

فنظرت إليه باسمة وقالت :

- لقد غاب مستر جراى طويلا ، فهيا بنا نساعده على اختبار الأوركيد ، ولعله حائر فيما يختار لأنى لم أخبره بلون الفستان الذى سألبسه .

- فتلختارى الثوب الذى يناسب أزهاره .

- إن فعلت هذا كان ذلك تسليماً منى قبل الأوان .

- ولكن الفن الخيالى يبدأ حيث يجب أن ينتهى .

- لابد أن أحفظ لنفسى خط الرجعة .

- طبقاً لخطة موضوعة على طريقة البارثيين ؟

- لقد اعتصم البارثيون بالصحراء ، وأنا لا أستطيع أن أفعل ذلك .

فأجاب قائلا :

- قد لا تجد النساء مجالا للاختيار بين تراجع وتراجع .

ولكنه ما كاد أن يتم قوله حتى سمع أنـه مخنوقة آتية من أقصى الصالون ، وتلاها صوت جـسم ثقيل يسقط مكتـوماً فاضطرب كل من بالغرفـة ، وثبتت الدوقـة فى مكانها جـزعى ، وشق اللورد هنرى طريقـه فزعـاً بين الأشجـار المضطربة فوجد دوريان جراى مستلقياً على وجهه فوق البلاط فى إغماء يشبه الموت .

وحمل دوريان جراى إلى غرفة الاستقبال الزرقاء ، وهناك وضعه على إحدى الأرائك ، ثم أفاق بعد قليل ، وتلفت حوله زائغ العينين ، وقال :

- ماذا حدث ؟ نعم تذكرت الآن ما حدث . أأنا هنا فى أمان ياهارى ؟

وأخذت أوصاله ترتجف . فأجابه اللورد هنرى قائلا :

- لقد أغمى عليك يا عزيزى دوريان ، هذا كل ما فى الأمر فلا تجزع . لابد أنك أنهكت نفسك إنهاكًا بالغاً ، ومن الخير ألا تتعشى معنا الليلة ، وسأملأ أنا مكانك فى المائدة .

وغالب دوريان نفسه حتى استطاع أن يقف على قدميه وقال :

- بل سأتعشى معكم . نعم ، إنى أفضل أن أتعشى معكم فليس من الخير أن أبقى وحيداً .

ومضى إلى غرفته وارتدى ملابس السهرة ، ثم أخذ مكانه فى صدر المائدة ، وكان يبدو عليه المرح الشديد كأنه لا يبالى بشىء ، ولكنه كان يرتجف من وقت إلى آخر حين يفكر فى أنه لمح وجه چيمس فين شاحباً كأنه منديل أبيض ملتصقاً بزجاج النافذة فى صالون الموسيقى .

الفصل الثامن عشر

وفى اليوم التالى لزم دوريان جراى داره ، بل لزم غرفته الشطر الأكبر من الوقت ، كان يحس بفزع من الموت شديـد ، ومع ذلك فقد رخصت فى نظره الحيـاة ، وبدأ يحس بأنه مطارد ، وبدأ يرى الفـخاخ تنصب حـوله ، وملأت هذه الفكرة شعاب عقله ، فما اهتز فى بيته ستار أمام الريح إلا اهتزت أوصاله ، وشاهد أوراق الأشجـار الذابلة تضرب زجاج نافذته المعشق بالرصـاص فتذكره بنواياه الضائعة وأحزانه المبرحة ، وحين أطبق جفنيه رأى وجه البحار من جديد يتتبع حركاته من وراء الزجاج المغطى بالضباب ، فخفق قلبه هلعاً .

ولكن لعل ما رآه كان طيفًا منتقمـًا نسجه فى الظلام وهمه ، ولعل أشباح القصـاص انطلقت من خياله المريض لتـرقص أمام عينيـه وترعبه . إن الحـياة الواقعية قوامها الفوضى ، أما الخيال فمنطقى ومرتب ، فالخيال هو الذى جعل الندم يتبع الخطيـئة ، والخيال هو الذى جـعل لكل جريمة أحلامهـا المزعجة ، وفى الحياة اليومية ينجو الأشرار من العقاب ، ويضيع على المحسنين الثواب ، ويجنى الأقوياء ثمـار النجاح ، أما الضعـفاء فلهم الخيبـة وسوء المآل ، وهذه قصـة الحيـاة ، فلتطمئـن نفس دوريان جراى ؛ إذ لا قـصاص إلا فى خـيال المذنبين، وإن الوجـه الذى يراه من وراء الزجـاج ليس إلا صـورة فى خـيـاله المحمـوم. ولو أن رجـلا كـان يتربص به خارج المنزل لرآه الخدم لا مـحالة ، ولو أن أقدامًا غريبة تركت آثارها فى الحديقـة لأخبره البستانى بأمرها . نعم ، لم يكن ما رآه إلا نسج الخيـال ، وأخـو سيبيل فين لا يتعقـبـه ليفتك به ، فقـد رحـل فى سفينتـه ولعلـه الآن غـريـق فى بـحـر من بحـار الجليد ، وهو فى مـأمن منه ، هو فى مأمن مـن چيمس فين على الأقل . إن چيـمس فين لـم يعرف هويته ولـم يستطع أن يعرفها ، ولقد أنقذه قناع الشباب .

ولكن هب ما رأه دوريان جراى لم يكن إلا وهمـًا ، فما أقسى هذا الضمير الذى يملأ الدنيا بالأشباح المخيفة ، ويعطى للهواجس أجساداً تراها العيون ، ويجعلها تتحرك أمام الإنسان ، وأى جحيم هذا الذى قدر له أن يعيش فيه إذا كانت أشباح القصاص تتلصص عليه ليل نهار من الأركان الساكنة ، وتسخر به من الدهاليز المهجورة ، وتهمس فى أذنه الويل والثبور فى المآدب والحفلات ، وتوقظه من منامه بأصابع من جليد ! وفيما يفكر فى ذلك شحب لونه جزعـًا ، وأحس فجأة بالهواء يلذعه ببرودة لم تكن فيه من قبل . لقد قتل صديقه فى ساعة جنون ، فأى نجم دام عبوس ذلك ارتفع فى السماء وسلب منه لبه ! ويا له من الذكرى فهى موجعة! وعادت إلى ذهنه تفاصيل تلك الليلة المشئومة فخلعت فؤاده رعبًا ، وخرجت عليه من كهف الزمن المظلم صورة جريمته فى وشاح أحمر ، وحين دخل عليه اللورد هنرى فى الساعة السادسة وجده ينتحب فى مرارة وقد أوشك قلبه أن ينفطر .

ولم يجسر على الخروج من قصره إلا فى اليوم الثالث ، فالصباح الندى جميل عاطر بأريج أشجار الصنوبر رد مرحه ورغبته فى الحياة . ولم تكن الطبيعة وحدها هى التى أغرته بالخروج لأن طبعه تمرد على كل هذه الآلام المبرحة التى كدّرت صفاء نفسه ، فأصحاب المزاج الرقيق لا يحتملون المحن ، وعواطفهم القوية إن لم تنحن أمام النكبات تنكسر ، ولا يشفيهم إلا قتل النفس أو قتل الغير ، وأصحاب العواطف التافهة يحبون ويشقون فحبهم مديد وشقاؤهم مديد ، أما أصحاب العواطف الجبارة ، فغرامهم الجبار يذبح نفسه لأنه مارد عملاق وكذلك أحزانهم الجبارة ، ولقد أقنع دوريان جراى نفسه بأن الرؤى التى رآها لم تكن إلا زيفًا من عمل خياله السقيم ، ونظر إلى مخاوفه نظرة لا تخلو من الرثاء والاحتقار .

وبعد أن تناول فطوره خرج إلى الحديقة ، وتحدث إلى الدوقة ساعة أو بعض ساعة ، ثم ركب عربته وقطعت به المنتزه ليلحق بجماعة الخارجين

إلى الصيد ، وكـان الصقيع الهش يغطى الحشائـش كأنه الملح المنثور ، وبدت السماء كـأنها كأس مقلوبة صنعت من مـعدن أزرق ، وطفت طبقة رقـيقة من الجليد على سطح البحيرة الساكنة التى نما فيها البوص .

ووقع بصره على السـير چفرى كلوستون ، أخى الدوقـة عند ركن الغابة الصنوبرية ، فرآه يقذف بخـرطوشتين فارغتين من بندقيتـه ، فوثب خارجًا من العربة ، وأمر السائس أن يعـود بالمهر إلى القصر ، ثم سعى إلى أضيـافه شاقًا طريقه بين الأعشاب الشيطانية والشجيرات الخشنة .

قال :

- أوجدت صيداً طيبًا يا چفرى .

- كلا يا دوريان ، وأظن أن أكثر الطيور ذهـبت إلى الخلاء ، وأعتقد أننا سنصادف توفيقًا أعظم بعد الغداء حين نغير المكان .

وسار دوريان وچفـرى جنبًا إلى جنب ، وشع فى نفس دوريان إحـساس جميل بالحـرية حين قرسه الهواء العاطر ، ورأى الأنوار الحـمراء والأنوار البنية تلمع فى بطن الغـابة ، وسمع أصـوات العـمال الخـشنة تعلو بالصيـاح وهم يضربون الأغصان لتـخرج منها الطيور . كان خلى البال سعـيداً مشرق النفس مقبلا على الحياة .

وفجأة أبصر أرنبًـا منتصب الأذنين أسودهما يقفز على بعـد عشرين ذراعًا بين الأعـشاب الذابلة بعـد أن تحفـز على رجليـه الخلفيـتين ، واندفع الأرنب صوب دغل من الأدغال ، فرفع السير چفرى بنـدقيته إلى كتفه وهم بأن يطلق عليه النار لولا أن دوريان جراى ارتاع لرشاقة حركته فصاع بصاحبه قائلا :

- لا تقتله يا چفرى . دعه يعيش .

فضحك صاحبه وقال :

- ما هذا الكلام الفارغ يا دوريان ؟!

وفـيمـا كـان الأرنب يقـفز داخـلا الدغل أطلق عليـه النار ، وارتفـعت صرختان ، صرخة أرنب جريح وصرخة رجل مصاب .

صاح السير چفرى قائلا :

- يا للسموات ! لقد أصبت أحد الحـراس . إن وقوفه أمام البنادق غباوة شديدة . لا تطلقوا النار فقد أصبت أحد الرجال .

وجاء رئيس الحراس يعدو حاملا بيده عصا ، وصاح :

- أين ياسيدى؟ أين؟

وبطل إطلاق النار بطول الخط ، وأجاب السيد چفـرى غاضبًا وهو يسرع نحو الدغل :

- فى هذا المكان ، لم لا تبـعـد أتباعك عن مـرى النار؟ ها أنت ذا قـد أفسدت شهيتى للصيد فى هذا الصباح .

وأنشـأ دوريان يتأملهـما وهمـا يدخـلان الدغل ويبعـدان الأغصـان عن طريقهما ، وبعد لحظات خرجا وهما يجران جثة رجل من الدغل إلى العراء ، ولم يحتمل دوريان جـراى أن يرى هذا المنظر فأشاح بوجهـه ، وخيل إليه أنه يجلب الرزايا أينما سار ، وسمع السير چفرى يسأل رئيس الحراس عما إذا كأن الرجل قد مـات فعلا ، وسمع رئيس الحراس يـجيبه بالإيجاب ، وخـيل إليه فجـأة أن الغابة يسكنها ألف شـبح ، وسمع ألف قدم تدك الأرض بوطئـها . وطنّ فى أذنه همس كـثـير ، وجـاء طائر صدره نـحاسى اللون ورفـرف بين الأغصان فوق رءوسهم .

ومرت لحـظات خالهـا دهوراً من الآلام فى حالتـه المضطربة تلك ، وفى النهاية أحس بيـد ترتكز على كتفـه فانتبـه من غفلته وتلفت حـوله فإذا اللورد هنرى قد جاءه يقول :

- لعل من الأصوب يا دوريان أن أقول لضيوفك إن الصيد قد انتهى اليوم عند هذا الحد ، فاستمرارهم لن يحدث أثرًا طيبًا فى الناس .

أجاب دوريان بمرارة :

- ليته ينتهى إلى الأبد يا هارى ، فهذا لهو إجرامى بشع . والرجل ، هل . . .

ووقفت الكلمة فى حلقه ، فأجابه اللورد هنرى :

- نعم يا دوريان ، مات الرجل ، فقد أصابه الرش كله فى صدره ولا بد أن يكون قد مات فوراً . هيا بنا ، فلنعد إلى البيت .

وسار الرجلان جنبًا إلى جنب صامتين نحو خمسين ذراعًا فى اتجاه الطريق الظليل ، ثم التفت دوريان إلى اللورد هنرى وتنهد من أعماقه ، وقال :

- هذا نذير شؤم يا هارى ، هذا لنذير شؤم .

فسأله اللورد هنرى قائلا :

- ماذا تقصد ؟ أتقصد الحادثة ؟ لا تبتئس ياصديقى فلم يكن هناك سبيل لتفاديها . لقد كان الخطأ خطأ الحارس فهو الذى وقف فى مرمى النار ، ثم إن الأمر لا يهمنا ، لأن چفرى هو المسئول عن الحادث بطبيعة الحال ، ومن الخطأ أن ندلل الحراس وإلا حسبك الناس مهملا فى الرماية ، وما چفرى بمهمل فهو يحسن التصويب ، ولكن دعنا من هذا الموضوع ، فالكلام فيه لا ينفع .

وهز دوريان رأسه قائلا :

- إن هذا نذير شؤم ياهارى ، وأنا أحس بأن شراً ما سيحيق بأحدنا . . بى أنا مثلا .

وفيما هو يقول ذلك مر بأصابعه على عينيه فى ألم واضح .

وضحك اللورد هنرى وقال :

- إن الشر الوحيد فى العالم هو الملل يا دوريان ، والملل هو الخطيئة الوحيدة التى لا تغتفر ، ولكن الملل لن يصيب أمثالنا ، اللهم إلا إذا رأى

ضيوفك أن يتحدثوا فى موضوع هذا الرجل أثناء الغداء ، ولسوف أخبرهم بأن الكلام فى هذا الموضوع محرم عليهم ، أما النذير الذى تتحدث عنه فلا وجود له لأن القدر لا يرسل لنا الرسل لتحـذرنا ، بل يأخذنا على غرة ، ولعل هذه حكمة منه ولعلها إجرام ، ثم إنك بمأمن من كل شر يا دوريان ، ولقد أوتيت كل ما فى الدنيا من أسباب السعادة ، وليس بين الناس من لا يقبل أن يستبدل مكانه بمكانك .

- بل ليس بين الناس من لا أقبل أنا أن أسـتبدل مكانه بمكانى يا هارى ، وكفاك ضحكًا ، فما قلت غير الحق . إن الحارس المسكين الذى قتل منذ هنيهة أسعد منى حالا ، وأنا لا أخـاف الموت ، ولكنى أخاف مقدم الموت ، وأحس بجناحيه الـشيطانيين يطنان حولى فى هذا الهواء الثـقيل . انـظر يا هـارى ! ألا ترى رجلا يتحرك خلف الأشجار متربصًا بى؟

- فالتفت اللـورد هنرى إلى الناحية التى أشارت نحـوها يده المرتجفة ذات القفاز . ثم قال مبتسمًا :

- نعم . أرى البسـتانى واقفًا فى انتظارك ، وأحـسب أنه يود أن يسألك عن الأزهار التى تريده أن يضعها على المائدة هذا المسـاء . إن أعصابك متوترة إلى حدّ بعيد يا دوريان ، وهى توحى لك بأسـخف الخيالات ، وأنصحك أن تستشير طبيبى حين نعود إلى لندن .

ورأى دوريان البـستانى يتـقدم منه فـعاد إليـه هدوءه ، وهمّ الرجل برفع قبـعتـه تحية لـسيده ، ونظر إلى الـلورد هنرى فى تردد لحظة أو لحظتين ، ثم أخرج من جيبه خطابًا وسلمه إلى دوريان قائلا :

- إن سيدتى الدوقة تنتظر الرد على هذا الخطاب .

ووضع دوريان الخطاب فى جيبه وقال فى برود :

- قل لسيدتك الدوقة إنى سألحق بها .

وانصرف الرجل مسرعًا وسار فى اتجاه القصر .

قال اللورد هنرى ضاحكًا :

- ما أشد كلف النساء بالأعمال الغريبة يا دوريان! إن هذه هى الصفة الوحيدة التى تعجبنى فيهن ، والمرأة تغازل أى رجل فى العالم إذا تأكدت من أن هناك من يراها .

- وما أشد كلفك بالأقوال الغريبة يا هارى ! وأعتقد أنك مخطئ هذه المرة ، فأنا أميل إلى الدوقة أشد الميل ، ولكنى لا أحبها .

- والدوقة تحبك أشد الحب ،ولكنها لا تميل إليك ، فأنتما كما ترى يكمل أحدكما الآخر .

- أنت تنشر الفضيحة بهذا الكلام يا هارى ، والفضائح لا أساس لها فى الواقع .

فأجاب اللورد هنرى وهو يشعل سيجارة :

- أساس كل فضيحة ليس الشك الأخلاقى ، بل اليقين الذى يتنافى مع الأخلاق .

- إنك تضحى أى مخلوق فى مقابل قول طريف .

فأجاب اللورد هنرى قائلا :

- أنا لا أضحى أحدًا لأن الناس يسيرون إلى المذبح من تلقاء أنفسهم .

قال دوريان وفى صوته رنة من الحزن العميق :

- ليتنى أستطيع أن أحب ، ولكن يبدو لى أنى قد قتلت العاطفة ونسيت الرغبة ، فأفكارى كلها مركزة فى نفسى ، وشخصيتى قد أصبحت عبئًا علىّ ثقيلا ، فكيف الهرب من هذه الأنا ، وكيف النسيان؟ أظن أنى سأبرق إلى هارفى طالبًا إليه أن يعد اليخت لى ، ففى اليخت أكون بمأمن من الخطر .

- أى خطر هذا الذى لا تفتأ تتحدث عنه؟ لا بد أنك فى محنة ، ويجمل بك أن تفضى إلىّ بكل شئ ، فأنت تعرف أنى سأقف إلى جانبك .

أجاب الفتى فى حزن :

- لا أستطيع أن أفضى إليك بشئ يا هارى ، ثم إن هذا الخطر الذى يتهددنى قد يكون خطراً وهميًا . إن هذه الحادثة المشئومة قد أثارت أعصابى ، وأنا أحس بأن مكروهًا من هذا النوع سينزل بى .

- دع عنك هذه الخزعبلات !

- أرجو أن تكون هذه خزعبلات حقًا ولكن أفكر فيها برغمى . انظر ! هذه الدوقة مقبلة علنا وهى تبدو كالإلهة ارتميس لابسة جاكتة تايير . لقد عدت من الصيد يا عزيزتى الدوقة .

أجابت :

- نعم يا مستر جراى ، لقد عملت بما حدث ، وجفرى المسكين فى اضطراب شديد ، وقد قالوا لى إنك سألته ألا يطلق النار ، فما أغرب هذه المصادفة .

- نعم . إنها لمصادفة عجيبة ، ولا أستطيع أن أفسرها ، ولعلها نزوة طارئة فقد كان الأرنب آية فى الرشاقة ، وربما عز علىّ أن يقتل ، مهما يكن من شئ فيؤسفنى أنك علمت بخبر هذا الرجل ، فالموضوع كله بغيض .

قال اللورد هنرى :

- نعم ، إنه لموضوع ممل ، وليست له أية قيمة من الناحية النفسية ، فلو أن جفرى قتله عامداً لاستحق أن نهتم له كل هذا الاهتمام ، وكم أحب أن أعرف رجلا ارتكب جريمة قتل حقيقية .

فصاحت الدوقة قائلة :

- هذه وحشية منك يا هارى . ألا توافقنى على ذلك يا مستر جراى؟ إن مستر جراى قد عادت إليه النوبة يا هارى ، وها هو ذا يوشك أن يدركه الإغماء .

وجمع دوريان أشتات قوته المتخاذلة وقال مبتسمًا :

- لا تنزعجى يا عزيزتى الدوقة ، فما بى مرض ، كل ما فى الأمر أن أعصابى منهكة ، فقد أسرفت فى السير هذا الصباح ، ماذا قال هارى ؟

إنى لم أسمع كلماته ، فهل قال شيئًا فظيعًا ؟ لا بد أن تعيدى علىّ ما قاله هارى فى مناسبة أخرى ، أما الآن فأعتقد أن من الأصوب أن أستريح .

هل تأذنان لى بالانصراف ؟

وسار اللورد هنرى والدوقة حتى بلغا درجات السلم الكبير التى تؤدى إلى الشرفة من صالون الموسيقى ، وبعد أن أقفلا الباب الزجاجى بينهما وبين دوريان نظر اللورد هنرى إلى الدوقة بعينيه الناعستين وسألها قائلا :

- كم تحبين دوريان ؟

فلم تجب ومرت دقائق لم يقل أحد فيها شيئًا ، ووقفت الدوقة تتفرس فى الطبيعة المترامية أمامها ثم أجابت أخيراً :

- ليتى كنت أعلم .

قال اللورد هنرى وهو يهز رأسه :

- العلم يفسد كل شئ ، فاحتفظى بهذا الشك ، لأن فى الشك سحراً خاصّا ، وقليل من الضباب يزيد جمال الحياة .

- وماذا أفعل لو تهت فى الضباب ؟

- لن تتيهى يا عزيزتى جلاديس ؛ فكل الطرق تؤدى إلى نقطة واحدة .

- وما هى هذه النقطة ؟

- الاستفاقة إلى الحقيقة .

قالت وهى تتنهد :

- لقد بدأت حياتى بهذه الاستفاقة .

- وقد جاءتك الاستفاقة متوجة فى شخص دوق .

- لقد تعبت من أوراق الغار .

- إنها تناسبك .

- فى الحفلات الرسمية فقط .

قال اللورد هنرى :

- لو نزلت عنها لافتقدتها فى مستقبل الأيام .

- لن أنزل عن ورقة واحدة منها .

- ولكن مونماوث له أذنان .

- الشيخوخة سمعها بطئ .

- ألم تثر غيرته قط؟

- ياليتها ثارت .

وتلفت اللورد هنرى فى كل مكان باحثًا عن شئ فسألته قائلة :

- عم تبحث ؟

- عن زرار سقط منى .

- ولكن قناعى لم يسقط بعد .

أجاب اللورد هنرى :

- وهو يزيد عينيك سحراً .

فضحكت ثانية وبدأت أسنانها كالحبوب البيضاء فى فاكهة حمراء .

وكان دوريان جراى مستلقيًا على أريكة فى غرفته بالطابق العلوى مرتجف الأوصال ينهشه الفزع ، وأحسن فجأة بأن حياته قد أصبحت عبئا ثقيلا لا سبيل إلى احتماله ، وبدا له موت الحارس المسكين الذى سقط فى الغابة قتيلا كأنه حيوان برى ، بدا له موت الحارس كنبوءة بموته ، ولقد كاد أن يصيبه الإغماء حين سمع ماقاله اللورد هنرى عرضًا من باب العبث .

ولما بلغت الساعة الخامسة دق الجرس ، واستدعى خادمه بأن يحزم أمتعته استعداداً للرحيل إلى لندن بإكسبريس الليل ، وأن يعد له عربته فى الساعة الثامنة والنصف ، فقد قرر ألا ينام ليلة أخرى فى سلبى ، ذلك القصر المشئوم الذى مشى الموت فى كنفه فى رابعة النهار ، وخضبت الدماء حشائش غاباته .

ثم سطر رسالة كتبها إلى اللورد هنرى معتذراً بأنه راحل إلى لندن ليستشير طبيبه ، سائلا إياه أن ينوب عنه فى القيام بواجب الضيافة نحو أصحابه أثناء غيابه ، وفيما هو يضع الرسالة فى غلاف طرق الباب خادمه وأخبره بأن رئيس الحراس يطلب مقابلته ، فعبس دوريان وعض شفتيه وقال بعد تردد قليل :

- أدخله .

ولما دخل رئيس الحراس أخرج دوريان دفتر الشيكات من أحد الأدراج وفتحه قائلا :

- أظنك جئت لتحدثنى فى شأن الحادثة الأليمة التى وقعت هذا الصباح يا ثورنتون ؟

أجاب الحارس :

- نعم ياسيدى .

قال دوريان وقد بدا عليه الملل :

- أكان هذا الرجل متزوجًا ؟ أكان يعول أحدًا؟ إذا كان يعول أحدًا فلست أحب أن يتعرض عياله للفاقة ، وسأرسل لهم أى مبلغ من المال تراه أنت كافيًا.

- لم نتعرف على شخصيته ياسيدى ، وهذا ما دفعنى إلى إزعاجك الآن.

قال دوريان فى فتور :

- وكيف كان ذلك ؟ ألم يكن القتيل رجلا من رجالك ؟

- كلا يا سيدى ، وأنا لم أره قبل اليوم ، ويلوح لى أنه بحار ياسيدى .

فسقطت الريشة من يد دوريان جراى ، وأحس بقلبه يتوقف عن الخفقان، وصاح قائلا :

- بحار ؟ أتقول إنه بحار ؟

- نعم يا سيدى ، إن مظهره يدل على أنه بحار ، ففى ذراعية وشم ، وعليه سمات البحارة .

فمال دوريان جراى إلى الأمام ، وأخذ يتفرس فى الرجل منزعجًا .

وقال دوريان جراى :

- ألم تجدوا معه ما يثبت شخصيته أو يدل على اسمه ؟

- وجدنا بعض النقود يا سيدى ، ووجدنا مسدسًا ذا ست طلقات ، ولكننا لم نجد اسمه ، ومرآه يدل على أنه رجل فاضل ، ولكن عليه سيماء الخشونة ، ونحن نظن أنه بحار .

ونهض دوريان واقفًا وداعب خاطره أمل شيطانى فلم يغير الموضوع بل قال فى إصرار :

- أين وضعتم الجثة ؟ لا بد أن أراها فوراً .

- إنها في مزود الخيل الفارغ بالحقل ياسيدى .

وضعناها هناك لأن أهل القرية رفضوا أن يقبلوها فى منازلهم قائلين إن الجثث تجلب الشؤم .

- اقصد إلى الحقل فوراً وانتظرنى هناك وقل للسائس أن يأتينى بجوادى ، ولكن من الأفضل أن أمضى بنفسى إلى مزاود الخيل ففى هذا توفير للوقت .

لم تمض ربع ساعة حتى كان دوريان جراى يركض على فرسه فى الطريق الظليل بسرعة قصوى ، وكانت الأشجار على جانبيه تبدو له وهو ينهب الأرض نهبًا كأنها صفان من الأشباح ، ورأى ظلالها الماردة فى طريقه فيطؤها وطئًا ، وانحرفت به الفرس مرة عند عمود أبيض فكادت أن تلقيه أرضًا ، وأخذ يضربها بسوطه على عنقها فمزقت الهواء كأنها السهم المنطلق ، وطارت من وقع حوافرها الأحجار .

وأخيراً بلغ العربة فوجد رجلين يتسكعان فى الفناء ، وترجل وسلم عنان الفرس إلى أحدهما ، ولمح نوراً ينبعث من آخر مزود فهتف به هاتف إن الجثة ملقاة فيه وأسرع إلى بابه ووضع يده على المزلاج .

ثم تردد قليلا وأحس بأنه يوشك أن يكشف عن حقيقة عظمى قد تنقذه من محنته ، وقد تودى بما بقى له من هناء ، ثم دفع الباب ودخل .

وفى نهاية المزود رأى جثة رجل ميت يلبس قميصًا خشنًا وبنطلونًا أزرق مستلقية على كومة من الخيش ، ورأى منديلا عليه نقط يغطى وجه الرجل ، ورأى شمعة من النوع الردىء مثبتة فى عنق زجاجة تبصق نارها بجانب الجثة .

وشاعت في جسده رعشة ، وعرف أن قواه سوف تخونه إن هو تقدم لرفع المنديل ، فنادى على أحد الفلاحين ، ولما دخل الرجل قال له وهو يعتمد على الباب حتى لا يتهافت :

- اكشف وجه هذا الرجل ، فأنا أريد أن أعرف من يكون .

ورفع الفلاح المنديل عن وجه الرجل وتقدم دوريان جراى خطوات ، وحين تبين وجه الميت لم يستطع أن يكتم صيحة الفرح الذى مشى فى بنيانه فلقد عرف أن الرجل الذى سقط فى الغابة قتيلا لم يكن إلا چيمس فين .

وثبت فى مكانه بضع دقائق متفرسًا فى الجثة ، ثم اعتلى فرسه وعاد أدراجه إلى داره ، وفى الطريق فاضت عيناه بالدموع ، دموع الفرح ، وغمره الفرح ، فرح السلامة .

الفصل التاسع عشر

قال اللورد هنرى وهو يضع أصابعه البيضاء فى إناء من النحاس الأحمر مملوء بماء الورد :

– لا تحاول أن تفهمنى يا دوريان أنك ستصبح رجلا صالحًا ، إنك على غاية ما يرام كما أنت الآن فلا تحاول أن تغير من طبيعتك .

فهز دوريان جراى رأسه وأجاب :

– كلا يا هارى . لقد أتيت فى حياتى كثيرا من الذنوب المخجلة ، ولن أضيف إلى قائمة جرائمى شيئًا بعد الآن ، وقد بدأت حياتى الجديدة أمس بفعل الخير .

قال اللورد هنرى وهو يبتسم :

– وأين كنت أمس ؟

– اسمع يا عزيزى دوريان ، إن أى إنسان يستطيع أن يكون صالحًا فى الريف ، لأن الريف خال من أسباب الغواية ، وهذا هو السر فى أن الناس الذين يعيشون بعيداً عن المدينة متأخرين فى المدنية ، فالمدينة ليست شيئًا سهل المنال إطلاقًا ، وهناك طريقتان لا ثالثة لهما يصل بهما الإنسان إلى المدينة ، الأولى ، هى الثقافة والثانية ، هى الانحطاط ، وأهل الريف لا سبيل لهم إلى الثقافة أو إلى الانحطاط ، ولذا تراهم يتعفنون من فرط الركود .

قال دوريان :

– أنت تتحدث عن الثقافة والانحطاط ، ولقد أصبت من كليهما شيئًا مذكوراً ، ويبدو لى الآن أن اجتماعهما فى شخص واحد وخيم العاقبة ، فقد

اتخذت لنفسى مثلا أعلى جديداً يا هارى ، وقررت أن أغير من طبعى ، بل أعتقد أنى قد غيرت من طبعى فعلا .

ووضع اللورد هنرى بعض الشليك ذى البذور فى طبقه ، ورش عليه بعض السكر الناعم من ملعقة ذات ثقوب تشبه المحارة فى هيئتها ، وقال :

- أنت لم تخبرنى بعد بالعمل الصالح أو الأعمال الصالحة التى قمت بها أمس .

- سأقص عليك ما حدث لأنك تعلم أكثر أسرارى ، وهى قصة لا أستطيع أن أطلع عليها أحداً غيرك . وقعت فى يدى فريسة ولكنى لم أفتك بها بل تركتها وشأنها ، وقد يبدو لك ذلك فخراً حيث لا موضع للفخر ، ولكنك تفهم ما أقصد إليه ، عرفت فتاة تدعى هيتى بارعة جميلة ، وفيها شبه قوى من سيبيل فين . وأعتقد أن هذا الشبه هو الذى جذبنى إليها أول الأمر . أنت تذكر سيبيل دون شك؟ لقد مضت على حكايتها أيام طويلة كأنها دهور . مهما يكن من شئ فقد كانت هيتى من طبقة غير طبقتنا بطبيعة الحال ، ولم تكن غير فتاة قروية ساذجة ، ولكنى أحببتها من أعماق قلبى ، نعم لست أشك فى أنى أحببتها ، وقد دأبت على الخروج إلى الريف للقائها مرتين أو ثلاث مرات من كل أسبوع طوال شهر مايو الجميل الذى سعدنا به هذا العام ، وقد قابلتها البارحة فى بستان صغير ، وبينما نحن جالسان كانت الأزهار تتساقط من شجرة التفاح فوق شعرها فتضحك ، وقد وضعنا الخطة لنهرب معًا هذا الصباح عند انبلاج الفجر ، ولكنى قررت فجأة أن أتركها كما وجدتها طاهرة كالزهرة البيضاء .

فقاطعه اللورد هنرى قائلا :

- أعتقد أن هذه العاطفة الجديدة التى لما تألفها قط ملأتك بإحساس اللذة الحقيقية يا دوريان ، ولكنى أستطيع أن أتم هذه القصة الغرامية نيابة عنك لقد زودتها بالنصائح الأخلاقية وكسرت قلبها ، وهكذا بدأت حياتك الصالحة .

- ما أقساك يا هارى ! أرجوم أن تقلع عن قـول هذه العبارات الساخرة ، فقلب هيتى لم ينكسر ، وكل مـا هنالك أنها بكت وتألمت إلى آخره ، ولكنى تركتها نقية كما وجدتها ، وهى تستطيع أن تعيش الآن كپرديتا فى حديقتها بين أوراق النعناع وأزهار الأقحوان .

قال اللورد هنرى ضاحكًا وهو يغوص فى مقعده :

- وتبكى على فلوريزيل عاشقها الخائن . إن لك يا عزيزى دوريان نزوات صبيانية لا أفهمها .

أتحسب أن هذه الفتاة سترضى الآن برجل من طبقتها ؟ كلا ولعلها تتزوج فى يوم من الأيام بحـوذى فظ أو فلاح عـبوس ، ولكنهـا ستـحتـقر زوجـها وتعيش فى شقاء لأنها عرفتك وأحبتك ، فمن الناحية الأخلاقية لست أرى فى توبتك العظيمة مـا يستحق الإكبار ، بـل إن البدايـة نفسهـا بدايـة سيئة ، ثم ما أدراك بأن هيتى ليست الآن طافية على وجـه بركة ساكنة انعكست فيها نجوم السماء ، تحيط بها أقاحى الماء مثل أوفيليا صاحبة هاملت؟

- هذا لا يحتـمل يا هارى ، فأنت تمزق كل شئ إربًا بتـهكمك اللاذع ، ثم تتوج كل شئ بمأسـاة فظيعة من نسج خيالك ، وإنـى لآسف على الإفضاء لك بما حدث ، ولم يعد حكمك يهمنى لأنى واثق بأنى قد فعلت ما فيه الخير . يالهيـتى من فتاة مسـكينة! فيما كنت عـائداً على جوادى هذا الصبـاح مررت بالحقل ورأيت وجهها فـى نافذة بيتها أبيض كباقة الياسـمين . كفى حديثًا فى هذا الموضـوع ، وإياك أن تحـاول أن تقنعنى بأن القلـيل من إنكار الذات الذى أبديته لأول مرة فى حياتى هو فى الواقـع خطيئة جديدة ، فأنا أريد أن أهذب من طبيعتى ، بل إنى لمهذبها مهما كانت الظروف ، فلتحدثنى الآن عن نفسك . حدثنى عن لندن وما يجرى فيها فأنا لم أزر النادى أيامًا وأيامًا .

- إن أعضاء النادى لا يزالون يتحدثون عن اختفاء بازيل المسكين .

قال دوريان عابسًا وهو يصب بعض النبيذ فى كأسه :

- حسبتهم قد سئموا الكلام فى هذا الموضوع بعد هذه الأسابيع الطويلة .

- إنهم لم يتحدثوا فى هذا الموضوع إلا ستة أسابيع يا عزيزى دوريان ، والجمهور فى بريطانيا أغبى من أن يتحدث فى أكثر من موضوع واحد كل ثلاثة أشهر ، ولقد كان حظه لا بأس به فى الأيام الأخيرة ، فقد وجد قصة طلاقى أنا ، وقصة انتحار آلان كامبل ، ثم لغز اختفاء أحد الفنانين . وسكوتلانديارد لا تزال تصر على رأيها القائل بأن الرجل الذى سافر إلى باريس بقطار منتصف الليل لابسًا معطفًا رماديًا كبيراً هو بازيل المسكين ، والبوليس الفرنسى لا يزال يقول إن بازيل قد شوهد يتجول فى شوارع سان فرانسسكو ، وهذا شئ غريب ، ولكن كل من يختفى يقال إنه يشاهد فى سان فرانسسكو فلا بد أن تكون سان فرانسسكو مدينة جذابة فيها كل مغريات العالم الآخر .

فسأله دوريان وهو يرفع نبيذه البورغونى إلى النور ويتأمله عاجبًا من قدرته على الكلام فى موضوع بازيل هولوورد دون انزعاج :

- كيف تعلل اختفاء بازيل؟

- ليست لدى أية فكرة عن هذا الموضوع ، فإذا كان بازيل يريد إخفاء نفسه عن الناس فهذا ليس من شأنى ، وإذا كان قد مات فلست أحب أن أفكر فيه ، فالموت هو الشئ الوحيد الذى يرعبنى وأنا أمقته مقتًا شديداً .

قال دوريان فى إعياء :

- ولم تكره الموت؟

أجاب اللورد هنرى وهو يدنى من أنفسه علة قارورة للعطور مفتوحة مخططة بماء الذهب :

– لأننا نستطيع فى هذه الأيام أن نقـهر كل شئ إلا الموت . نعم . الموت والابتذال هما كل ما بقى فى القرن التاسع عشر من ظواهر لا نستطيع تفسيرها وإزالتها . هيا نتناول قهوتنا فـى صالون الموسيقى يا زوريان وأرجوك أن تعزف شيئًـا من شوبان فأنا أتوق إلى سـماعه . إن الرجل الذى هربت معـه زوجتى كان يعزف مـوسيقى شوبان بمهارة لا تجـارى . يالفكتوريا المسكينة ! كم كنت أميل إليها ! إن البيت يبدو مهجوراً بعد أن تركته ، ولا شك أن الحياة الزوجية مجرد عـادة ، عادة سيئـة ، ولكن الإنسان يأسف على فقدان عـاداته ، حتى الخبيثة منها ، بل لعل الإنسان يأسف على فـقدان عاداته الخبيثة قبل أن يأسف على فقدان عاداته الحسنة ، لأن العادات الخبيثة جزء متمم لشخصية الإنسان .

لم يجب دوريان بشئ بل نهض من مكانـه فى المائدة ومضى إلى الغـرفة المجاورة وجلس أمام البـيانو وترك أصابعه تجول بين مفـاتيحه العاجية البـيضاء ومفـاتيحه العاجـية السوداء ، وجـاءت القوة فتـوقف عن العزف ثم نظر إلى اللورد هنرى وقال :

– اسمع يا هارى ألم يخطر لك قط أن بازيل مات قتيلا؟

فتثاءب اللورد هنرى وقال :

– إن بازيل كان محبوبًا من الجـميع ، فما الداعى إلى قتله؟ وهو لـم يكن ذكيًا فيكـون له أعداء . أنا لا أشك فى عبقريته كـرسام ، ولكنك تستطيع أن تكون لك مهـارة فيلاسكيـز فى الرسم ، وتبقى برغم ذلك نموذجًا للغـباوة ، ولقد كان بازيل فى الواقع على شئ من الغبـاوة ، ولـم أجد فى تفكيره ما أثار اهتمامى إلا مرة واحدة ، أعنى حين باح لى منذ سنوات طويلة بأنه يحبك حبًا يقرب من العبادة ، وبأنك النفس الجبار الذى يلهم فنه .

قال دوريان فى وجوم :

- وأنا كذلك كنت أحب پازيل حبًا جمًا ، ولكن ألا يقول الناس إنه مات مقتولا يا هارى؟

- نعم . هذا ما تقـوله بعض الصحف ، ولكنى استـبعده . صـحيح أن باريس مـلأى بالأوكار الجـهنميـة ، ولكن پازيل لم يكن بالرجل الذى يتـردد عليها ، فالفضول عنده كان ميتًا ، وهذا كان عيبه الرئيسى .

قال الشاب :

- لو أنى قلت إنى قتلت بازيل فماذا تقول يا هارى؟

ثم أخذ يتفرس في اللورد هنرى ليرى وقع كلماته فى نفسه .

- أقول إنك تحاول أن تمثل شخصية لا تناسبك يا صديقى ، فالجريمة بكل أنواعهـا مبتـذلة ، كمـا أن الابتذال بكل أنواعه جـريمة ، وليس فى طبيـعتك ارتكاب الجرائم يا دوريان . أقول هذا راجيًا أن تغـتفر لى جرحى لكبريائك ، ولكنى أؤكـد لك أن الإجرام ليس فى طبـعك . الإجرام اكـتياز خـاص تملكه الطبقة الدنيا فى المجتـمع ، وأنا لا ألوم أبناء هذه الطبقة على ذلك ، فالإجرام عندهم يقوم مقام الفن عندنا ، أى أنه وسيلة لإشباع الحواس بالاختبارات غير المألوفة . هذا ما أتصوره أنا على الأقل .

- وكيف يكون هذا؟ أتعـتقد إذًا أن من قـتل مرة يستطيع أن يقـتل ثانية؟ هذا بعيد الاحتمال .

قال اللورد هنرى ضاحكًا :

- إن أى عمل قد يصبح مصدر لذة إذا اكتسب قوة العادة ، وهذا سر من أهم أسـرار الحياة ، علـى أنى أعتقـد أن القتـل خطأ مهـما كانت ظـروفه ، فالإنسان يجب ألا يفعـل شيئًا يتأفف من الكلام فيه بعـد العشاء ، ولكن دعنا من موضوع پازيل المسكين . ليتنى أستطيع أن أحـمل نفسى على الاعتقاد بأنه انتهى هذه النهاية المثيرة للخيال كما تقول ، ولكنى عاجز عن ذلك ، وإذا كان

بازيل قد مات فعلا فأرجح أنه سقط من الأتوبيس فى نهر السين مثلا ، وأن الكمسارى نجح فى إخفاء هذه الحقيقة . نعم ، أرجح أن نهايته كانت شيئًا من هذا القبيل ، وإنى لأتصوره الآن مستلقيًا على ظهره فى قاع ذلك النهر الأخضر المنطفئ ، وقد اشتبكت فى شعره الأعشاب الطويلة وطفت من فوقه الزوارق الكبيرة ، وإنى أعتقد يا دوريان أن فنه كان فى اضمحلال مستمر فى السنوات العشر الأخيرة ، ولم يكن يرجى منه أن ينتج شيئًا آخر ذا قيمة حقيقية .

وتنهد دوريان وقطع اللورد هنرى أرض الغرفة وأنشأ يداعب رأس ببغاء جاءه من جاوه ، وهو طائر هائل أشهب الرياش وردى الصدر والذيل ، يقف على غصن من الخيزران ، وحين مسته الأصابع الدقيقة أغمض جفنيه المتكسرين على عينيه السوداوين اللتين تشبهان الزجاج وبدأ يتأرجح يمنة ويسرة، ثم التفت اللورد هنرى إلى الخلف وأخرج منديله من جيبه قائلا :

- نعم ، إن فنه قد انحط ، ويبدو أن شيئًا ضاع منه . يبدو أن المثل الأعلى ضاع منه ، وحين فترت الصداقة بينكما خمدت جذوه فنه ، فماذا فرّق بينكما يا دوريان؟ أظن أنه أضجرك بمواعظه وتفاهاته؟ إذا كان الأمر كذلك فلا بد أنه ألقى عليك اللوم دائمًا ، فهذه عادة الناس المضجرين . وبهذه المناسبة يا دوريان ، ماذا كان مصير تلك الصورة الرائعة التى رسمها لك ؟ أظن أنى لم أرها منذ أن أتم بازيل رسمها . اذكر أنك قلت لى منذ سنوات عديدة إنك أرسلتها إلى قصر سلبى وفى الطريق اختفت ، ضاعت أو سرقها سارق . ألم تستردها يا دوريان؟ إن ضياعها لشئ محزن ، فقد كانت صورة من بدائع الفن الخالدة ، وإنى لأذكر أنى رغبت فى شرائها ، ويا ليتنى اشتريتها فهى من إنتاج بازيل إبان عنفوانه الفنى ، ولقد صار فنه منذ أن رسم تلك الصورة مزيجًا من الأسلوب الركيك والنوايا الطيبة وهو المزيج الذى يؤهل صاحبه فى كل عصر لأن يكون فنانًا بريطانيًا من الطراز الأول . قل لى : أأعلنت

عن ضياع الصورة؟ إن كنت لم تعلن بعد ، فالواجب يقضى عليك بأن تفعل ذلك .

قال دوريان :

- لست أذكر يا هارى ، ولكنى أرجح أنى أعلنت عن ضياعها ، وإن كنت لم أحبها قط ، بل إنى لآسف على أنى سمحت لبازيل أن ينقلها عنى ، وذكراها تثير فى نفسى أبغض الخواطر . لم تتحدث عنها؟ لقد كانت تذكرنى ببيت من الشعر فى مسرحية من المسرحيات ، أعتقد أنها مسرحية «هاملت» كانت تذكرنى بهذا البيت :

هى صورة الأحزان ،

هى وجه بلا قلب .

نعم يا هارى ، هذا وصف صادق لتلك الصورة .

وضحك اللورد هنرى وأجاب وهو يغوص فى مقعده :

- لو أن رجلا عامل الحياة معاملة فنان لقام عقله مقام قلبه .

ولم يجب دوريان جراى بل هز رأسه وعزف لحنًا حنونًا على البيانو وأنشأ يردد :

هى صورة الأحزان ،

هى وجه بلا قلب .

واستلقى اللورد هنرى إلى الوراء وأغمض جفنيه قليلا وأدمن النظر إلى دوريان ، ثم قال بعد صمت قليل :

- ما رأيك يا دوريان فى قول المسيح : «ماذا يستفيد الإنسان لو خسر روحه وربح العالم أجمع؟» .

واضرب اللحن ، والتفت دوريان جراى إلى اللورد هنرى منزعجًا وحملق فيه طويلاً ، ثم قال :

- لم تسألنى هذا السؤال يا هارى؟

قال اللورد هنرى وهو يرفع حاجبيه دهشة :

- سألتك هذا السؤال لأنى حسبت أنك قد تعرف الجواب عليه .

وهذا كل ما فى الأمر يا صديقى . ففى يوم الأحد الفائت كنت أمر فى هايد پارك ، ولما كدت أبلغ الماربل آرتش رأيت نفراً من الناس قليلا ، ثيابهم رثة ، يستمعون إلى واعظ يطرح هذا السؤال على سامعيه ، وقد خيل إلى أن فى المشهد الذى رأيته قوة مسرحية بليغة . إن لندن ملأى بمثل هذه الظواهر الغريبة ، ومن المألوف أن تخرج كما خرجت فى يوم مطير من أيام الأحد فترى مسيحيًا خشن المنظر يرتدى معطفًا من الجلد ومن حوله اجتمع رهط من الناس وجوههم شاحبة وفوق رؤوسهم مظلات مبللة تنحدر عليها مياه المطر ، وتستمع عبارة بليغة يطلقها فى الهواء صوت عصبى حاد . لقد كانت الكلمة جميلة على طريقتها الخاصة ، وكانت تحمل معنى قويًا ، وقد عن لى أن أجيب على سؤال هذا النبى الصغير قائلا بأن للفن روحًا ، أما الإنسان فلا روح له ، ولكنى خشيت ألا يفهم معنى كلامى ، فمضيت لحالى .

- لا تشك فى وجود الروح يا هارى ، فالروح حقيقة رهيبة لا مراء فيها، وهى تباع وتشترى وتستبدل بشتى الأشياء ، وهى تقبل أن تسمم وهى تقبل أن تهذب . إن فى كل منا روحًا ، وأنا على يقين من ذلك .

- أأنت واثق تماما من وجود الروح يا دوريان؟

- تمام الوثوق .

- لابد إذًا أن تكون الروح وهمًا ، فكل ما نثق منه لا أساس له من الصحة ، وهذه مأساة الإيمان ، وهذه عظة الخيال . لم كل هذا الوجوم

يا دوريان ؟ هيا انفضه عنك . هذه ترهات العصر ونحن لا نكترث لها . نعم ، لقد تخلينا عن إيماننا بالروح . هيا اعزف لى شيئًا على البيانو ، اعزف لى ليلة من ليليات شوپان يا دوريان ، وقص علىّ بصوت مهموس كيف استطعت أن تحتفظ بشبابك . لا شك أن لديك سرّاً تصون به الجمال ، فأنا أكبرك بعشر سنوات لاغير ، ومع ذلك ترانى مغضن الوجه متعب الجسد شاحب اللون ، أما أنت يا دوريان فنموذج للجمال الحى ، وما رأيتك قط أشد فتنة مما أنت الآن ، فأنت تذكرنى الليلة بيوم لقائنا الأول . لقد كنت يومئذ شديد الخجل لا مثيل لك فى الدنيا ، ولقد تغيرت ، ولكن فى شخصيتك لا فى مظهرك ، وليتك تبوح لى بهذا السر العظيم الذى يديم عليك الشباب ، فأنا على استعداد لأن أفعل أى شئ لأسترد شبابى ، إلا أن أصحو مبكراً أو أقوم بالتمرينات الرياضية أو أصطنع مظهر الرجل المحترم ، فياليت الشباب يعود ، فهو النعمة الأولى فى هذه الحياة ، ومن السخف أن يتحدث الناس عن حماقة الشباب ،فأنا لا أقيم وزنًا لرأى أحد إلا إذا كان يصغرنى بسنوات عديدة . إنى أرى الشبان يتقدمون الكهول من أمثالى ، لأن الحياة قد كشفت لهم عن أحدث عجائبها وضنت به علينا ، أما الشيوخ فأنا اختلف معهم فى كل شئ ، وهذه سنة أتبعها ، فلو أنك سألتهم عن رأيهم فى شئ وقع بالأمس رددوا لك الآراء التى كانت منتشرة فى عام ١٨٢٠ ، أيام أن كان الناس يلبسون الجوارب حتى الركبة ، ويؤمنون بكل ما يقال لهم ، ويجهلون كل شئ فى الوجود . ما أعذب هذا اللحن الذى تلعبه يا دوريان . لعل شوپان وضعه وهو فى ميوركا وهو يسمع البحر ينتحب حول بيته ورشاشه المالح يلطم زجاج نافذته . كم يحرك هذا اللحن خيالى يا دوريان . يجب أن نشكر الآلهة يا دوريان على أنها أبقت لنا فنًا واحداً لا يقوم على التقليد . استمر يا دوريان

فنفسى تحن إلى الموسيقى هذه الليلة ، ويبـدو لى أنك أبولو الإله الصغير وإنى مارسياس استمع إليك . إن نفس حزينة ، وأحزانها خبيئة لا يعرف عنها أحد شيئا حتـى أنت يا دوريان . إن مأساة الشيخوخة ليست فى شـيخوختنا ولكن فى شبابنا . هذا قول صادق أقوله وأعجب لإخلاصى فى القول . وما أسعدك يا دوريان بهذا الشباب الذى لا ينضب ، وما أجمل حياتك ، فلقد شربت من كل شئ حتى الثمالة ، ولقـد عصرت عناقيد السعادة على لسـانك فما أبقيت منها شيئًا ، ولقد عرّت الحياة صدرها أمامك ولم تستر عنك شيئًا ، ومع ذلك فقد جـاءتك السـعـادة مجـىء لحـن جميـل بعيـد فلم تفقد توازنك ، ولم تفسد طبيعتك .

أجل . أنت لم تتغير برغم كل ما مر بك .

- ولكنى تغيرت يا هارى !

- كلا . أنت لم تتغـير بل بقيت على حالك . ترى كـيف تكون حياتك المستقبلية؟ مهما يكن من شئ فلا تفسدها بالتوبة . أنت الآن نموذج للكمال ، فلا تنقص من نفسك يا دوريـان . أنت الآن سالم من كل خدش أو عطب . لا تهز رأسك فأنت تعرف أنى صادق فيما أقول ، ولا تخدع نفسك يا دوريان ، فالحياة لا تخضع للإرادة أو للنوايا ، ولكنها تضخع للأعصاب والألياف الخلايا التى تنمو رويداً رويداً وتختبئ فيها الأفكار ونيسج القلب أحلامه ، ولقد تخال نفسـك بمأمن من صوت الماضى ، ولقـد تحسب نفسـك حديدى العـزمات ، ولكنك فى الواقع خاضع لأتفه الأمور . لون تراه صـدفة فى غرفة من الغرف ، أو صفـاء تراه فى السماء ذات صـباح ، أو عطر كنت تحـبه فى يوم من الأيام يعود إليك بخـفى الذكريات أو بيت من قصـيدة منسـية أو تنغيم بقى لك من لحن قديم ، مثل هذه الأشياء تتوقف عليـها حياتنا يا دوريان لقد كتب براونتج شيـئًا بهذا لمعنى ، ولكننا لسنا بـحاجة إلى شعـره ذلك ، فحواسنا لهـا قدرة التصـور . ولقد يهب فى أنفى أرية الليلة الأبيض فـأبقى شهرا كامـلا سجين

الذكريات وأعود بخلدى إلى أغرب شهـر مر بى فى حياتى . ليتنى كنت مكانك يا دوريان . إ المجتمع شـائنى وشائنك ، ولكن المجتمع يعبـدك ولا يعبدنى ، ولسوف يمضى المجتمع فى عبادتك فأنـت نموذج كل ما يصبو إليه العصر وكل ما يخشاه مـن حقائق الحياة ، وإنى لمغتبـط بأنك لم تخرج من نفسك لتنحت تمثالا أو ترسم صورة أو تنتج أي شئ تنزل فيه عن جـزء من شخصيتك . لقد كانت الحياة فنك ، فكان كل يوم من أيام عمرك لحن جميل.

ونهض دوريان من مكانه أمام البيانو ومر بأصابعه خلال شعره وقال :

- نعم . لقد كانت حياتى الماضية جـميلة ولكن حياتى المستقبلة لن تكون كحـياتى الماضـية يا هارى ، وأنا أسألك ألا تردد على مـسامـعى هذه الأقوال الطنانة فأنت لا تعرف بعض نواحى حياتى ، ولو قد عرفتها لانصرفت عنى . ها أنت ذا تضحك ، ولكنى أرجوك ألا تضحك .

- لم توقف عن العزف يا دوريان؟ عد إلى البـيانو والعب هذه الليلة مرة أخرى ، وانظر إلى القمـر الكبير تر لونه كلون الشهـد ، انظر إليه وهو معلق فى السمـاء الظلماء تر أنه يـنتظر منك أن تسحـره بألحانك ، فعـد إلى اللعب يقترب القـمر من الأرض . أراك تصر على رفضك . إذًا فـهيا بنا إلى النادى حيث نختم هناك الليلة الجميلة ختامًا جميلا . إن فى نادى هوايت فتى مشوقًا إلى التـعريف بك هو اللورد پول الشـاب وهو الابن الأكبـر للورد بورنموث ، وقد بدأ فعلا بتقليد ربطات الرقبة التى تلبـسها ، ورجانى رجاء حارًا أن أقدمه إليك ، وسوف تجد فيه أنيسًا مـسليًا ، ولا أكتملك أنه يذكرنى بك إلى درجة ما.

قال دوريان فى حزن :

- أرجوك ألا يـكون هذا صحـيحًـا ، ولكنى الليلة متـعب يا هارى ولن أستطيع الذهاب إلى النادى . لقد أوشكت الساعة أن تبلغ الحادية عشرة ، وأنا أفضل أن آوى إلى فراشى مبكرًا .

- أرجوك أن تبقى معى يا دوريان ، فأنا لم أسمعك قط تلعب بهذا الحنان وبهذه المهارة ، ولقد كان أسلوبك أقوى تعبيراً منه فى أى وقت مضى.

فأجاب دوريان وهو يبتسم :

- ذلك لأنى قررت أن أقلع عن الشر ، ولقد تغيرت فعلا كما ترى ولو بقدر قليل .

قال اللورد هنرى :

- ولكن علاقتنا لن تتغير يا دوريان ، وصداقتنا لن يصيبها شئ .

- أنت نسيت أنك سممت أفكارى بكتاب أرسلته إلىّ ، ولا يصح أن أغتفر لك ذلك ، فعدنى يا هارى بألا تعير هذا الكتاب لأحد فهو خبيث الأثر .

- أرى أنك قد بدأت تعظ الناس فعلا فيما تجيزه الأخلاق ومالا تجيزه ، وسوف تصبح بعد قليل كأولئك التائبين وأصحاب حركة إحياء الدين المسيحى ، تسير فى الناس محذراً إياهم من الخطايا التى شبعت منها حتى زهدت فيها ، فلا تفسد شخصيتك الجميلة بهذا العبث ، ثم أنك لم تنجح فى قولك بأن كتابى سممك فهذا لغو لأن الفن لا أثر له فى سلوك الإنسان ، فإن كان له أثر فى سلوك الإنسان فهو أنه يشلّ الرغبة فى العمل . الفن عقم جميل ، والكتب التى ينعتها الناس بأنها منافية للأخلاق هى التى تكشف للإنسانية عن عوراتها . هذا كل ما فى الأمر ، ولكن دعنا الأن من حديث الأدب . سأنتظرك غداً . وأنا خارج للنزهة سآخذك إلى دار الليدى برانكسوم حيث نتغذى على مائدتها ، فهى سيدة لطيفة المعشر ، وهى تحب أن تستشريك فى بعض المنسوجات المصورة التى ترغب فى شرائها . لا تنس أن تأتى ، وإن كنت تفضل أن نتغذى مع الدوقة الرشيقة كان بها . إنها تقول إنك قد احتجبت عنها تمامًا فى هذه الأيام الأخيرة ، فلعلك قد مللتها كما كنت أتوقع ، فمهارتها فى الحديث تتعب الأعصاب . على أية حال تعال فى الساعة الحادية عشرة ولنتصرف بعد ذلك كما تشاء .

- وهل هناك ضرورة لمجيئى غداً يا هارى؟

- نعم ، بلا جدال فهايد پارك فى هـذه الأيام فى أجمل حلة ، وفيه من البنفسج مالم أره منذ أن قابلتك أول مرة .

قال دوريان :

- إذاً سأكون هنا فى الحادية عشرة ، فإلى اللقاء ياهارى .

وبلغ الباب ثم تردد قليلاً كـأن بنفسه شيئًا يرى أن يبوح بـه لصاحبه ولكه تنهد وخرج .

الفصل العشرون

كان الليل ساجيًا فحمل دوريان جراى معطفه على ذراعه إذ لم تكن به إليه حاجة ، كذلك لم يحتمل أن يضع كوفيته الحريرية حول عنقه ، وسار قاصدًا بيته وكان يدخن ، وفيما هو سائر مر به شابان يلبسان ثياب المساء، وسمع أحدهما يقول للآخر : «هذا هو دوريان جراى» وتذكر دوريان جراى أيامه الخاليات حين كان يغتبط إذا أشار الناس إليه أو حملقوا فيه أو تحدثوا عنه. أما الآن فقد مج كل ذلك وأصبح يسوءه أن يسمع اسمه يتردد ، وكان يرتاح إلى القرية ، قرية هيتى التى أكثر من زيارتها فى الأسابيع الأخيرة ، لأنه كان مجهولاً فيها ، وكم من مرة قال لتلك الفتاة التى ساقها إلى حبه سوقًا إنه رقيق الحال لا يملك من متاع الدنيا شيئًا فصدقته ، ولقد ذكر لها مرة أخرى أنه مخلوق شرير ، فضحكت وقالت إن المخلوقات الشريرة لابد أن تكون دميمة الخلقة طاعنة فى السن . نعم . ضحكت ملء رئتيها ورنت ضحكتها كأنها زقزقة عصفور . كم كانت هيتى جميلة فى ثيابها وقبعاتها الكبيرة! ولم يكن علم هيتى كثيراً ، ولكنها لم تكن بحاجة إلى العلم ، فقد اجتمع لها كل ما ضاع منه من فضائل .

ولما بلغ بيته وجد الخادم فى انتظاره ، وصرفه لينام ثم تمدد على أريكة بالمكتبة وبدأ يفكر فى بعض ما قاله اللورد هنرى .

هل سيعجز حقًا عن تغيير طبيعته كما زعم اللورد هنرى؟ إن به شوقًا آكلا إلى صباه الطاهر الطرير ، إلى صباه الذى أشبه باقة من الورد الأبيض والورد الأحمر ، بلغة اللورد هنرى . إنه يعلم أنه لوث نفسه ، وأفسد عقله وشحن

خياله بالأشبح المخيفة ، وهو يعلم أنه كان ينشر الانحطاط حوله أينما ذهب ، وأنه كان يسر بذلك سروراً عظيمًا ، وأنه كان ينتخب من رفاقه أذكاهم وأصلحهم للحياة فيلقى بهم فى أتون الشر كأنه إبليس الرجيم ، ويجردهم من الشرف . ولكن هل فات الأوان حقّا؟ وهل ضاع كل أمل فى التوبة؟

لقد أخذه الغرور وأعماه حب الدنيا فصلى إلى الآلهة أن تجعل الصورة تحمل أوزار حياته ، وأن تبقى له على شبابه الناضر إلى يوم يموت، وقد كان، وهكذا بدأت مأساة حياته فياليت ذنوبه حفرت على وجهه آثارها النكراء وشوهته أولا بأول ، ولو قد حدث هذا لجاء عقابه آجلا سريعًا رادعًا ، وفى القصاص تطهير للنفس الآثمة ، ولخير للإنسان أن يصلى أمام عدالة الله قائلا: «أبانا الذى فى السموات ! ابطش بنا لذنوبنا» من أن يصلى قائلا : «أبانا الذى فى السموات ! اغفر لنا ذنوبنا» .

وكانت المرآة العجيبة التى أهداها إليه اللورد هنرى منذ سنوات طويلة لا تزال قائمة على المائدة ، وكانت رسوم كوبيد التى تزينها لا تزال تضحك كما كانت تضحك قديمًا ، وتناول دوريان جراى المرآة ، تناولها كما تناولها فى تلك الليلة العصيبة حين لاحظ التغير الذى أدرك الصورة المشئومة ، ونظر إلى خياله فيها بعين زائغة دامعة ، وذكر الكلمات الوثنية التى كتبتها إليه عاشقة مجنونة فى خطاب محموم : «إن العالم يتغير لأن الآلهة صاغتك من عاج وذهب : إن خطوط شفتيك تكتب التاريخ من جديد» . عادت هذه الكلمات إلى خاطره فرددها خاطره المرة تو المرة ، ثم سئمت نفسه جمال وجهه فقذف بالمرآة على الأرض وداس عليها بقدمه فهشمها إلى شظايا تلمع كقطع الفضة. لقد حطم هذا الجمال حياته وأجهز شبابه على سعادته ، ولولا جماله وشبابه لعاش أبيض الصفحة لا يعرف الدنس . وإن جماله لم يكن إلا قناعًا ، وشبابه لم يكن إلا حلة مسمومة فماذا أفاد من الشباب؟ زمان الصبوات المتلفة والثمار الفجة ، والعواطف السطحية المريضة . لقد فسد دوريان جراى وما أفسده إلا شبابه .

ولكن كان من الخير ألا يفكر فى الماضى ، فما كان كان ، ولن تمحوه قوة على الأرض أو فى السماء ، فليفكر إذًا فى نفغسه وفى مستقبله . إن چيمس فين راقد فى قبر بغير شاهد فى فناء كنيسة سلبى . إن آلان كامبل قد أطلق النار على نفسه ذات ليلة وهو فى معمله ، ولكنه لم يبح بسرهما لأحد ، ولسوف تسكن الضجة التى أثيرت حول اختفاء بازيل هولوورد عما قريب ، بل لقد خفتت فعلا ، إذًا فهو سالم لا يخشى افتضاحًا ، ولكن اضطرابه لم يأت من تفكيره فى موت هولوورد لقد كان اضطرابه من إحساسه بأنه ميت حى فى روحه . إن پازيل رسم له صورة قضت على حياته ، ولن يغتفر له تلك الإساءة . نعم . كل ما نزل به عِلّته الصورة . إن بازيل أباح لنفسه أن يزجره زجرًا لا يحتمل ، ومع ذلك فقد احتمل ما قاله بازيل بصبر عظيم . إن قتل بازيل كان فى لحظة جنون استولى عليه ، أما آلان كامبل فقد قتل نفسه بيده ، وهو الذى شاء أن يموت ، فكيف يسأل دوريان جراى عنه؟

إلى الحياة الجديدة إذًا ، فالحياة الجديدة هى ما تصبو إليه نفسه ، ولقد بدأ هذه الحياة الجديدة فعلا . أو لم يظفر بفريسة بريئة ثم يطلقها؟ إن نفسه لن تسول له بعد الآن أن يلوث زهرة نقية . إن نفسه تطلب عمل الخير .

وفيما هو يفكر فى هيتى مرتون اتجهت أفكاره إلى الصورة القائمة فى الغرفة المقفلة ، وخطر له أنها لا بد أن تكون قد تغيرت ، فمحال أن تحتفظ الصورة بكل بشاعتها بعد أن فعل ما فعل مع هيتى ، وأخذ يحلم بالتوبة وأثرها فى اللوحة ، فظن أنه لو طهر نفسه من آثامها إثمًا بعد إثم لاستطاع أن يمحو من الصورة كل ما فيها من معالم الشر ، وأن يرد إليها الرونق المفقود . بل ما يدريه أن الصورة لم تتغير فعلا وأن معالم الشر لم تزل عنها؟ إذًا فليفحصها لفوره .

وحمل المصباح القائم على المائدة ودب دبيًا خفيفًا إلى الغرفة العليا ، وشد المزلاج وهو يبتسم ابتسامة الفرح وداعبت خياله الخواطر الجميلة ، فأضاء وجهه الدائم النضرة فهو لن يفزع بعد اليوم من مرأي الصورة لأنه تائب ، ولأن الصورة الممسوخة سوف تسجل توبته كما سجلت إجرامه ، وأحس بالراحة الكبرى .

ودخل فى هدوء ، وأقفل الباب وراءه كعادته ، ونزع الستار الأرجوانى فكشف اللوحة ، وخرجت منه صيحة المتألم وصيحة الغاضب فى وقت واحد ذلك لأنه لم ير فى الصورة التحول المنشود ، فكل ما جد فيها بريق فى العينين هو بريق المكر والتواء فى الشفتين ينم عن النفاق : لقد كانت الصورة كما تركها آخر مرة ، مسخًا حيًا ، بل لعل مسخها اشتط إن كان قد بقى فيها مجال لذلك ، ورأى البقعة الحمراء التى تلطخ اليد أشد احمرارًا مما كانت ، ورأى فيها آثار دم جديد. ومشت فى أوصاله رعدة فقد تذكر ما قاله اللورد هنرى ، إن اللورد هنرى زعم أن غرورة قد ساقه إلى فعل الخير ، أفهذا صحيح؟ إن اللورد هنرى زعم أن رغبته فى الحصول على لون جديد من ألوان الإحساس هى التى دفعته إلى فعل الخير . أفهذا صحيح؟ لعله كان يمثل دورًا ساميًا لا حبًا فى السمو بل كلفًا بالتمثيل . لعل هذه العوامل مجتمعة هى التى ألهمته أن يفعل ما فعل ، ثم البقعة الحمراء التى تلطخ أصابعه الشوهاء . كيف اتسعت هذه البقعة الحمراى . وشاهد على قدميه آثار دماء كأنما سالت القطرات من يده قطرة قطرة . كذلك اليد الأخرى التى لم تمسك بالمدية شاهد عليها دماء . ترى ما معنى هذا؟ الاعتراف؟ هل يراد به أن يعترف ، أن يسمل نفسه إلى العدالة؟ وضحك دوريان جراى ، لأنه علم أن هذا محال، ولو أنه اعترف لما صدقه أحد ، فأين جثة القتيل؟ لا أثر لها ، أين أشياؤه؟ لا أثر لها . لقد أحرقها دوريان جراى بنفسه ولو أنه تجوّد على الناس بهذه القصة لظنه الناس مخبولا ، ولو أنه أصرف على دعواه لأدعوه فى مستشفى المجاذيب ،

ولكن الواجب يقضى عليه بأن يعترف ، وبأن يعلن على الناس عاره ، وأن يُكَفِّر أمام الناس عما اقترفت يداه ، فالله يأمره أن يعترف أمام الأرض كما يعترف أمام السماء ، ولن يغسل عنه خطاياه إلا أن يعترف بها . وما هى خطاياه؟ إن موت بازيل هولوورد لم يزعجه كثيراً ، لأنه يفكر فى هيتى ميرتون . يالها من مرآة خائنة ، هذه المرآة التى يرى فيها روحه ! أكان غروزه أم فضوله أم رياؤه هو الذى دفعه إلى توبته المزعومة؟ ألم يكن فى توبته ذرة واحدة من الإخلاص؟ نعم لقد كان فى توبته شئ من الإخلاص ، أو هذا ما كان يتوهمه قبل أن يرى الصورة . ترى من يستطيع أن يدله على الحقيقة؟ الصورة. والصورة تقول إن توبته لم يكن فيها ذرة واحدة من الإخلا ، فهو لم يفتك بهيتى ميرتون إلا إرضاء لغروره ، وهو قد لبس قناع التقوى من باب الرياء ، وهو قد جرب إنكار الذات من باب الفضول . وهذه هى الحقيقة ، وهو يدركها الآن .

ولكن ما سبيله إلى الخلاص من آثار جريمته ، وهل قتله بازيل هولوورد مطارده بقية حياته؟ وكيف يفعل بماضيه؟ أو يحمل عبئه دائمًا ، دائما؟ وهل هناك ما يلزمه بالاعتراف؟ كلا . فلم يبق ن الأدلة التى تدينه إلا دليل واحد، وهذا الدليل هو الصورة ، فلتدمر الصورة تدميراً . ترى ماذا حمله على الإبقاء عليها كل هذا الزمن؟ لقد كان فى وقت من الأوقات يجد لذة فى تتبع التغير الذى يطرأ عليها ، ولكنه فقد هذه اللذة أخيراً ، ولكم أرّقت الصورة جفنيه ، ولكم امتلأ جزعًا كلما غازر لندن خشية أن تقع عليها عينان ، لكم أوحت له الصورة بالأفكار السوداء ولكم هيجب الأحزان ، لقد كانت الصورة عنده بمثابة ضميره الحى ، ما فى ذلك شك ، فليحطم ذلك الضمير الذى يفسد عليه طعم الحياة .

وتلفت حوله فرأى المدية التى قتل بها بازيل هولوورد . كم غسل هذه المدية ومسحها حتى لم يبق عليها أثر لدم ، رآها تلمع . إنها المدية التى قتلت الرسام ، فلتقتل إذًا عمل الرسام ، وليتنه بذلك الأمر ، فلتقتل المدية الماضى،

وحين يموت الماضى ينعم دوريان جراى بحريتــه مرة أخرى ، ولولا هذه الروح اللعينة الحية فى الصورة لوجـد الطمأنينة الكاملة ، فلتزهق إذاً هذه الروح اللعينة الحية . وأمسك دوريان جراى بالمدية وطعن بها الصورة .

وارتفعت صرخة وعقبها سقوط جسم .

وكانـت الصرخـة مفـجعـة حتى لقـد أيقظت الخدم من نومـهم وانسلوا خارجين من غرفهم ليـقفوا على ما كان ، وكان بالميدان رجلان عـابران سمعا الصرخة العاليـة ، فتوقفا عن المسير ونظرا إلى البـيت الكبير فى ارتياب ، ثم مضيا يبحثان عن شـرطى ، وعادا بالشرطى إلى البيت ، ودق الشرطى الجرس عدة مـرات ، فلم يتلق جوابًا وكـان البيت مظلمًـا ليس فيه مظهـر من مظاهر الحياة إلا النور المنبعث من النافذة العـليا ، وبعد قليل انصرف الشرطى ووقف عند مدخل بيت مجاور ، وأنشأ يترقب الحوادث .

وسأله أحد الرجلين قائلا : بيت من هذا ؟

فأجاب الشرطى :

هذا بيت دوريان جراى ياسيدى .

وتبادل الرجلان النظر وعبا ، ثم انصرفـا . وكان أحدهما عم السير هرى أشتون .

وفى داخل البيت كان الخدم المذعورون فى ملابس النوم يتهامسون وكانت المديرة العجوز مســز ليف تبكى وتعصر يديها عصراً ، وكان فرانسـيس شاحبًا شحوب الأموات .

وبعد ربع ساعة خف الحوذى وأحد الخدم إلى فـرانسيس وصعدوا جميعًا إلى الغرفة العليـا بخطى واجفة ، وطرقوا الباب فلم يجبـهم مجيب ، ونادوا على سيـدهم فلم يجبهم مـجيب ، وحاولوا أن يقتـحموا الغـرفة عنوة ولكن

الباب كان عنيداً ، فلما يئسوا تسلقوا إلى السطح ومنه إلى الشرفة ودفعوا النوافذ فلانت مزاليجها البالية .

ودخلوا الغرفة فشاهدوا على الحائط صورة رائعة لسيدهم ، وقد سجلت جماله الفذ وشبابه الناضر ، وعلى الأرض شاهدوا رجلا ميتًا فى ثياب السهرة، وقد غارت فى قلبه مدية ، وكان الرجل مغضن الوجه يابس البدن كريه الملامح ، ولم يتبينوا هويَّته إلا بعد أن فحصوا الخواتم التى يلبسها .

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنـــى: حســـن كامــــــل



يتألف هذا المجلد من ثلاث روايات ترجمها الدكتور لويس عوض فى الأربعينيات ، وهى :

«الوادى السعيد » لصمويل چونسون (١٧٠٩ - ١٧٨٤) ، وتمثل المذهب الكلاسيكى فى أنضج إبداعاته فى القرن الثامن عشر.

و « شبح كانترفيل» و «صورة دوريان جراى» لأوسكار وايلد (١٨٥٦ - ١٩٠٠) زعيم مدرسة الفن للفن فى نهاية القرن التاسع عشر.

وترجمات لويس عوض للآداب الأوروبية القديمة والحديثة تتميز بالأمانة والدقة والطلاوة ، التى تنبع من خبرة عالية بأسرار اللغة، ومن قدرة فائقة على الأداء الذى يعكس جمال النصوص الأصلية.

تصميم الغلاف: عمر الفيومى